

دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية



28.11.2014

بقولوس جوحول

النَّفَقَةُ المَلِيَّةُ

ترجمة

يوسف بنينا

انطون حمصي

سلسلة عميون للأدب العالمي

حقوق الترجمة والطبع والنشر والقياس
محفوظة

لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - سورية

المفتتحة



لا ريب في ان نيقولاس جوجول لم يلق من الدارسين والمربين الخطورة التي لاقاها كبار الكتاب الروس امثال تولستوي وستوفسكي وتورجنيف وجوركي وسواهم . ومع ذلك فان مؤلف « النفوس الميتة » و« تاراس بوليا » و« المفتش العام » يستوي علي قمة وحده في الادب الروسي الكلاسيكي .

وجوجول دون منازع سيد في فن رسم الطبائع البشرية ، في فضائلها ونقائصها ، واعجابنا يجب ان يكون شديداً بالفكر المتفهم الساخر الذي قضى ثلاثة واربعين عاماً مقتنعاً ان مهمته - كما قال - هي دراسة الحياة ، في مدها وجزرها . من خلال البسمة التي يراها الناس والدموع التي لا يرونها .

لقد درس جوجول في مؤلفاته المجتمع الروسي ، وكان بين الكتاب الروس اكثرهم واقعية وابتعاداً عن الصوفية الموائية ولد نيقولاس جوجول في التاسع عشر من شهر آذار عام ١٨٠٩ في قرية سوروتشك الواقعة على حدود حكومتي بولتوفا وميرغورود . وقد خلد فيها بعد اسم ميرغورود في قصص اشهرها تاراس بوليا . واجداد جوجول ينتمون الى اسرة روسية صغيرة وقد كان احدهم تلميذاً في دير كييف ولمحة سريعة عن ماضي او كراينا تسبح

لنا باكتشاف أصول بعض مظاهر طبيعة جوجول من مزايها عنصره .
 ففي القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ، بينما كانت روسيا
 الداخلية تزرع تحت العبء الثقيل الذي خلفه لها غزو التتر ، كانت روسيا
 الغربية تتابع ، في احسن الظروف ، تقدمها العقبي . وفي الوقت الذي كانت
 فيه موسكو غارقة في ظلمات الجهالة ، كانت مطابع اوكرانيا تخرج اول
 الكتب . واخير اقامت اكاديمية كييف التي قدمت فيما بعد الى اكاديمية موسكو
 اساتذة عمت شهرتهم اوربا .

كانت اوكرانيا - وهي همنا بشكل خاص لأن جوجول ابنها - خلال
 مدة طويلة ، ميدان نزاع بين موسكو في الارثوذكسية وبولونيا الكاثوليكية
 وقد انتصرت فيها الديانة الارثوذكسية نهائياً . ولكن تأثير اليسوعيين ، الذين
 كانوا منتشرين في بولونيا ، لم يتوار قط .

ولاشك ان اناحية اليسوعيين ورغبتهم في السيطرة التي وصلتهم الى الحرب الدينية
 كانت اشياء تتكرر لها الانسانية . ولكنهم في نفس الوقت كانوا يملكون
 ثقافة سيكولوجية لم يكن الروس يعرفون شيئاً عنها . فقد كانوا يدركون
 اسرار النفس البشرية ودوافعها فاستطاعوا ان يعلموا سكان غربي روسيا اشياء كثيرة
 عن تحليل النفس الانسانية . وقد انشئت اول مدارس اوكرانيا واكاديمية
 كييف على غرار المؤسسات المدرسية الكاثوليكية في بولونيا . وكانت برامج
 الدراسات مأخوذة من البرامج اللاتينية . ولا شك ان جد جوجول عندما دخل
 الدير تمثل احسن ما في الطبيعة اللاتينية تعني المرونة والحفة وحسن التلاؤم مع
 الاحداث وروح الواقعية والسخرية؛ وهي صفات اصبحت فيما بعد من خصائص
 عبقرية نيقولا جوجول .

وهذه الصفات الاساسية تميز جوجول عن عملاقي الادب الروسي : تولستوي
 ودستوفسكي . فقد كتب مؤلف الحرب والسلام ومؤلف «الاخوة كرامازوف»
 بدماء قلبيهما ودموع عيونهما عن فضائل العرق السلافي ونقاؤه وعاشا هذه

الصفات ولم يتحرروا منها حتى الموت ورغم اهتمام تولستوي بالتسامي على نفسه ورغم صيحات دستوفسكي المتأللة التي عاشت الآلام الروسية .

اما جوجول فقد كان اكثر وضوحاً في تفهمه للامور وأبعد عن الانفعالية . ومن حسن حظ آثاره الادبية ان الازمة الصوفية واختلال توازنه النفسي لم يصيباه الا في أواخر حياته . فعندما كتب القسم الاول من « النفوس الميتة » و « المفتش العام » كانت نظراته الساخرة تحوم فوق المخلوقات وأسلوبه البارع يكشف الجرح ، ويسخر من معاصريه بخفة فائقة يجمع اليها قوة ملاحظة غريبة . وهو في فنه اكثر واقعية من دستوفسكي اذ انه كان يعرف كيف يفصل ذاته عن أبطاله فلم يكن يعاني ما يعانيه دستوفسكي من ألم لانه يريد أبطاله على صورة احسن بما هم عليه

ولم تكن افكاره لتصل الى الجريمة حيث تنكشف القدرة على الندم ودفع الثمن واصلاح ما افسد . فابطاله يعيشون كما هم في الطبقات الوسطى من المجتمع ويظهرون في صدق واضح فتتشى معهم الحياة الروسية أخاذة في وانميتها .

وأبطال جوجول خالدون لانهم روس في جسدهم وروحهم ، في تصرفاتهم وكلامهم ، وهم ابناء المدن وابناء الريف ، هم الملاكون والعبيد والموظفون ، انهم الحياة الروسية التي تبدو غير منظمة ولكنها بامكانياتها الكامنة التي تستيقظ وتنهض بتسهل وتعبر عن قسم من قوتها .

لقد وصف جوجول روسيا ، في ماضيها الذي بعثه حياً وحاضرها الذي يصفه ومستقبلها الذي ينشقه من خلال ضباب الحاضر الكثيف .

ولو لم يكتب جوجول غيره النفوس الميتة ، لكفاه ان يترك اثرأ صنع كي ينجدى الزمن . وقد شبه ناقد كبير هذا الكتاب بقصة سرفانتس الشهيرة «دون كيشوت » .

فالكاتب الاسباني لم يبعث الى الحياة مائة مانيون من ابناء القرون الوسطى
الحالمين فحسب ، بل احيا ايضاً النفس الانسانية التي تندفع في شباب أبدي نحو
الحلم فيفجؤها الواقع وتترك عنان « روسينانت » وتجه الى حمار « سانشوبانسا »
الاقل خطراً وهي متأهبة لأن تعاود - قبل مرور جيل - مبارزة الطاحونة الهوائية .
اما النفوس الميتة فهي نفس مائتي مليون من ابناء روسيا البسطاء الانقياء
الكرماء المتحمسين ، بل هي نفس الانسانية العاملة بقوة على تكوين ذاتها ، المندفعة
نحو الحياة تتلقى منها دروساً قاسية اذ مع ذلك فهي مهيئة لان تعاود كل يوم نفس
الاطار التي سرعان ما تنساها .

ان اسم بافل ايفا نوفتش تشتشيكوف سيظل طويلاً يمثل في الادب الروسي
ما يمثله دون كيشوت في الادب الاسباني رغم اختلاف النموذجين . ولكن
هناك الى جانب تشتشيكوف في النفوس الميتة العديد من الشخصيات التي تفصل
بينها آلاف الكيلومترات والتي ترمز الى النفس الروسية باسم مانيلوف
وسوبا كيفتش وكوروبنشكا ونوزدريني وبلوشكين وبترشكا تنبيه يكوف
وكونستانجوغلو وموزاروف وسوام من الريفين والريفات .

والآن ، وبعد ان احطنا بعض الشيء باطار جوجول الواقعي ، نرى ان
نعطي بعض التواريخ التي تحدد المراحل الزمنية لتطور جوجول العميق قبل
ان نعالج الازمة الصوفية التي ادت الى موت الكاتب .

بين عام ١٨٢٩ وعام ١٨٣٢ كتب جوجول مجموعتين قصصيتين تحت اسم
« سهرات على شاطيء الديكانيكا » ورغم معرفته بالحياة الاكرانية فقد طلب الى امه
طالباً منها ان توافيه بما تعرف من الاساطير والقصص الاكرانية . وفي عام ١٨٣٥
نشر جوجول « ميرغورود » وهي مجموعة تحتوي على اربع قصص منها « تاراس بولبا »
وهذه مذكرات مجنون ، ذلك كله ولم يتجاوز بعد السادسة والعشرين من العمر .
وفي عام ١٨٣٤ بدأ بمسرحية « المفنش العام » التي مثلت في بطرسبورج عام
١٨٣٦ . ومن الجدير بالذكر ان بوشكين هو الذي اعطاه الفكرة . وقد هتف

القيصر الذي كان يحضر العرض الاول : « الجميع ملومون وانا اولهم » وسافر جوجول الى الخارج عام ١٨٣١ ، فذهب الى المانيا وزار ضفاف الرين ووضن سويسرا . وفي فيفي بدأ بكتابة النفوس الميتة التي تابع كتابتها في باريس . وكان بوشكين ايضا هو الذي اعطاه الفكرة . وغادر باريس الى روما وكتب فيها بعده اني اعيدا ايضا لبا في وطني الثاني ومكث في روما اربع سنوات انهي خلالها القسم الاول من النفوس الميتة . وعاد الى روسيا عام ١٨٤١ ، وفي هذه الفترة ، وكانت قد بنى الثانية والثلاثين من عمره ، حيث بدأت مأساة حياته الداخلية والدينية .

وكانت الفترة بين عامي ١٨٣٠ - ١٨٤٠ اقصى فترات حياته ، فقد اصيب بالبرداء في روما ، وما كاد يشفى منها حتى فقد احد اقرب اصدقائه اليه الذي مات مسلولاً . وقد سهر على المريض واساءت قلة النوم الى صحته . ولأول مرة بدأ يتحدث في رسائله عن العالم الباطل وقدر الانسان القاسي . ومراسلاته في تلك الآونة مليئة بالتأملات الدينية والفلسفية والصوفية . فقد كان تحول بطيء خفى يعمل في اعماق جوجول ، وجاءت الازمة المالية التي تحبط فيها فزادت الضفت ابالة .

وعاد الى روسيا حزينا . وكان قد انهي القسم الاول من النفوس الميتة ، ولكنه اعلن عدم رضاه عن عمله . ونهيا لكتابة القسم الثاني ، حيث قرر ان يدل قراه على طريق الكمال بعد ان يتسامى هو على ذاته بالقدر الذي يسمح له بتعليم سواه ، وصلى الى الله كي يمنحه القوة على اتمام هذه المهمة المقدسة .

وفي عام ١٨٤٢ عاد الى الخارج ، فاقام على التوالي في جريفنبورغ ونيس وواستند ، وقضى شتاء ١٨٤٥ - ١٨٤٦ في روما .

ولم يعد يكتب ابدا تقريبا . ولم يتقدم شيئا في كتابة القسم الثاني من النفوس الميتة . ذلك انه انصرف الى تحويل نفسه .

ومن مراسلاته يتضح تطوره . فقد كتب الى صديقه مدام سميرونفا :

« ليس لدينا الحق في الكلام عن الاشياء المقدسة قبل ان نطهر ذواتنا .

وستفتقر كلماتنا الى الشرف والقوة ان لم نطهر شفاهنا » .

وبالتدريج تمت في نفس جوجول الرغبة في الذهاب الى القدس « ليفتش عن

القوة والعمون » امام قبر المسيح . ونشر قبل ذهابه مذكراته . وفي عام ١٨٤٨

ذهب الى فلسطين وعاد منها ، وقد تغير الى حد لم يعد يعرفه معه اقرب الناس

اليه ، واصبح متديباً . وفي عام ١٨٥٢ ، اي في السنة التي مات فيها ، كان يكتب

تأملات عن « خدمة القداس الالهى » .

وكان القسم الثاني من النفوس الميتة قد انتهى ويمكن جوجول لم يكن

راضياً عنه فقد تغير فهمه للامور واصبحت فلسفته للحوادث مختلفة ، وتجاوز

جوجول المفكر الفيلسوف جوجول الفنان الملاحظ . ولم يعبر الكتاب عن

الفكرة التي ارادها الفيلسوف ، والمرة الثانية القى مسودة كتابه في النار قبل

موته بأيام ولم يعثر بين اوراقه الا على مسودة غير كاملة وكان قد احرق المسودة

للمرة الاولى عام ١٨٤٧ .

ومات نيقولاس جوجول في ١٢ شباط عام ١٨٥٢ في الثالثة والاربعين

من العمر .

ومأساة جوجول الداخلية ليست فريدة في نوعها فنحن نجد لها في تولستوي

الذي يغادر عائلته معتقداً انه بهذه الصورة يقوم بعمل رمزي ليعيد المدي ولعل

هذه الظاهرة ميزات السلافين .

لقد كتب جوجول عام ١٨٤٧ :

« ان الله خلقتني ولم يخف عني سر الحياة . اني لم اولد من اجل عصر ادبي

معين فمهتي ايسر واقرّب ، وهي المهمة التي تقع على عاتق كل انسان وليس

على عاتقي فقط ، ان هذه المهمة في روحي وفي قيادة حياتي بحزم »

ولكن جوجول لم يتم هذه المهمة ، وبعد ان احرق عام ١٨٥٢ مـودة كتابه دخل الى غرفته واستلقى على سريره وبكى .

لقد بكى لانه لم نستطع ان يكون الداعي الى كلمة الله ولأنه لم يستطع في صفحاته الاخيرة ان يعبر عن شرارة الحقيقة الخالدة، ولم يدل الانسان على الطريق المقدسة المؤدية الى السمو الروحي .

لقد بكى لانه غاص في المادة واخذ منها مادة انتاجه ولم يؤلف « كتاب الروح » .

لقد حقق جوجول ما لم يكن يعتقد انه مهمته ... لقد خلق عصراً في تاريخ الادب ولكنه لم يتسع لديه الوقت ليـكـون كما اراد فيسوفاً بل رسولاً .

لقد كان جوجول وما زال سبداً للواقعية الروسية . لقد وصف تولستوي ودستوفسكي وتورجنيف وجوركي ظلمات النفس البشرية كما رأوها من خلال النفس الروسية وبنوا قابلية نهوضها وتطورها . اما جوجول فقد سبقهم الى ذلك فرسانه هي صيحة يأس والم واساطيره الاوكرانية ترفع الستار عن حياة مجهولة . اما نفوسه الميتة فهي نداء الى النفوس الحية العاملة في سبيل مستقل بحيد روسيا .

واخيراً فلعل القاريء العربي لا يجد نفسه غريباً في جو النفوس الميتة . وربما كان يعرف في محيطه ألف بافل ايغانوفتش تشتشيكوف وألف مانيلوف وييتوخ وآلاف النماذج التي يجمع بها المجتمع الاقطاعي الروسي .

واعلنا في تعريفنا هذه التحفة الخالدة قد قمنا ببعض ماعلينا . من واجب نحو ادبنا وثقافتنا بنقل آثار الشوامخ فأن وقفنا كان ذلك بعض مانريد وان جانباً التوفيق - بعضه أو كله - فأن شقيعنا الجهد الذي لم ندخره والسلام .

يوسف البنا
انطون حمصي

دمشق في ١٨ شباط ١٩٥٤

القسم الأول

الفصل الأول

في في ذلك اليوم وقفت عربة على نصيب لأبأس به من الاناقة امام أحد الفنادق في مدينة (ن) الواقعة في إحدى المقاطعات الروسية . وكانت هذه العربة ذات نوابض لا يملك مثلها الا العذاب من رتبة عقيد متقاعد أو رئيس أو ملاك في حوزته حوالي مائة من العبيد وعلى العموم لا يكاد يملكها الا من ينتمي الى الطبقة المعروفة باسم « نبلاء الطابق الاوسط »

لم يكن المسافر جميلاً ولا قبيحاً ، بديناً ولا نحيلاً ، ولم يكن مسناً غيرانه مع ذلك ليس شاباً . ولم يلحظ قدوم هذا المسافر الى المدينة الا فلاحان كان تعلبهما على العربة دون المسافر .

– ما اجل هذه العربة .. كم تدفع ثمناً لها ؟ ايمكن الوصول بها الى موسكو ؟

– بلا ريب ! ولكنها لا تستطيع الوصول الى قازان

– آه .. بالطبع لا تستطيع .

ثم سكنا .

وعندما وصلت العربة الى جانب الفندق كانت ثمة شاب يمر ، وكان يرتدي سروالاً ابيض قصيراً ضيقاً ، وقميصاً مغلقاً ، فالتفت نحو العربة وامسك بيده فبعته التي كادت الريح ان تقتلعها ثم تابع سيره .

ودخلت العربية باحة الفندق فاستقبل المسافر خادم نشيط لدرجة لا يستطيع المرء ان يتأكد من حقيقة تعبير وجهه . كان هذا الخادم طويلاً نحيلاً يرتدي معطفاً قطنياً فضفاضاً ، وكان ظهره مقوساً بشكل لاتين فيه نقرته ، واسرع ذلك الخادم حاملاً منشفته بيده الاولى ، اما الثانية فقد كان يحاول بها ان يمس شعره ويرده الى الخلف ، ولم يلبث ان قاد الضيف الى غرفته ، وجو هذه الغرفة كان غوذجاً للجو الخاص بهذا الفندق وبجميع فنادق الريف اطلاقاً ، حيث يتمكن المسافر بروبلين فقط ان يحصل على غرفة هادئة تعج بضوف الحشرات ذات باب مسدود بقطعة من الاثاث يؤدي الى غرفة اخرى مجاورة يقطعها جاري ابرك هادئ . ولكنه فضولي الى درجة قصوى ، لا يطلب اكثر من معرفة جميع تفاصيل حياة القادم الجديد .

وكان مظهر الفندق من الخارج منسجماً مع مظهره من الداخل ؛ كانت له واجهة من طابقين : الاول مبني من الآجر الاحمر الثاني قدر مسود من تأثير تقلبات الجو ، اما الثاني فقد كان مطلياً باللون الاصفر ، وكان الدور الارضي مقسماً الى دكاكين ومتاجر عرض فيها لجم الحبول والجبال والسياط ، وكان ثمة غلام يجلس بالقرب من نافذة المتجر الواقع في الزاوية وكان وجهه المحمار يحاكي حمرة السماور النحاسي الموجود الى جانبه بصفر ويخرج منه البخار ، ومن الممكن ان يتوهم المرء هذا الغلام سماور آخر لولا لحيته السوداء التي تحكي الهباب .

وبينما كان المسافر يقلب طرفه في انحاء غرفته جاءت حقايبه ، واولها حقيبة مهترئة من الجلد الابيض مما يدل على ان سفرته ليست السفرة الاولى ، وكان يحمل هذه الحقيبة الحوزي سليمان وهو رجل قصير القامة يرتدي بذلة من الصوف وكان يعينه في حملها الخادم بتروشكا وهو رجل في العقد الثالث من عمره يرتدي ملابس مهترئة يبدو عليها انها كانت تخص سيدة سابقاً ، ثم حمل صندوقاً صغيراً من الخشب الاحمر ودجاجة مشوية ملفوفة بقطعة من الورق الازرق .

وعندما اصبح كل شيء في مكانه ذهب سليمان الى الاسطبل ليعتني بخيوله

أما بتروشكا فقد أقام في غرفة بهو الفندق وهو عبارة عن كوخ مظلم . وكان معطفه وكبس حوائجه يجردان على الأرض وكانت رائحة قوية مزعجة تنبعث منها معاً . يحوي هذا الحجر الكتيب على سرير ذي ثلاث قوائم ألصقه بتروشكا بالجدار ووضع فوقه شيئاً قذراً أشبه بالفراش استطاع الحصول عليه من صاحب الفندق . وبينما كان الخدم يتراكون لترتيب الغرفة هبط السيد الى المائدة الكبيرة المشتركة .

ان كل من تنقل في الريف مسافراً لا بد من ان يعرف هذا النوع من الأبناء . كان بهو ذلك الفندق ذا جدران مطلية بعدة طبقات من الالوان القبيحة المتسخة ، ففي قسمها الاعلى كان هباب المدفأة يغطيها واما القسم الاسفل فقد كان يحتفظ بآثار ظهور المسافرين وتجار المنطقة الذين كانوا يتناولون الشاي داخل الفندق في ايام المواسم . واما السقف فقد اسود بالمصباح المدخن الذي فيه وكان لهذا البهو نفس الثريا الشاحبة التي كانت تنراقص شموعها كلما ركض الخادم فوق السجادة المزقة وهو يحمل طبقاً مليئاً بالاكواب الكثيرة . وهناك الى جانب ذلك لوحات زيتية تغطي الجدران برمتها ، والحلاصة كان يوجد كل ما يمكن مصادفته في اي مكان آخر خلا لوحة كبيرة تمثل حورية يتعدى ثدياها الخيال بضخامتها . ان هذا التشويه في الطبيعة يمكن مصادفته في لوحات تاريخية عديدة لا يعلم أحد من أمر بشرائها من الخارج وجلبها الى روسيا ومتى كان ذلك . ومع ذلك فان عدداً كبيراً منها اشتراه بعض نبلاتنا الذين يتذوقون الفن من ايطاليا .

خلع السيد قبعته وشاله الصوفي وهو من الشالات ذوات الالوان المتعددة التي تزود بها النساء عادة ازواجهن مع الف نصيحة لتجنب أذى البرد . أما العزاب فان الله وحده يعلم من أهداهم تلك الشالات ... وأما بالنسبة لي فاني لم استعمل شالاً قط . وطلب المسافر عشاء فقدمت له وجبة الفنادق العادية : حساء الملفوف ولحم مبرد يحتفظ به الطهاة اسابيع طويلة للمسافرين ومقاتق بالملفوف وخيار وملح وقطعة من الحلوى .

وبينما كان المسافر يتناول وجبته طلب من الخادم ان يقص عليه جميع ما يدور حول الفندق من قصص وأحداث وان يروي له اخبار صاحب الفندق القديم ويبدلي برأيه في العلم الجديد . وهتف الخادم مجيباً على السؤال الأخير : « انه وغد كبير ياسيدي » . كانت التحدث الى الخدم وممازحتهم عادة جارية في الروسيا كما هو الشأن في اوربا . ولكن اسئلة المسافر في هذه المرة لم تكن دون معنى ، ذلك انه استطرد الى السؤال عن حاكم المدينة ورئيس المحكمة والمدعي العام ، ولم ينس موقفا مهماً دون ان يسأل عنه . ثم اخذ يستعلم بدقة ، تناهية عن ملاكي الاراضي وعدد ما يملكون من العبيد وابن يسكنون وهل يترددون كثيراً على المدينة وما هو مزاجهم . ثم سأل عن حالة المنطقة وهل تفشت فيها الوبئة السارية والحمايات القاتلة وغير ذلك ، فهذه الاسئلة الدقيقة المحكمة لم تكن تناج الفضول وحده .

وكانت حركات السيد تلفت الانظار ولا أدري ماذا كان يفعل ليخرج من أنفه ذلك الصوت الذي يشبه النفير كلما وضع عليه منديله .

أحدثت هذه المظاهر اثرها البليغ عند خادم الفندق فكان كلما تحرك السيد انتصب هذا قائماً ورفع شعره إلى الخلف بسرعة وسأله : « أحتاج شيئاً ياسيدي » . وتناول السيد كوباً من القهوة بعد العشاء وجلس على الأريكة وانتصباً على وسادة كانت ، حسب التقاليد الروسية في الفنادق الريفية ، أقرب الى الترميد والحجارة منها الى وسادة عادية . وعندما أخذ بالتشاؤب عاد الى غرفته ونام ساعتين فيها . وبعد أن ارتاح أخذ باملاء الورقة المعتادة لاعلام البوليس عن وصوله الى المدينة . وهذا ما استطاع الخادم أن يتجهاه بعد صعوبة كبيرة عند اجتياز كل حرف :

« بافل أفانوفيتش تشتشيكوف - ملاك ، مستشار دائرة انتخابية . سبب السفر : قضاء أعمال . »

وخرج بافل أفانوفيتش تشتشيكوف لزيارة المدينة التي وجدها جميلة جداً لا تقل في شيء عن بقية مدن الريف . كان لون المنازل الحجرية الاصفر فيها يكاد يطغى على لون منازلها الخشبية الرمادي . كان أغلب هذه المنازل يتألف

من طابق أو طابقين وكان بعضها مخفياً في بعض الاحياء في طريق يشبه الحقول داخل عدد كبير من السياجات . وكان المار يلمح هنالك وهنا كمكة أو حذاء معلقاً فوق أحد المتساجر إلى جانب لوحة تحت كتابتها الامطار . وعلى أحد الحوائت علقت صورة سراويل زرقاء كتب تحنها « فاسيلي فيدوروف ... اجني » وبالقرب من ذلك الخانوت متجرتلوه لوحة تمثل طاولة بليارد ولاعبين أنيقين كتب تحنها : « تمنعوا بمشاهدة المحل » واصطفت طاولات مثقلة بنهار الجوز أو الصابون أو الحلوى التي تشبه الصابون في بعض الطرقات . وهنا تلمح دكانا قدرة على بابها صورت سمكة اخترقتها شوكة ، وهنالك تلمح أيضاً محلاً كتب عليه « كساريه » فوق شارة قديمة تمثل الشعار الامبراطوري . واجتاز تششيكوف حديقة المدينة حيث غرست فيها أشجار نخلة ساقية سموق شجر الصفصاف ، ولم يستطع ذلك أن يمنع عدداً من الصحف عن ان تكتب بمناسبة أحد الأعياد : « بفضل رئيس بلديتنا ازدانت مدينتنا بحديقة تظلل أشجارها الباسقة الكثيفة المبدان المحيط بها وتلطف من حرارة الجو في الأيام القاتظة . » وأضاف الصحافي ايضاً ان سكان المدينة قد بكوا امتناناً لصنيع حاكمهم . وانحدر تششيكوف مع النهر الذي يسير نحو وسط المدينة بعد أن استعلم من شرطي عن أقرب طريق يؤدي إلى الكنيسة . وأثناء الطريق انتزع اعلاناً كان ملصقاً على الحائط كي يتلوه بعد ذلك يهدوء في الفندق ، وأمعن النظر في حسناء كانت تجتاز الطريق يتبعها شاب بلباس عسكرية يتأبط رزمة صغيرة . وتفحص جميع الامكنة بدقة كما لو أنه يريد أن ينقشها في ذاكرته . ثم عاد إلى فندقه وصعد غرفته الخاصة رأساً بصحبة الخادم . وهناك تناول الشاي ثم طلب شحمة وأخذ يقرأ الاعلان وهو يغمر بعينه . لم يكن فيه ما يشير الاهتمام فهو اعلان عن تمثيلية لكوتزبو وكانت بوبفسكين تمثل دور رولا وزابلوفا دور كورا ، أما بقية الشخصيات فادوارها ثانوية . ومع ذلك لم يهمل تششيكوف شيئاً حتى انه قرأ الاسعار ولاحظ ان الاعلان مطبوع في مطبعة الحكومة الرسمية . ثم قلب الاعلان على وجهه الآخر واللم ير عليه شيئاً طواه باعتناء ووضعه داخل صندوق كان يودع فيه كل ما يقع تحت يديه . واني لأعتقد ان

النهار قد انتهى بعشاء مؤلف من لحم بقر مبرد وشراب حامض مثلج ورفاد عميق..
 وأما اليوم الثاني فقد خصه تششيكوف للزيارات ، فقام بزيارة جميع
 كبار موظفي المدينة وبدأ بالحاكم الذي لم يكن هو الآخر ضخماً ولا نحيلاً
 وكان يزين صدره بصليب القرية آن . وكانت له طيبة يضرب بها المثل ويعرف
 الجميع براعته الفائقة في التطرير على الاقمتة . وتناثرت زيارته فزار نائب الحاكم
 والمدعي العام ورئيس المحكمة ومدير البوليس ورئيس الخزينة وأنا شخصياً
 لا أذكر جميع الشخصيات الهامة غير اني أعلم ان تششيكوف لم يعمل منها
 أحداً ، فزار مفتش الصحة ومهندس المدينة وعندما عاد الى عربته بعد ذلك
 أخذ يفكر فيما إذا نسي أحداً ولكنه وجد انه لم ينس أي موظف .

كان كثير المهارة أثناء زيارته في التملق الى محدثيه فقال للحاكم مثلاً ان
 الغريب ليدخل مدينته كما يدخل الجنان وان عجلات العربات تسير فوق
 الطرقات وكأنها تسير فوق الحمّل وان الوزراء الذين ينصبون أمثاله خليقون
 حقاً بالثناء .

وفي أثناء حديثه مع مدير البوليس دس بعض ألفاظ المديح تتعلق بمحسن
 تنظيم شرطة المدينة ، وأما في حديثه مع نائب الحاكم ورئيس المحكمة فانه تعمد
 ان يتظاهر بالخطأ عندما دعا كلاً منها مرتين بلقب « صاحب السعادة » الأمر
 الذي أدخل السرور على قلوبهما .

ونتيجة لهذه الدبلوماسية اللبقة انتهت عليه الدعوات . فدعاه الحاكم في
 عشيّة ذلك اليوم نفسه الى سهرة عائلية كما رجاه باقي الموظفين بالحاح أن يتفضل
 بقبول دعوتهم الى مأدبة او الى تناول الشاي أو الى الاشتراك معهم في لعب
 الورق . ولم يكن تششيكوف ليتحدث عن نفسه إلا بتقدير ، وإذا حدث
 وتكلم عن نفسه فبصورة عرضية وتواضع واضح ، وعند ذلك فانه يستعمل
 تعابير رافية فهو مثلاً ليس إلا دودة أرض مسكينة لا يستأهل الاهتمام وانه
 ناضل في سبيل الحقيقة الامر الذي خلق له أعداء يرغبون في القضاء عليه ، وهو
 لا يطمع الآن الى أكثر من ان يجد مدينة يستطيع أن يعيش فيها بدعة
 واطمئنان ولهذا فقد رأى انه من الواجب أن يسارع فور وصوله الى تقديم

فروض الاحترام لهم جميعاً .

هذا جميع ما عرف عن القادم الجديد الذي لم يتخلف عن سهرة الحاكم ولقد قضى صاحبنا ساعتين يتهيأ لها ولم يفعل دقيقة واحدة من دقائق هدمته فنام قليلاً من الوقت بعد الطعام ثم استيقظ وطلب ماءً حاراً أخذ يدلك به خديه طويلاً وينفخ فيها ليسهل عملية الدلك ثم أخذ المنشفة من على كاهل الخادم الذي كان يتأمله بدهشة واستغراب ومسح وجهه بشدة وعطس مرتين في وجه خادمه . ووقف بعد ذلك أمام المرأة وبدل قميصه وتزرع شعرتين صغيرتين من عنقه وارتردى معطفاً احمر اللون وهبط الى عربته التي لم تلبث ان سارت تطوي الطرقات العريضة المضاءة بانوار - خيفة تشع من النوافذ .

كان منزل الحاكم مزداناً بالانوار وكان يقف امام بابه عدد كبير من العربات ودركيان ، وكانت تصل اصوات الحوذية من بعيد والحلاصة ليس ثمة شيء ينقص تلك السهرة .

وعندما دخل الصبادة وقف برهه مهوراً يبريق الشموع والمصابيح والزينة النسائية ... كانت الانوار تسيل من جميع الجهات ... والمعاطف السوداء تهتز فتشبه في حركاتها سرباً من الذباب دفعه الحر الى المطبخ فأخذ افراده بالرواح والمجيء ، يغمسون قوائمهم الامامية بالسكر ويفركون اجنحتهم بقوائمهم الخلفية ثم يطبسون .

وما كاد تششيكوف يجد وقتاً لتنفس فيه حتى انقض عليه الحاكم وعرفه بزوجه ، وهنا كان بافل ايفانوفتش منسجماً مع الموقف الجديد ، فأنشى على السيدة بتعايير تليق بطبقتها الاجتماعية . وعندما جلس الحضور في اقصى الصالة لبفسحوا المجال للراقصين وقف تششيكوف واضعاً يديه خلف ظهره يتأمل فيهم . كانت هناك سيدات أنيقات جداً اخترن ملابسهن من احدث الازياء وبجائهن اخريات اكتفين بالازياء المتواضعة الرائجة في مدينتهن الصغيرة .

واما الرجال فكانوا صنفين كالعادة بعضهم نحيل محوم غالبه حول النساء والبعض الآخر كان لا يهترق في شيء عن رجال الطبقة الراقية في بطرسبرج ، ذلك انه كان لكل منهم نفس السائقين المنسقين ونفس الوجوه الحليقة ونفس

الامبالا بل النساء اللواتي كن يضحكن منهم وهم يحدثنهن بالفرنسية كما لو كانوا حقيقة في بطرسبرج .

واما الصنف الثاني فكان ينتسب اليه الرجال الضخام من اصحاب الكروش وكان هؤلاء يحتقرون النساء وينظرون بصبر فارغ الساعة التي يعد فيها الخادم المائدة الحضراء ليلعبوا الورست . كانت وجوههم مستديرة بمتلثة وكان على وجه هذا ندب قديم وعلى وجه ذاك اثر بسيط للجدي واما شعورهم فمرتبة على طريقة الفرشاة او الطرة او طريقة « لتحملي الأبالسة » كما يقول الفرنسيون .

ان اصحاب الكروش لأعظم الموظفين قدراً فهم – وبالأسف – اقدر على تصريف امورهم من النحلاء ، اذ انه لا يستخدم احد نحيلاً الا اذا اعياه التفطيش عن بطين . ولذلك فان النحيل يغير مركزه بسهولة اذ ان وجوده هوائي غير مركز بعكس البطناء الذين لا يحبون التبدل ، فاذا وضعوا اقدامهم في مكان ما بقوا فيه اقوياء مفعمين بالامل وسواء أثبت مركزهم ام تداعى فانهم لا يقعون ابداً ، ثم انهم الى جانب ذلك لا يحبون الفخامة كالهزليين فلا يسهم اقل اناقة من الآخرين ولكن محافظهم تنعم بفرارة الهية .

وفي اقل من ثلاث سنوات لا يبقى شيء للنحيل غير رهنه في حين ان البطين ، دون بذل اي جهد ، يصبح مالكا لبيت صغير في نهاية المدينة يشتره باسم زوجته ثم .. ثم . . والخلاصة فانه يصبح شيئاً بعد شيء مالكا لقرية ، واخيراً وبعد ان يخدم البطناء الله والقيصر محوطين بالاجلال والاحترام يغادرون وظائفهم وقد صاروا ملاكين من طبقة النبلاء الروس المضامين ، ووفاء منهم للتقاليد الروسية القيمة يصبح وراثوهم هزليين يبددون ماورثوه من الآباء .

بذلك كان يفكر تشتشيكوف وهو يراقب الرافضين . ثم تابع البطناء بانظاره فلاحظ بينهم بعض وجوه الاصدقاء ، فلقد رأى المدعي العام بجواجه الكشيفة السوداء وهو رجل رزين صموت يغمز بعينه اليسرى على الدوام كما لو كان يقول لجاره : « تعال هنا يا صديقي لدي نكات اود ان اقصها عليك »

كما شاهد ايضاً مدير البريد وهو قصير ظريف فيلسوف ورأى رئيس المحكمة

اللطيف الحكيم ، وقام الجميع بتحيةة بطلنا كصديق قديم فرد عليهم بتحيةة لطيفة ثم قدم لملك اطياف ودود يدعى ماينلوف ولاخر يدعى سوبا كيفيتش الذي سرعان ما داس على قدمه ثم هتف « عذراً ؟ وناولاه الاصدقاء ورقاً لبشارتهم لعبة الوبست فخذها وحياتهم بادب جم .

جلس الجميع حول المائدة ولم يغادروها الا عندما جان موعد العشاء وانقطعت الاحاديث كالعادة عندما ينشط المرء للقيام بعمل هام .

ورغم ان مدير البريد كان رجلاً ثرثاراً فان وجهه اتخذ طابع التفكير فعض على شفته السفلى وظل محافظاً على وضعه هذا طيلة مدة اللعب .

كان يضرب الطاولة بشدة عندما يرمي بالورقة ويصرخ قائلاً : « اذهبي انتي البوبادبا (زوجة الكاهن) وذلك اذا كانت الورقة ملكة ، واما اذا كانت ملكاً فانه يصرخ « اذهب يا فلاح فامبوف » وكان رئيس المحكمة يجيبه لدى كل صرخه كأنه صده الامين : « سأجده » او « سأجدها » من شاربيه « وتعالى اصوات اخرى : « نعم .. لا .. تابع .. الديناري .. الكوبا .. بيكتنسيا ، بيكتنراس ، بتشوروبش ، بتشورا » وهي اسماء اطلقها اللاعبين على الورق البستوني ، وكالعادة كانت تتعالى المناقشات بعد اللعب وكان تششيكوف كثير الحرص في تعابيره فكان يقول لرفاقه « لي الشرف ان اقطع ورقة الاثنين التي رمتوها » او « تفضلوا بالقطع » ولم يكن يسمح لنفسه قط ان يقول بجفاء « اقطع » وقدم للجميع علبة لقاغه الفضية المعطرة ، وقد اثار اهتمامه بشكل خاص الملاكان ماينلوف وسوبا كيفيتش فاستعلم على الفور عنها من رئيس المحكمة ومدير البريد وكانت اسئلته تتم عن رجل يعرف ماذا يريد وابن يذهب ، وسأل عن اسميها ولقبها وكما يملكان من العبيد وما هو وضع املاكها .

وهكذا كان سلوك تششيكوف ليقاً بشكل أصبح معه في بضعة أيام صديقاً للجميع . وقد جن به حباً : الملك ماينلوف وعندما افترقا في ذلك المساء حفظ على يده بجرارة ورجاء بالحاف أن يشرفه بزيارته وقال ان اراضيه لا تبعد عن المدينة اكثر من خمسة عشر فرسناً (مقياس روسي يعادل ١٠٦٧ متراً) فابتسم تششيكوف وأجاب وهو يحن رأسه قليلاً انه يعتبر ذلك واجباً مقدساً . وقال

له سوباليفيتش وهو يفحص الارض بقدمه الهائلة « تعال عندي أيضاً » . وفي اليوم التالي صادف ، أثناء مأدرة غداء عند مدير البوليس ، ملاكاً يدعى نوزدريف ، وكان رجلاً حيوياً في الثلاثين من عمره ما لبث أن رفع الكلفة سريعاً مع تششيكوف ، وكان يتحدث دون كلفة مع المدعي العام ومدير البوليس الذي كان يراقب حركاته أثناء الطعام واللعب رغم مظاهر الصداقة التي بينها . وزار في اليوم الثاني رئيس المحكمة فاستقبله هذا بشوب مليء ببقع الدهن وحضر بعد ذلك سلسلة من المآدب عند نائب الحاكم والمدعي العام ورئيس البلدية . ولم يكن تششيكوف ليبقى ساعة واحدة في فندقه ولم يكن ليعود إلى غرفته الا ليناام وهو يعرف كيف يلبس شكل حالة لبوسها وبسلك سلوك الرجل المهذب . وكان يحسن الحديث في كل موضوع سواء أكان الحديث عن الجياد أو الملاحقات القضائية أو لعب البليارد أو الطهي أو الجمارك فانه كان يدلي برأي متزن حكيم كما كانت عيناه بعض الاحايين يتوقرق منها الدموع أثناء الحديث .

اتفق الجميع على الثناء عليه فقال الحاكم : « انه انسان شريف » وقال المدعي العام « انه لرجل قدير » وتحدث عنه قائد الدرك فقال انه عالم . واما رئيس المحكمة فقال « هو رجل محترم مثقف » وأدلى مدير البوليس « انه محترم ومحجب » وقالت زوجة المدير : « هو رجل وفي ومحجب كثيراً » . بل حتى سوباليفيتش نفسه الذي قلما يذكر الناس بخير قال لزوجته فجأة وهو يرقد بجانبها بعد السهرة التي قضاها عند الحاكم ، لقد تعرفت هذا النساء على رجل يدعى بافل ايفانوفيتش تششيكوف .. وهو انسان لطيف جداً اياروحي الصغيرة .

فهمت زوجته : « آه ! ثم لكزته برجلها .
ودام هذا الرأي الحسن في بطلنا حتى ذلك اليوم الذي طلع فيه بشروع
اثار الاستغراب العام في المدينة .

الفصل الثاني

وها قد مر اسبوع على قدوم تششيكوف المدينة ، وماهي ذي الامسيات .
تسارع والبالى تقتابع دون توقف عندما قطع المسافر زيارته خارج المقاطعة .
انه يريد الان ان يذهب ليرى املاك مانيلوف وسوبا كييفنش وفاء بعهده ،
ترى كم من البواعث تدفع به لهذه القلات المتتابعة ؟ اهي مشاغل جدية ام
عاطفية ام ماذا ؟ ولعل القارىء . بلاريب قد ساءل ساعته اذا كان لديها الصبر
الكافي لانتظار تطور هذه النفس !

وفي صباح اليوم التالي استطاع الخوذي سليفان ان ينظم بسرعة كل شيء .
بينما ظل بيتروشكا في الفندق للحراسة ، ولن يضع القارىء شيئاً كي يعرف
عبدى بطلنا جيداً ، فهذه الشخصيات ليست مهمة بالطبع ، بل هي شخصيات
ثانوية ولما تأتي في قصتنا ، غير ان الكاتب ليعشق الدقة في كل شيء مع العلم ان
مثل هذه الخاصة يمتاز بها الالمان اكثر من الروس ، او ليس ذلك صحيحاً ؟ كل
هذا بصرف النظر عن انها صنعت بسرعة ، وقد عرف القارىء الآن كساء
بيتروشكا الفضفاض وانفه الضخم وشفاهه الغليظة ، فهو اقل من ثرثار على اية
حال وينفخ على غرار الاشراف المثقفين ، اريد ان اقول بانه يجب المطالعة
كثيراً ويهم يتكامل نفسه في حوادث الحب والابجدية ، وكتب الصلوات ، انه

يلتزم جميع هذه الاشياء بانتباه واحد ، والجهد الذي يبذله ، هو نفسه فيما لوعالج موضوعاً في الكيمياء ، لقد اخذ هذا الرجل ليس بما يقرأ بل بالقراءة نفسها : « هاهي ذي الرسائل وتلك هي الفاظها التي لايعرف غير ابليس ماذا تريدان تقول ! » وهذه الكتب لها مكانها في السرير في ذلك الفراش الذي يبدو ان التمارين قد ردت كالباستيل ، ان كل هذا الميل الى القراءة يأتي من جهة وهناك من جهة ثانية خاصة اخرى لبيتروشكا وهي النوم دون نض الشباب الامر الذي ينيله فائدة جديدة ، الا وهي نقل راحته الخاصة مع جوه الخاص اينما التجوسار وهكذا فمنذ ان يجلس في عرفة عارية فانها حالاً تبدأ بتنفس هذا « المتضمن » لاقطع التي عيش عليها منذ شهر .

كان تشنبيكوف سريع الغم اجاباً ، وفي احيان اخرى كان يتبع اهواءه ونزواته بشدة ، ففي كل صباح يندس انفه باحثاً بين ذرات الهواء النقي ، ويعبس بحاجبيه ، وكان الى جانب ذلك يمز برأسه ويصرخ « ان الشيطان قد اتى بك يا صديقي ، ماهذا العرق المتفصد منك ، اذهب حالا الى الحمام . »

ولا يرد بيتروشكا على ذلك مطلقاً غير انه كان يبحث بحماس شديد عن عمل يشغل به نفسه فينظف رداء سيده او يرتب مانتع يده عليه ، ترى ماذا تكون انطباعاته عندما يصمت هكذا ؟ ان الله وحده هو الذي يعرف ما يدور في خلد عبد وبخه سيده ! وهو بلامراء سيقول « انه لديك من الجرأة ما يجعلك تكرر لي اربعين مرة نفس الاشياء ، ذلكم هو مانضيفه هذه المرة لبيتروشكا .

واما السائق سليفان فشخص آخر .. غمير انني لأخجل من نفسي حقاً اذ اضيع على القارىء وقته لاجل اشخاص دون ومن طبقة وضبعة ، ذلك ان ما يختص بثل هذه التفاهات لايمتنا في شيء الا نادراً ، ولكن الرجل الروسي هكذا تم تكوينه ، انه ليعشق الانفصال عن كل ماهو دونه مرتبة اجتماعية ، ولا يكون الا في محل ارفع منه ، ويفخر ايضا بانه يحافظ على علاقاته الاجتماعية

بهر قبعة بسيطة لكونت اوبرانس ، ولذلك فان الكاتب ليس بمطمئن لاجل بطلنا بنصيحة مدرسية ساذجة ، وقد يمكن لمثل نصائح البلاط ان تتنازل للمعرفة ولكن هؤلاء الذين وصلوا الى مرتبته العامة بقوة الدسائس ، ليس من نصيهم بالطبع الا نظرة احتقار من القاريء او ما هو اُردأ من ذلك ، اعني السيورقياً منه دون اي اختلاف عن مشة القتال ، اجل كل هذا محزن جداً ، ولكن فلندعه ولنعد الى تششيكوف !

فانه بعد ان اعطى تعليماته الضرورية لم يلبث ان راوده النعاس فنام ثم استيقظ في الصباح الباكر ، واخذ يغتسل من اخمصه حتى ذؤابة رأسه ، وهو العمل الذي لا يقوم به الايام الآحاد ، وهذا يعني ان اليوم يوم احد بطبيعة الحال ثم حتى ذقنه بعد ذلك جيداً ولمع عذاربه حتى اشبا قماش الساقان الاطلس وارتنى رداء من الفرو ومعطفاً احمر اللون وهبط درجات الفندق ، واندرجت العربية فوق بلاط باحة الفندق محدثة دويلاً ضاحجاً ، وشاهد صاحباً فاساً في الطريق ففزع له قبعته ، ومد بعض الاشقياء القذرين ايديهم صائحين « احسن ليتامى » وتعلق احدهم بالعربة من الخلف ، فساط الحوذي الجياد فانطلقت عجلاتها الخفيفة اللينة بسرعة قافزة فوق الحجارة .

لاحظ تششيكوف بسرور الحاجز الاخير الذي يشير الى ان المسافرين قد خرجوا نهائياً من المنطقة ، لقد تحمل بشجاعة امتع المزعجات الاخيرة التي آلمت رأسه ، وانتهى اخيراً الطريق الوعر كصير بقية الاشياء . لقد غادر تلك المدينة بعد لأي وعناء وبدا الحقل أمامه في ثوبه الاعتيادي ، تلاح من الارض واشجار من الصنوبر ، حشائش مخطوطة صغيرة ونباتات وجذوع اشجار ، وقرية بعيدة هناك تبدو بأسطحة منازلها الرمادية ككتل من الحشب المصفوف بدقة . وشاهد بعض الفلاحين يتناهبون بكسل ودة د جلسوا قرب ابواب دكاكينهم ، بينما بدا على النوافذ ظل الفلاحين بأحز منهم المربوطة على

بظونهم . ولقد كان جميع هؤلاء ، قرب المنزل الحشبي ، و كان ثمة عجل يتلفت
وخنزير يمز بوزة بشرافة .

كان تششيكوف قد قطع (الفرست) الخامس عشر عندما فكر بان
مدينة مانيلوف يجب ان تكون في ذلك المكان . غير ان العربية كانت تسير
حديثاً دون انقطاع وعا هو ذا (الفرست) السادس عشر و ... ليس ثمة
مدينة . واخيراً استطاع تششيكوف ان يسأل اثنين من الفلاحين كانوا يمران
بالقرب منه :

.. مدينة زامانيلوفكا اهي بعيدة عن هنا ؟

وخلع الفلاحان قبعتهما واجاب احدهما وكانت له ذقن تقيد انه الاذكي :

- اني اعرف مانيلوفكا ولا اعرف زامانيلوفكا !

- هذا حسن وابن توجد هذه الـ (مانيلوفكا) .

- على مسيرة (فرست) واحد من هنا وبحسن ان تنعطف نحو الجهة

اليمنى . اكرر عليك باني اعرف مانيلوفكا لازامانيلوفكا . وعلى القلة هناك

تجد بيتاً مبنياً من الحجارة له واجهتان ويقطنه السيد ، هل فهمت ؟

واذا بت العربية من جديد (فرستاً) آخر باحثة عن مانيلوفكا . وبعد

مضي (فرست) ثان انعطف الطريق واخذت جهة جديدة مستوعرة ...

وانتهى (فرست) فائتان فتلاثة وما من شيء يدل على وجود مانيلوفكا .

كل هذا جعل تششيكوف يحكم بانه عندما يؤكد صديق لصديقه بانه يقطن

على مبعده خمسة عشر (فرستاً) فيمكنه ان يضاعف هذا الرقم بكل بساطة .

لم يكن في مدينة مانيلوفكا ثمة شيء بارز ، وكان منزل السيد مبنياً فوق

مرتفع من الارض ترم به الرياح من شتى الجهات . وكانت الارض قرب ذلك

المنزل معشوشبة وقد ارتفع فوقها زهر الزرنجحت الابيض والطلح الاصفر

وبعض اشجار السندر ، وعرائش متشابكة ألقت سقفاً اخضر فوق الاعمدة

الربعة التي تساعدها على التعريش فبدت « كهكل منزول للتأملات » وامتد

غدير في المنحدر اخضو خرت ضفتاه وانتظمت حوله الحقول المزينة التي تخص
الملوك الروسين . وفي اسفل هذا المرتفع وفي نفس تلك الحقول رصعت منازل
خشبية اللون كانت دوماً مثاراً للفضول الراقي عند بطلنا ! انها لتجاوز
المائتين عدداً وليس بينها من شجرة او عشة او اي كتلة او لوح او جسر .

وكان يبعث الحياة في ذلك المنظر اثنتان من النساء شمرا تنورتيهما وهما
منحنيتان وقد وصل الماء حتى ركبتيهما وأمسكتا مجهدين جبلاً صغيراً مزرقاً
ربطتا به سرطمانين وسمكة . وقد تشاجرتا مع بعضها وأخذت الاولى بالصباح
خلف الثانية . وارتم في البعده حرش غامض ذو لون اخضر . كان الوقت قد
اكمد وكاب حتى أشبه فرقة من الحفراء التابعين لجنود الامن والسلامة الذين
لا يشلون الا في كل أحد . ويجدر بنا الان ان نسي الديك ايضاً لان صباحه الرفيع
يشير دوماً إلى تبدل الزمان وتراخيه ، وبالرغم من توزع الساعات على نسب
واحدة فانه يصرخ اكثر من المعتاد ويضرب بجناحيه في عنف شديد .

وشاهد تششيكوف اخيراً سيد المنزل فوق الافريز بردائه الاخضر ، وقد
فرش يده فوق جبهته ليرى العربية القادمة ، وبينما كانت تششيكوف يقترب
كانت عينها مانيلوف تلعبان وابتسامته تزداد عرضاً . وهتف أخيراً : « بافل
ايفانوفيتش انك ما زلت تذكرنا ! » والتعم الصديقات في عناق قوي ثم قاد
مانيلوف ضيفه إلى قاعة الاستقبال مجتازاً الدهليز وغرفة الطعام .

ولنتهز الآن بعض هذه اللحظات لنحدث قليلاً عن سيد المنزل . وان
الكاتب ليعلم بان هذا لبس من السهولة بمكان ، بل انه لاسهل علينا ان نرمي
بالوان عديدة على قطعة من نسيج قشر القنب بكل سخاء . كانت عيناه
السوداوتان تشعان باللهب وأما حاجباه فقد لزا إلى بعضها بينما كانت الفضون
تحفر جبهته . وارتاح رداؤه الاحمر بتراخ فوق كاهليه ، وكل هذا الذي تقدم
انما هو مجرد مدخل لوصفه . غير ان الذين يشبهون مانيلوف كثيرون بل يستحيل

عدم . ولكن فلنركز انتباهنا ولنوضح الخطوط الاكثرتعبية وغوضاً
ولنحدد علومنا بالمشاهدة . ان الله هو وحده الذي يستطيع وصف أخلاق
[مانيلوف] . ان من الاشخاص ما لا يشبه لا هذا ولا ذلك ، انهم ليسوا مثل
« بوغدان في المدينة أو مثل سيلبان في القرية » كما يقول الروسيون . ومانيلوف
إنما ينتمي الى هذا الجنس من الناس . ان وجه هذا الرجل لا ينقصه الهوى ،
هو أشقر الشعر بعينين زرقاوتين ، وسحره في حلاوة العسل ، وان كل حركة
من حركاته تنضح بالجمال الشهي ، وأما ضحكته فكلها اغواء . كان عندما يراه
المشاهد لأول وهلة يقول في الحال « يا للرجل الجميل اللطيف ! » وبعد دقيقة
واحدة فقط لا يكاد يقول شيئاً على الاطلاق ، ولكنه بعد الدقيقة الثالثة
يصرخ بل ، قوته : « انما الشيطان وحده يعلم كم يساوي هذا الانسان ! » ذلك
ان حزناً - قاتلاً يعتريك إذا مكثت بجانبه . انه لا يقوى على النفوس بتعبير يدل
على الحياة كما يستطيع الاحياء وحدهم أن يفعلوا ذلك ، ثم انه لكل هواه :
فهذا يحب صيد الارانب وذاك يخال نفسه يتعشق الموسيقى ويفهمها بعق
وهناك آخرون يحبون الغذاء الشهي ويرغبون في الظهور قبل كل شيء . أو يحملون
بالتنزه والى جانبهم ضابط مساعد أمام انظار الاصدقاء المعروفين والجهولين ،
أو تلهمهم رغبة الريح في الميسر أو يأملون في ان يصبحوا مفتشين في سكك الحديد
أو سائقين ... بلى لكل هواه . غير ان مانيلوف ليس له هوى بالذات . ففي
منزله يتحدثون قليلا ويفكرون ويتأملون كثيراً ، ولكن بماذا ؟ ... هذا
مالا يستطيع مخلوق ان يجيب عليه . فهو لا يهتم بأعماله ولا يذهب الى حقوله ،
وكانت أملاكه مع ذلك تتقلب بين الريح والحسارة . وكان عندما يقول له
وكيله : « أيها السيد اننا بحاجة الى كيت وكيت » يجيب بارتخاء : « حسناً ...
لا بأس » ويتابع تدخين غلبونه كضابط متقاعد لطيف مثقف ويرد من جديد :
« حسناً ... لا بأس » وعندما يأتيه أحد فلاجه ليقول له وهو يحك برأسه :
« أيها السيد امنحني يوم عطلة كي اسعى لربح بعض المال إذ ان الضرائب ثقيلة »

كان يجيبه وهو يدخل على عادته : « فلنذهب ... » ولم يكن ليخطر بباله قط ان عبده القن قد ذهب ليسكر . كان يتأمل احيانا في المستنقع ويفكر في الفائدة التي يجنيها من بناء جسر حجري تقام على جانبيه الخوانيت لبيع حوائج الفلاحين الضرورية ... وعند ذلك تفوس عباه برضى وجبور فيبدو وكأنه يعاني آخر سكرات الموت ، وبطبيعة الحال فان هذه المشاريع تظل في رأسه مجرد مشاريع .

وفي غرفة عمله يوجد كتاب مشار فيه دوماً الى أن صاحبه قد وصل حتى الصفحة الرابعة عشر التي قرأها منذ اكثر من سنتين . أما داخل البيت فتمة شيء ينقصه ، إذ ان مقاعد الصالة المتسعة قد نجتدت بمرور قديم جميل ولكن الخطأ ايس هنا بل هو في وجود مقعدين بلا تنجيد ، فكان الى جانب ذلك مخاطب ضيوفه منذ عدة سنين بهذه العبارة « لا تجلسوا هناك فالمقعدان لم ينجدا بعد » وهناك ايضاً بعض الغرف غير مؤثثة اطلاقاً ؛ هذا وفي الاسابيع التي تلت زفافه كانت هذه العبارة دوماً تتكرر بالذات : « ياروحي الصغيرة عداً يجب أن نشترى ما نؤث به هذه الغرف » . وهناك شمعدان باذخ بثلاث شموع كبيرة الجرم ، وترس يهر الانظار بتعاريفه الملمعة كان يزين مائدة غرفة الطعام ، ولكن بالقرب منه لم يلحظ لا مانيلوف ولا زوجه ولا خدمه وجود شمعدان آخر كسيح مقعد . وأما زوجة مانيلوف فقد كانت ... ولكن لا ، لا يجب ان نلح هنا على وصفها ، فلقد كان الزوجان سعيدين جداً . وبالرغم من مرور سنوات ثمان على زفافها فقد كانا يقدمان لبعضهما الهدايا مثل شيء من الاطعمة « ياروحي الصغيرة ، افتحي فمك واطبقي عنيك » هكذا ، وبمثل هذه العبارة كان يقول واحدهما للآخر بصوت مطوط . وحينئذ يفر الفهم بوساعة مخيفة ليحظى بقطعة من التفاح أو من الفواكه الاخرى . واما أيام الاحاد فهي خصبة بالمفاجئات ؛ مثال ذلك انه يقدم فيها غلاف للمساك مزين بلؤلؤة دقيقة .

وفي الغالب ، عندما يجلسان في الصلاة ، وفي نفس اللحظة يترك الاول غليونه والثاني حياكنه ، وتتحدا شفتاهما في قبلة طويلة ، طويلة جداً لدرجة ان السيكار الصغير يجد في بعض الاحايين متسعاً من الوقت لاثارة الحريق . ويوجد ، بطبيعة الحال ، في ذلك المنزل ، شيء آخر للعمل غير العناق وتقديم الهدايا الصغيرة ، وإلا فلم هذه الضجة وهذا الهرج في المطبخ ؟ ولماذا تكون حافظة المأكولات دوماً فارغة ؟ ولماذا تسرق الخادم معلمها بكل هدوء وبساطة ؟ لماذا غير انها أسئلة كثيرة الغرابة لاجل النخبة الممتازة من الذوات . النخبة ؟ ولذلك كان يستدعى اولئك الذين تعلموا الفرنسية بالمعاش ، وهي اللغة الضرورية للحظ السعيد والبيانو الذي يجعل الساعات تمر سعيدة مع الزوج الجديد ، وكانا يتسليان بزرر كبس النقود أو بأشياء اخرى ، كهدايا عيد رأس السنة . غير ان المنهاج قد اختلف في الآونة الاخيرة لانه يكلف كثيراً من الجهود والوقت لمعرفة ادارة الدخل .

ولنعد الآن الى تششيكوف ، فانه منذ لحظات قليلة اخذ بالتجادل مع مانيلوف أمام الباب في من سببر منه قبل الآخر . قال تششيكوف :

— عفوك ، سأمر خلفك إذا تفضلت فسحت . فأجابه مانيلوف وهو يشير

الى الباب .

— محال يا باغل اينانوفيتش .

— ولكن ارجوك ، ادخل ولا ترعج نفسك .

— آه ! لا ! ألف معذرة ، ان ذلك ليتعذر علي مع رجل له مثل مرتبتك

وقببتك .

— انت ، عن اي قيمة تتحدث ؟ ارجوك تفضل بالمرور .

— تفضل قبلي اذن ...

— لماذا ؟ ... فأجاب مانيلوف بضحكة حبيبة :

— هكذا ...

و مر الصديقان اخيراً معا اولهما بجانب الثاني .

- امسح لي انت اقدم لك زوجتي ... ياروحي الصغيرة ، هو ذا بافل ايفانوفيتش .

كانت مانيلوا جميلة تقريباً في ثوبها المنزلي المصنوع من الحرير و كان صوتها الباهت منسجماً مع لون وجهها . و كانت ترمي بيدها الدقيقة بتسهل بعض الاشياء فوق المائدة ، ثم نهضت وهي تقبض بيدها على منديل جميل التطريز . فتناول تشنيكوف تلك اليد بشيء من السرور في حين قالت له بلغة خفيفة انه مامن يوم يمر دون ان يجدتها زوجها عن بافل ايفانوفيتش وهنا قال مانيلوف :

- هذا شيء طبيعي ، ولقد كانت زوجتي تسألني كل يوم : متى يحضر صديقك العزيز فكنت أجيبها بالحال . صبراً صبراً ياروحي الصغيرة ، حتى تفضلت فشرفتنا ببارتك اخيراً . انها لسعادة حقيقية لكلينا ، وانه ليوم عيد حقيقي ... وان قلبنا ليفيض ...

وسرعان ما قاطعه تشنيكوف وهو يستمع الى انه السبب في هذا « الفيضان القلبي » بتلك العبارة المتواضعة :

- اصدقك القول باني رجل بسيط جداً ، وانه ما من لقب لي ...

وقاطعه مانيلوف بدوره وقد ارتسمت على ثغره ابتسامة كالسكر .

- انت واهم ، فانك تحوي على جميع الحصال بل انك لتحوي على مايزيد على جميع الحصال . وهنا سألت مانيلوا :

- هل اعجبتك مدينتنا وهل قضيت فيها وقتاً طيباً ؟

فأجاب تشنيكوف :

- انها لمدينة مذهلة حقاً ، لقد كنت مأخوذاً بها طيلة إقامتي فيها ، و كان

جميع من فيها ، من الناس طيبين معي !

فسألت مانيلوا :

- وكيف وجدت الحاكم فأضاف مانيلوف :
- انه رجل جليل القدر كثير المؤانسة . فرد تشتشيكوف :
- اني من رأيكم ، فهو رجل كله إجلال ، وهو الوحيد الذي يلا مركزه مما يدعو الى ان يتسنى المرء وجود كثيرين من أمثاله .
- قال مانيلوف ايضاً وهو يعلق عينه بلذة واسترخاء حتى بدا كقطة عركت أذنائها بنعومة :
- كما انه يعرف كيف يستقبل الجميع ويرضيهم . فرد تشتشيكوف :
- انه لا مثيل له ، وهو الى جانب ذلك فنان في التطريز ، فقد أواني كيس نقوده الذي طرزه بيده ... حقاً ان المرأة المتضلعة لانتطيع ان تصنع كيساً أجمل منه .
- وسأل مانيلوف وهو يعلق عينه بالتذاذ من جديد :
- ونائب الحاكم ألا ترى انه رجل محبباً للنفس ؟
- فأجاب تشتشيكوف :
- انه ذو قدر عظيم .
- ومدير البوليس ؟ رجل لطيف ، اليس كذلك ؟
- فهنف تشتشيكوف :
- اوه ! اوه ! رجل عالي الهمة واسع العلم . لقد اضعفت في لعبة الويست مع النائب العام ورئيس القضاة كل شيء ، وقد دام اللعب طيلة الليل واستمر حتى زمن صباح الديك فسألت مانيلوف :
- ماذا تقول في زوجة مدير البوليس . فاجابها تشتشيكوف :
- انها امرأة ماحوذة . ثم انتقل بافل ايفانوفيتش الى السؤال :
- وانت اتقطن دوماً في المزرعة فرد مانيلوف :
- اجل اننا هنا دائماً قريباً . ولكننا في بعض الاحيان نذهب الى المدينة

الرؤية بعض اصحاب الشأن المهين من الناس ؛ ذلك اننا لو بقينا هنا دوماً
منطوين على انفسنا لاصبحنا متوحشين .

فتم تشيكوف

- هذا صحيح ، هذا صحيح . وتابع مانيلوف :

-- انما المهم في الامر ان نوجد صديقاً ... رجلاً بواسطه نستطيع ...
بطريقة ما ... الكلام عن اللطافة ، والثقافة ... او متابعة عالم في ابحاثه العلمية
واخيراً نستطيع ان نحبي فيه روحه ونسير به نحو عليين .

اراد مانيلوف ايضاً ان يعبر عن فكرة عميقة ، ولكنه خاف المبالغة دون
ريب ، فقام بحركة مبهمة ثم تابع :

- اذن ، وفي هذا الشأن ، فان الخلوة والمزرعة تجعلنا كثيري اللطافة ...
نحن من وقت لآخر نقرأ (ابن الوطن) وهذا يكفينا .

وحبذا بافل ايفانوفتش هذا الرأي واذاف بانه مامن شيء يعادل الخلوة اذا
استطاع الانسان ان يستمتع بالطبيعة ويقرأ الكتب الجيدة .

فهنف مانيلوف :

- اوه ، واذا لم يكن له صديق ، فلن ينفس عما يعتلج في صدره ...
فاجاب تشيكوف مقاطعاً :

-- صحيح ، صحيح جداً ، ان جميع كنوز الارض لاتعادل مثل هذا الصديق
والحكمة تقول : « ماذا يملك المال اذا ما امتلكت الاصدقاء »

وكرر مانيلوف بتعبير نظيف اعذب من دواء ركة طبيب بارع كي يحظى
باعجاب زبونه :

- انت تعلم يا بافل ايفانوفتش ان الصديق ضروري ، اي صديق كان ،
لاجل المتعة الروحية ... وهكذا اليوم ، فان الصدقة بلفائك تجعلنا نحظى
بالسعادة ويمكن ان نقول ان هذا الصديق نادر يصعب الحصول عليه ... كالتمتع
بصحبك العظيمة الفائدة . فقاطعه تشيكوف :

- ولماذا صحبته عظيمة فانا رجل خال من اي قيمة .
 - اوه ، بافل ايفانوفتش ، اسمح لي ان اصدقك القول اني لانتازل بكل مرور عن نصف ثروتي على ان يكون لي بعض اخلاقك .
 - على العكس تماماً ، انا الذي يعتبر صداقتك الرائعة شرفاً له .
 واكاد اجهل الى اي حد تنتهي مناجاة صديقنا لو لم ينقذها منها الخادم الذي جاء ليعلم ان الطعام قد اعد . وهنا قال مانيلوف :
 - هيا الى غرفة الطعام ! وازادت زوجته :
 - يجب ان تعذرنا على هذا الطعام البسيط ، فانه لا يضاهي ذاك الذي في العاصمة ، ذلك ان كل شيء بسيط في الريف .
 ومن جديد تنازع الصديقان حول من يجب ان يمر قبل الآخر من خلال الباب ، ودخل تششيكوف اخيراً وهو يتظاهر بالتواضع . كان هناك صبيان يجلسان على المائدة وكان منهما يسبح لهما بالجلوس على مائدة الاسرة وقد جلسا على كراسي مرتفعة . وكان المربي بالقرب منهما يحمي القادسين بلطف وهو يتسم . جلست ربة البيت قبل الجميع ثم جلس بافل ايفانوفتش بينها وبين زوجها وجاء الخادم ف عقد فوطتين حول عنقي الصبيين . فقال تششيكوف :
 - ان طفليك لساحران ، كم يبلغ عمرها ؟ فاجاب مانيلوف :
 - اما البكر فهو في الثامنة من سنه واما الثاني فعمره ست سنوات . ثم نطق باسم تيبستوكليوس وتابع الحديث وهو يشير الى ان الاول هو صاحب ذلك الاسم ، وكان هذا جالساً يحاول ان يرخي من عقدة فوطته التي شدها الخادم كثيراً حول عنقه .
 - تيبستوف كليوس ، أجب ماهي اجمل مدينة في العالم ؟ وهنا القى المربي على تلميذه نظرة وحشية وبدا كأنه يريد ان يقفز عليه ليفقأ له عينيه ، غير انه سرعان ما هدا عندما اجاب تيبستوكليوس بقوله : « باريس » فسأل الوالد :

- وعندنا ماهي اجمل مدينة ، وجد المرابي الصبي من جديد فاجاب الاخير :

- بطرسبورج

- والثانية ؟

- موسكو فهتف تشتشيكوف متحمساً :

- كم هو ذكي ، ذلك الطفل ، ان ذكاه ليعث على الحيرة بالنسبة لصغر

سنه ، سيكون بلا ريب شيئاً عظيماً ، فأجابه الاب :

- اوه ، انت لم تعرفه تماماً ، فهو خارق .. ولكن الثاني ، السيد ليست

له ذاكرة قوية ، غير ان تيبستوكليوس منذ ان يرى رجلاً فاضلاً او يرى

حشرة ما ، فان عينيه حينئذ تقدرحان بالشرر ويتركز جميع انتباهه حولها ،

سأجعل منه سياسياً . يا تيبستوكليوس الا تريد ان تكون سفيراً ؟

- بلى اريد : اجاب الطفل بذلك وهو يعض قطعة من الخبز ويدير رأسه

بحركة لولبية ذات الشمال وذات اليمين ، وفي تلك اللحظة غخط المرابي هذه

العبارة : ان من يريد ان يكون سفيراً في المستقبل يجب عليه الا يدع الحساء

ينساقط على فوطته وهو يجنبه .

وتحدثوا بعد ذلك عن مسرات الحياة الهادئة وسط الحقول ، وعن التيارات

والمدينة والفنانات ، واجاب المرابي على جميع الاسئلة التي وجهها اليه والداتلمبذبه

ضاحكاً بثقة واعتزاز عندما لاحظ انها يجبان المبالغة في شتى الامور فهو لم يكن

جاحداً بل اراد ان يحظى بحسن التفات ماينلوف اليه ، ولكن وجهه اخذ فجأة

تعبيراً جافاً قاسياً وضرب الطاولة بيده وهو ينظر الى الاطفال ! الا ان

تيبستوكليوس سارع الى عرك اذن اخيه الذي كانت عيناه مغلقتين وفمه فاغراً

فجعل الطفل يبكي ، ولكن الخوف من ان يفقد حصته من الفاكهة جعله يتنلع

دموعه بسرعة ويتابع الاكل وقد التمع عذاراه لما علق بهما من الدهن .

وكانت ماينلوف قد سألت تشيتشيكوف ان يعذرها لهذا الطعم البسيط
بما جعله يجيب بلا تردد :

- اني لم اشعر بالجوع ابدآ ، ذلك ان السرور بمحادثتك قد الهاني عن كل شيء .
واخيراً ارفعت المائدة وكان ماينلوف كثير السعادة ، فربت على ظهر
صديقه واراد ان يقوده الى الصالة ، ولكن بافل ايفانوفيتش افصح عن نيته
بالانفراد به لعمل ضروري .

- فلنذهب اذن الى غرفتي الخاصة ! قال ذلك ماينلوف وهو يقوده الى غرفة
انعكس النور من نافذتها على قطعة صغيرة من الحشب فاخذت شكل ضباب
ازرق ، وقال تشيتشيكوف معجباً .

- يالها من غرفة صغيرة جميلة .

كانت الغرفة باءى الامر مغطاة كلها بورق رمادي ضارب للزرقة ، تضم
اربعة كراسي ومقعداً كبيراً ، وطاولة عليها الكتاب العتيق المشار فيه الى الصفحة
الرابعة عشر ، وبعض الاوراق المملوطة بالحبر ، غير ان التنبك كان يسود الغرفة
فهو مبعثر في كل مكان علباً واكداساً ، وعلى النافذتين اصطفت كتل من
الرماد خانت هوى سيد المنزل .

قال ماينلوف :

- خذ المقعد الكبير ، ارجوك ، فهو احسن لك .

- لاسأكتفي بالكرسي ، فقال ماينلوف مبتسماً .

- اسمح لي بالاحاح عليك ، فان هذا المقعد معد خصيصاً للرجال العظام ،

فيجب ان تجلس عليه اذن شئت أم ابيت .

وجلس اخيراً نشيتشيكوف .

- أسمح لي ان اعرض عليك هذا الغليون لتدخنه ؟

فاجاب بافل ايفانوفيتش بتمهل وبشيء من الاسف :

- ولكنني لا ادخن ! فسأل مانيلوف بنفس التمهّل والاسف :

- ولكن لماذا ؟

- ذلك اني اردل هذه العادة ، ثم ان الغليون مؤذ .

- هذا حكم اعتباري بحث ، اؤكد لك ذلك ، ثم ان التدخين بالغليون
أسلم من استنشاق الدعوط . اني اعرف صديقاً لي في سرية الجنود برتبة ملازم
وهو رجل طبيب المعشر بالاضافة الى انه عالم ومثقف ، لا يكتفي فقط بالأدوية
يدع غايونه على الطاولة ، ولكنه .. وعذراً .. يحمل معه في كل مكان !
وقد جاز هذا الرجل الآن الاربعين من عمره واستطاع ان اؤكد لك
انه في صحة جيدة . فأجاب تشتشيكوف بان هذا محتمل ويمكن ، إذا ان
للطبيعة من الحوادث ما يصعب ادراكه ، فهي غامضة حتى على كبار المتعلمين !
- ولكن اسمح لي اني اعتذر عن تدخينه ... ثم تابع تشتشيكوف بتعبير
غريب وحازم وبحركة مبهمة ، جعلت مانيلوف يقوم بها نفسها دون ان
يعرف لماذا :

- منذ متى أرسلت للحكومة قائمتك بعدد عبيدك ؟

- منذ زمن بعيد .. ولكنني لا أذكر متى كان ذلك بالضبط .

- ومنذ ذلك الحين كم فقدت من هؤلاء العبيد ؟

- لست ادري ، أنا لا اعلم اي شيء عن هذا ، ولذلك يمكن ان نرسل

بطلب مدير املاكي فهو بذلك ادري . ثم نادى مانيلوف الخادم وقال له :

- اينني بالوكيل ، يجب ان يحضر الى هنا اليوم .

وبعد فترة من الوقت دخل الوكيل وكان رجلاً في العقد الرابع من عمره
مبسط الشعر ينتمى بالبرود المفاوي وقد دل وجهه الاصفر انه لديه بعض
الفرش الجيدة والوسائد اللينة . وقد كانت حبة هذا الرجل تشبه الى حد
بعيد حبة جميع رفاقه ، وقد شب وتثقف في المنزل فتزوج منذ زمن غير بعيد

من (اغاشكا) الحازنة العزيزة على سيد المنزل ، واصبح بدوره خازناً بعد حين ثم لم يلبث ان اضحى وكيلاً لأرزاق السيد . واخذت حياته شكلاً جديداً اذ اصبح يتبلى اغنياء المدينة ويعرض عن الفقراء . واصبح يستيقظ صباحاً في التاسعة وينتظر اعداد السمار ليقابل الشاي .

- اسمع يا صديقي ، كم فقدنا من الفلاحين منذ الاحياء الاخير حتى الآن؟

- ماذا ... كم ؟ .. يوجد كثير من الموتى . فتهتف مانيلوف :

- هذا ماظننت ، وقد كان ظني صحيحاً .. اجل لقد فقدنا الكثيرين ..

وانته نحو تششيكوف مكرراً :

- الكثيرين ... فقال هذا الاخير :

- ولكنني اريد رقماً . اريد شيئاً ثابتاً . فعقب مانيلوف موافقاً :

- بالطبع ، لا بد لنا من رقم ... فأجاب الوكيل :

- وكيف يتسنى لي ذلك ... فما من انسان يحصى الموتى . فقال

تششيكوف آمراً :

- حسناً احصهم ، واعمل لي قائمة بجميع اسمائهم .

فأجاب الوكيل :

- امرك مطاع يا سيدي وخرج ، فسأل مانيلوف :

- ولكن لماذا نحتاج الى هذا الاحصاء ؟

وبدا ان السؤال قد اربك بافل ايقانوفتش الذي احمار وجهه قليلاً واتخذ

طابع الانقباض كما لو انه يفتش عن اجابة .

تسألني لماذا .. هاك اذن : لاني اريد ان اشترى منك عبيداً ..

- اسمح لي بقاطعتك .. فانت ترغب بشراء الفلاحين .. مع الارض

ام بدونها ؟

لم اعن هذا .. اريد .. اريد الميتين منهم ..

— ماذا؟ عفواً .. اني اثقيل السمع قليلاً .. واحسب اني سمعتك تنلفظ بكلمة .. غريبة .

فأجاب بافل ايفانوفيتش :

— اريد أن اقنني الموتى الذين مازالوا معتبرين احياء في الاحصاء الحكومي الاخير .

ووقع غليون مانيلوف فوق الارض . وفقر فاه باتساع عظيم وظل هكذا جامداً على هذا الشكل . وبقي اولئك الصديقان اللذان أخذوا يفيضان في ذكر حسنات الصداقة دون حراك ووجدت انظارهما كما لو ان المصورة التقطتهما الاول من وجهه والثاني من سائر جهاته الياسية . ولم مانيلوف آخر الامر غليونه وانعكست نظرته على تششيكوف آملاً ان يكشف في تعبير صديقه ربح الدعابة . ولكنه اصطدم بوجه الجامد الذي ازداد صلابة ويروساً . وتضرع مانيلوف الى ربه الا يكون ضيفه العظيم قد اعتراه خجل الجنون فأخذ ينظر اليه بذعر ، بينما ظلت عيون بافل ايفانوفيتش صافية هادئة فاقدة كل التهاب يلتصع عادة في نظرة المجنون .

وعبثاً تسأل مانيلوف ، انه لا يعرف على الاطلاق بماذا يفكر وماذا يقول أو يفعل ولم يبق امامه الا ان يقذف بالدخان القليل الذي كان في فمه بشكل حاروني ناعم وقال تششيكوف مكرراً :

— اريد ان أعرف نيتك في هذا الشأن : أنتخلى لي عن هؤلاء الموتى ..

الذين هم احياء في نظر الحكومة ؟.

واضطرب مانيلوف واحتار ، واخذ ينظر الى ضيفه دون ان ينبس ببنت شفة . فعلق بافل ايفانوفيتش :

— يظهر لي انك حائر .

— مطلقاً ... ليس الامر بذلك ... ولكن ... لم استطع ان افهم

قصده ... اعذري ... فان الثقافة المتواضعة التي احملها لا تتسع للدرجة التي افهم فيها كلاً من حر كانك ... ذلك اني لا املك فن الأداء ... ولعل كلامك يستر شيئاً ما ... فانت بلا ريب تريد ان تضلني ببلاغتك ... فأجاب تششيكوف :

- لا سأعيد كلامي على منسعيك ... انا لا ارجب الا بالموتى من عبيدك . واعتوى مانيلوف الدوار . وشعر انه يريد ان يتكلم شيئاً ما ، أن يطرح سؤالاً ... ولكن ماذا يطلب ؟ ولعل الشيطان وحده يعرف ذلك ، وقذف للمرة الثانية بالدخان من أنفه بنفس الشكل الحزوني الرهيف .

- إذن ، سنرتب لك المبيع باذن الله .

- شك بشراء الموتى ؟

- مطلقاً ، سنكتب أسماء الاحياء الموجودين في قائمة الاحياء ، فانا لا اريد ان اخالف القانون ، ثم ان هذا العمل سيكون غالياً ، ولتعذري فالواجب شيء مقدس بالنسبة لي ، واني لأتضاع كثيراً أمام القانون .

ورضي مانيلوف بهذه الألفاظ المعسولة ، ولكن شيئاً غامضاً ما زال يكتنف الموضوع ، ولكنه لم يدر بماذا يجيب ، فحشا بنشاط كبير ذلك الغليون الذي اخذ يصفر كالزوبعة ، ثم مكث يتأمل غليونته كما لو أنه ينتظر منه كلاماً ينقذه من هذه الطريقة الثقيلة ، ولكن الغليون ظل يتابع صفيره غير مبالي بما يحدث . وهنا ساء له باغل ايقاتوفيتش :

- ألدبك ثمة شكوك أو شبه ؟

- لا ابداً ... فاني لم اطلق حكماً على نيتك مطلقاً ، غير ان هذه التجارة او هذا المشروع الا يخلف القاعدة المتبعة في روسيا والقضاء المتبع في بلادنا ؟ وقام مانيلوف بعد ما انتهى كلامه بهزة من رأسه واطلق نظرة ذات مغزى غير ان التعبير الذي ارتسم على وجه صاحبه والشفاه المزمومة المفصحة عن الارادة القوية التي طالعت ، كل هذا جعل مانيلوف يحسب نفسه امام وزير او شخصية

كبيرة مستغرقة في تأمل عميق . وكان هذا حينما اخذ باغل ايفانوفتش يجيب بان هذه التجارة ليست على الاطلاق مخالفة للنظم السائدة في روسيا ، اذ ان الخريزة العامة ستجد ارباحاً في هذا العمل ، وستكون الضرائب باهظة .

- اذن فانت تظن ؟ ...

- اجل اظن بان هذا يمكن ان يجري ... فقال مانيلوف :

- ليس لدي اذن اي اعتراض .

- فلنتفق على الثمن اذن ...

- ماذا ! عن اي ثمن نتحدث ؟ اظن بانني آخذ منك مالا ثمناً للنفوس الميتة

التي ... بطريقة ما ، نستنتج القول ، بانه يمكن وجودها ؟ واذا كانت هذي رغبتك ... ماذا اريد ان اقول ... فاني من جهتي ... سوف اتحلى لك عن هذه النفوس ، واتكفل فوق ذلك بنفقات صك المبيع .

ثم سئل كاتب هذه السطور شيئاً على الاطلاق فيما يتعلق بالمحادثات الجارية ، وسيضيف الى ما تقدم صفة الجبور الامتناعي الذي انسرح في تضاعيف وجه تششيكوف . ورغم تظاهره بانه سيد نفسه ضابط لاعصابه ، فقد اخذ يقفز فوق المقعد فاضحاً نوبة الفرح الحادة التي عرته . ونظر اليه مانيلوف مشدوهاً . لقد كان خجلاً يحمر الوجه ثم هز رأسه باحتجاج على عبارات صديقه الشاكرة . واتضح له اخيراً ان كل ما تقدم ليس بشيء ذي قيمة « انه بلاريب يريد ان يبين بقلبه الخافق ونفسه المتعقبة ، ان تلك النفوس الميتة لاتساري في ذاتها شيئاً ذا بال »

- لانسوي شيئاً ذا بال ! ... صاح بذلك تششيكوف وهو يشد على يد

مانيلوف بحرارة وينفخ الصعداء . ثم ، وفي فيض من الجماس ، صرح بقوله : لو كنت تعلم مقدار الخدمة التي اديتها لي ! كم من الجهود الاليسية التي أملت بي في الحياة ، لقد كنت كالفارب الصغير وسط المحيط الهائج ، ولكم عانيت من الملالة والاضطهاد ؛ لاجل خدمة الحق والمحافظة على تقاوة الذمير وحمل المساعدة.

للألم والتجدة للبيتيم ! وانهر الدمع من مآ في بافل ايفانوفتش فتأثر مانيلوف كثيراً وانهد كيانه فألقى بنفسه بين ذراعي صديقه واتحدا معاً في عناق حار طويل . واخذت عيونها تغرورقان بسخين الدموع .

ولم يرغب مانيلوف ان يطلق يده من يد بطل قصتنا ، غير ان هذا الاخير استطاع ان يحرر منه يده بلطف ثم اوصى صديقه بتهيئة صك الشراء وتناول قبعته يريد الانصراف .

- وكيف تذهب الآن ؟ قال ذلك مانيلوفاً بشدة وهو يستعبد الى ذاكرته حقيقة ما وقع .

وفي تلك اللحظة دخلت مانيلوفاً فقال لها زوجها بخضوع وحزن :

- ليسبنكا ، ستركنا بافل ايفانوفتش . فقالت :

- اجل ! هذا لان بيتنا لانسره . فقال تششيكوف محتجاً :

- سيدتي العظيمة ، هنا (وأشار بطرف اصبعه نحو قلبه) تخلد اجل ذكرى

للساعات التي قضيتها بجانبكم . ويجب ان تعتقدوا بانه ليس من سرور يضاهي السرور الذي اشعر به اذا عشت معكم ... ان لم يكن في نفس المنزل ففي منزل مجاور على اقل تقدير .

وهنف مانيلوف مفتتناً بهذه الفكرة :

- ولكن ، سيكون العيش باهراً هكذا على وتيرة واحدة ... بلي لسوف

تتفلسف تحت ظلال الدردار ولسوف تتبحر في اهم المسائل الكبرى ... فاجاب تششيكوف :

- انها حياة فردوسية ، ثم اضاف وهو يقترب من مانيلوفاً ، الى اللقاء

باسيديتي ، وانت ايها الصديق العزيز وداعاً ولا تنسيا ان تصليا من اجلي ! فاجاب مانيلوف :

- كن مطمئناً لسوف نفعل ذلك !

وهبط الثلاثة قاعة الطعام .

- وانما الى اللقاء أياطلي العزيزين : قال ذلك بافل ايفانوفتش وهو يرنو الى آلسيد وتيمستوكليوس وهما مشغولان باللعب بتمثال خشبي بلا أنف ولايد.
الى اللقاء ايا مهري الصغيرين ولتعذراني لخلو يدي من الهدايا لكما ... فانا في الحق غير عالم بوجودكما . ثم التفت الى تيمستوكليوس وقال : سأتيك في المرة القادمة بسيف ، أتريد سيفاً ؟ ... فأجاب الطفل .

- اوه ، نعم !

- وانت انك تريد طبلأ أليس كذلك ؟ فتمتم آلسيد وهو يمز رأسه :

- اوه ، أجل !

- هو ذاك ، وسأتيك به ، انه يفعل هكذا ... توررورت تنرورر ورتانكا . الى اللقاء يا صغيري الى اللقاء .

وضم اليه الطفلين والتفت نحو والديها اللذين قابلاه بابتسامة لطيفة . وعندما وصل الجميع الى الدرجات الاخيرة قال مانيلوف :

- ابق معنا يا بافل ايفانوفتش ، فهامي ذي الغيوم المتلبدة ، لا تشير الى حفاء الطقس .

فأجاب نششيكوف :

- اوه ، انها ليست سيئة .

- ولكن أتعرف الطريق الموصلة الى سوبا كيفتش .

- لقد كنت موشكا ان أسألك عنها .

- سأشرح ذلك لحوزيك إذا سمحت ...

واستدار مانيلوف نحو هذا الاخير ، واقترب منه متحجباً ثم أخذ يخاطبه خطأ بصيغة الجمع قائلاً بانه عليه أن يسير باستقامة حتى المنحنى الثالث فقال الحوزي .

- لسوف نفعل ذلك يا صاحب السعادة .

وسار نششيكوف ، على حين وقف مانيلوف وزوجته يلوحان بمنديلها مودعين . وبقي مانيلوف يتابع العربية بعينه وهي تبتعد شيئاً بعد شيء إلى ان اختفت في الافق البعيد ، ومع ذلك فقد ظل واقفاً يدخن غلبونه . ثم عاد آخر الامر إلى داخل المنزل وجلس على كرسيه واستغرق في تفكير عميق لانهاية لغوره ، مسروراً من نفسه لانه استطاع ان يشبع الغبطة في قلب ضيفه العظيم . وأخذت افكاره تتجه به في مناح عديدة دون أن يشعر ، افكار لا يعلم بها غير باريا . لقد أخذ يفكر بالفرح الالهي الذي تورثه الصداقة في النفوس ، وشعر بانه يجب أن يحيا مع صديق ما على ضفاف نهر بعيد ... بيني فوقه جسراً ... ويشيد عليه منزلاً كبيراً متسعاً يطل على مئات ومئات من الامكنة المختلفة حتى يصل إلى موسكو ... يتناول الشاي ويتحدث في المواضيع الريقة ... يقضي الايام مع تششيكوف وصفوة المجتمع ، بخطب وده وود بافل ايفانوفيتش الحاكم نفسه ويتكرم عليها بلقب جنرال ... وأخيراً ... فان جميع الاتجاهات التي قاده اليها تفكيره ظلت مجردات لأحلام لا شكل لها .

غير ان طلب تششيكوف الغريب ما زال يقض مضجعه ويعترض مسير تأملاته ، فهذا الطلب غير مدرك الكنه عنده ، وذهبت جميع الجهود التي بذلها لفهم هذا الطلب الغريب عبثاً . ومع ذلك فقد حاول أن يجهد ويجهد لتوضيح هذا الغموض الشنيع ، ولكن ... لقد أنهكه التعب ... فأخذ يدخن ويدخن ويدخن حتى حان موعد طعامه .



الفصل الثالث

وعندما استقر تشنشيكوف في عربته التي اخذت تطوي الطريق كان اكثر مرحاً منه في أي وقت مضى ، ولن يستغرب القارئ الذي عرف طبيعة مشاغل بطلنا كون هذه المشاغل تستغرفه كلياً ، كانت الحسابات والفرضيات تتب في جبهته وتضي على وجهه ظلاً من الرضى بينما كانت الابتسامة الخفيفة تتراقص على ثغره ، ولم يكن ليلقي بالاً على الحوذي الذي أبهجت حفاوة خدم مانيلوف به وكان لا يني في غمرة سروره ، عن إبداء الملاحظات المناسبة للجواد الامين ، ولقد كان هذا الحيوان المحتال يتظاهر بجر العربة بينما هو في حقيقة الحال ، يترك العبء على الجوادين الآخرين ، الاشهب والقاضي الذي سمي كذلك لأن تشنشيكوف كان قد اشتراه من احد القضاة ، كان العبء اذن يقع على عاتق هذين الحيوانين الطيبين اللذين كانت عيونهما تشع بالرضى رغم ما نالهما من الاعباء : وكان الحوذي يصرخ : « تحايل ، كن خبيثاً يا صديقي كما تشاء فاني سأكون أقوى منك » ثم يلهب الجواد الكسول بالسوط ويعود من ثم الى الصباح : لمي ستتعلم مهنتك ايها البغل الالماني ، ان رفيقك الاشهب ليقوم بواجبه وكذلك

الفاضي فانه جواد طيب .. لسمع ماسأقوله لك .. انك لجاهل فعليك ان تستفيد من كلامي « ويلهب سليفان الجواد من جديد بسباطه وهو يهتف : « ايها المتوحش الملعون .. انت تعتقدانه بمقدورك ، متسلحاً بمجملتك ، ان تخفي سلوكك اذا شئت ان تكون محترماً فانه يتحتم عليك ان تعيش مستقيماً فاني لا أسر بمحادثة غير الشرفاء ، انك ترى الى معلنا فهو يقوم دوماً بواجب وهاهو الآن مستشار لداثرة انتخابية « واستطرد سليفان على هذا المنوال متنقلاً من فكرة الى اخرى بحيث لو سمعه تششيكوف لعرف رأي حوذي فيه ، غير انه كان مأخوذاً بالتفكير ولم يستيقظ من سباته الا على صوت رعد هائل جعله يقفز من على مقعده ويرغم على النظر فيما حوله ، كانت السماء ملبدة بالغيوم وكانت قطرات كبيرة من المطر تنهل على الطريق الاغبر ، واشتد قصف الرعود واشتدت باشداده الامطار غزارة وراحت قطرات منها تنهل على عيني العربية ثم على يسارها ثم جاءت من الامام فاخذت تلسع وجه المسافر ، وعند ذلك سحب بافل ايفانوفتش الستارين الصغيرين وأمر سليفان بالاسراع في سيره وفهم الحوذي انه يتوجب عليه عدم التاهل فقطع خطابه وارتنى معطفاً ومادياً ولسع ظهور الجياد لم يستطع سليفان ان يتذكر الطريق ولكنه بعد جهد استطاع ان يتذكر ان المنعطف الثالث الذي كان عليه ان يعبر فيه قد اجتازه منذ فترة طويلة ، ولما ان الروسي لايرتبك في الاوقات الحرجة فقد تبع سليفان دون اي تردد اول منعطف صادفه دون ان يهتم بما قد يحدث .

وكانت الامطار مازال تنهمر ، وامتلات الطرق بالوحل وازداد ارهاق الحيوانات المسكينة من جر هذه العربية .

وبدا تششيكوف يقلق وقد يئس من الوصول الى قرية سوبا كييفتش إذ عليه ان يصل اليها حسب تقديراته منذ مدة طويلة وعبثاً حاول اختراق ظلمة الطريق بانظاره ، فهتف آخر الامر :

- سليفان أترى القرية ؟

- كلا ياسيدي اني لا ألقها البتة .

ثم ألهب ظهور الجياد بسوطه وبدأ في اغنية طويلة لا تنتهي .. لقد كان يغني فيها الأمل والشقاء والسرور والألم وكل ما يغني في الروسيا باجمعها ، وجميع الحوزية كان سليفان يتوجه الى جواده بجحاس ويصرخ « الى امام .. هيا يا أعزائي الصغار »

ولاحظ تششيكوف ان العربية بدأت بالتأيل كثيراً ، واخذت ترمي به من اليمين الى اليسار وبالعكس ففهم ان العربية خرجت عن الطريق العام وانها تتقدم بمشقة وسط الحقول المحروثة ولاحظ سليفان هذا الامر بدوره فصمت .

وزجر بافل ايفانوفتش :

- ايها الوغد اي طريق اتبعت ؟

- لم يكن في مقدوري أن أتبع غيره وسط هذه الظلمة فاني لا اكاد ارى سوطي .
وكان سليفان يترنح فوق كرسيه وهو يتفوه بهذه الكلمات حتى ان العربية كادت ان تقع ، فتمسك تششيكوف بها بجمع يديه كي يحمي نفسه من السقوط . وهنا فقط لاحظ أن حوزيه قد سكر .
هتف تششيكوف :

- حذار ... حذار ... فعربتنا توشك ان تقع .

- لا ياسيدي .. اني لا افهم لماذا تنقلب عربتنا .. انه ليس من المستحسن ان تقع ... وانا لا اقلب عربية قط .
واراد الحوذي ان يدير العربية ليعير اتجاهه ، فدار ثم دار ... وانقلبت أخيراً العربية .

وتدحرج بافل ايفانوفتش فوق الحول فاوقف سليفان جياده وهبط من

مقعده ووقف مهوئاً دون حراك بجانب العربية . وأخذ تشتبك كوف يتخبط في الوحل وهو يحاول النهوض ثم هتف آخر الامر :

- أترى ايها النبي لقد انقلبت اخيراً بنا ... انك سكران كجذاء ..

- لا ياسيدي .. سكران ... واذ اصبحت سكراناً ؟

إني لأعلم ان السكر سيء . لقد تحدثت منذ قليل الى بعض الاصدقاء ، انهم جماعة طيبون ... فتناولت معهم العشاء ... العشاء ، وهذا ليس بالامر السيء ... ويمكن للانسان بلا ريب ان يتناول العشاء مع رجل طيب .
- أنذكر ايها النبي ماذا قلت لك آخر مرة سكرت فيها ؟ أجب هل نسيت ؟

- ولماذا أنسى يا صاحب السعادة ؟ اني اعرف مهنتي .

ان السكرين قوم فيبعون جداً .. ولقد حادثت منذ قليل رجلاً طيباً .
- سأوجعك ضرباً بالعصى كي تتعلم معنى الحديث مع رجل طيب .

- امر سعادتك ... أنضربني ؟ ان ضميري غير منقل باني عمل سيء . ولكن اذا كان ضربي ضرورياً فلم لا ؟ ... وهذا يتعلق باوادتك ياسيدي ..
يجب على الفلاح ان يعاقب عندما يسكر ، ويجب على النظام ان يحترم .
وجرد هذا الجواب بافل ايفانوفتش من كل سلاح . وفي هذه اللحظة بالذات اشتق الحظ عليه فسمع نباح كلاب من بعيد فجلس في عربته وأمر سليفان بالاسراع .

ومها اعمت الظروف بصر الفلاح الروسي فانه يحافظ على حدسه دوماً ويصل الى شاطئه الامان . وهكذا فان سليفان كان يقود جياده وسط الظلام الحالك الى امام ولم يوقفها الا عندما اصطدمت العربية بحاجز لم تستطع تجاوزه . وخيل الى بافل ايفانوفتش انه يرى شبح منزل فارسل سليفان لبستجلي له الحقيقة وكان من الممكن ان يطول به الانتظار بلا طائل لولا ان الكلاب الذكية لحسن حظ الروسيات تقوم بوظيفة البواب .

كانت هذه الكلاب تنبح بشدة حتى لقد اضطر الى سد اذنيه وهو يتبع سليفان . وكان ثمة نور باهت يشع من احدى النوافذ وبفضله استطاع المسافرين ان يشقا طريقهما ، وطرق سليفان الباب فشاهد رأساً ملفوفاً بشال يطل من النافذة ثم علا صوت صدي، يسأل :

- من هنا ... من استطاع الوصول وسط هذا الجو الشيطاني ؟ .
فأجاب نشتشيكوف :

نحن مسافران ياماتوشكا (لفظ يطلق على النساء المسنات في الريف الروسي)
محيي لنا ان نقضي الليل هنا .

- لقد تقمص الشيطان نفسه جسديكما ... ولكن هذا البيت خاص ، وهو ليس بفندق .

- وما العمل ياماتوشكا لقد ضلنا الطريق ولا نستطيع قضاء ليلتنا في الطريق وسط هذه العاصفة .

واكد سليفان :

- آه ... بلى ان الجو رديء جداً .

فقاطعه نشتشيكوف :

- اصمت ياغي .

وتأبعت العجوز :

- ولكن من انت ؟

- من طبقة النبلاء ياماتوشكا

وارغمت هذه الكلمة المرأة على التفكير ثم قالت :

- انتظر قليلاً سأخطر السبدة بالأمر .

وبعد مرور دقيقتين عادت ومعها مصباح ففتحت الباب ، وشع نور من نافذة اخرى .

وادخل سليفان العربية الى الباحة ووقف قرب بيت صغير لا يكاد يرى وسط الظلام . وكانت الامطار تنهر بشدة فوق السقف الخشبي ثم تسيل بصوت مسموع في الباحة ؛ وكانت الكلاب لما تزل تنبح ، وكان اولها يزجر بشدة حتى ليكاد ان يبع ، اما الثاني فكان نباحه سريعاً متقطعاً مثل الفاظ (القندلفت) في ان الثالث كان صغيراً يبعث بصرخات قصيرة تشبه زنين الجرس ، وهكذا كانت الجوقة مكتملة .

كان بطلنا مبللاً ولم يكن ليطمح الى اكثر من ان ينام في سرير مريح ، وفض من العربية منهوك القوى حتى انه اوشك ان يقع على الارض وظهرت امرأة اصفر من الاولى وقادته الى الغرفة فالتقى تشتشيكوف نظرة سريعة عليها . كانت الجدران مغطاة باوراق ملونة قديمة شاحبة وكانت تزين هذه الجدران لوحات صغيرة تمثل طيوراً ، وشاهد بين النوافذ مرابا قديمة محاطة بأطر سود وخلف كل مرآة كان يوجد ورق لعب او جوارب او رسائل . ولاحظ تشتشيكوف ساعة كبيرة رسمت على اطارها زهور ولم يستطع ان يثبت عينه اكثر من ذلك فقد اغلقنا من الاعياء بالرغم عنه . وكانت صاحبة المنزل تتبعه وقد لبست على رأسها طاقية فوقها شال يحيط بعنقها . وكانت هذه المرأة من نوع الماتوشكا صفار الملاكين الذين يكون كلما ساء الموسم وينتحبون كلما خسروا مالا في الوقت الذي يكدمسون فيه اكياس الذهب داخل الدروج . ويجوي احد هذه الاكياس على الروبلات بينما يجوي اكيس الآخر على قطع من ذوات الخمسين كوبيكا ، واما الكيس الثالث فيجوي على القطع الصغيرة من فئة الخمسة والعشرين كوبيكا . وتضم الخزائن الثياب وبعض ملفات الحيطان والمعاطف القديمة التي يمكن ان تقلب الى ثياب جديدة اذا لم تأكلها الفيران او تهترى . من تلقاء ذاتها . فأما النار فلا يمكنها ان تحرق شيئاً واما الاهتراء فان العجوز دقيقة في عنايتها وهكذا فانه بإمكانها ان تورث خرقها لحفيداتها .

واعتذر تششيكوف عن مجيئه في مثل هذا الوقت غير ان العجوز قالت :
- ان هذا لا يزعجني البتة . لقد جئت في جو رديء ويجب ان نتناول شيئاً ،
غير ان الوقت متأخر وليس عندي شيء معد .

وكان فحيح غريب يتخلل كلام العجوز حتى ان بافل ايفانوفيتش خاف أن
يهاجمه جيش من الافاعي فأخذ ينظر فيها حوله ولكنه سرعان ما هدأ عندما
لاحظ ان الساعة تكاد تدق بالفعل فان ذلك الصغير ما لبث أن تبعه رنين ،
ودقت الساعة دقتين بصوت يحاكي تحطيم الزجاج .

وأسرع تششيكوف بحجب على ربة المنزل وطلب منها ألا تهتم بشيء ، وانه
لا يطلب إلا سريراً وانه لا يرغب فيكون بعيداً لو عرف أين قاده الحظ ثم
سألها :

- أيسكن سوبا كيفيتش بعيداً من هنا ؟

غير ان العجوز لم تكن لتعرف هذا الاسم .

فأردف بافل ايفانوفيتش :

- ولكنك تعرفين مالبينوف ؟

- ومن هو مالبينوف هذا ؟

- من تعرفين إذن من الملاكين ؟ .

- بويرون وسفين وكونوبانيف وشاريكيتين وتريباكين وبليسكاتوف .

- أغنياء هم أم لا ؟

- لا بابانيوشكا (مذكر ماتوشكا) فإن واحدهم لا يملك اكثر من عشرين

نفساً وثانهم ثلاثين ولا يوجد بينهم من يملك المائة .

وفهم تششيكوف عندئذ انه في بقعة ضائعة فسأل :

- هل تبعد المدينة من هنا كثيراً .

- حوالي ستين (فرسناً) . . . اني آسف لعدم تمكيني من تقديم الطعام .

هل لك في كوب من الشاي ؟

- شكراً باماتوشكا فأنا لا أريد منك إلا السرير .

- اني بعد هذه السن الطويلة أفهم ذلك... ارقد إذن على هذه الاريكة...
ايه يا فيتينا هاتي الاغطية والوسائد... ياله من جو فظيع... لقد ذابت
الشعنة أمام ايقونات القديسين... ولكن ماذا بك يا بابتوشكا... انك
تبدو كالحنزير الصغير ، فظهرك وجبتك مليتان بالوحول... أين علقت بك
هذه الاقدار بحق الشيطان ؟

- لحسن الحظ اني صامت لانظف ثيابي ، لقد كان من المعقول أن تدق عنقي.

- بالقديسي السماء... ألا تريد ان أدلك لك ظهرك ؟

- شكراً... شكراً مري خادمك فقط بتجفيف ثيابي وتنظيفها .

فقال العجوز لخادمتها :

- أسمع يا فيتينا ؟

وكانت هذه الاخيرة تحمل لحافاً كبيراً تضرب عليه بشدة حتى ان الريش
كان يتطاير منه في جميع أرجاء الغرفة .

وتابعت العجوز :

- البك هذه الملابس ، نظفها كما لو انها للمرحوم زوجي .

فوضعت فيتينا اللحاف على الاريكة وقالت وهي تقوم بترتيب الوسائد :

- كما تأمرين يا سيدتي .

- هو ذا سريرك مهياً الى اللقاء يا بابتوشكا... أنتى لك ليلة سعيدة. ولكن

أحقاً انك لست بحاجة الى شيء ؟ قد تكون معتاداً على تدليك رجلبك قبل

النوم فزوجي المسكين لم يكن يستطيع النوم دون تدليكها .

غير ان بافل ايفانوفيتش لم يشأ الاستفادة من هذا العرض السخي . وعندما

أصبح صديقنا وحده تأمل سريره بسرور وكان هذا يصل في ارتفاعه حتى

السقف فاضطر بافل ايفانوفيتش الى الصعود على كرسيه ليدخل في الفراش . وما

إن استلقى على السرير حتى أخذ يهبط وويدأ الى أن وصل الى الارض ،
وأخذ الريش يتراقص حوله فأطفا الشعة ونام .

واستيقظ تششيكوف في الصباح في وقت متأخر وكانت شعاعات
الشمس تسقط على عينيه مباشرة ، واما الذباب الذي كان يرقد يهدوء على
الجدران ليلاً فكان يحوم فوق رأسه ويقف على اذنيه وشفتيه وعينه ، وغامت
ذبابه منهورة بدخول أنفه فمطس تششيكوف بشدة أخرجهما . وألقى نظرة
على الغرفة فشهد لوحة تمثل الجنرال كوتوزوف واخرى لرجل في ثياب عسكرية
من عهد الامبراطور بول وفي هذه اللحظة صفت الساعة ودقت ست دقائق
فانفجر الباب قليلاً وأطل من خلاله رأس امرأة سرعان ما توارى لان
تششيكوف كان متجرداً من ثيابه تماماً لينام براحة . وتذكر بعد جهد ان
هذا الوجه يخص ربة المنزل فارتدى بسرعة ملابسه التي كانت موضوعة على
الكروسي نظيفة ومكوية واقرب من المرأة ليندم نفسه وهنائياً اخذ يخطط
بصوت هائل حتى ان ديكاً اقترب من النافذة وأجابه على لفته الغامضة فصاح
به تششيكوف : « ايها الحخير »

وكانت النافذة منخفضة فاقرب منها بافل ايفانوفتش فرأى في باحة البيت
عدداً كبيراً من الطيور والحيوانات الأليفة وشاهد دجاجات ودبكة تختال
في مشيتها كما شاهد خنزيراً يمر بصحبة أسرته مالبت ان سحق بقدمه فرخاً دون
ان ينتبه اليه ثم استقر في زاوية وأخذ يمزج قشور الاشجار . وكانت الباحة
محاطة بجهاز تراسي خلفه الحقول المزروعة باللفوف والبصل والبطاطس
والشوندر وغير ذلك من الخضار . وكان هناك ايضاً عدد كبير من الاشجار
المثمرة المغطاة بالشباك لحمايتها من الطيور التي كانت تحوم فوقها .

وكانت اشباح من القش موضوعة لاختافة العصفير في كل مكان ، وكان
احدهما يعتمر طاقية ربة المنزل وشاهد اخيراً تششيكوف وراء الحقول

اكوأخاً منتشرة تدل على ولاء الفلاحين كما لاحظ ان جميع السقوف كانت جديدة وان الأبواب متينة ، وكان في كل رواق عربة او عربتان . ففكر تششيكوف : « انها قرية مهمة .. سأحدث الى صاحبها » ونظر من ثقب الباب فشاهد مضيفته تتناول الشاي فخرج اليها متسلحاً باقتسامة تعلو شفته فوفقت له وقالت :

- صباح الخير ياماتوشكا ، هل ارتحت في نومك ؟

- اني قضيت ليلة مريحة وانت ياماتوشكا ؟

- لقد كانت ليلتي رديئة .

- وكيف ذلك ؟

- اني شعرت بآلام في كلبتي وساقى والعظم الواقع فوق عجري .

- هذا أمر عارض فلا تهتمي له .

- اسأل الله ان يجعله كذلك .. اني ادلك جسدي دائماً بالحناء . . ماذا تريد

ان تتناول مع الشاي .. البك هذه الزجاجاة من الكحول .

- حسناً .. حسناً ياماتوشكا سأشرب منها .

ولا بد للقارئ ان يلاحظ ان تششيكوف على عدم خروجه عن تلافه كان يحدث العبوز بحرية ضارباً صفحاً عن التحفظ الذي كان يديه امام مانيلوف ، ويجب ان نذكر باننا اذا كنا متأخرين في روسيا عن الاجانب فقد سبقناهم كثيراً في سلوكنا مع اشباهنا ولسوف يحيا الفرنسيون والامان قروناً قبل ان يدركوا خصائصنا وميزاتنا فهم سواء يتحدثوا مع مليونير أم مع بائع سيجار ، يتخذون نفس الوضع ولو غلقوا الاولى وجثوا على اقدامه ، اما نحن الروسين فلنسا كذلك اذ اتنا نعرف كيف نعدل من تعاييرنا حسب البيئة التي نكون فيها فحديثنا مع ملاك في حوزته مائتا عبد غيره مع من يملك ثلاثائة أوخمائة أو مليون ، لنتق نظرة على مايجري في دوائرنا ولناخذ رئيساً قدم حديثاً فانه

يلقي اوامره على مرؤوسيه فيليي هؤلاء تلك الاوامر بخوف وفزع .. واذا قمحنا وجهه فانتنا سنقرأ النبيل والزهو مرتسين عليه بل ان المرء ليخاله بروميثوس بشيته الموزونة كالملك ، ولكن لنتبع هذا الملك بعد ان يخرج من مكتبه ليذهب الى مكتب رئيسه فانتا نجده يطير طيراناً كأنه العصفور وقد تأبط منشقة الخادم ، اما في السهرات فان هذا الآله يظل آلهاً ، حتى اذا ما وصل موظف أعلى منه مرتبة حدث في بطلنا بروميثوس تحول غريب ، فانه يصبح ذبابة صغيرة بل اقل من ذبابة .. انه يصبح كذرة الملح فيتساءل الناس :

« ولكن اين ايفان بتروفتش ؟ » ان ايفان بتروفتش شخصية طاغية اما هذا فانه لا يكاد يفتح فيه الا ليثرثر هامساً ومع ذلك فلو ان المرء اقترب منه لوجده ايفان بتروفتش بذاته .

ولنعد الآن الى بطلنا .

اخذ تتشيكوف ، وقد قرر رفع الكلفة ، كوب الشاي وبدأ بالحديت :

- ان قريتك كبيرة باماتوشكا .. كم يبلغ عدد سكانها فأجابت ربة المنزل :

- حوالي الثمانين بابانوشكا .. لقد كان الموسم الماضي رديئاً للغاية .

- ومع ذلك فان فلاحيك يبدون في حالة جيدة .. استحي لي بالسؤال عن اسم عائلتك .

- كوروبتشكا ، سكرتير دائرة انتخابية .. لقد كان زوجي سكرتيراً لهذه الدائرة .

- شكراً ، لم استطع ان اسألك عن ذلك عند وصولي البارحة في الليل .. ثم ماهو اسمك .

- نتازيا بتروفنا .

وسألته العجوز بدورها .

- وانت ما اسمك ؟ انك حتماً من كبار الموظفين .

- لا ياماتوشكا اني لست كذلك ... فانا مسافر لقضاء اعمال .
 - آه ... انك رجل اعمال ؟ لكم انا آسفة لأني بعث علي رخيصة لهؤلاء
 التجار ، إذ انه من الممكن ان تشتريه مني يابانيوشكا .
 - عسل ؟ من المؤكد إني ما كنت لأشتريه منك .
 - إذن فلا بد أن تشتري أشياء أخرى ... أتشتري ألياف القنب ... أنا
 لا أملك منه الكثير .
 - لا ياماتوشكا فاني أرغب ببضاعة أخرى ... كم فقدت من الفلاحين في
 الآونة الأخيرة .

- اوه ... لقد فقدت منهم الكثير ياباتبوشكا ... ثمانية عشر رجلاً من
 أحسن العمال وقد ولد بعضهم أطفال غير انهم لا يساوون الشيء الكثير .
 وأخيراً علي ان أدفع الضريبة عن كل نفس ... انهم أموات ومع ذلك يجب
 ان أدفع عنهم كما أدفع عن الاحياء . وفي الاسبوع الماضي مات حدادي محترقاً
 وقد كان في نفس الوقت صانع اطفال ماهر .

- هل حصل عندك حريق ياماتوشكا ؟
 - نجانا الله من هذه المصيبة ، ان الحريق لشيء نظيع ... لا . لقد سكر
 ذلك الحداد وأشعل النار بنفسه فيما حوله فاحترق ... انه حداد ماهر ولن
 أقوى على السفر بعد الآن لانه لا يوجد من يجدي الحبل .

فقال تشتشيكوف وهو يتنهد :

- تلك إرادة الله ياماتوشكا ... ان حكمته لنا فذة ... اعطني ايام
 يانازيا بتروفنا .

- من ؟

- جميع من مات .

- وكيف يكون ذلك ؟

- ذلك أمر بسيط بيعيني اياهم وسأدفع لك عنهم نقوداً .
- أعترف بانني لا أفهم ، أتريد ان تنبش قبورهم وتخرجهم منها .
- وأدرك بأقل ايفانوفيتش ان العجوز قد تقيم العقبات في وجه الصفقة فتدخل في التفاصيل وأوضح لها في كلمات ان البيع سيتم على الورق فحسب وان الاموات سيجلسون في العقد أحياء . (١)
- فهمت تنازياً بتروفا وهي تحملق فيه دهشة :
- ولكن ، اذا تقيد من النفوس الميتة ؟
- ان ذلك يتعلق بي وحدي .
- ولكنها نفوس ميتة .
- لم أقل انها حية ، ثم ان هذا الشراء يجنبك الحسارة ... فأنت تدفعين الضرائب عن الموتى وأنا ارجحك من ذلك وأدفع لك علاوة على ذلك خمسة عشر روبلاً .
- فأجابت بعد تفكير :
- لا ... لست أدري فانا لم أبيع قط نفوساً ميتة .
- لو بيعت منها لكنت معجزة أعتقد ان هذه النفوس تقيدك في شيء .
- لا ... لا أعتقد ذلك ولهذا فانا مترددة ... انها نفوس ميتة . وفكرت تشنيشكوف : « انها لصعبة الاقتناع » ثم قال بصوت مرتفع :
- اصفي الي ياماتوشكا . انك تبذرين مالك بدفع الضرائب عن الموتى .

(١) قبل تحرير العيد في روسيا كان الملاكون يدفعون عن كل عبد حي ضريبة ما . ولكن احصاء العيد كان يجري مرة كل عشر سنوات ولذلك كان يحدث ان يدفع الملاك ضريبة عن الموتى من العيد على اعتبار انهم احياء . وكان تشنيشكوف بشرائه النفوس الميتة يأخذ على عاتقه دفع الضرائب عنها ويستطيع بابرار سندات البيع ، قبل انقضاء هذه السنوات العشر ، أن يحصل على قروض من الخراف .

— هذا بخيف بالفعل . لقد دفعت في الاسبوع الماضي فحسب مائة وخمسين روبلاً بعد أن لاطفت الموظف كثيراً .

— اذن فانت ترين ياماتوشكا . . . انت ترين ذلك بنفسك . . . لن نحتاجي بعد الآن الى ملاطفة الموظف ، سأخذ على عاتقي جميع النفقات وسأدفع كل شيء حتى نفقات نقل الملكية .

اخذت العجوز بالتفكير ، ان الصفقة تبدو رابحة ولكنها غريبة الى حد تخشى معه ان يخذعها هذا الرجل الذي يعلم الله وحده من اين انى في الليل .

— ماذا ياماتوشكا ؟ اقررت البيع ؟

— في الحق ياباتيوشكا اني لم أبع في حياتي امواثاً . . . لقد بعث عبيداً احياء لبرويوف منذ ثلاث سنوات . . . لقد بعته فتاتين صغيرتين باثنة روبل عن كل فتاة ، وقد شكرني كثيراً لانها كانتا تحسان التطريز .

— ولكنني لست اتكلم عن الاحياء ، باركهم الله . . . اني في مجال الحديث عن الاموات .

— الواقع اني خائفة من الاستعجال في البيع . . . انا اخشى الحسارة . . . ومن الممكن انك تريد خداعي ياباتيوشكا اذ ربما كانت النفوس الميتة تساوي اكثر من المقدار الذي ستدفعه لي .

— ياالشيطان . . . ماهذا الطبع ياماتوشكا . . . ان نفوسك الميتة ليس الالهة . . . هباء لا اكثر اتفهين ذلك ؟ خذي اي شيء . . . خذي خرقة بالية ، فانها تصلح لصنع الورق ، اما نفوسك الميتة فانها لاتصلح لشيء . . . وهل تستطيعين اخباري عن فائدتها .

— انه لا قيمة لها بالفعل ، وهذا هو عين السبب الذي يجعلني مترددة . . . انها نفوس ميتة .

وفكر تشييكوف : « ليذهب الشيطان بهذه الدابة الالهية . . . يبدوان التفاهم معها مستحيل . . . رباه لقد اختفتت من كثرة الحر ، واخرج منديله من

جيبه ثم اخذ يجفف العرق الذي بدأ يتلألأ على جبينه . وكان يفتاظ دون مبرور لان كل انسان سواء أكان رجل دولة ام تاجر بسيطاً يقف نفس موقف تنازياً بتروفتنا في هذه الظروف . لاشيء يتمكن من ازالة الفكرة الثابتة حتى الادلة المنطقية نفسها فانها تصطدم بالعناد وترتد اشبه ماتكون بكرة المطاط ، ومع ذلك فقد بذل بافل ايفانوفتش مجهوداً اخيراً وقال :

- انك لاتودين فهم كلامي ياماتوشكا كانما نتكلمين لتحركي لسانك فحسب اني اعطيتك نقوداً ٠٠٠ خمسة عشر روبلاً نقداً وعداً ، وهو مبلغ كبير لايمكنك ايجاده في الطريق ٠٠٠ اجيبي بكم بعث العسل ؟

- بعث البود (وحدة وزن روسية تعادل ١٦ كغ) باثني عشر روبلاً .

- لا انك لم تبعيه بهذا المبلغ .

- اقسم لك على ذلك .

- حسناً فليكن ... ولكن هذا عسل ... ولتد تعبت كثيراً كي تحصيلي

عليه ... انك ربيت النحل ... اما النفوس الميتة فهي بضاعة ليست من هذا العالم وهي لانكلف مجهوداً ، ولقد غادرت هذه النفوس الارض بارادة الله ، هناك ترين اثني عشر روبلاً لقاء عمل قمت به وهنا تأخذين مالاً مقابل لاشيء خمسة عشر روبلاً جديدة .

وظن تشتشيكوف انه افهمها ولكنها اجابت :

- بالحق نظقت ولكني ارملة غير مجربة ، لذلك افضل الانتظار قليلاً إذربما

جاء تجار آخرون فأخذ منهم فكرة صحيحة عن الاسعار

... ولكن هذا مخجل ... مخجل ... مخجل ياماتوشكا ، فكري في نفسك

ماذا تقولين ، من الذي يشتري منك نفوساً ميتة ولأي شيء تصلح

- يمكن ان تنهى الفرصة دوماً في الاعمال

فهتف تشتشيكوف :

وفي اية اعمال تفيد النفوس الميتة؟ انك تبالغين يا ماتوشكا فهل تستخدمين تلك النفوس الميتة لأجل ترويع الشحارير في حقولك ليلاً

كانت المعجوز تستمع اليه وجلة ثم رسمت اشارة الصليب واجابت :

- انت تجدف

فأردف تشنشيكوف

- ولكن ابن تيردين وضعها ؟ ان الجثث والقبور نطل . لمسا لك والبيع يحصل على الاوراق فقط ... فماذا قررت ؟ ... اجيبي ! ولكن المعجوز ما زالت تفكر

- بماذا تفكرين يا ننازيا بتروفنا

- في الحق لا افهم شيئاً ... اني افضل ان ابيعك الياف القنب

- لست بحاجة اليها ... اني اطلب منك شيئاً آخر ، وانك لتعينيني بقنبك

فالقنب شيء ، والنفوس الميتة شيء آخر ... ماذا اذن يا ننازيا بتروفنا

- الحق ان الصقعة غريبة وخارجة عن المألوف

وفقد تشنشيكوف صبره فنهض بسرعة ثم رفع الكرسي عالياً وضرب به الارض وهو يقسم بالابالسة ، فأفزع ذكر الشياطين المعجوز فهتفت وقد شحب لونها من الملح

- اوه ... لاتسكلم عن الشيطان ... لقد مضت ثلاثة ايام على حلمي بهذا المخلوق اللعين وبعد ان راجعت ورق اللعب وصلت ادركت ان الله قد ارسل لي هذا الحلم ليه اقنني على خطيئة ارتكبتها

- اني لأستغرب اذا علمت بان هذه الاحلام لاتزورك غالباً ... واني لأنصرف مدفوعاً بعامل الشفقة المسيحية ... اني ارى ارملة مسكينة محتاجة يقتلها التعب ... ألا فلتحل اللعنة على هذه القرية برمتها

فنظرت اليه المعجوز بفزع وقالت :

انك تجدف ببساطة ما بعدها ببساطة

- انت ترغبنني على التفوه بهذه الكلمات دونما رغبة مني في اهانتك ...
وتصرفين كخادمة مزرعة وفتت فوق كومة قش كبيرة الى حد لاندري
ماذا تفعل بها ولا تريد ان تدعها لأنسان ... اني أريد ان اشترى منك اشياء
اخرى لاني اشتغل بالتجارة

وكان يكذب غير أن هذه العبارة التي القاها تششيكوف عرضاً نجحت
نجاحاً عظيماً إذ ان الحديث عن التجارة سرعان ما غير من موقف العجوز
فأجابت بصوت فيه رنة رجاء :

- ولكن فيم الغضب ؟ لولا غضبك لتصرفت حسب رغبتك .

- أغضب ... ولكن لماذا ؟ ان الصفقة كلها لا تساوي بيضة فاسدة .

- حسناً فليكن لقد بعثك بخمسة عشر روبلاً ... ولكن تذكري عندما
تريد أن تشتري شيئاً يابابوشكا ... كدقيق الشعير والقمح الاسود
والحيوانات ... وإياك أن تخون العهد .

- لا تخشي أية خيانة ياماتوشكا .

وجفف تششيكوف عرقه وسأل العجوز عما إذا كانت تعرف أحداً في
المدينة لينهي معه الصفقة فأجابت تنازلاً بترقنا :

- أجل اني أعرف الارشندريت والاب سيريل وابنه عضو المحكمة .

ورجاءها تششيكوف أن تكتب اليه خيفة مصاعب جديدة وحرر الرسالة
بنفسه . وكانت العجوز أثناء ذلك تفكر : « يجب ان أبيعهُ دقيقتاً وبعض
الحيوانات » وكي تغريه بالشراء قالت :

- لقد بقي عندنا شيء من العجين الباردة ، وأنا خادجة لآمر فيتينيا بصنع
بعض الحلوى بالبيض ولن يطول انتظارنا .

وخرجت لتلقي اوامرها وخرج بافل ايفانوفتش ايضاً ليحلب اوراقاً
فذهب الى الفرقة التي نام فيها فوجد كل شيء منظماً فتناول اوراقه وجلس
لينال شيئاً من الراحة ذلك ان حديثه مع العجوز قد أرهقه « لقد أنهكتني

هذه المعجوز المعينة ، وفتح حقيبة سفره ، ولعل القارىء سيهتم بمعرفة محتوياتها فلماذا اذن لا أرضي فضول القارىء ؟ كان هذا الجراب يحوي على قطعة صابون داخل خمسة او ستة جيوب معدة لأمواس الحلاقة وهناك جيوب اخرى للمحابر والريش وقطع الشمع لحتم الاوراق وكان ثمة جيب يحوي على مختلف انواع البطاقات . بطاقات للزيارة واخرى للتعبئة وثالثة للمسرح وهي ذكريات قديمة يحتفظ بها . ويلتقي تشتشيكوف بريشته فيأخذ بالكتابة في نفس اللحظة التي تدفع فيها ربة المنزل الباب وتنهف :

- ماهذه الحقيبة الجميلة يا باتيوشكا ، لا ريب انك اشتريتها من موسكو .

فأجاب تشتشيكوف وهو يتابع الكتابة :

- أجل اشتريتها من موسكو .

- كنت اعرف ذلك ففي موسكو يصنعون جيداً فقد اشترت شقيقتي

احذية لأولادها منذ ثلاث سنين وما زال الاولاد يلبسونها حتى الآن لمئاتها .

ونظرت الى الحقيبة وكان فيها عدد كبير من الاوراق قد ألصقت عليه

الطوابع فقالت :

- آه ماهذه الاوراق اتريد ان تعطيني واحدة اذ ليس عندي ورق اذا

سئت ان أقدم طلباً للمحكمة .

فأوضح لها بافل ايغانوفتش ان هذه الاوراق معدة لشراء العبيد ومع ذلك

فقد اعطاها ورقة عليها طابع بقية روبل وأنهى رسالته فوقعتها المعجوز ثم طلب

منها قائمة باسماء العبيد .

ولم يكن لدى نتازيا بتروفنا قائمة ولكنها كانت تحفظ عن ظهر

قلب اسماء جميع فلاحها . فطلب منها تشتشيكوف ان تقرأها عليه

وكانت بعض الالقاب تدهش بافل ايغانوفتش ولم يستطع ان يخفي استغرابه

بينما كانت المعجوز تعدد الاسماء وتلت :

- بيوت سافيليف الملاك هنا .

فنهف تشتشيكوف :

— يا الهي

وتوات الالقاب (آجر البقرة) ثم لقب آخر أب (ايفان الدولاب) . وعندما
انتهى بافل ايفانوفتش من الكتابة امتلأت خياشيمه برائحة الزبدة فقالت له
حضيفته .

— اتريد تناول الطعام

فنظر تشتشيكوف الى المائدة فرأى فطائر وحليباً وحلوى واشياء كثيرة
اخرى فتناول الطعام ثم طلب من تنازبا بتروفنايهة عربته فارسلت هذه فيتينا
لتنقل الامر الى سليفان وامرتها ان تحضر بعض الحلوى ، فقال تشتشيكوف
وقد عاد الى الاكل :

— ان هذه الحلوى فاخرة ياماتوشكا .

فاجابت :

— اجل ان الطاهية تجيد صنعها ، ولكن الموسم ^٣ لسوء الحظ رديء .
ووفقى هذه الحلوى ليس جيداً .

وشاهدت تشتشيكوف يتناول فبعته فأضافت :

— لكم انت متاهف الى الذهاب . . . ان عربتك لم تعد بعد .

— انهم يعدونها وسليفان نشيط جداً .

— أفلن تنسى وعدك اذن ؟

فاجاب بافل ايفانوفتش

— لن أنسى هذا الوعد فانا افكر فيه .

— هل ستشتري مني ايضاً شحم الخنازير

— بالتأكيد ولكن فيما بعد

— سيكون في حوزتي منه في عيد الميلاد القادم

— لن أنسى ذلك .

— ربما كنت بحاجة الى ريش الطيور فسيكون لدي منه ايضاً .

- حسنا ... حسنا .

وعندما وصلا الدرج قالت :

- انك ترى ان عربتك لم تعد بعد .

- ستعد في الحال ... اجيبيني أين يقع الطريق العام؟

- هذا صعب جداً فهناك منعطفات كثيرة ... سأرسل معك فتاة صغيرة ...

أهناك مكان بجانب السائق .

- طبعاً .

- انها تعرف الطريق ولكن لا تأخذها معك .. لقد سرق التجار مني

مثلها ، فطمأنها تششيكوف ؛ وفي هذه الاثناء كانت تنازبا بتروفنا ترقب جميع ما يجري في الباحة .

ولكن لماذا نهتم بتنازبا كاروبتشكا؟ وما الفرق بين مانيلوفا وكاروبتشكا

أو بين الحياة الفردية والحياة الراقية ؛ انما يجب التمسك بالحياة السعيدة خشية أن تتحول الى شقاء .

وربما نسأل القاريء : أتكون كاروبتشكا منعطة جداً في سلم الكمال

الانساني ، وهل هناك هوة سحيقة تفصل بينها وبين شقيقتها القاطنة في منزل أروستقراطي مؤثث بالرياش المصنوع من خشب الاكاجو والسجاد المترف .

تلك السيدة الارستقراطية التي تتأهب فوق كتاب لم ينته تنتظر زيارة نهيء لها فرصة لتبرز فيها مواهبها وتعبّر عن أفكار حفظتها عن ظهر قلب تشغل بها المدينة اسبوعاً كاملاً ، وهذه الافكار لا تتعلق مطلقاً بتدبير المنزل أو الاملاك التي تتوزعها وانما هي تتعلق بانقلاب سياسي قد يحدث في فرنسا أو في الكاثوليكية .

لنضرب صفحاً عن كل هذا ولننس الاحزان ولنتابع الضحك فان مخلوقات

اخرى سوف تمر أثناء هذه القصة وعندئذ سوف تشرق في وجوهنا الابتسامة .

وشاهد تششيكوف العربة تقترب فهنف :

- تلك هي العربية . . . ولكن لماذا تأخرت إليها الغبي؟ أرى ان سكر
البارحة لم تزل تماماً

فصمت سليفان

- الى اللقاء باماتوشكا ولكن أين الفتاة الصغيرة
فصاحت ننازيا بتروفا بفتاة صغيرة كانت تسير حافية قرب الدرج

- بيلاجيا اذهبي دلي السيد على الطريق

كانت اقدام هذه الطفلة مكسوة بالوحل حتى ليخال المرء قدمها من بعيد
حذائين ، وقد وضعت رجلها فوق درجة العربية فانسخت عندما اخذ سليفان
يساعدها لتجلس بقربه ، وصعد تشتشيكوف العربية بعدها وقال :

- كل شيء على مايرام وداعاً ياننازيا بتروفا

واندفعت الجياد وكان سليفان حزيناً طيلة المسافة مما جعله يهتم بعمله اكثر
من اي وقت مضى ، وكانت تتنابه هذه الحالة النفسية عقيب كل سكرة أو حافة
يرتكبها ، واما حيواناته فكانت نظيفة بشكل مدهش

وكان سليفان يلهب ظهور جياده صامتاً دون ان يلقي عليها محاضرة فلسفية
قد لا يرضى عنها الفنان. ويبدو ان الجوادين كانا غير مسرورين لعدم سماعها النعوت
الطيبة التي اعتادوا سماعها ، غير ان الجواد الثالث كان يتلقى الضربات متلاحقة
على المناطق الحساسة من جسمه ، وكان يفكر وقد انتصبت اذناه : « ان المعلم
غاضب اليوم وهو يعرف تماماً ابن يضرب ، انه لا يجلد ظهري ابداً ولكنه يختارة
النقاط الحساسة من اذني وبطني . »

واشار سليفان بسوطه الى طريق وسط الحقول كسته الامطار بخضرة جميلة
وسأل الصبية بجفاء :

- هل ادور ميمناً ؟

- لا . . . لا سأدلك

وعندما اقتربت العربية من الطريق عاد سليفان الى السؤال :

ولكن أين .. أين ؟

فمدت الطفلة يدها فتهف سليفان

ولكن هذه الجهة هي اليمنى ألا تعرفين شمالك من يمينك ؟

وكان الجو جليلاً ولكن الأرض الموحلة كانت تعيق سير العجلات وهكذا

قضت العربية وقتاً طويلاً لتقطع الطرقات الصغيرة المؤدية الى الطريق العام

وكان من المستحيل على سليفان معرفتها لولا وجود الطفلة ذلك ان العاصفة

افقدتها معالمها ، وبعد قليل أشارت الصغيرة الى منزل أسود بعيد وقالت :

— هذا هو الطريق العام.

— وتلك البناية ؟

فندق .

— حسناً اذهبي يمكننا هنا ان نتابع السير وحدنا .

وأوقف العربية وساعد الصغيرة على النزول وهو يتم :

« تلك هي الطفلة ذات الساقين السوداوين » .

وناول تششيكوف الطفلة قطعة نقود فعادت هذه مسرورة من نزهتها

في العربية .

الفصل الرابع

أما تشتشيكوف سليفان بالوقوف قرب باب الفندق ، وكان السبب في ذلك ان الخيول كانت متعبة وانه كان يشعر بالحاجة الى نساول وجبة طعام دسمة . ويعترف المؤلف بانه يحسد شبة أمثال بافل ايغانوفتش التي تسخر تماماً من أفراد الطبقة العليا في مجتمع بطرسبرج أو موسكو لأن أفراد المجتمع الراقي لا يفكرون إلا بتنوع وجبات الطعام واحتوائها على ألوان شبة قبل ان يذهبوا إلى القوقاز للعناية بعمدهم . أما أمثال بطلنا الذين يأكلون متى شاؤوا وكيفما اتفق فان السماء قد حبتهم معدة قوية يتسنى أن يحصل عليها كثير من الاغنياء مضحين في ذلك بنصف عبيدهم واملاكهم المرهونة وغير المرهونة . ولكن هذا العضو لسوء الحظ لا يباع ولا يشترى . *

واستقبل الفندق القروي تشتشيكوف تحت سقفه المضيف . وكانت مبنياً فوق أعمدة تذكّر بشموع الكنائس . وصعد بافل ايغانوفتش درجاً ضيقاً واجتاز رواقاً عريضاً فشهد باباً لا يفتح دون صرير وكانت هناك عجوز ترتدي ثوبا صافياً فتمتت : « أرجوك من هنا » وشاهد بافل ايغانوفتش أشياء كان يألفها في الفنادق الريفية . . . شاهد السائور والمائدة الصغيرة المثقلة بالثقل باواني الشاي

والاكواب وشاهد بيضات صغيرة من الحُزف معلقة باشرطة زرقاء وحمراء
قرب الايقونات وهرة ومرآة تشوه الوجوه ونضجها ، كما شاهد زهوراً جافة
لا يقوى المرء على استنشاقها دون أن يعطس .

وتوجه تششيكوف الى المعجوز مسألاً :

- هل عندكم لحم خنزير ؟

- أجل عندنا .

- بالريفور والقشدة ؟

- تماماً .

- اذن أعدي لي منه شيئاً .

وزهبب المعجوز لتهيء الطعام ثم عادت تحمل صحنين ومنشفة أشبه بقشور
الاشجار ، ومعلقة قد كسرت احدى قوائمها واخيراً شوكة عجوزاً لم يبق من
اصنامها غير اثنين . واخذ بافل ايفانوفيتش كمادته بالحديث مع المعجوز ،
فألمها اذا كانت وحدها صاحبة الفندق او هل هناك معلم وهل تبيع كثيراً كما
استعلم ايضاً عن اسرة المعلم ... اهو متزوج أم اعزب وهل هو سعيد بالبانة
التي قدمتها زوجة ابنه له وبالأجمال لم ينس تفصيلاً واحداً . واهتم كذلك
بطبيعة الحال بمدد الملاكين في الانحاء المجاورة واجابت المعجوز على سؤاله عن
أسماء الملاكين :

- بلوشين ، ايونشباتيف ، ملينوف ، الكولونيل تشيراكوف

وسوباكيفتش .

- آه أنعرفين سوباكيفتش ؟

فأجابت المعجوز انها لاتعرف سوباكيفتش فحسب بل ومانيوف ايضاً .
وكانت تفضل الاول كثيراً لانها تجده أطف من الثاني ، وفي الواقع فانه
عندما يحصل ان يحضر الاثنان معاً الى الفندق فان سوباكيفتش يأمر على الفور
باعداد دجاجة ويطلب شيئاً من لحم البقر وكل ما لدى المعجوز من اصناف

جيدة ، أما مانيولوف فكان لا يطلب الا صحن واحدًا ولا يدفع اكثر من
السعر العادي حتى ولو حصل أن طلب زيادة .

وفي هذه الاثناء بينما كان بافل ايفانوفتش يتطلع آخر قطعة من لحم الخنزير
سميع فجاء صوت عربة فظفر من النافذة فشاهد عربة يجرها ثلاثة جياد . وهبط
من تلك العربة رجلان : الاول اشقر طويل القامة والثاني اقصر منه ويميل الى
السمر . وكان الاشقر يرتدي سترة زرقاء غامضة بينما كان يرتدي الاسمر
معطفًا طويلًا . ثم وصلت عربة ثانية يجرها اربعة جياد وكان مظهرها حقيرًا .
صعد الرجل الاشقر الى الفندق في حين تأخر الثاني عنه ليحضر شيئًا ما من
العربة وهو يشير نحو العربة الثانية . ويصبح بالحلودي ، ولم يكن صوته غريبًا
على تششيكوف . وفي ذلك الحين دخل الاشقر وكان طويل القامة نحيل
الوجه ذا شاربين أشهبين فجاء تششيكوف بادب . وكان على وجهه بعض
الهاباب .. هباب التبغ طبعًا لهاباب البارود . وكان من الممكن ان تجري
محادثة بينه وبين بافل ايفانوفتش لان كلاهما كان فرحًا لخلاصه من المطر
وغبار الطريق لولا ان دخل الاسمر القاعة فخلع قبعته وامر بيده فوق شعره .
كان رجلًا متوسط القامة متورد الخدين ابيض الاسنان اسود الشعر ، يشعر
المرء بقربه بتفجر الحيوية والعافية والقوة ، وهنف فجأة عندما رأى
تششيكوف :

- با .. با .. با .. انها لصدفة سعيدة .

وعرف تششيكوف فيه نوزدريف له الشخص الذي قابله عند المدعي العام
والذي رفع الكلفة معه بعد دقائق من تعرفه به دون أي سبب .
وقال نوزدريف .

- الى أين انت ذاهب ؟

واضاف دون ان ينتظر منه جواباً :

- أما أنا فعائد من السوق .. انظر في أية عربة جئت .. انظر اليها من النافذة
ثم انقض على رأس تشتشيكوف ولواه نحو النافذة بعنف آله .

- أية عربة صغيرة هذه العربة .. لقد انتقلت الى عربة رفيقي .
واشار نوزدريف الى رفيقه وقال :

- أو لم تتعارفا بعد .. اقدم لك صهري ميجيوف .. لقد كنت اتحدث عنك
طيلة الصباح وكنت اقول له لسوف ترى تشتشيكوف .. آه ياخي لو تعرف
كم خسرت .. لم يبق لي شيء .. لا الساعة ولا سلسالها .

ونظر تشتشيكوف في محذنه فرأى انه لا يحمل الساعة ولا سلسالها بالفعل وبدا
لتشتشيكوف ان احدى ساليقه ابضاً ارق من الاخرى .

وتابع نوزدريف :

- لو كان معي عشرون روبلاً فحسب لربحت كل شيء .. عشرون روبلاً فقط
لو وجدت معي اذن .. لربحت ثلاثين ألفاً .

فتدخل ميجيوف وقال :

- لقد اعطيتك خمسين روبلاً فخسرتها .

- اقسم لك اني ما كنت لأخسرها لولا هذه الحماقة .

لولا هذه السبعة الملعونة لربحت كل شيء ..

فرد الآخر :

- ومع ذلك لم تبيع ثمة شيء ..

- هذا بسبب سوء الحظ .. أعتقد ان طيببك يحسن اللعب .

- ان كان يحسنه اولا يحسنه سيان ؛ انما المهم انه ربح منك .

فصاح نوزدريف :

- هذا كلام .. لسوف أهزمه أنا الآخر واربح منه اضعافاً مضاعفة وسترى

أي لاعب هو .. وبالمقابل ياخي لكم لهونا .. لقد بيعت جميع ما أتيت به بأسعار

جيدة .. ولقد افتقدناك كثيراً ... تأمل انه على مبعده ثلاثة (فرسات) من هناك كانت فرقة من الجيش ... وقد شرب جميع ضباطها وعددهم اربعون ، والكابتن بوستلوف ... ان له شاربين مدهشين ... وهو يسمي نبيذ البوردو « بوردوشكا » واما الملازم كوفشينكوف فهو الطيبة المجسمة ... اية خمرة شربناها عند بوتوماريف ... ان بوتوماريف نذل بطبيعة الحال ، ذلك انه ليست عنده خمرة جيدة ، لقد ملأ زجاجاته بخالة الخمر ولكنه اخفى الثور الجيدة في غرفة كتب عليها « خاص » ولن اقول لك بان هذه الغرفة هي الفردوس ... ان شبانيا الحاكم لتتضاءل امام ما شربنا ، ولقد وصل بعدنا امير وفئت فبحث عن زجاجة من الشبانيا في جميع المحال ولكننا شربنا كل شي ... لقد شربت وحدي اثناء العشاء سبع عشرة زجاجة ...

فقاطعه صهره :

- انت لم تشرب سبع عشرة زجاجة .
- بشرف كل انسان نبيذ اني شربتها .
- انك لتستطيع ان تقول ماتشاء ولكنك لن تقوى على شرب عشر زجاجات .
- اراهنك اني استطيع .
- وعى أي شيء تراهن .
- على بندقيتك التي اشتريتها حديثاً .
- لا اريد .
- جرب إذن .
- لا اريد .
- أنت تخاف ان تفقد بندقيتك .
- وتابع نوزدريف متوجهاً إلى تششيكوف :
- لكم أسف لأنك لم تكن هناك ... لو كنت لما أمكنك الانفصال عن

الملازم كوفشينكوف ولاصحت صديقه له . ان الفرق كبير جداً بينه وبين المدعي العام ومجلاء المدينة الآخرين الذين يرتجفون لدى اتفاق كوبيك واحد... أجبني بصراحة يا تشتشيكوف ما الذي منعك عن الحضور ...

ما أنت الا غبي ... وخنزير ... عاتقني أباروحي الصغيرة فسأحبك حتى الموت ... ميجيوف قل شيئاً ما أفلا ترى ان الاقدار قد جمعنا مع تشتشيكوف؟ الله أعلم من اين انى ، وأما انا فاني احيا هنا دائماً ... كم من عربة وحديث في السوق ... اني أروي لك كل هذا باختصار دون اي تفصيل ... أتعلم؟ لقد لعبت البارحة وربحت علبتين من مربى التفاح وكوبا من الحزف وقيشارة ثم جربت حظي كرة اخرى فخسرت ... ياله من رجل فائن هذا الملازم كوفشينكوف . لقد ذهبنا معاً إلى جميع الحفلات الراقصة وكانت هناك امرأة غريبة تماماً ... لايعلم غير الشيطان ماذا كانت ترتدي... وقد جلس ذلك الحيوان كوفشينكوف بجانبها والتقى في أذنها بعض كلمات المديح باللغة الفرنسية ... انه يحصل على جميع النساء . وهناك اشترينا بعض السمك ... لحسن الحظ اني اشتريت قليلاً منه قبل ان أخسر تقودي ... وأنت اين تذهب الآن ؟

فأجاب تشتشيكوف :

- سأزور احدهم

- ليذهب (احدهم) هذا إلى الشيطان ... تعال عندي .

- مستحيل عندي عمل .

- عمل ؟ أي نلفتي ... ايها الحبيث .

- انه عمل عاجل ... اقم لك على ذلك .

- اني أراهن على انك تكذب ... وإلى عند من أنت ذاهب ؟

- إلى سوبا كيفتش .

فانفجر نوزدريف ضحكا وكشف عن أسنانه البيضاء كالسكر وهز رأسه

الاسمر الكبير . وكانت ضحكته تم عن رجل ثري يستطيع ان يوظف من النوم جاراً له تفصله عنه ثلاث غرف فينتف هذا الاخير .. لعنة الله عليه هاهو يضعك كرة ثانية .

فأجاب تششيكوف وقد بدا عليه الحلق :

- اني لا أجد في ذلك شيئاً مضحكاً .

غير ان نوزدريف تابع ضحكه وهو ينتف : الرحمة ... الرحمة اني اموت ضحكا ...

وتابع تششيكوف :

- ليس من شيء يضحك في ذلك ... ولقد وعدته ...

فقال نوزدريف اخيراً .

- ستلحن حظك حين تصبح عنده ... لا يوجد مجبلان في العالم مثل - ربا كيفتش . اني اعرفك جيداً فانت تخدع نفسك كثيراً ان ظننت انك واجد هناك خيراً ولعباً ... اسمع يا أخي ليذهب سوباكيفتش إلى الشيطان ... اني ادعوك الى بيتي فعندي سمك لا تجد مثيلاً له ... ولقد قال لي يونوماريف هذا الحيوان الذي باعني هذا السمك : « تستطيع ان تتجول في المدينة كلها فلن تجد له مثيلاً » اني أتناول طعام الغذاء عنده دوماً مع كوفشينكوف ... آه لقد نسيت ان اقول لك يا أخي انك لن تفارقنا ... سأريك شيئاً لن أبيعك اياه بألفي روبل ... وصاح من النافذة بخادمه الذي كان يحمل في يده سكيناً وفي الاخرى قطعة من الخبز والسمك :

- ايه يورفييري اعطني كلبي الصغير .

ثم قال متوجهاً بجديته إلى تششيكوف :

- انه حيوان جميل ولقد وعدت صاحبه ان أعطيه مقابلاً له الفرس التي

استبدلتها عند شقوستريف ... أأندكر ذلك ؟

وبالطبع فان بافل ايفانوفتش لم يسمع في حياته اسم شفوستريف ... وفي تلك اللحظة سألت صاحبة الفندق نوزدريف :

- ألا تريد ان اقدم لك شيئاً يا سيدي ؟

- لا شيء ... سأحلم باليلة التي قضيتها مع كوفشينكوف ... ولكن أعطني كوباً من الفودكا ... اي نوع من الفودكا عندك ؟
- فودكا مع البانسون .

- اعطني منها ... لقد كانت مغنية تنشد على المسرح كانوا الملاك ، وكان الوجد كوفشينكوف يردد طيلة الوقت : « هذه فرصة للاستمتاع بالكرزة الصغيرة يا صديقي » . وجاءت العبوز في تلك اللحظة تحمل الفودكا فأخذ نوزدريف الكأس من يدها فانحنت له ، فهتف وهو ينظر الى بورفيري يأتي بصحبة الكلب :

- هيه ... هانه هنا .

وكان الحادام يرتدي معطفاً طويلاً كعمله إلا انه اكثر اتساعاً .

- ضعه على الارض .

فوضع الحادام الحيوان على الارض فأخذ الكلب يشم الارض فرحاً باستعادة حريته ؛ وهتف نوزدريف وهو يرفعه اليه في حين أرسل المسكين عواءاً حزيباً :

- هل هو جميل

ثم تابع متوجهاً إلى بورفيري .

- انك لم تقم بما أمرتك به فأنت لم تنظفه .

- لقد فعلت

فنظر نوزدريف الى بطن الحيوان الصغير بامعان وقال :

- لبس ما تقول صحيحاً .

- لقد نظفته .

- إذن من اين أنت هذه البراغيث .

- ربما كانت في العربة .

- أنت تكذب ... أنت اكذب وانا واثق ايها الغبي من انك وضعت

البراغيث في جسده منك . انظر يا تششيكوف هاتين الاذنين وتلك القوائم .
فقال تششيكوف .

- اوه ... أرى انه حيوان أصيل .

- ولكن انظر اليه ... المس أذنيه .

ولس تششيكوف أذني الكلب ليروضي نوزدريف وغنهم « لسوف يكون
كلباً جميلاً »

- انظر هذا الفم .

ولم يشأ تششيكوف إغضابه فربت بيده على فم الكلب وقال : « ان حاسة
الشم عنده قوية » .

- هذا يكفي احمله بابور فيري .

فأخذ الخادم الكلب وذهب به .

- اسمع يا تششيكوف يجب ان تأتي معي مها كلف الامر فييتي لا يبعد

كثير من خمسة (فرسات) من هنا ، ثم نذهب من هناك الى سوبا كيفتش ،

وحدث تششيكوف نفسه « وأخيراً ماذا .. يمكنني الذهاب معه .. ثم بماذا

هو أسوأ من الآخرين ؟ .. انه رجل خسر كل شيء وربما هذا يساعدي على ان

اتال منه ما أرغب بسهولة » ثم قال متوجهاً بالحديث الى نوزدريف .

- فليكن .. سأذهب معك ولكن لا تأخرني كثيراً فالوقت عندي ثمين

فهتف نوزدريف

- اذن هكذا أيا روجي الصغيرة ؟ انتظر فسأقبلك لهذه الكلمة الطيبة .

واعتنق الرجلان .

- عظيم لنذهب ثلاثتنا .

فقال الصهر :

- ! دعني فساذهب الى بيتي .

- هذه حماقة .. ستأتي معنا .

- في الحق ان زوجتي ستغضب علي .. ويمكنك ان تذهب بمربة هذا السيد

فقال نوزدريف ملحاً .

لا فائدة من الكلام .

كان ميجيوف من الاشخاص الذين يبدوون لأول وهلة مصريين على آرائهم متمسكين بها ، ثم ، ودون ان ينتظر أحد يتحولون الى قبول ما رفضوه ويجدون معقولاً ما كانوا قد نعتوه بالجنون وأخيراً يرقصون على ايقاع قيثارة غريبة عنهم ، ، وبتعبير آخر انه يبدو من الاشخاص الذين يبدوون عقلاء وينتمون مجانين .

وهنف نوزدريف وهو يأخذ قبعة صهره ثم يعيدها الى رأسه :

واقترح ميجيوف ونهايا الاصدقاء الثلاثة للذهاب فقالت العجوز :

- انك لم تدفع لي ثمن الفودكا ايها السيد .

- حسناً ياماتوشكا ، ادفع عني ايها الصهر الصغير العزيز اذ لا أحمل

كوبيكا واحداً .

فسأل الصهر العزيز العجوز قائلاً :

- ماذا تريدن ؟

- جريفتان ونصف باباتوشكا .

فصاح نوزدريف :

- انك تكذابين ... انك تكذابين اعطها نصف ماطلبت فهو يكفيا .

- ولكنه قليل جداً باسيدي .

ومع ذلك فانها لم نكتفي بأخذ ما عطاها وشكره ، بل أسرعنا الى الباب
نفتحه للمسافرين : ذلك انها طلبت اربعة اضعاف ثمن الفردكا .

وهبط الاصدقاء الثلاثة وأخذوا محلاتهم داخل العربتين ، وكانت عربة
تشتبيكوف تسير بجذاء عربة ميجيوف بحيث كان يمكن للثلاثة ان
يتحدثوا معاً .

وكانت عربة نوزدريف الصغيرة تتبعهم ببطة ، تجرها خيول ضعيفة ، وكان
يورفييري يقودها وقد وضع الكلب في حجره .

أما الحديث الذي جرى بين الثلاثة فانه لايهم القاريء في قليل ولا في كثير؛
لذلك فانه من الافضل ان نزيد معلوماتنا عن نوزدريف الذي يلعب دوراً ليس
بالتأنيبي في قصتنا هذه .

ان طبع نوزدريف بات معروفاً بعض الشيء لدى القاريء . والناس الذين
من طرازه يوجدون في كل مكان تقريباً وهم من العنصر المدعو «بحسن التخلص»
فاذا كانوا في المدرسة فانهم يعتبرون من الاصدقاء المحلصين ولكن ذلك لا يمنع
من أن يضرهم رفاقهم في اغلب الاحايين . ووجه هؤلاء الاصدقاء مشبعة
بالصراحة والجرأة ، فهم يعقدون الصداقات بسرعة بشكل لا يمكن فيه للمرء
ان يقول (بانه) قبل ان يرفعوا الكلفة معه . وصداقتهم هذه تبدو للوهلة
الاولى خالدة ، ولكن غالباً ما يحدث ان يقتتل الصديقان في مساء اليوم نفسه .
وهم بالاضافة الى ذلك من الاشخاص الثوارين العريدين الذين لا تريد منهم
العقوبة في الخامسة والثلاثين عن سن الثامنة عشر . ولم يستطع الزواج ان يغير
من نوزدريف الذي ترمل بسرعة بعد ان جاءته زوجه بولدين لا يعرف ماذا
يفعل لها ، ولكن لحسن حظ الصغيرين انه كانت لهما مربية قديرة . ولم يكن
نوزدريف ليبقى يوماً واحداً في منزله ، فقد كانت له موهبة خاصة في شم رائحة
الحفلات الراقصة وأسواق الموامم والاجتماعات من بعيد . فكان يذهب اليها
- ٦٥ -
النفوس الميتة م - ٥

بسرعة البرق ليصبح وينافش ويسبب الضجة والفوضى في المنصة الحضراء لانه كان يتعشق المبسر . وكان يغش في اللعب كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . ولهذا كان اللعب ينتهي غالباً بمعركة يشترك فيها الجميع . وكانوا يتبادلون ضرب الاحذية وينفقون سالفى نوزدريف ، ولهذا فغالبا ما كان يعود نوزدريف إلى منزله وأحد الغية اكتشف من الآخر ، غير ان حيوية خديبه كانت عظيمة لدرجة ان لحيته كانت تنمو بسرعة فتعود اجل مما كانت عليه .

والاغرب من ذلك - وهذا لا يكاد يحدث الا في الروسيا - ان هؤلاء الاصدقاء بعد ان يدمي بعضهم بعضاً ، يلتقون بعد ذلك وتعود المياه إلى مجاريها فيها بينهم وكان شيئاً ما لم يحدث إذ لا قيمة لماضي عندهم .

وهكذا عاد نوزدريف شخصية تاريخية ، فما من مجتمع يوجد فيه الا ويحمل فيه شيء ما ، كأن يطرده رجال الدرك من القاعة أو يطرده اصدقاءه بانفسهم . وفي كل يوم تحدث له قصة غريبة لا تكاد تحدث لغيره ، فاما ان يسكر ويضحك كخوار الحيوان ، واما ان يكذب بشكل ينجبل له هو بنفسه . وكان يكذب دون فائدة يجنيها من ذلك ، فبدعي مثلاً ان في حوزته جواداً وردي اللون او أزرقه ويروي اشياء غير معقولة تجعل المستمعين اليه يتعبون من كذبه فيقولون : « انك تبالغ قليلاً ... لا تسخر منا إلى هذا الحد . » ان هناك رجالا يسرون من اهانة الآخرين وهكذا فان رجلاً من طبقة عالية تربى في البلاد الاجنبية ويحمل فوق صدره وساماً رفيعاً يلتقي بك فيصافحك ويحدثك عن نفسه باشياء خليقة بالتأمل والتفكير ثم ... ثم ما يلبث ان يمينك ويشتمك كأبسط فلاح لا كنبيل يحمل وساماً رفيعاً . وكانت لنوزدريف هذه الهواية الغريبة وكان يؤلم في الغالب اقرب المقربين اليه ، ومن الصعب على انسان آخر غيره ان يفتن في ابتداع الحماقات التي يرتكبها ، فكان يمنع زواجاً ويعطل صفقة تجارية هامة ولا يعتبر نفسه من أجل ذلك عدواً لك ، بل على العكس ، إذ انه

إذا جمعتك به الصدقة مرة أخرى اقرب منك بتودد وإخاء وخاطبك بلطف :
« انك لست لطيفاً ... لانك انقطعت عن زيارتي . »

وكان نوزدريف الى جانب كل ذلك يدعو اصدقاءه للذهاب الى اقصى المعمورة ويناقش صفقة تجارية ويقاضى باي شيء : بنادق او خيول او اي شيء آخر ، وليس كل هذا جباً منه بالمقايضة بل لارضاء طبيعته القلقة . وكان اذا ما نجح في السوق بخداع أحد البسطاء ، يندفع في شراء جميع مايقع عليه بصره في حوانيت المدينة من أعة خيل الى العنب المجفف الى المناديل وأدوات الزينة والتبغ بشكل ينفق معه جميع ما ربحه . ولكنه نادراً ما كان يعود بهذه الاشياء الى البيت ، اذ أنه يخسرهما في المقامرة مع لاعب أشد منه خبثاً ، وكان عليه فوق ذلك ان يراهن على حوائجه الشخصية فكان كثيراً ما يخسر عربته وجياده والحوزي ، فيعود إذ ذاك الى بيته بمعطف قصير وعربة معارة من صديق رؤوف . ذلك هو نوزدريف ، وربما يقول بعضهم ان هذا النوع من البشر لم يعد موجوداً في عصرنا ، ولكن من يعتقد بذلك يمكن لسوء الحظ واهماً لان نوزدريف سيحيا دوماً بين ظهر انبنا ، ولكنه ان يرتدي نفس الحلة دائماً فلا يعرفه الناس اضعف ملاحظتهم .

ووصلت العربات الثلاث اخيراً الى بيت نوزدريف ولم يكن شيء معداً لاستقبال المسافرين . وكان داخل غرفة الطعام فلاحان فوق كرسيين يطلبان الجدران وهما يدمدمان اغنية طويلة . وكانت الارض منسخة بالطلاء الابيض وألقى نوزدريف بالفلاحين مع كرسيهما الى الشيطان وذهب لالقاء بعض الاوامر . وسمعه الضيفان يأمر باعداد العشاء فاستاء تشبكوف لذلك لان العشاء لا يجب ان يقدم قبل الساعة الخامسة في حين كان هو نفسه جائعاً جداً . وعندما عاد نوزدريف دعا صديقه لزيارة املاكه ، وفي خلال ساعتين اطلعها على كل شيء حتى على اصغر الدقائق .

بدأ قبل كل شيء بالاصطبلات وكان فيها مهران: الاول رمادي والآخر
أشقر كما كان هناك حصان اسمر اللون قال: عنه نوزدريف إنه اشتراه بعشرة
آلاف روبل في حين قال له صهره:

- انت لم تدفع عشرة آلاف روبل ثمناً لهذا الجواد فانه لا يساوي
ألف روبل.

- اقسم لك اني دفعت عشرة آلاف.

- اوه... انك تستطيع ان تقسم الايامين بالمقدر الذي تريد.

- فلنراهن على ذلك... هل تريد؟

ولكن ميجيوف رفض الرهان.

ثم توجه الاصدقاء الثلاثة الى الاصطبلات الفارغة التي كانت حافلة في يوم ما
بالجياذ الجميلة، وكان هناك وعل، لان الاساطير القديمة تعتبر وجود الوعل
بالقرب من الجياذ فالأحسن. ثم فاجأ نوزدريف ضيفه بمشاهدة ذئب
صغير وقال:

- اني أغذيه باللحم الذي عمداً لاني اريد ان يصبح حيواناً ضارياً.

ثم جاء دور المستنقع وقد اعلن نوزدريف ان فيه أسماكاً بلغت من الضخامة
حداً يقتضي جهد رجلين معاً ليستطيعا حمل سمكة واحدة وقد اعلن ميجيوف
بدوره شكه في هذا الامر. فقال نوزدريف:

- والآن سأريك بانثشيكوف كلاباً مدهشة.. لكم هي جميلة وقوية
الشم تلك الكلاب، وما من أحد من الجيران يملك مثيلاً لها.

وكانت هذه الحيوانات موضوعة في باحة مسيجة من شتى نواحيها، وعندما
دخلها الاصدقاء الثلاثة شاهدوا فيها كلاباً من شتى الاجناس والألوان والاشكال.
وقفز وتنج وتكفض هنالك وهنا وترجرج رافعة باذنها الى الأعلى او خافضتها
الى الاسفل او جاعتها بصورة افقية. وكانت اسمائها: ستريلاي واويروجاي

وناجراد وبوجار بما يتفق مع صفاتها الأساسية : سرعة ، اهانة ، تاج ، حريق .
وجاءت الكلاب كعادتها تحيي سيدها بنباحها الفرح ووضع عشرة منها
قوائمها على كتفي نوزدريف ثم عبرت عن نفس الاحترام لشنشيكوف اذ
وقفت على قوائمها الخلفية واخذت تلتق وجه بافل ايفانوفتش . ثم اخذ
الاصدقاء يتحدثون عن قوة هذه الكلاب فقالوا :
- انها لكلاب جميلة .

ثم زار الاصدقاء كلبه عمياء وقال عنها نوزدريف انها لن تعيش طويلاً
ولكنها تؤدي له خدمات عظيمة منذ سنتين .

ثم ذهبوا بعد ذلك الى الطاحون وكانت تقع بالقرب من مجرى مائي قوي
ولكن هذه الطاحون ينقصها الكثير من القطع . وهتف نوزدريف :
- والآن الى معمل الحدادة .

ومشوا خطوات فشاهدوا معملًا للحدادة وبعد ان زاروه قال نوزدريف :
- أترى ان هذا الحقل .. انه مليء بالارانب لدرجة انه لايمكن معه رؤية
الارض ، وقد امسكت بنفسى احد هذه الارانب من قائتيه الخلفيتين :
فقال ميجويف :

- منذ متى وانت تملك هذه الغاية ؟ هل اشتريتها حديثاً ؟ انها لم تكن ملكاً
لك من قبل .

- أجل لقد اشتريتها منذ أمد قصير

- ومتى كان ذلك ؟

- منذ ثلاثة ايام وقد دفعت ثمنها غالباً .

- ولكنك كنت في السوق خلال هذه المدة .

- ألا يمكن للانسان اذا كان في السوق ان يشتري ارضاً ؟

- لقد اشتراها وكبلي اثناء وجودي في السوق .

فهز ميجيوف برأسه مشككا ثم قال :

- آ... وكيلك ؟

وعاد الاصدقاء الثلاثة بعد ذلك الى البيت عن نفس الطريق وقاد نوزدريف ضيفيه الى غرفة عمله ولم يكن لهذه الغرفة من شكل الغرف غير الاسم ، فليس فيها كتب ولا اوراق بل كل ما كانت تحوية انما يقتصر على بضعة اسياف وبندقيتين تساوي احدهما ثلاثائة روبل والثانية ثمانائة على ذمة نوزدريف ، وبالطبع فان ميجيوف ابدى شكه بالسعر بعد ان فحصها ، ثم ان نوزدريف أراهما خناجر قال انها من تركيا ولكن لسوء الحظ كان احدهما مكتوباً عليه اسم صنف روسي « سافيلي سيبيراكوف » كما اراهما ايضاً ارغناً بربرياً عزف عليه قطعة موسيقية .. ثم ماذا حصل بعد ذلك ؟ كانت يجب ان تنتهي القطعة باغنية « مالبوروف ذاهب الى الحرب » ، ولكن هذه الاغنية انقلبت فجأة الى فالس ، ثم انتقل الاصدقاء الى رؤية الغلايين وكانت هذه من جميع الاجناس منها ماصع من الطين ومنها ماصع من الخشب .

وتناول بعد ذلك الجميع المقبلات وباشروا العشاء ، ولم يكن ليبدو على نوزدريف الاهتمام بالطعام اذ ان المأكولات لم تكن مهيئة باعتناء فكان لون من الطعام يصل محترقاً بينما يصل اللون الآخر قبل ان ينضج ، وكان الطاهي يتصرف حسب هواه فاذا وجد بهاراً وضعه في الطعام واذا وجد ملفوفاً وضعه وكذلك ايت وجد الحليب او اللحم ، وتختلط جميع هذه الاصناف بغير نظام ولكن شريطة ان تكون ساخنة لان الطاهي يرى ان هذا يبعث على الشهية .

واستعاض نوزدريف بالخمر عن الطعام فتناول الاصدقاء قدحاً كبيراً من البورتو قبل الحساء ثم شربوا النبيذ الابيض الفاخر وقدمت بعد ذلك أفخر انواع المادير وكان طعمه يروق لغم ، ونجار الخمر الذين يعرفون ذوق الملاكين كانوا

يضيفون مقادير كبيرة من الروم والفودكا الى المـسـادير ، ثم امر بعد ذلك نوزدريف بتقديم زجاجة خاصة ادعى انها مزيج من خمر البورتو والشبانيا وكان بطلاً كاملي صهره وتشتشيكوف دون اي ملل ، ولاحظ بافل ايـفـانـوفـتش ان نوزدريف يشرب هو الآخر بسخاء فاستفاد من عدم انتباه مضيفه ليصب كأسه في صحنه ، ثم قدم نوع آخر من الخمر قال عن طعمه نوزدريف بانه يشبه الخوخ غير ان ضيفه لاحظ ان طعم الكحول في هذا الخمر قوي جداً ، وقدم اخير نوع آخر من الخمر اطبق عليه نوزدريف كمادته اسماً غير اسمه الحقيقي .

وانتهى العشاء وما زال الاصدقاء الثلاثة يشربون . ولم يكن تشتشيكوف يريد ان يفتح نوزدريف بالقضية التي تشغل باله امام ميجوف . غير ان هذا الاخير ليس منه اي خطر إذ انه اكثر من الشرب حتى بدأ رأسه يترنج بشكل يدعو إلى الاشفاق وكان أنه يغوص داخل صحنه . وقد لاحظ هو حالته تلك فاعلن بصوت متردد عن رغبته بالذهاب فصاح به نوزدريف :

— ولكن لن أدعك تغادرنـا هكذا .

— لا تضايقني ... اني ذاهب ... في الحق انك تضايقني يا أخي .

— هذه حماقة ... هذه حماقة ... اننا سوف نلعب .

— افعل ما تريد فلن امكث لان زوجتي ستغضب ويجب ان أروي لها ما فعلته في السوق .

— لنذهب زوجتك إلى الشيطان ، ثم انه لبس لديكما امر هام للبحث .

— كلا يا أخي انها طيبة وأمينـة ... انها زوجة مثالية وهي تؤدي لي من

الخدمات ما لا يستطيع ان تصوره ، بل اني لأبكي حين اذكـرـها ... كلا ... لا تؤخرني ، اني اقول الحق .

فهمس تشتشيكوف في إذن نوزدريف :

— فليذهب إذن فانه لن يفيدنا في شيء .

فأجاب نوزدریف

— هذا صحيح ثم اني لا احب النفوس الحوارة .

وأضاف بصوت عال :

— حسناً لتحملك الابالسة ... اذهب لمناجاة زوجتك ايها الدجاجة المبلة.

— انك واهم يا أخي فانا مدين لزوجتي بحباتي ، انها طيبة ... وفاتنة . وان

ملاطفتها لي تبعث في عيني الدموع . لسوف تسألني عما فعلته في السوق، فيجب ان أقول لها كل شيء ... آه كم هي لطيفة معي .

— اذهب اليها وقص عليها الكاذب ... وخذ هذه قبعتك .

— انك لخطيء يا أخي في نكران فضائلها ... انك لتهينها إذا لم تقدرها

حق قدرها ، فهي طيبة جداً .

— حسناً عجل الآن بالانصراف .

— سأنصرف يا أخي ... عذراً لاضطراري على مغادرتكما فقد كان البقاء

يسرني .

وبقي ميجيوف يردد هذا الاعتذار دون ان يلحظ انه اصبح وحده في

عربته التي كانت تحتاز الطرقات المقفرة . اما زوجته فان جميع ما لدينا يجعلنا

نعتقد جازمين انها لن تعلم شيئاً عما فعله زوجها في السوق .

وقال نوزدریف وهو ينظر إلى العربية بتبعد :

— بالله من حيوان قذر ... لقد ذهب اخيراً .

وأضاف :

— ان في حوزته جواداً قوياً احسده عليه ، ولكن لا يمكن التهام معه ...

انه دجاجة مبلة ... دجاجة مبلة بالفعل .

ثم انتقل الصديقان بعد ذلك الى غرفة نوزدریف فحمل بورفييري اليها

الشروع . ولاحظ تششيكوف على حين غرة ان بين يدي نوزدریف ورقاً

للعب ولم يدر من أين جاء به . قال نوزدریف :

- لنلعب كي نقضي الوقت ... ولكن الضربة الواحدة بثلاثمائة روبل .
فتظاهر تششيكوف بأنه لم يسمع شيئاً وهتف كأنه تذكر شيئاً هاماً فجاءه :
- آه ... كدت انسى ... اني اسألك شيئاً .

- ماهو ؟

- اقسم اولاً انك ستليني .

- ليكن .

- انتقم بشرفك ؟

- اقسم لك بشرفي .

- إذن اليك هذا الامر : انه لديك عبيد موني لم تحذف اسماءهم من قائمتك

منذ الاحصاء الاخير .

- أجل ولماذا ؟

- سجلهم باسمي .

- لماذا ؟

- اني احتاجهم ... وهذا يتعلق بي ... والخلاصة اني اريدكم لي .

- ان وراء هذا الامر غاية ... ماهي ، هيا اعترف !

- ولماذا تكون هناك غاية ؟ ثم انه لا توجد اية فائدة من هذا الامر فماذا

تريد ان اضمر .

- إذن لماذا أنت محتاج إلى العبيد الموتى ؟

- ياله من فضول ... انه يريد ان ينبش الاقدار باصبعه ثم يشمها .

- ولكن لماذا ؟ ألا تريد ان تقول لاي سبب انت تريدكم ؟

- انك لن تقبض شيئاً من معرفة السبب فهذا امر خاص بي .

- هكذا اذن ؟ حسناً لن افعل شيئاً مادمت معتمداً بصمتك .

- ولكنك اقسمت بشرفك .

- لايهمني ذلك اذ لن افعل شيئاً دون ان اعرف السبب .
وفكر تششيكوف : « ماذا اقول له » وبعد ان فكر دقيقة قال إنه
بحاجة الى النفوس الميتة ليرفع من قيمته في نظر الناس ذلك انه لايملك مساحة
كبيرة من الاراضي .

فهتف نوزدريف مقاطعاً :

- انك تكذب .. انك تكذب يا اخي .

واعترف تششيكوف بينه وبين نفسه ان التعليق غير معقول فقال :
- حسناً سأحدثك بصراحة .. اني اريد الزواج واسرة خطيبتي كثيرة
المطالب ... اني اجتاز امتحاناً وهذا أمر مزعج .. ان اسرة خطيبتي تريدني
ان املك ثلاثاًة عبد وبما انه ينقصني مائة وخسون .

فصاح نوزدريف مقاطعاً ايضاً :

- انت تكذب .. انت تكذب .

فأجاب بافل ايفانوفتش وهو يقوم بإشارة من اصبعه .

- لا .. لا .. لم أكذب الآن .

- اواهني على ضرب عنقي بانك تكذب .

- انك تهينني ... ولماذا تريدني ان اكذب .

- اني اعرفك ... فانت محتمل ... اسمح لي ان اقول لك هذا بكل

حب وإخاء .. ولو اني كنت رثيلاً لك ، اذن لشقتك على اول شجرة
أصادفها .

وأثارت هذه العبارة تششيكوف ، إذ ان المماس بكرامته يزعجه فلم يكن
ليسمح لأحد ان يمسه الا إذا كان من طبقة عالية ولذا لم يستطع اخفاء غضبه ،
وردد نوزدريف :

- اقسم لك باني كنت اشقتك ... واني لأقول لك هذا بكل اخلاص

لا لأهينك ولكني أقوله بيننا فقط وبكل حبة وإخاء .

فأجاب تثشيكوف برزاة :

- انه لكل شيء حدود ... وإذا شئت استعمال هذه الالفاظ فاذهب الى

ثكنات الجيش ... ثم اضاف بعد لحظة صمت :

- إذا لم نشأ ان تهديني نفوسك الميتة فبعني اياها .

- أبيعها ؟ ... اني اعلم بانك وغد وانك لن تعطيني كثيراً عن أموالي .

- اوه ... تخابث كما يطيب لك ، انك تعلم ان نفوسك الميتة لاتساوي
جواهر ثمينة .

فقال نوزدريف :

- أرايت ؟ اني اعرفك جيداً .

فهنف تثشيكوف :

- ان لك تفكير اليهودي ... كان يجب عليك ان تهبني اياها دون مقابل .

- حسناً فليكن سأهبك هذه النفوس لأبرهن لك على لطفي ولكنك ستشتري

مني جوادي :

فأجاب تثشيكوف وقد أذهله هذا الاقتراح :

- ولكن ماذا تريد ان افعل بمصانك بحق الشيطان ؟

- ولكن كيف ذلك ؟ لقد اشترته بعشرة آلاف روبل وسأبيعك اياه

باربعة آلاف .

- لست بحاجة الى الحصان لانه ليس لدي اصطلل .

- انك لاتقهنني جيداً .. سأخذ منك اليوم ثلاثة آلاف روبل وأما الالف

الباقى فتدفعه لي فيما بعد .

- ليذهب الشيطان بمصانك ، اني لست بحاجة له .

- اذن فستشتري مهري الاشقر .

- لا اريد مهراً .

- اسمع، خذ المهر والجوهر الرمادي الذي شاهدته بالقي روبل فقط .

- لست بحاجة الى جياذ .

انه باستطاعتك ان تبيعها في اول سوق تصل اليه وسيدفعون لك ثلاثة اضعاف هذا المبلغ .

فقال تشنيكوف :

- بعها بنفسك طالما انك على ثقة من ربح ثلاثة اضعاف ما تطلبه مني .

- اني استطيع ان اربح هذا القدر بكل تأكيد ولكنني اريد ان اشركك بالفائدة .

فشكر تشنيكوف صديقه على كرمه ولكنه رفض جميع عروضه رفضاً قاطعاً .

فقال نوزدريف :

- اذن ستشتري مني كلاباً ... سأبيعك زوجاً يحوز على اعجابك ، انها كلبان أصيلان قويان رشيقان بحيث يبران في كل مكان دون ان يتوكلأ اثراً على الاطلاق .

- لست احتاج الكلاب لاني لاأصيد .

- ولكنني اريد ان يكون لديك كلاب ... ومع ذلك اذا لم تشأ ان تشتري مني الكلاب فستشتري الارغن البربري وانت تعلم انه وحيد في نوعه .. لقد كلفني الف وخمسمائة روبل وسأبيعك اياه بتسعمائة فقط .

- لست بحاجة الى ارغن ... كما اني لست المانياً لاجول الدنيا مستجدياً .

- ولكنه ليس ارغناً من النوع الذي يحمله الالمان .. انه من خشب الاكاجو وسأريك اياه كرة اخرى .

وامسك نوزدريف بيد تشنيكوف وأرغمه دون ان يلقى بالألى مقاومته

على الاستماع الى انشودة « مالمبوروف ذاهب الى الحرب »

- اسمع .. اذا لم نشأ ان تدفع نقداً فاني سأعطيك الارغن ونفوسي المبتة
فتعطيني مقابلها عربتك وثلاثائة روبل .
- لا ينقصني الا هذا ! وكيف أعود ؟
- سأعطيك عربة اخرى .. تعال الى الاصطبل لأريك اياماً وماعليك إلا
ان تعيد طلاءها فتصبح جديدة .
- وفكر تششيكوف : « من اى جنس شيطاني هذا الانسان ، وقرروا رفض
جميع عروض نوزدريف ، فقال الاخير :
- وهكذا نأخذ الارغن والنفوس المبتة والعربة .
فأجاب تششيكوف :
- لا اريد شيئاً .
- ولماذا ؟
- لاني لا اريد شيئاً ، ولا فائدة من الالحاح .
فقال نوزدريف :
- ان طبعك غريب .. انه لا يمكن التفاهم معك كالأخرين .. ما أنت
الا منافق .
- آه ! ولكنك تظني مغفلاً ... احكم بنفسك : لماذا آخذ شيئاً لا يفيدني .
- يمكنك السكوت ... اني اعرفك الآن ... لست إلا ندلاً ... اسمع
صنلعب الآن بالورق ، وسأراهن على الارواح المبتة والارغن .
- اللعب بالورق معناه الاستسلام للمجهول .
والقى تششيكوف نظرة خفية على الورق الذي يحمله صديقه فبداه ان
بعض الاوراق فيها رسوم مشوهة . وأردف نوزدريف :
- ولماذا المجهول ؟ ان المجهول معدوم ، فاذا ابتسم لك الحظ رتكتك من .
ان تبيع ما تريد ، واطاف وهو يبعث بالورق ليشير رغبة صديقه .

- تلك هي المعادة ... هاهما الشابان الديناريان ، وتلك هي التسعة اللعينة التي جعلتني أخسر في المرة الماضية . لقد كنت أعلم باني خسرت ولكنني تابعت اللعب رغم ذلك وأنا أقول في نفسي : « ليذهب بك الشيطان ايها التسعة اللعينة أنت تودين خراي » .

وفي هذه الاثناء قدم الخادم بورفيرى بحمل زجاجة غير ان تشنشيكوف رفض رفضاً باتاً ان يشرب ويلعب ، فعاد نوزدريف إلى السؤال :

- ولكن لماذا لا تريد أن تلعب ؟

- ذلك لأنني لا أرغب بذلك أولاً ولأنني لست مغامرّاً بالدرجة الثانية .

- وكيف يمكن للانسان ألا يحب اللعب ؟

- فرفع تشنشيكوف كتفيه وقيم : « أنا لا أحب اللعب » .

- ايها الحيوان القذر .

- لا فائدة ... فقد خلقتني الله هكذا .

- في الحق انك حيوان ... لقد اعتقدت انساناً شريفاً ، ولكن لا فائدة

من الكلام معك إذ ليس لك قلب ... انت حيوان مثل سوباكيفيتش .

- ولماذا الاهانة ... اني لا أرغب بالمقامرة ولست في هذا مجرماً ، اما

نفوسك الميتة فبعتي ايها طالما انك تريد الافادة مما لم يعد من هذا العالم .

- بحق الشيطان هذا ما سأعطيكه ... لقد كنت ارد ان اقدم لك نفوسي

الميتة دون مقابل اما الآن فيمكنك التأكد باني لن أعطيك شيئاً . انك تستطيع

ان تعرض علي ثلاث ممالك ولكنك لن تحصل على شيء ... آه يالك من وغد ...

يا لك من كلب ... لست اريد التعامل معك .

ثم توجه نوزدريف إلى بورفيرى وقال له :

- اذهب الى الاصطبل وقل لهم ألا يقدموا علفاً للحياد فعلفها يكفيها .

ولم يكن تشنشيكوف ينتظر ان ينتهي الحديث هكذا ، و اضاف نوزدريف :

- كان افضل لك ان تبقى حيث كنت .

ومع كل ذلك فقد تناول الصديقان العشاء معاً غير ان نوزدريف لم يقدم خمرآ . وقاد اخيراً رب المنزل ضيفه الى غرفة كانت معدة لاستقبال الضيوف وقال له :
- هاهو سريرك ولكني بكل تأكيد لا أنمي لك ليلاً سعيداً .

وظل تششيكوف وحده بعد ذهاب نوزدريف وكان حائقاً على نفسه لانه قبل دعوة نوزدريف فضيع وقتاً ثميناً . والاضطر من ذلك انه وثق برجل كنوزدريف في مقدوره ان يكذب وبضخم الامور ويخترع ويقيم ضجة كبيرة حوله . وكان بطلنا يقول في نفسه « لست إلا مغفلاً » . وقضى ليلة سيئة للغاية وكانت الحشرات تلذعه طيلة ليله فكاد يخاطب هذه الحشرات مردداً دوماً :
« فلتذهب الابالسة بك انت ونوزدريف » .

واستيقظ في الصباح الباكر فمضى حالاً الى الاصطبل وأمر سليفان باعداد العربات على الفور وفيما هو يعود إلى المنزل صادف نوزدريف يتنزه وغلبونه في فمه ، فجاء هذا وسأله عن ليلته فرد تششيكوف بجفاء :

- لم تكن ليلة سعيدة .

فقال نوزدريف :

- اما أنا يا اخي فلن اضجرك بالحديث عن هذه الحشرات الجيئة التي كانت تنهني طيلة الليل . تصور اني قد حملت بان هناك من يجلدني ... ولكن من الذي يفعل ذلك ؟ انك لن تعرف هذا ابداً ... انه كان بوتسلوف وكوفتشينكوف .

فقال تششيكوف في نفسه : « انك تستأهل ان تسلمح جيداً »

وتابع نوزدريف :

- لقد تأملت ... وأصابني القلق ... لقد كنت بالفعل متأماً إذ ان هذه

البراغيث القذرة كانت تنهشي . اذهب وارند ملابك الآن وسألق بك في الحال ولكن يجب ان اذهب إلى المزرعة قبل وكيلي الوغد .

وصعد تشتشيكوف إلى غرفته وارندى ملابه وعندما ذهب إلى غرفة الطعام وجد الشاي معداً مع زجاجة من الروم ، وبقايا الغذاء والعشاء . ويبدو ان المكتبة لم تكن لتصلح لشيء في هذا المنزل ففقات الحيز والرماد واعتاب السجائر ، كل ذلك كان يملأ أرض الغرفة . ولم يتأخر نوزدريف عن الهجي . ولكنه لم يكن يرندي شيئاً تحت ثوبه المنزلي فكان صدره عارياً ويحمل بيده غليوناً شرفياً طويلاً فيقدم بذلك نموذجاً حياً جيداً للرسامين الذين يكرهون الوجوه الموردة المصففة الشعر المشابهة للوجوه المعروضة في واجهات الخلائين .

وسأل نوزدريف :

- أتريد ان تراهن على نفوسي المينة أم لا .

- لقد قلت باني لا أقامر .. لذا سأشتريها منك .

- انا لا أبيعها فلا تجارة بين الاصدقاء ولا اريد ان اجني ارباحاً في بضاعة

كهذه .. اما في اللعب فالامر يختلف .. هيا بنا اقطع :

- اني ارفض .

- ولن تغير رأيك ابداً ؟

- ابداً .

- حسناً فلنلعب (بالضاما) .. واذا ربحت فأرواحي المينة لك .. يا يوريفيري

اعطني لوحة الضاما .

- لا فائدة من ذلك فلن اللعب .

ولكننا لن نلعب بالورق .. فليس هنا حظ ولا خداع ؛ فاما ان يجيد

الانسان اللعب اولا يجيده ، وبعد فانا من الذين لا يجيدون اللعب ولذلك سأطلب

منك ان تعطيني بعض الاحجار سلفاً .

- وفكر تششيكوف: « سألاعبه ، اني لست ضعيفاً في هذه اللعبة ومن الصعب جداً ان يغثني » ثم قال بصوت مرتفع:
- حسناً فلنلعب .
 - اذن فنفوسي المينة مقابل مائة روبل .
 - ولماذا المائة .. ان خمسين روبلا تكفي .
 - انت تمزح .. خسون .. اريد مائة روبل ، اما نفوسي المينة فاني سأزيد عليها كلباً كبيراً وهذا الحاتم الذهبي .
 - حسناً قبلت
 - وكم نقطة ستعطيني سلفاً .
 - لا شيء .
 - اعطني نقطتين على الاقل .. دعني العب مرتين باديء الامر عوضاً عن المرة الواحدة .
 - ولماذا فانا ايضاً لا اجيد اللعب .
 - فقال نوزدريف وهو يرفع حجراً الى الامام .
 - آه ان هذه الاحجار الملعونة لانجيد اللعب .
 - فأجاب تششيكوف وهو يدفع حجراً بدوره :
 - لقد مضى علي زمن طويل ولم العب .
 - وفي تلك اللحظة كان نوزدريف يحرك حجراً ويدفع آخر بطرف كنه .
 - ونتم تششيكوف .
 - بلى زمن طويل ثم اضاف :
 - ولكن هل تسمح بان تعيد الحجر الى مكانه؟ .
 - اي حجر؟ .
 - هذا .

وفي نفس اللحظة لاحظ باغل ايغانوفتش ان حجرآ ثالثاً كان يتقدم مسرعاً
اكثر بما يجب ليصبح ضاماً، ولكن من أين جاء ؟ ان الله وحده هو العليم بذلك .
فهتف :

— كلا من المستحيل ان يلاعبك المرء ، فاني لم اشاهد في حياتي لاعباً
يجرك ثلاثة احجار دفعة واحدة .

— ولماذا ثلاثة ؟ هذا خطأ ... سأعبد هذا الحجر الى مكانه .

— والآخر .

أي آخر ؟

— هذا الذي اصبح ضاماً .

— كانك لاتعرف ان هذا مكانه الحقيقي .

— كلا يا صديقي فأنا انذكر سير اللعب جيداً ... هو ذا مكان هذا

الحجر الحقيقي .

فهتف نوزدريف وقل احمار وجهه :

— كلا هذا غير صحيح .. ولكنك تحسن الكذب .

— انما الكاذب انت يا اخي .. انك لن تخدعني .

— ولكن من تظني ؟ انك تعتقد بأني اغش في اللعب .

— انا لا اظنك شيئاً .. ولكني لن أتابع اللعب .

فصاح نوزدريف بغضب :

— لقد ابتدأ اللعب ولا حق لك بالانسحاب .

— هذا من حقي لانك لاتلعب كالنسان شريف .

— انت تكذب ... انت تكذب .

— بل انت الذي لاتقول الحق .

— انا لم أغش وستتابع اللعب .

فأجاب تشنشيكوف ببرود :

- لن تستطيع ارغامني على ذلك .
وبحركة فجائية ، نثر الاحجار ، فثار نوزدريف وقفز نحو بافل ايفانوفتش
مفأخر هذا مقعده قليلاً .
سأرغمك على اللعب معي . . اني اذكر موضع الاحجار جيداً وسأعيدها
الى مكانها .

- لافائدة من ذلك فلن اعود الى اللعب .
اذن فانت لاتريد ان تلعب ؟
- انك تعرف جيداً بانه لايمكن اللعب معك .
فكر نوزدريف وهو يزداد اقتراباً من تششيكوف :
- اجب أنتريد اللعب أم لا ؟
فاجاب هذا وهو يرفع يديه كانه يريد حماية وجهه .
- اني ارفض .
وكانت حركة تششيكوف ضرورية إذ ان نوزدريف قام بحركة عنيفة كان
من شأنها ان تهين شرف خدي بطلنا ، ولكنه تجنب الضربة وامسك بيدي
نوزدريف معاً وشده بعنف :
فزجر نوزدريف وهو يحاول التخلص .
- بورفيري . . بافلوشكا . . الى . .

وعند هذه الصرخة لم يشأ تششيكوف ان يشهد الخدم هذا المنظر المغري
فاعاد الى نوزدريف حريته ، ودخل في تلك اللحظة بورخيري وبافلوشكا وكان
هذا الاخير عملاقاً يدفع من يفكر بالاشتباك معه الى التأني والتأمل .
ورد نوزدريف غاضباً .

- اذن فانت لاتريد ان تتابع اللعب ؟
- لقد كنت اتابعه لو انك تلعب كأنسان شريف .

— انت لاتريد ان تلعب ايها الشقي لانك كنت خامراً .

ثم هتف بالخدامين .

اضرباه .

وتسلح هو بغليونه الطويل .

وهنا شحب لون تشتشيكوف فاراد ان ينطق بشيء غير ان شفتيه ارتعشتا

قبل ان يتلفظ بكلمة ، وهتف نوزدريف وقد خرج عن وعيه .

— اضرباه ، اضرباه .

وكان في شكله هذا اشبه بـلازم يهاجم قلعة وهو يرى امامه شيخ الجنرال

سوفوروف فيصبح يحنوده : « الى الامام ايها الرفاق ؛ ولكن إن كان

نوزدريف يشابة هذا الملازم فان خصمه كان اضعف من التشبه بالقلعة المنيعه ؛

ذلك ان روح تشتشيكوف سرعان ما هربت من جسمه لتختبي تحت قدميه ؛

وأما الكرسي الذي كان يجتمي به فقد اصبح في حيازة العدو ، وفيما كان ينتظر

وهو اقرب الى الموت منه الى الحياة ، ان تهال عليه الضربات رن جرس في

الحارج وعلت ضجة وقوف عربة امام المنزل وتسرب صوت ترجيع نفس الجياد

الى الداخل ، وبحركة غريزية التجهت انظار الجميع نحو النافذة ، وترجل من العربة

رجل بشارين كبيرين يرتدي ملابس نصف عسكرية ونصف مدنية ، وبعد

ان استفهم من الرواق عما يريد دخل الغرفة بينما كان تشتشيكوف الذي لم يستعد

شجاعته بعد يشبه المحكوم عليه بالاعدام .

ونظر المجهول كالمشده الى رب البيت الذي كان يرفع غليونه عالياً كأنه

يريد ان يضرب به احداً وسأله ؟

— من منكم السيد نوزدريف ؟

ثم اخذ يتأمل في تشتشيكوف الذي بدأ يعود اليه وعيه شيئاً بعد شيء وقال :

— الى من أنشرف بالحديث .؟

فأجاب نوزدريف وهو يقترب منه :

- حبذا لو تفضلت بالاجابة عن نفس السؤال اولاً .

- اني الكابتن رئيس بوليس المنطقة .

- وماذا تريد ؟

- جئت أعلمك اني تلقيت امراً بتوقيفك حتى ينظر القضاء في الدعوى المقامة

عليك حديثاً .

فهتف نوزدريف :

- اية دعوى هذه ؟ وما هذه الحفاة !

- انك ضربت الملاك ماكسيوف وانت غل بقضيب حديدي والتحقيق

مازال جارياً في هذا الموضوع .

- انت كاذب ، فانا لم اصادف في حياتي رجلاً بهذا الاسم .

- اسمح لي ياسيدي ان الفت نظرك الى اني ضابط بوليس ، وهذه الطريقة في

الحديث يمكنك ان تستعملها من خدمك لامعي .

واما تششيكوف فقد انقض على قبعته دون ان ينتظر رد نوزدريف

وتسلل من وراء الضابط ثم قفز الى عربته وامر سليفان ان يطلق لجياده العنان.

الفصل الرابع

هفأً ان بطلنا قد قاسى من الحوف ما يورث الجنون ، ومع ان العربة انحدرت بكل سرعة بمكنة ، ومع ان قرية نوزدريف اصبحت منذ زمن غير قليل بعيدة عن الانظار ، مخبئة وسط الحقول الخضراء وخبايا الارض والتلاع ، مع كل ذلك فقد ظل بافل ايفانوفيتش يتلفت خلفه بين الحين والحين وهو يظن انه مطارد . لقد كان يتنفس بصعوبة كبيرة ، وكان يشعر بقلبه يخفق ويتنفض عندما يضع عليه يده كعصفور سيء الحظ مسجون في قفص . أخذ يفكر : « آه ! يا لها من سورة حنق اخذت علي السبيل » ثم جعل يصب آلاف اللعنات بصوت خافت فوق رأس نوزدريف . وهذا طبيعي ، فهو رومي وفوق ذلك في حالة غضب شديد ! وقال ايضاً في نفسه : « المهم هو انه لولا هذا الضابط لما ظلت حياً ارزق في هذا العالم ، لولاه لاختفيت كفقاعة هواء داخل الماء ، دون ان اترك اي أثر او وارث او وصية للاولاد المقبلين او أرث او اسم عاطر » . وهكذا راودته فكرة النسل فاهتم بها اهتماما كبيراً .

وأخذ سيلبقان من جهته يفكر ايضاً « يا لهذا المعلم البائس ! لم أر في حياتي ما يشبهه ، ولقد بصقت في صفحة وجهه وانا جدم من رولو استطعت ، لقد اتبع هذا اللعين نظاماً هو ألا يطعمني شيئاً كما ان علف الحبول قد نفذ ... »

وحتى الجبول ، الجبول نفسها لم يكن رأيا حسناً بنوزدريف ، فزاج هذه البهايم الثلاث كان سيئاً للغاية ، ولم يكن لدى سيليفان ما يقدمه لها الا الشوفان الرديء ، مما جعلها تضطرب كثيراً وتطلق صرخات متوحشة مخيفة ، ولكنها اخيراً ، وبعد ان يئست من وجود علف أجود ، أكلت من ذلك الشوفان بينما العكس يجري عند نوزدريف .

وبرزت مفاجأة عنيفة في سير القصة وضعت حداً لهذا الوضع السيء المسيطر على الجو ، مفاجأة قوية وغير منتظرة . كانت صدمة قوية جبارة جعلت الجميع حتى الحوذي ايضاً يرتدون الى الخلف بعنف عندما اصطدمت بهم عربة نجرها ستة جيصاد اصطداماً مروعاً، وعلت بالقرب منهم ضجة الوعيد مختلطة بأصوات نسائية انسابت الى أذني سيليفان وارتاحت فيها . ثم نبج حوذي العربة الجديدة قائلاً : « ايه ! بالك من حيوان قذر ، لقد طلبت منك ان تتجه الى يمين الطريق ، فما فعلت ، أأنت غل ! واستفاق سيليفان من أثر الصدمة ، وكان كجميع الروس لا يعترف بخطئه إذا وقع فيه امام الغرباء ، فأجاب صارخاً بصوت أعلى :

- حسناً ! وأنت ؟ انك لتسوق ببلاهة وحمق دون ان تنظر أبان تذهب !
لقد اضعت بلارب عينيك في قعر زجاجة داخل الحانة !

وحاول سيليفان ، وقد اختلطت العربة الاولى بالثانية مع جميع الجبول ، ان يستخلص عربته بالتقهقر بجياده بعض الخطوات الى الخلف ، ولكن كل شيء كان متشابكاً ببعضه بشكل مخيف ، واستشم الجواد المتسرف فرحاً رائحة اصدقائه الجدد فارتاح اليها .

اما فيما يتعلق بالسيدتين الموجودتين داخل العربة الاخرى فان آية الرعب قد ارتسمت على وجهيهما . كانت الاولى عجوزاً كبيرة السن والثانية شابة في السادسة عشر من عمرها ، وقد تأطر وجهها اللطيف بشعر جميل مسترسل حتى لكان الوجه في شكله اشبه بالبيضة في بياضه وشفوفه ، اما الاذنان فكانتا

دقيقتين شفاقتين وقد تخلصتها حرارة منبعثة من لونها الضارب للزهر . وكانت شفاها المنفرجة قليلاً تجسم الذعر الذي انتابها . اما عينها فقد كانت مغرورتين بالدموع . وكان كل ما فيها يفصح عن جاذبية عظيمة جعلت بطل قصتنا يسر قليلاً مع العلم انه كان جد غريب عن كل ما حدث .

وصرخ الحوزي الغريب بما يشبه العواء :

- حسناً ! ومتى تريد ان تذهب عني ، ايها الغراب المعجوز ؟

وجذب سيليفان الأجنة اليه وفعل الآخر فعله ، فتراجعت الجياد الى الخلف ثم تقدمت من جديد ، لتتشابك تلك الجياد والاعنة من جديد بصندوقي العربية . وكأنما اصاب هذا الحادث هوى في نفس الجواد المتمرد الهائج فرفض تنفيذ أوامر سيده ورضع مخطمه فوق رأس صديقه الجديد ، ليترجى له ، بلاريب ، عواطفه الحارة .

بينما أخذ الاخير يحرك أذنيه علامة السرور . وعلى اصوات هذه الضجة الكبيرة جاء فلاحو القرية المجاورة مسارعين . ان مثل هذه الانماط من المشاهد تختلف في نفس الفلاح الروسي السرور نفسه الذي تخلفه نوادي السم في الالمان وتجمع غمر عظيم من هؤلاء الفلاحين حول هذه الكتلة المتلاحمة من الجياد والركاب والحوزية ، ولم يبق في القرية غير الشيوخ المقعدين وصغار الاطفال واستطاع القوم ان يعرفوا اخيراً صندوقي العربتين ، واخذوا يكيلون اللطمات المتتابعة للفرس الهائج حتى أجبروه على التراجع ، وفي لحظات قليلة كانت العربتان منفصلتين . وكأنما أثار الجياد غضب شديد من جراء ذلك ، او انها أرادت البرهان على عنادها الشديد ، فظلت على الارض جامدة مسمرة بالرغم من اللطمات الهائلة التي كالمها الحوزيان لها . فازدادت حماسة الفلاحين حرارة ، فأخذ كل بدوره يقدم رأياً : - حسناً لا بأس ، وانت يا آندريوشكا اجبر هذا الذي في البين على التقدم ، وانت ، ايها العم ميتيا لتضع فوق الجواد الاوسط ،

وتسلق العم ميتبا ، وهو كهل نحيل ، ظهر الحيوان بلحيته الروسية وقد حمل خشبة طويلة كانت تستعمل لمل العديد من أسطل الماء المنضوح من البئر ، فكان في وقفته تلك اشبه بقبة ناقوس القرية . وساط الحوذني الحيوانات من جديد ، ولكن عبثاً فعل ، فقد ذهبت جهوده أدراج الرياح وظلت الحبول محافظة على جودها وكذلك العم ميتبا فانه ايضاً لم يتوصل الى اي شيء . وصاح الفلاحون : - صبراً ، صبراً ، لنذهب إلى اليمين ، وانت ايها العم ميتبا فانت العم مينباي مينباي ليأخذ مكانك .

والعم مينباي ، فلاح عريض الكاهلين بلحية سوداء كالنجم ، وبطن منتفخ يتدحرج أمامه عندما يسير ، وقد اخذ هذا الانسان مكانه فوق ظهر الفرس الذي مالبت ان تاه تحت ضغط ثقله . وصاح فلاحون معاً : - والآن اضربه ، اضربه ، ولا تشفق على هذا الملعون الذي يابى إلا المعاندة وعدم التحرك .

ولما لم يصلوا الى اي طائل ، جلس الاثنان على الفرس الايمن واخذ أندرو سكا مكان مينباي . غير ان الحوذني فقد صبره فطرد الفلاحين ، وحنناً فعل ، لأن الحيوانات البائسة اخذ العرق يتصبب منها بغزارة كما لو انها ركعت آلاف (الفرسات) فتركها برهة لتأخذ قسطاً من الراحة ، ثم سارت من تلقاء نفسها . وفي اثناء هذا المشهد العجيب ، لم ينقطع بافل اي فانوفيتش عن التلمي من محاسن الشابة العربية ، ولقد حاول في كثير من المرات ان يدخل معها في مناقشة بسيطة ، ولكن المناسبة كانت دائماً تعوزه . وبينما كانت العربية تسير كانت الشابة الصغيرة ، بتقاطيعها المنمنمة وخصرها النحيل ، قد اخذت في الاختفاء والتقلص كأنها الحلم ... وبدأ الطريق من جديد ، فهذه عربية وتلك زحافة ، كما اخذت الاصوات تنسجم مع سكوت الحقول التي تتجازها العربية .

في جميع معالم هذه الحياة، في الطبقات الغنيمة، المتفنة، الغدرة من المجتمع، تلك الطبقات المتلعة بالبؤس، والفظاظة، وفي الطبقات الراقية، الجامدة على التقاليد وعدم المبالاة، في كل شيء من مظاهر الحياة، يحدث في لحظة ما، ان يبرز الجمال فيوقظ عند المرء احساساً حياً دائماً ومنذ اللحظة الاولى. في كل شيء، وبالرغم من الاحزان الذي يتلى به وجودنا، تنبجس لمع من الافراح. فالغني ببطانته المترفة وعدة جياده الذهبية، وخدمته الملمعين كالمرايا؛ هذا الغني عندما يجتاز قرية فقيرة صغيرة تكاد تكون مجهولة، لم ير فيها فلاحوها غير الفاقة والمرض، فانهم بلا ريب، سيظلون مشدوهين، وقبعاتهم بأيديهم، ينظرون من بعيد الى تلك العربة السماوية. مثل هذا الظهور الجمالي اللطيف الذي يبرز فجأة في قصتنا وعلى غير انتظار سرعان ما تلاشى بالسرعة نفسها التي ظهر فيها. وبطبيعة الحال لو كان في العربة عوضاً عن تششيكوف شاب في العقد الثاني من عمره، كمرشح ضابط مثلاً او طالب او معتبد جديد؟ فما هي الاحاسيس، يا ترى، التي لا تستوفز وتنتفض لتفضع دخيلته؟ يا الهي: انه بلا ريب سيجلس طويلاً في مكانه دون حراك، وسيثبت عينيه في المدى الغامض البعيد، ناسباً وحلته واتجاهه، ثم يتقرب من جيرانه قدر الامكان متحدثاً عن التوبيخات المحتملة بسبب تأخره، وعن عطشه والعالم وكل شيء.

ولكن بطلنا غير ذلك، انه انسان نضج سنه فأصبح ذا مزاج بارد يميل الى التفكير، فطبعي ان يحلم ويتأمل، ولكن بشيء من الاناة، ولذلك كانت افكاره متزنة وإيجابية: «بالمرأة الصغيرة العذبة»، قال ذلك وهو يفتح علبة سعوطه ليأخذ منها مايجشو به الله: ولكن ماهو الشيء الذي يجعلني مسروراً؟ انها شابة، وقد خرجت من مؤسسة تربوية حديثاً او انها تخرجت من المدرسة الداخلية، فهي لم تصبح بعد امرأة، بمعنى ان مايكروه عادة في المرأة لم يدخل في تكوينها بعد، انها كالطفلة، كلها بساطة وسذاجة، تقول مايدور بخلدتها.

وتضحك عندما تفرح ، مثل هذه الفتاة يمكننا ان نجعل منها مايدهش ، ومع ذلك فمن المحتمل ان تصبح بمله ، وأخشى ماأخشاه ألا تنجو من الحواجز التي ستعترضها في هذا الطريق ، من ا. اجب حتماً على امها وعمها ان يشغلا نفسها بتأديبها وتربيتها ، فانها في ظرف سنة واحدة ستكتسب خلقاً جديداً ، جديداً في كل شيء لدرجة ان والدها نفسه لن يستطيع التعرف عليها ، وستختفي بلا ريب جميع حركاتها الطبيعية بعد ان تتعلم النفاق والمرء ، وعند ذلك لن تكن صالحة على الاطلاق .

اخذ دنتشيكوف يتأمل قليلاً ثم تابع حديثه مع نفسه ، لقد كان فضولياً عندما حاول ان يعرف عائلتها ، ومن يكون ابوها ؟ أهو ملاك غني أم رجل ساذج ينعم برأسمال جيد جمه من عمله ؟ واذا كانت هذه الفتاة تملك مائتي الف روبل كمهر لها ، عند ذلك .. بالها من قطعة صالحة للاقتناء ! وان أي رجل فاضل يستطيع ان يكون راضياً بها !

واختلطت المائتا الف روبل بقوة في خيال بافل ايفانوفيتش ، وانتهى من تأمله بان اعترف بينه وبين نفسه ان ماينقصه انما هو السلوك الجيد ، وقد وجد نفسه انه سيء الصورة امام الخوذي الذي استفهم بطبيعة الحال عن المسافرين وعرف عنهم كل شيء ، وبدأت منازل قرية سوبا كيبفتش التي ظهرت في الافق تقترب من المسافرين ، ولحسن الحظ ان هذا الامر وجه افكار بافل وجهات اخرى واعاده لتذكر الغرض الذي جاء من اجله .

بدت اخيراً القرية امام ناظره متسعة ، وكان يحيط بها غابتان من السندر والصنوبر من الجهتين كجناحي طائر .

وفي وسط تلك البلدة نهض منزل خشبي فيه فتحة شباك صغير ، سطحه احمر اللون وجدرانها رمادية ، واتخذ بذلك شكل عمارة بنيت خصيصاً لأجل المهاجرين.

من الجنود أو العناصر البروسية ، والناظر اليه يدرك حالاً ان مهندس ما اكثر
ما كان يدخل في شجار مع سيد المنزل واهوائه .

ذلك ان مهندس هذا رجل متصلب الرأي متفطرس يأبى الا ان يجعل
المنزل خاضعاً لما يسمى بالتناظر . بينما سيد المنزل يريد ابدأ الرفاهية والراحة
فيحاول مضطراً ان يثقب كوة في الجدار لاجل الاستعمال . ثم ان مقدمة
المنزل لانسجم مع الواجهة النصفية بالرغم من جميع المجهودات التي بذلها
مهندسنا الفنان ، ولكز الامر بسيط اذ يجب هدم احد العواميد الاربعة
الثابتة فيها وكانت الساحة التي حول ذلك البناء مؤطرة بمجواجز كبيرة صلبة
تبعث على الاستغراب والدهشة . ولكن يجب ان نفهم من ذلك ان صاحب
المنزل يعنى بالمثانة في كل شيء .

كانت هناك جسور ثقيلة عظيمة تستعمل لاجل بناء الاسطبلات والسقوف
والمطابخ فتبدو كأنما تريد مقاومة الزمان . ثم ان اكواخ الفلاحين كانت
مبنية بنفس الطريقة وقد حفرت لأجلها الاساسات القوية والعميقة . حتى البئر
نفسه جهاز بصخور قاسية مستديرة ، تصلح لأن تستعمل كإبراج للمقاطعة او
أرجحة للمطاحن . كان بافل ايفانوفيتش ابنا ارسل انظاره يجد كل شيء مغافاً
بنظام فيه شيء من العلظة وعدم الانسجام .

وعندما اقترب من درجات المنزل لمح رأسين في احدى النوافذ يرقبانه :
الاول وجه امرأة على رأسها قبعة مستطيلة اشبه بالقناء ، والثاني وجه رجل
ضخم مستدير كالقطين المولدا في . ولم يلبث الوجهان ان اختفا باسرع مما
ظهرا . وبدا الحدم على رأس الدرج بكسائه الرمادي وعنقه المستقيم ، وفي
نفس الوقت جاء صاحب المنزل وادخل تشيتشيكوف متسلحاً بعبارته الدائمة
(ارجوك) الى الصالة .

ورمى تشيتشيكوف سوباكيفيتش بنظرة سريعة ؛ كان هذا الاخير اشبه
يبدب متوسط الحجم ، وكانت ملابسه التي تستر جسده تساعد كثيراً في

تشكيل هذه المشابهة ، وكان كذلك ردائه الخارجي له لون الدببة ، اما
 اكمامه فطويلة فضفاضة وكذلك سرواله فقد كان عظيم الاتساع . كان
 سوبا كييفيتش يمشي وهو يدندن وكثيراً ، بل غالباً ما يدوس فوق اقدام
 اصدقائه برجليه الغليظتين الثقيلتين . وكان وجهه مشبعاً بالحمرة . انه في العالم كثير من
 الوجوه التي يبدو ان الطبيعة صنعتها على عجل دون جهد او مراعاة التناسق
 باستعمال الازميل او المبرد او المثقب او بقية الادوات التي تصلح لهذا العمل .
 واما فيما يتعلق بسوبا كييفيتش فيبدو ان الطبيعة قد اقتطعت مادته بضربات
 الفؤوس ؛ وخصت انفه بضربتين وفيه ضربة واحدة ، واستعملت المثقب لحفر
 عينيه ، واكتفت الطبيعة بهذه الضربات العاجلة دون تنقيح او تلميس واخرجت
 صوتها الجليل : « فليحيا » .

وهكذا فان تركيب رأس سوبا كييفيتش طبيعي ايضاً لذلك تراه منحنيّاً
 دائماً تقريباً ليرى الارض لا ليرى السماء . كما ان سوبا كييفيتش بالاضافة الى
 ذلك يحفظ برأسه دوماً في حالة الاستقامة ، وبعنقه دون حركة . لذلك فانه
 نادراً ما ينظر الى مخاطبه ، ولكنه لا يكاد ينقطع عن تثبيت نظاره في زاوية
 الباب او في المدفأة . وفي اللحظة التي دلف فيها الى غرفة الاستقبال القى بافل
 ايفانوفيتش آخر نظرة عليه : « انه دب ، دب لا ينقصه شيء » هكذا قال
 لنفسه . وثمة هناك مشابهة اخرى بينها ، فقد كان يدعى ميخائيل سبميونوفيتش
 « وهو اسم يطلق على الدب بالروسية » ، وبما انه كان معروفاً بجماعته الدائمة ،
 وهي انه يدوس فوق اقدام من يسير معهم ، فان تشيتشيكوف لم يتقدم معه
 الا بجذر لا بل تركه يسير امامه .

وكان سوبا كييفيتش يعرف هذا الخطأ عن نفسه لذلك كان يسأله بين الفينة
 والفينة عما اذا سبب له ألماً . وأكد له بافل ايفانوفيتش بان كل شيء على مايرام
 حتى الآن بعدما اطلعه على انه يعرف فيه هذه الطبيعة .
 وعندما دخلا الصالة قاده سوبا كييفيتش الى مقعد هناك وكرر على مسعفه .

نفس اللفظة «ارجوك» ؛ وبينما كان سوبا كيفيتش يأخذ لنفسه مكاناً كان بافل يتلهى بالنظر الى الحائط المزدان بلوحات تمثل اشهر ابطال اليونان بالحجم الطبيعي : فهذا مافرو كورداتو بسرواله الاحمر وذاك مياولي وكوناري . وكان هؤلاء الابطال اخاذ متينة وشوارب طويلة ، لا يرتجف احد خوفاً منها الا اذا شاهدها على اللوحة .

وبين هؤلاء القواد اليونانيين ، شاهد تشيتشيكوف البرنس باغراسيون دون ان يعرف سبباً لوجوده بين هؤلاء الشجعان ، وكان هذا البرنس حقيراً ضئيلاً براهاته الصغيرة ومدافعه القميئة . ويأتي بعد ذلك تمثال البطل اليوناني بوبيلينا وكان فخذه وحده يملأ حجماً اكبر من اجساد هؤلاء الرجال الصغار الذين يملأون صالاتنا اليوم مجتمعين . وبالقرب من بوبيلينا يوجد قفص فيه شعور مبرقش بالاسود والابيض يشبه الى حد كبير صاحب المنزل سوبا كيفيتش .

بقي الصديقان جامدين مدة دقيقتين تقريباً ، ثم ظهرت سيدة المنزل وكانت امرأة نحيفة على رأسها قبعة عتيقة جربة اعادت فيما مضى صبغ اشراطها ، وكان رأسها هذا فارعاً مستقيماً كالشجرة السامقة . وهنا افتتح الحديث سوبا كيفيتش قائلاً :

— تلك حسناي الصغيرة فيودوليا ايفانوفا .

وتقدم بافل ايفانوفيتش من سيدة المنزل وتناول يدها ليصعد بها نحو شفته بحركة جافة خشنة . وشعرت تلك البذ المسكينة عند أطراف شفته بآثار القناء القذر بحيث يتوجب على صاحبها غسلها .

— ايها الحسناء الصغيرة ، اني اقدم لك بافل ايفانوفيتش تشيتشيكوف الذي

حصل لي شرف التعرف عليه لدى الحاكم ومدير البريد .

وطلبت فيودوليا ايفانوفا من تشيتشيكوف ان يجلس . ثم تابعت كلامها

مستعملة اللفظة نفسها التي يكررها زوجها « ارجوك » مضيعة اليها هزة خفيفة من رأسها كأنها تريد ان تمثل دور الملكة . واخذت بدورها مقعداً لتجلس عليه ثم سحبت شالها المصنوع من صوف الخروف ومكثت هكذا جامدة لا تنبس بحرف كالتمثال المنحوت .

وارتفعت انظار تششيكوف من جديد تتأمل في ساقى كوناري بوبيلينا وشاربيه الطويلين ، ثم في ذلك الشحورور النائم وسط قفصه . وساء السكون من جديد ودام مدة خمس دقائق لا يعكسه الا ضربات منقاد عصفور هناك يلتقط فئات الخبز . والقى بافل ايفانوفيتش آخر نظرة على الحيطان ؛ حقاً لقد كان كل شيء ضحاً غلبظاً يشبه سبد المنزل شهباً عظيماً . وهناك في زاوية الصالة شاهد مكتباً ضحاً له اربعة قوائم كأنها قوائم الدب . أجل كل شيء تنفسه الحقة او الروح اللطيفة ، فالمقاعد والكراسي والطاوله كلها غليظة سمجة ، بل كان كل شيء في الغرفة يبدو في منظره كأنها يقول « وأنا ايضاً سوبا كييفيتش ... اني اشبه تماماً » .

- لقد تحدثنا عنك لدى الرئيس ايفان كريبجور ييفيتش . قال ذلك اخيراً قاطعاً حبل الصمت الخيم ولما رأى ان احداً لم يقاطعه تابع : ولقد كان ذلك نهار الخميس السابق ، وقد قضيت عنده ساعة جميلة ، فرد سوبا كييفيتش .
- لم اذهب اليه في ذلك اليوم -

- انه لمحبوب ، فسأل سوبا كييفيتش وهو ينظر الى المدفأة .
من هذا ؟

الرئيس بالطبع !

- اوه ! ان احساسك بالاشياء سيء ، له الحقير الى اقصى درجات الحقايرة ، وشده تششيكوف عندما سمع منه حكمه ، ولكنه تابع :
- انه بطبيعة الحال لكل انسان اخطاء .. اما الحاكم .. فياله من رجل ممتاز .

- الحاكم ؟ ..

- أجل .

- احقر لص التقيت به حياتي ..

- الحاكم .. لص ! صرخ بذلك تشتشيكوف وهو يكذذهنه ليفهم العدالة

في هذا الحكم ، ولكنه تابع : افر لك باني مافكرت بهذا الامر بعد ؛ ولكن هناك اعتراض ولتسمح لي به ، ان الطريقة التي يعامل بها الناس هذا الحاكم تخالف زمك .. بل اني اجدته على العكس ، اجدته رجلاً نظيفاً جداً .

واخذ تشتشيكوف يتحدث عن كبس النقود الذي طرزه الحاكم بيده الماهرة وانهى كلامه بالحديث عن اللطافة التي ترسم على وجهه ، فهتف سوباكيفيتش .

- انه وجه لص ! اعطه سكيناً واتركه وخيداً في عرض طريق عام ، فانه بلارب سوف يقتل ويسلب الناس لأجل كوبيك واحد .. ومساعدته طبعاً على غراره .

وخاطب بافل ايفانوفيتش نفسه :

« انها ولاويب على خلاف ، إذن فلأحدثه عن مدير البوليس ، ولا اظن الا

انها صديقن .. » ثم تابع حديثه بصوت مرتفع :

- كل هذا لا يعني ، ولكني سأقول لك ان مدير البوليس رجل مثالي

دون أدنى ارتباب ... اخلاقه جيدة وقلبه نقي . فأجابه سوباكيفيتش ببرود :

- انه سافل منحط ، يبيعك فيغشك ، ثم لا يتورع عن قبول العشاء معك .

اني أعرف الكل ، وان سكان المدن جميعهم يتألفون من السفالة والانحطاط ويمكن استثناء واحد من جميع هؤلاء ، اخلاقه حسنة وهو النائب ، ولكنه مع ذلك فصيل .

وقضيا بعد ذلك وقتاً في تصفح رجالات المدينة الممتازين ؛ وادرك

تششيكوف اثناء ذلك ان صاحبه يستحيل عليه ان يتكلم عن الآخرين دون
نلهم .

- أوجوك

وهكذا اعاد سوبا كييفيتش تلك اللفظة الخالدة وهو يشير الى الطاولة .
واقترب بافل مع صديقه منها وكانت تحوي على كثير من انواع المقبلات ،
حيث تناولا قدحين مترعين من القودكا واخذوا يكيلان لبعضها الالفاظ اللطيفة
ترافقها الخدمات الخفيفة التي يستدعيها جو المائدة ، كما هو الشأن تماماً في جميع
المدن والقرى الروسية على العموم . وعادا بعد ذلك الى غرفة المائدة . فافتحت
فيودوليا ايفانوفنا الحديث واندست في حلقة المجلس كالاويزة .

وقرب المائدة الصغيرة لغرفة الطعام كان يوجد اربعة امكنة للجلوس ،
وكان رابع الامكنة مشغولاً بامرأة ، ويمكننا تمييز هذه المرأة ، ولكن
بصعوبة : انها فتاة او امرأة صغيرة ، من ارباب المنزل او من اصدقائها ،
رأسها عار من كل شيء ، تبلغ الثلاثين تقريباً ، وثوبها ذو لون غريب يلفت
النظر . يوجد في الكون اشخاص لا يعدون كبقية الاشياء المعروفة ، بل يبدوون
كأهم عثرات ، فيشغلون نفس المكان ويحركون رؤوسهم دوماً حركات
معينة . قد يرغب بهم من يرغب كقطعة من الاثاث في المنزل ، فهم دوماً
ساكتون هينون ، ولكن لو تبعتهم الى مخادع الفتيات ، والدوائر ... فانك
بلا ريب ستجد لهم لساناً

- هذه الشوربة . شوربة الملفوف ممتازة اليوم اباروحي الصغيرة . قال
ذلك سوبا كييفيتش وهو يتناول الـ (نيانيا) وهي الوصفة المعروفة بمرافقتها
الدائمة للشوربة على المائدة وتصنع من أضلاع الحروف وقوائم العجل والمخ مع
قليل من الخلطة . تابع سوبا كييفيتش كلامه بعد ذلك وهو يلتفت نحو
تششيكوف : انك لن تجد (نيانيا) كهذه في المدينة ان الشيطان وحده يعلم
ماذا يعطونك هناك ، فأجاب بافل :

— لقد ظهرت لي المائدة جيدة عند الحاكم .

— أنعلم كيف يطبخون هناك ... لو أعلمتك بذلك فانك لن تقوى على الطعام مطلقاً .

— انا أجهل بالطبع كيف يطبخون ... ولكن أضلاع الخنزير التي قدمت لي عندهم والسمكات بما يشهى كثيراً .

— إنها لتبدو لك حسنة ... ولكن أنا الذي يعلم ماذا يشترتون وكيف يطبخون . ان طبّاخهم السافل الذي تعلم مهنته من الفرنسيين يذبح القطعة ويقدمها لك على أنها أرنبية . وهنا قاطع سيد المنزل زوجته .

— اسكتي باللخبلة ..

— لماذا ، اني لاقول الواقع .. وتلك ليست غلطي ... ان جميع مايرمي به اكلولكا ، ولتسمع لي ان اقول هذا ، في البئر من الاوساخ ، يحد طريقه حالاً الى داخل الحساء ... ذلكم هو الحساء الذي يقدم هناك ، وعلق سوباكيفيتش :

— انك .. انك لاتحدثين على المائدة الا عن هذا ... ثم كرر .

— ولكن اينها الروح الجميلة ، فكري لو صنعت مثل هذا فاني لن آكل ابداً والآن ضمي السكر على الضفادع ، فاني لما المسها بعد .. وانت يا بافل ايفانوفيتش تناول من هذا الحروف فهو لذيقاً جيداً مع الكاشا ، انه ليس بذلك اللحم المرعب الذي يبدو كما لو انه صنع في مطابخهم القذرة الغنية بالاغنام التي انقضى عليها اربعة ايام فوق مفرش المسالخ ... ولا خير في هذا فان الاطباء الالمان والفرنسيين هم الذين اخترعوا هذه الطريقة ... ان هذه الاغنام لتسوت جوعاً طيلة هذا الوقت قبل ان تذبح وتغلى على النار ، ان الامعدة الالمانية تناسبها هذه الطريقة ولكن أمدتنا الروسية قاسية جداً فانها لاتسر بمثل هذه الطريقة ولا ترضى عن هذا (الرجييم) الذي يجربه هؤلاء النعس على تلك الحيوانات ... ان

مثل هذه الطرق لا تصلح لي ... وهنا قام سوبا كيبفيتش بحركة عنيفة وتابع ،
كل هذا يسمونه : التهذيب والثقافة : اما انا فعندما يكون لدي خنزير ، فيجب
ان آكله باجمعه وقس الامر نفسه بالنسبة للخروف أو الاوزة أو ما أشبه ، وعندما
أكل صحنين فيجب ان آكلها بشهية حسنة .

ووضع سوبا كيبفيتش هذا المبدأ موضع التنفيذ فأهال فوق شوخته نصف
- ما في صحنه وقذفه في فمه الواسع ، وسرعان ما ذاب اللحم داخل ذلك القم العريض
- ولم يبق فيه غير العظام . وفكر تششيكوف .

- ان معدة هذا الرجل - قماً جيدة .

وتابع سوبا كيبفيتش وهو يمسح يديه بفوطه السفرة .

- وعندي هنا لا يحدث كما يحدث عادة عند بلبوشكين . فهذا الرجل يملك
ثمانمائة نفس ويأكل مع ذلك اقل مما يأكل اصغر ابناء ملتزمي الاراضي التي
ملكها .

وسأل بافل :

- ومن يكون بلبوشكين هذا ؟

- لص بخيل ، يكاد لا يراه الناس الا لماماً : اما فلاحوه فانهم يموتون
من الجوع .

- أحقاً ؟ وبدا الاهتمام على تششيكوف : وتقول ان هؤلاء العبيد يموتون

بعدد وفير ؟ فأجاب سوبا كيبفيتش :

- انهم يموتون كالخشرات وبالجمله .

- كالخشرات ... وهل هو يقطن بعيداً من هنا ...

- على مبعده خمسة فرسات فقط .

- فقط ؟ ولكن قل لي ، عندما أغادر ك كيف استطيع الوصول اليه ،

أمن جهة اليمين أم الشمال ؟

- لا أنصحك بالذهاب إلى مثل هذا الكلب الخفي ؛ وانه لأحسن لكلينا
ان نذهب إلى منزل سيء السمعة مشبوه من أن ندنس أقدامنا بنزل بلبوشكين.
وقال بافل ايفانوفيتش :
- اوه ! سأدرس هذا ... وسأهتم بكل شيء .

وبعد الانتهاء من صدر الحروف جاء دور الجبن بالكرما . وقد طفع بها
الوعاء ، ثم بعد ذلك جاء دور الديق الهندي الضخم وقد خلط به البيض والأرز
وجميع المنتجات الحيوانية ، وكان هذا هو الطبق الأخير . ولم ينهضوا من
الطاولة إلا عندما شمر تششيكوف بأنه أصبح أرزن بما كان بكثير .

وسار الجميع إلى الصالة حيث كان على الطاولة وعاء مليء بالحلويات المختلفة ،
ولما لم نجد ربة البيت غير صحيفة واحدة خرجت لتأتي بعدة صحاف أخرى .
واستغل تششيكوف فرصة غيابها وقال لسوبا كييفيتش :

- هناك عمل أريد ان أحادثك في شأنه . وكان سوبا كييفيتش آنذاك قد
استرخى فوق مقعده الوثير وأخذ يشخر من انفه بضجة مزعجة حاول ان يخفف
من حدتها بوضع يده على فمه .

هاهي الخلوى . قالت ذلك سيدة البيت وهي تدلف إلى الصالة في تلك
اللحظة ، ان هذه الخلوى مصنوعة من الفجل والعمل . فأجابها سوبا كييفيتش .
- سنأكل بعد حين . اذهبي الى غرفتك الآن ، لأننا سنغلق ملابسنا
ونستمد قليلاً .

وأرادت فيودوليا ان تأتي ببعض الوسائد للاستناد ولكن زوجها اوضح
لها ان الامر لا يحتاج الى هذا وانها سيكتفيان بالتمدد على المقاعد ، فخرجت
آخر الأمر دون ان تبدي أي اعتراض .

وأرخص سوبا كييفيتش رأسه منتصباً الى صديقه ، واستعد تششيكوف
لدخول الموضوع بصورة غير مباشرة . فتحدث عن روسيا ومدح عظمتها

بأن ذكر أن الامبراطورية الرومانية نفسها لاتضاهيها عظمة... حتى ان الاوروبيين وغير الاوروبيين من الاجانب يندهشون اعظمتها... « وكان سوبا كييفيتش أثناء ذلك ينصت وهو منحني الرأس » وتحدث عن القوانين الراقية التي لا يوجد مثلها في بقية الدول ، وتحدث عن العبيد الذين يتابعون وجودهم على الأرض في قاعة الاحصاء بعد ان يموتوا إلى ان يحل الاحصاء الجديد « وكان سوبا كييفيتش أثناء ذلك ينصت وهو منحني الرأس » وهذه بطبيعة الحال ثقيلة على الملاكين لأن عليهم أن يدفعوا الضرائب عن النفوس الميتة كما لو كانت حية . ثم ان تشتشيكوف بالنتيجة اكراماً لصديقه العزيز سوبا كييفيتش وإعزازاً له سبحانه أن يتحمل عنه بعض هذه الضرائب .

حقاً ان بافل اي فانوفيتش قد تكلم بكثير من التبصر والاناة فيما يتعلق بالفرض الاساسي الذي جاء من اجله ، والدليل على ذلك انه شمل في حديثه جميع النفوس المفقودة لا الميتة فحسب .

كل هذا وسوبا كيوفيتش ينصت منحني الرأس دون ان يتحرك أو يغير من تعبير وجهه ، فظهر وكأنما غادرت روحه جسده ؛ وسأل تشتشيكوف :
- والآن ماذا تقول ؟ وظل صامتاً ينتظر الرد باضطراب .

- أأنت تحتاج الى نفوس ميتة ؟ كانت هذه العبارة الصادرة من سوبا كييفيتش مصعوبة بنبرة طبيعية جداً كأنما الحديث يتعلق بشراء الخنطة وأجاب بافل .

- أجل : ثم رقق من عبارته : « نفوس غير موجودة » فقال تشتشيكوف :
- سنوجدتها .. ولم لا ؟

- في هذه الحالة سيكون سرورك عظيماً بلا ريب اذا تخلصت منها .
- اني على استعداد تام لبيعك تلك النفوس : قال ذلك سوبا كييفيتش وهو يرفع رأسه قليلاً الى الاعلى إشارة الى انه يتربص بالشاري حذر أن يدفع بعملية الشراء لصالحه الخاص .

وقال تششيكوف نفسه .

- بالتوفيق الرائع ، انه مستعد للجميع دون ان يطلب أي تفسير أو تعليل .
وأضاف بعد ذلك بصوت مرتفع : ماهو السعر الذي يناسبك في هذه البضاعة
الغريبة .. فأجاب سوباكيفيتش .

- لست مبالغاً أبداً اذا طلبت منك مائة روبل بدلاً عن كل نفس ميتة ،
فزق تششيكوف وقد صمق دهشة .

- مائة روبل ! وثبت عينيه في وجه صديقه آملاً يديه وبين نفسه ان يكون
معه قد خانه ، أو ان لسان سوباكيفيتش تعجل بذكر رقم دون رقم .

- يبدو ان السعر لا يناسبك ، إذن ماهو الثمن الذي ترتأيه ؟

- ماذا ! الثمن الذي ارتأيه ؟ اعتقد ان هناك سوء تفاهم كبير بلاريب ..
لعلنا لم نفهم بل انا نسبنا مادة الشراء .. أقول لك صادقاً ان ثمانية (كريفين)
سعر مرتفع جداً في نظري .

- ماذا تريدني ان اعمل بثمانية (كريفين) .

- اني بعد تفكير عميق في الامر اقول انه لا يمكن ان اضيف عليها شيئاً ..
واني لست ببائع احذية .

- عفواً .. انا لاساومك على النفوس الحية .

- اذن جد الاحق الذي يقبل ان نبيعك بثمانية كريفين نفساً مسجلة في
لائحة الاحصاء والمراقبة .

- ولكن هذه النفوس لاعلاقة لها بالاحصاء .. انها ماتت منذ زمن بعيد ،
ولانعترف بوجودها الا دائرة جباية الضرائب التي عليك ان تدفع لها .. هذا
وليس لدي ما اريد سوى ان اقبل بدفع روبل ونصف الروبل فقط .

- افلا خجلت من عرض مثل هذا الرقم ، قل انك لاتريد الشراء .. أو
حدد ثمناً موائياً .

– نستعمل علي الزبادة ، لا استطيع .

ولكنه مالبث ان اضاف خمسين كوبيكاً عندما لاح له ان صيغ الاستحالة التي تكرم بها لم تنفعه شيئاً ، وقال سوباكيفيتش .

– ولكن لم انت بخيل الى هذا الحد ؟ حقاً ان السعر الذي اطلبه ليس مرتفعاً انه لو وجد آخر غيري وأراد ان يبيعك من مثل هذه البضاعة فانه سيفشك بلا ريب ويعطيك أخس القاذورات بدلاً من النفوس .. ان بضاعتي نسيج وحده وعندما لا يكون البائع حازماً فيجب ان تكون لديه بضائع اخرى من نفس النوع ..! ولتنظر ذلك بنفسك ان صانع العجلات ميشيف .. يعمل العجلات كابرع صانع بل ان الروسياتها كلها لا تحوي رجلاً في مثل حذفه وسرعته .. فانه في ظرف اربع وعشرين ساعة ينهي عمله .. لالا !! انها لقساوة !! وبضاف الى ذلك انه يطلي العربات بنفسه ويخرفها .

واراد تششيكوف ان يقاطعه ليوضح له ان ميشيف هذا قد مات ومر على مائة وثمانين عاماً وليس بالقصير ، ولكن ما من شيء يمكنه ايقاف سوباكيفيتش الذي اصبح ثراءً تنساب من فيه الكلمات دون توقف ..

– وثم التجار وكسبيان ، اني لأقدم رأسي للقطع إذا ما وجدت فلاحاً من قيمته ، باله من بطل ! لو كان حذراً فقط ، إذن فانه وحده يعرف الحد الذي سيصل اليه في بطرسبرج . ان طوله يبلغ متوين وثلاثة عشر سنتيمتراً .

واراد تششيكوف ان يقول ايضاً ان بروكا هذا ايضاً من عداد الاموات ولكن سوباكيفيتش كان في حالة قبض فلا شيء يمكن ايقافه عند حده فكل ما يمكنه العمل هو الانصات اليه .

– وفلاحى ميلوشكين ! العامل الذي يعرف صناعة المدافئ ..! وصانع الاحذية ماكسيم تيلبانتيكوف باله من صانع ماهر ويلهما من جلود وأحذية ! وهو رجل صالح لم يشرب الفودكا قط ! ولنتكلم ايضاً عن ايرمي سوروكوبليوشين ،

فهذا رجل عجيب يعرف كل شيء ويجيد اي عمل . وقد عاد من موسكو مرة
وفي خرجه خمائة روبل قدمها لسبده ... انهم رجال ! وليسوا رجالاً اولئك
الذين يبيعهم بلبوشكين .

— ولكن اسمح لي ، علق بهذه العبارة تشتشيكوف الذي اتعبه جداً هذا
السليل المتواصل من الكلام الذي بدا له ان لا نهاية له .. لماذا تعد لي صفاتهم؟
فهم لن يصلحوا لشيء طالما انهم في عداد الاموات !

— طبعاً ... لقد ماتوا ... اجاب بذلك سوباكييفيتش وقد تذكر تلك
الحقيقة المرة واطهر أسفه الشديد لمفارقتهم ... ثم تابع : ولكني اقول لك ان
هؤلاء الاحياء الباقين ... هؤلاء الذين يحسبون احياء ... انهم حشرات ...
انهم ليسوا رجالاً .

— ولكنهم على الاقل يعيشون ... بينما الآخرون ليسوا سوى أحلام
— ابدأ ابدأ ... ميشيف لامثيل له ! أهو حلم ؟ ان في كاهلية من القوة
مالايملك الحصان مثلها ... جد لي إذن حاملاً من هذا الطراز . وعاجله
تشتشيكوف بقوله :

— لن أعطيك اكثر من روبلين .

— ايها العزيز ، يجب الا انهم بائي طلبت منك ثمناً فاحشاً وبائي ماتصرفت
معك كصديق صدوق ، لذلك أرى لزاماً علي ان أتنازل لك عن النفوس لقاء
ستين روبلاً عن كل نفس ، وهذا التساهل الذي قد يدهشك انما هو من قبيل
الصداقة فقط .

— اتحسني ابلهاً إلى هذا الحد ، قال ذلك تشتشيكوف ثم أردف بصوت
أجش : حقاً ان هذا غريب ويبدو لي اننا نقوم بتمثيلية هزلية . انت امرؤ
ذكي أريب نشيط ، ولكن لننظر ... فانك لاتبدو هنا الا تاجرآ خيالياً ...
ماذا تساوي هذه النفوس ؟ انه مامن انسان بحاجة اليها .

- عفواً ، انت تريد شرائها ، فانت إذن تحتاجها !

وعض بافل ايفانوفيتش على شفتيه بجنق ، ولم يدر بماذا يجب . ثم أخذ يتحدث عن ظروفه العائلية ومشاغله الحاضرة التي تملأ جميع اوقاته . غير ان سوبا كليفيتش اجاب بكل بساطة :

- انت اهتم بمعرفة مشاغلك الحاضرة وظروفك العائلية ، فهي لانهم سواك ولا تدخل إلا تحت تمحيصك . ان ما أفهمه فحسب هو انك تريد ان تقتني نقوساً ، وانا أبيعك اياعا .. أتريد ان تعتذر عن شرائها ... فأجاب تششيكوف :

- روبلان

- ألا تريد ان تخرج عن روبليك هذين ، هيا واطرح رقماً آخر .
وفكر تششيكوف : لباخذه الشيطان . سأخيف له خمسين كوبيكاً . وقال بصوت مرتفع .

- لا بأس ، ليكن الثمن روبلين ونصف .
- اما من جهتي فان السعر الاخير الذي اعرضه عليك سيكو ث خمسين روبلاً . فانا الذي يضيع على نفسه ... انك لن تجد ابدآ بضاعة جيدة بهذا السعر البخس .

- « باللفظة » قال ذلك بافل لنفسه ثم اضاف بشيء من الغضب :

- انني اشتري وكأنا في الامر ما هم ... الا تعلم بانني آخذ هذه النفوس للاشيء ... ان الجميع سيكونون سعداء بالتخلص منها ... حقاً يجب ان اكون من الحيوانات كي احتفظ بهم وادفع الضرائب عنهم .

- فانت إذن لا تعلم بتحضير مثل هذه المشتريات - اني اقول ذلك فيما بيننا وعلى سبيل الصداقة - واني ، سواء أتحدثت انا بها او تحدث بها شخص آخر . فان الرجل الذي يشتغل بها يفقد كل ثقة عند التجار ؟ فلا يعقدون معه اي اتفاق ، كما انه يخسر عمله التجاري .

وفكر بافل ايفانوفيتش :

- ايه : لقد قبض على زمام الامر ، هذا الماكر اللعين . ثم قال ببرود :

- كما نشاء ، ولكني لم ارجب بشراء النفوس لاني اجد ذلك ضروريا ، كما

ظننت ، بل لتحقيق بعض الافكار . افلا تريد روبلين ونصف ، اذن الى اللقاء .

- وفكر سوبا كييفيتش : لا يمكن ان نعمل معه شيئاً .

- هيا ساعدها لك بثلاثين روبلاً عن كل نفس ، خذها ولا تدع هذه

الفرصة تفوتك .

- مستحيل ، ارى انك لا تود بيعها ، استودعك الله .

- اسمح اسمح لي ، زعق بذلك سوبا كييفيتش وهو يجذب تشيتشيكوف

من يده ويدوس في نفس اللحظة على قدمه . وتشاء الصدفة ألا يجترس بطلنا

للامر فدهست قدمه واطلق صرخة حادة ثم جعل يقفز على قدم واحدة

بألم واضح .

- سألتك الصفح يا عزيزي ... هل سببت لك ألماً حقاً ؟ ارجوك خذ مكاناً

هناك ... ارجوك .

واجلسه بحذر شديد ولطافة متناهية كدب متأدب علموه كيف يعمل

الحسن ويحب بطريقة عملية على امثال هذه الاسئلة « أرونا يا مبدشا كيف نفعل

النساء في الحمام ؟ - مبدشا ، ماذا يعمل الاشقياء عند سرقة الخمر ؟ ،

وقال تشيتشيكوف :

- لقد اضعت وقتاً ثميناً يجب ان اذهب .

- دقيقة واحدة ... سأقول لك شيئاً لطيفاً ، واقترب سوبا كييفيتش من

صديقه وهمس في اذنه : ايعجبك ان تدفع ورقة صغيرة عليها صورة البطة ثمناً

كل نفس ؟

— خمسة وعشرون روبلاً ... اني لارفض ربع هذه الورقة الصغيرة ...
ولن أزيد كويكاً واحداً على ما دفعت .
وأخذ سوبا كييفيتش وظل تشيشيكوف ساكناً ينتظر ، ومرت دقيقتان
وقال بعد ذلك سوبا كييفيتش :
— وما هو السعر الاخير الذي ستدفعه ؟
— روبلان ونصف .
— ألا تساوي نفس الانسان عندك اكثر من ذلك ؟ ليكن ثلاثة روبلات .
— مستحيل .
— لا يمكن عمل شيء معك .. ليكن لك ذلك ! لا ريب في اني اخسر ..
ولكن لي ميزة كلب . ولا استطيع الا ان أسر صديقي .. ولكي يكون
كل شيء قانونياً فالتنا نحتاج الى عقد للمبيع .
— طبعاً .

— ان هذا مضجر ... إذ علي ان اذهب الى المدينة .
وهكذا انتهى الجدل واتفق الصديقان على اللقاء في المدينة صباح الغد عند
مسجل العقود للختم على انتقال ملكية تلك النفوس . وطالب بافل بقائمة اسماء
العبيد فسار سوبا كييفيتش الى مكتبه ليكتب اسماء تلك النفوس الميتة وصفاتهم
جميعاً . واخذ تشيشيكوف اثناء ذلك يتأمل في عرض كنتي سوبا كييفيتش
وكان لظهر هذا الاخير ضخامة ارداف الجياد ، أما ساقاه فيشبهان اوتاء التخوم
الغليظة التي توضع على الارصفة . ولم يقو بافل على كتم ما هتفت به نفسه « حقاً
ان العناية الالهية من صفك .. هل ولدت دجاً ام انك أصبحت بالعيش في جوف
هذه الولاية ، مع حقول قمحك وفلاحيك حيث أعادتلك المزاولة امرءاً غليظاً ؟
لا ! انك دب منذ الوقت الذي نشأت فيه على طراز بطرسبرج ورشت في
هذه الحياة الدنيا لتلك العاصمة رشحاً . ولكن الفرق هو انك هنا تبذل طبقاً

مليئاً بالكاشا مع صدر خروف بعد تناول المقبلات ، اما هناك قطعامك شطاثر من الكمأة . انك هنا سيد عدد من العبيد وعلاقتك بهم جيدة ولا تستطيع الا ان تعاملهم بالحسنى وإلا رموا بك على قمة رأسك بطريقة من الطرق . اما في بطرسبرج فانك ستكون تحت الاقدام تطيع جميع الاوامر الملقاة اليك وتسمى لارضاء مرؤوسيك بأية وسيلة . ان الرجل الغليظ لن يعرف السرور الى قلبه سبيلاً هناك ، ويحسن به ان يكون جاهلاً ، لانه اذا ماتتقف وتعرف على علم من العلوم واراد ان يكون حاذقاً فيه ، فان التعاسة سيجدها تنخر في اعماقه .

قال سوبا كييفيتش وهو يلتفت خلفه :

لقد انتهت القائمة .

— حسناً ، اعطيها .

وتصفحها بافل ايفانوفيتش معجباً بنقاوتها من كل شائبة ؛ مامن شيء ينقصها فقد ذكرت المهنة والاسم والعمر والوضع العائلي ، حتى المحافظة على القانون وحسن السيرة قد ذكر على هامش خاص باخلاق الفلاحين ، وقال سوبا كييفيتش .

— ستعطيني سلفة مقدماً .

— ولماذا ؟ سأعطيك كامل المبلغ عندما تمهر العقد غداً .

— ولكن العادة في المعاملات هنا تجري هكذا .

— لست احمل دراهم كثيرة .. اليك هذه الروبلات العشر .

— عشر روبلات ! يجب ان تدفع لي خمسين على اقل تقدير .

واراد بافل ان يتسنع ولكن سوبا كييفيتش عاجله بقوله :

— معك بطبيعة الحال الكفاية فمن العبث ان ترفض ، فقال نشتشيكوف

لخيراً :

- هافد وجدت لك خمسة عشر روبلا آخر فيصبح مجموع مامعك خمسة وعشرين روبلا ، اعطني بها وصلا .

- ماذا تفعل ؟

- ان الايام تتعاقب على غير تشابه .. ولا احد يدري ، ايمكن ان يحدث في الغد .

- ليكن ذلك ، اعطني الدرام مقدماً .

- ولماذا ؟ هاهي ذي معي وعندما استلم الوصل سأعطيك المبلغ .

- كيف تريدني ان اكتب لك وصلا باستلامي خمسة وعشرين روبلا دون ان أراها ؟

ورمى نشتشيكوف بالمبالغ فوضعه هذا فوق مكتبه ووضع فوقه يده الغليظة وحرر بعد ذلك وصلا بانه استلم مبلغ خمسة وعشرين روبلا كدفعة على الحساب ثمناً لمبيع النفوس الميتة .

وبعد ان مهر الوصل بامضائه اخذ ينظر في الاوراق المالية متفحصاً ثم قال وهو يقترب من النافذة :

- ان هذه الورقة المالية مكتهلة قليلا ويمكن ان تتمزق بسهولة ، ولكن ليس لهذا اهمية بين الاصدقاء ، وقال نشتشيكوف في نفسه .

- ياله من رجل غلبظ وجبان قذر .

- الا تريد نساء .

- لا وشكراً .

لن اطلب بها غالباً . يكفي روبل واحد عن كل امرأة .

- لا ارجب بهذا الجنس .

- فلنوقف الكلام في هذا اذن ، ثم ان الواحدة كما يقول المثل تحب الكاهن .

بينما تحب الثانية زوجها .

وقال تششيكوف وهو يخرج .

- اريد منك طلباً اخيراً ، وهو ان يظل هذا الامر سرّاً بيننا فقط .

- يستحيل ، بالطبع ، ان يعلم به ثالث ، ثم اني لا اريد ما يفرق بين صديقين حميمين ، الى اللقاء وشكراً لزيارتك اللطيفة ، ولا تنس اخيراً ان تأتي للغداء عندما عندما تجد في وقتك متسعاً ، صدق اننا سنسر كثيراً .. كما يمكننا ان نقدم لبعضنا بعض الخدمات .

« طبعاً طبعاً .. قال ذلك تششيكوف نفسه وهو يمتطي العربة ، ان هذا اللص هذا الحيوان القذر ، قد أخذ مني مبلغ روبلين ونصف ثمناً للنفس الميتة » .

انه يقصد سوبا كييفيتش بكلامه هذا بطبيعة الحال ، وهو مع ذلك يجب ان يعتبره صديقاً له ، لانه التقى به عند الحاكم وعند مدير البوليس ، ولكن هذا الصديق عامله معاملة الغرباء .. لقد اخذ منه المال ثمناً لجيف منقنة ! وعندما اجتازت العربة ساحة الدار التفت بافل الى الخلف فلمح سوبا كييفيتش واقفاً على الدرج كما تركه وبدأ كأنما يريد ان يعرف وجهته ، ولم يستطع إلا ان يخرج من بين اسنانه هذه الكلمات « هذا السافل المنحط مازال هناك » وسلم مقاليد السير لسيليفان الذي انحدروا نحو اكواخ الفلاحين كي لاتقع انظار سبد المنزل على وجهة العربة في تسيارها الجديد . انه يريد ان يعود الى بليوشكين حيث يموت عنده العبيد كالخشرات وبالجملة . ولكنه مع هذا لا يرغب في ان يراه سوبا كييفيتش . وعندما وصلت العربة الى اول القرية دعا احد الفلاحين وكان يحمل على كاهليه جسراً غليظاً .

- ايه انت ، يا صاحب اللحية الغليظة كيف نتمكن من الذهاب الى منزل بليوشكين دون ان نمر بمنزل ذلك المعلم وتوقف الفلاح وبدأ كأنه لا يعرف كيف يجيب .

— الا تعرف ؟

— لا ... لا اعرف المعلم .

— وشعرك مع ذلك اشيب ! أو لا تعرف بلبوشكين البخيل ... انه لا يأكل وجاله إذن .

— آه ! رجل الحرق البالية ، ذلك (المرقع) . ثم اضاف الفلاح كلمة يستحيل علينا التصريح بها .

ويستطيع الفارسي بلا ريب ان يقتبأ بقيمة جمال تلك الكلمة . ولكن تشتبكوف ظل داخل العربة طويلاً وقد ارتست على شفاهاه ظل ابتسامة . حقاً ان الشعب الروسي يملك تعابير قاسية . ولقد كان ذلك الفلاح من اصحاب النية الحسنة ، وكانت نيته تلك ترافقه ابدآ ايناسار ، في الجندية او في بطرسبرج او في المنفى . ان الكلام الذي يصيب الهدف انما هو كالكتابة الخالدة ، وهذا وحده هو ما يجعل الروسية بارزة واضحة ، الروح الروسية الحقيقية الحية والقوية ، وهذه الروح بتلك الميزات تبرز اكثر من الروح الالمانية تلك الروح الطوعية التي تضر كل شيء ... أجل يستحيل ان نضيف اي صفة او خط الى هذه الصورة ، فقد ارتسم الرجل الروسي فيها من قنة رأسه حتى اخمص قدميه .

ان القديسين والنبلاء في روسيا يملكون عدداً من الكنائس والاديرة والصلبان والقباب والاجراس يكاد لا يحصى ، ويملكون الى جانبه عدداً محترماً من الانسال والشعوب والعروق يوجون كلهم فوق هذه البسيطة . ويحمل كل من هذه الشعوب امكانيات خالقة ، ويعتز بشخصيته ، وبذلك المعطيات الالهية التي يملكها وهو يثري العالم بطرائفه الطريفة في القول الذي يوضح ميزاته . ان الانكليزي يعز ثقافته المتوازنة مع الحياة ، والفرنسي يظهر حماه الفني الطافر ، والالمانى يتأمل في علومه طويلاً وبعثى بعيد الغور ، ولكن ما من شعب يملك هذه الصرخة الصادرة من القلب ، العريضة الواسعة ، الحية المدوية ، واعني بها تلك الكلمات الانيقة التي تميز الشعب الروسي .

الفصل السادس

منذ زمن بعيد عندما كنت صغيراً اذ كراني أثناء سني طفولتي التي مرت علي نوائباً كان كياني كله يتوثب فرحاً عندما أصل إلى بلد جديد لا اعرفه ، مدينة كانت أو قرية فقيرة ، أو ضيعة أو اي شيء آخر . وكانت نظراتي الفضولية الباحثة لا تسكاد تنقطع عن التطلع والاستكشاف ، لقد كان كل بناء في نظري بل كل شيء على الاطلاق يحمل في طياته ميزات خاصة ، مؤثرة ، وكل هذا كان يؤثر في ويدهشني . فالعمارة الحجرية بنوافذها المعوجة وعزلتها الحزينة بين المنازل البورجوازية وبقيتها المستديرة السامقة الثابتة ، وكذلك الكنيسة الجديدة البيضاء كالتلج وسوق القرية الانيق الذي يضيع في المدينة ، كل هذا وغيره لا يستطيع ان يفلت من انتباهي الدقيق المركز . حتى شكل الثوب الجديد الحديث التفصيل كنت اأمل فيه ملياً . وكذلك الشأن في الضناديق الحشبية المليئة بالمسامير والكبريت والكافور والعنب الحديث الفطوف والصابون وغير ذلك من الاشياء الخفية كلها وراء واجهة التوابل قرب قطرميزات البونبون المستوردة من موسكو . كما اني لم اغادر بانظاري اي موظف جاء حديثاً ، وكما كنت اقول لنفسي عندما اشاهد بائناً يجتني في عربته بسرعة : أين سيذهب ؟ إلى اخيه ام إلى مكان يقضي فيه السهرة ؟ ام انه سيذهب إلى بيته حيث يجلس

قراءة النصف ساعة على الدرج حتى يبين الفسق ، ثم يقوم ليتناول وجبة طعامه المسائية مع أمه وزوجته واخته الحسناء وبقيّة أفراد عائلته ؟ وبماذا ، ترى ، سيتكلم الجميع عندما تلبس الخدم قلايدها الزجاجية او حين يظهر ابن متعهد الارض بقميصه الفضفاض يحمل بعد تناول الحساء شمعاً مشبّعة فوق شمعان دبت في أوصاله الشيخوخة لكثرة الاجيال التي مرت عليه .

وعندما أصل امام ضيعة صغيرة لأحد الملاكين آخذ بالناول في القبة الخشبية العالية حيث تقوم الكنيسة القديمة ، المنسعة ، ذات الحشب القائم . وكنت أرى في البعيد وسط النباتات الكثيفة المتشابكة أعمدة السقوف الحمراء والمدانيء البيض الخاصة بنزل السيد ؛ كل هذا كان يجلب مني النظر ، وكنت ازاء هذه الرؤى انتظر بصبر نافذ ان تنبسط الحقول من الجانبين لتسبح لي بروية القصر بقضه وقضيضه حيث يبدو الكل في وحدة جميلة وتعود من جديد نفس الاسئلة للخطور : من يكون هذا السيد أهو كبير ، وهل له اولاد ذكور وحوالي نصف دزينة بنات ، يضحون بضحكهم وألعايمهم ، وهل اصغرهم جميل حقاً وهل للجميع عيون سوداء جميلة ، وثم ... والدم نفسه ، أهو رجل بشوش ام عابس مقيت كأواخر ايام ايلول ، وهل أنفه مدسوس ابدآ خلف روزنامته يسّم الصفار باحاديثه التافهة عن العلف والقمح والشعير ??

اما اليوم .. عندما كبرت فاني لم أعد اهتم بشيء في رحلاتي امام مدينة حديثة بل اني انظر اليها دون أي اعتناء ، حقاً أن نظراتي تجلّت وقد كدت أنسى كيف ابتسم ، وهذا الذي كان يثير في وجهي قديماً أمارات الارتعاد والرجفان ، كضحكة سارة وخطابات واسارات لانهاية لها ، اصبح الآن مرذولاً عندي فأبقى واقفاً أمامه صامتاً باكتئاب ، فأه .. بالطفولة وبالفضارتها .

لقد كان تشنيكوف إذن داخل عربته يفكر مبتسماً في هذا اللقب الذي

اضفاء الفلاح على بلبوشكين ، ولم يلحظ ابداً انه وصل بعربته الى قلب قرية متسعة فيها كثير من الطرقات والاكواخ ، وكانت صدمة قوية قاسية أعادت تششيكوف الى معرفة هذه الحقيقة ، ذلك ان تششيكوف بينما كان يمد رأسه من النافذة اذا بالعربة تنقلقل ثم ترتفع وتنخفض بسرعة أثناء سيرها فكانت تلك اللطمة التي حطت فوق جبهته بقوة جعلته يقضم لسانه الممدود باسنانه دون ان يكون لارادته دخل في هذا الموضوع ، وهنا شاهد تششيكوف نفس الجو القديم المهيمن على اكواخ تلك القرية ، فأخشاب هذه الاكواخ مثلاً قائمة عفة وكثير من ركائز السقوف مثقوبة بوساعة لكثرة مانغل فيها السوس وكانت بعضها لا يحمل غير العوارض الداخلية كما كانت بعض الوصلات الحشبية مسندة برداءة الى مساند غير صالحة لمثل هذا ، وبدا الامر وكأنما فيه للفلاحين ارادة إذ الظاهر ان هؤلاء الفلاحين بدوا كأنما خلعوا بانفسهم تلك الالواح من على السطوح حاسبين ، وهذا صحيح ، بان اكواخهم لم تعد تستطيع الصمود امام الامطار .

كانت نوافذ تلك الاكواخ خالية من الزجاج ، وكان بعضها مسدوداً بقطعة من القماش او من الخصر . وقد شبدت بعض الشرفات على الاكواخ لسبب ما لا يكاد يعلم به احد ، وكانت كلها معوجة يسيطر عليها سواد حزين . وكانت صفوف من الطواحين خلف هذه الاكواخ مهملة منذ زمن بعيد بلاريب ، وكانت اكداس القمح مصفوفة بلونها القرميدي . وقد تخللها العفن ، وقد نمت الاعشاب تحت هذه الاكداس فافلقتها من مكانها قليلاً ، ان هذا القمح ملك لسيد القرية بلاريب ، وخلف هذا المكان كانت توجد اكداس اخرى من القمح وبعض الركائز التلفة وكنيستات منتصبان نحو السماء برأسهما المتناظرين وكان تششيكوف يراها في عربته السائرة تارة من جهة اليمين واخرى من اليسار حسب دوران العربة ، وهاتان الكنيستان كانتا فارغتين

والاولى منها مبنية من الحشب اما الثانية فبناؤها من الحجارة وحيطانها صفراء قدرة . ثم بدت جهة من منزل سبد القرية وبعد ذلك ظهر البيت برمته بخلف صفين من الاكواخ وبستان محاط بسور منخفض مهدم من جميع اركانه كان هذا القصر الغريب يشبه البائس الكسيع بطابقه الوحيد وسقفه المظلم ، وقد شيدت عليه شرفتان باخ لونهما . وكانت حيطان هذا المنزل تسمح برؤية الصفايح الحشبية التي زينت في عهدها الغابر بالرسوم . وهناك نافذتان فقط ظلتا مفتوحتين اما النوافذ الاخرى فقد ظلت مرتجة المصاريع وكان بعضها يثير الاشتزاز بالواحه العفنة المسمرة على الجدار . اما احدى النافذتين اللتين يستعملها صاحب المنزل فقد كانت تسمح للمرء بان يلاحظ آثار الزجاج الذي كان فيها قديماً ، اما اليوم فقد الصقت مكان الزجاج قطعة من الورق المقوى بشكل مثاث وكان خلف ذلك القصر بستان واسع جداً يمتد الى ما وراء القرية ويتبعه بعد ذلك في حقل كبير بمنزل ، غير انه باعشابه النامية يهب شيئاً من الحياة لتلك القرية الكبيرة ذات المنظر الاليم المؤثر بمزله المحزنة . وكان يشاهد من بعيد قباب غير منتظمة واوراق اشجار خضراء مرتعشة ، وكان ثمة جذع ضخم من شجر السندوقد احترق رأسه برمية صاعقة ، ينض وراء ذلك المشهد الملوث بالحضرة ويبدو كان الرخام مادته . اما ذروته المحطمة فتشبه عصفوراً اسود يقف فوق كومة من الثلج الابيض . وكانت حشائش الدينار هي الغالبة وسط ادغال البندق وتلدوي حول لوحة ذلك المشهد كالافغوان وتبلغ في علوها منتصف اشجار السندر الغليظة ، ثم تنحني فوق ذرى بقية الاشجار او تمكث وحدها في الجو منهادية بحفنة مع رفيف الهواء . وكانت هناك اكوام مبعثرة من الاوراق الخضراء تظهر في كل مكان وتلتمع تحت اشعة الشمس وتظهر في بعض الزوايا التي لا يصلها النور كابية معتمة . وفي وسط هذه الظلمة الداكنة يمكننا اذا ما سرحنا النظر ان نشاهد طريفاً مستقيماً وحواجز خربة ونقوشاً تحرقها السوس كما نشاهد الطلح واشجار السوق بالغصون يتخلل كل

ذلك بعض العروق اليابسة واوراق يغمرها النور بمض الشيء فتلتصع اما في الجهة الجنوبية بالقرب من هذه الحديقة فكان هناك طائفة جبارة من شجر الحور السامقة ملبئة باعشاش الغربان المشيدة في اعاليها . وكانت اغصان بعض هذه الاشجار محطبة بفعل الرياح الشديدة فبدت اوراقها جافة يابسة .

كان كل شيء جميلاً ، جميلاً من ذلك الجمال الذي لا تبده الطبيعة أو الفن ولكنه يصح كاملاً تام الكمال عندما تتوحد جهود الطبيعة وعمل الانسان الابداعي ، أو عندما تتسم الطبيعة ذلك العمل الانساني الفقير للبشر : انها تتخفف من غلظ الاجساد وتخرب الترتيب المبترس ؛ وتبطل مفعول جميع تأثيرات الاخطاء المحزنة التي تقضح الرسومات الفقيرة ، وتهب الحرارة لكل اولئك الذين يؤلفون داخل اذهانهم الجامدة المعادلات الدقيقة .

وبعد دورة أو دورتين وجد بطلنا نفسه امام منزل المعلم الذي بدا له إذ ذاك في حالة أبأس مما شاهد عندما كان بعيداً عنه . كانت هناك عدة ابنية صغيرة : كوخ مسقوف شديد خصباً للعجلات ، وبعض دكاكين ، وعدة اكواخ غللاً فناء البيت ، وعلى الجهتين اليمنى واليسرى كانت هناك بعض الابواب المقفلة المؤدية الى اقنية اخرى . كان كل شيء ينير الظلمات امام عودة الماضي حيث يأخذ الجميع مشهداً حزيناً . وليس ثمة ما يبعث في هذه لهب الحياة . كانت هذه الابواب تبدو للناظر انها مقفلة منذ سنين ، ولم يكن يظهر إذ ذاك اي وجه انساني ، بل كان كل شيء يزفر هجراناً تاماً لأية فاعلية . كان الباب الرئيسي هو الوحيد المفتوح من بين جميع تلك الابواب ، وكان ذلك بسبب قدوم فلاح يحمل الحصر ، ولقد دخل ذلك الفلاح كأننا يريد ان يشبع الحياة في هذا المكان الميت . اما في الاحوال الثانية فان هذا الباب ايضاً يظل كغيره مغلقاً على الدوام والشاهد على صحة هذا القول ذلك القفل الثقيل المعلق ابدأ في الرتاج الحديدي .

لاحظ تششيكوف بسرعة ان ثمة شخص ما قرب الاكواخ آخذ بالصراخ في وجه ذلك الفلاح ، فتوقف زمناً ليس بالقصير دون ان يقدر على استنباط اي شيء يقوده إلى معرفته . فالرداء الذي يلبسه قضااض اشبه برداء النساء ، وكان يزين رأسه بقلنسوة سيد القرية . اما صوته فقد تبين لتششيكوف لدى سماعه انه من الممكن ان يكون لامرأة . « انه لسيد شجاع » قال ذلك في نفسه و اضاف « ولكن ذلك مستحيل ... لا ! .. واه كان حقاً سيداً » كان يفكر في هذا وهو يحاول ان يثبت اكثر فاكثر من هذا الصراخ الغريب . واما الاخير فانه اخذ ينظر بحذر نحو ذلك القادم الجديد . حقاً ان ظهور هذا الرجل الغريب بدا له امرأ مدهشاً . لقد أخذ يتأمل بفضول عظيم ليس فقط تششيكوف بل سبيلغان ايضاً والحيوانات التي اخذت كذلك تترصد بحسدها كاه ابتداء من ذيلها حتى ذروة رأسها .

وشاهد تششيكوف انفتاح معلقة في زنار تلك السبدة العجيبة فعرف انها خازنة بليوشكين .

— اسمي باماتوشكا ، قال ذلك وهو يحبط من عربته ، أين يوجد المعلم .

— لقد خرج اجابت بذلك المرأة ثم تابعت ، ولماذا ؟

— إني بحاجة اليه .

— لتدخل إذن ! وادارت له بعد ذلك ظهرها فشهد ثوبها القذر الملوث بالطحين والمتزق برمته تقريباً من جهته السفلى .

ودخل تششيكوف في ممر وحب مظلم ، حيث تسود فيه برودة الاقبية الجليدية . ثم دلف إلى غرفة مظلمة ايضاً لا يبدد بعض ظلمتها إلا ذلك الخط من الشعاع المنسرب من أسفل الباب . ثم فتح الباب فامتلأت الغرفة بالنور ووجد تششيكوف نفسه عندئذ امام القوضى التي عاينها سابقاً . قيل له ان الخدم باثروا بفصل مقوف الغرف الاخرى فكسدوا جميع الاثاث في هذه الغرفة الوحيدة !

كان هناك كرسي مكسور فوق الطاولة ، وكانت هذه الطاولة مع حماها قرب الساعة التي يغطي العنكبوت نواصها ؛ وثمة مرآة اسندت برداءة بالغة إلى الحائط . وعليها بعض الادوات الفضية العتيقة وبعض الفناني والاواني الصينية .

وعلى منضدة مزينة بنقوش الموزاييك اللامع كان يوجد عدد من الاشياء الملبئة بالفبار ، وكتاب احمر مغطى بالجلد ، وليسبون بجفف تضائل حجمه حتى غدا كثرة الجوز ، وبعض أذرع للمقاعد المحطمة ، وإناء فيه بقية قديمة من الكحول دلفت اليه ثلاث ذبابات للاغتسال وقطعة من الشمع جعلت لها سداة ، وبعض الحرق البالية وفرشاة ومسواك مصفر كان بليوشكين يستعمله قبل سقوط موسكو بيد الفرنسيين .

وكانت هناك ايضاً بعض اللوحات المرتبطة إلى بعضها والمعلقة على جدران الغرفة ؛ وعليها نقوش مليئة بتلك البقاع الصفراء الغرائية تؤلف موقعة حربية . وكانت مليئة بالطبول العديدة والجنود فوق جيادهم يصرخون وهم يقطعون الزهر ساجين ، وهناك لوحة ضخمة تكاد تملأ نصف الحائط ، فيها غار وزهور ، وثرثرة قطب وبطة محبة الرأس كثيراً . وقد تدلت من سقف هذه الغرفة ثريا ملئت بالتراب المتراكم . وكان هناك ثمة أشياء أخرى تكدست في ركن الغرفة ، ويكاد يستحيل احصاء ما تتألف منه لكثرة اختلاطها ، واليد التي تخاطر بالبحث فيها فانها ستخرج سوداء قدرة ، ولكن المتأمل يستطيع ان يلاحظ بين هذه الكتلة رفساً ونعلاً أكل الدهر عليه وشرب . ولا يستطيع انسان ان يحكم بان مثل هذا الخذاء كان يلبسه انسان ما . وكان على الطاولة قلنسوة عتيقة مستعملة ولكنها نظيفة .

وبينما كان تشتشيكوف يمعن في تفحص ما تضمه الغرفة إذا بباب جانبي يفتح . وتدخل منه الخازنة التي شاهدها سابقاً ، فأخذ يفكر : « ان هذا الانسان لا يمكن ان يكون خازنة ، والدليل ان المرأة لا تحلق بينما هذا تبدو عليه آثار .

الحلاقة ، ذلك انه لاحظ بعض الشعرات القاسية بارزة في أسفل ذقنه وهي لقساوتها تشبه اخرجون الحديد الذي يستعمل عادة في الاسطبل لتنظيف الدواب . واخذ تششيكوف يتفحص الرجل بنظرة يفهم منها ان صبره قد نفذ او كاد ؛ اما الخازن فانه كان من جهته ينتظر من الغريب ان يبدأ بالكلام . واخيراً قال بافل ايفانوفيتش بعد ان اندهش لعادة هذا الخازن في الصمت :
- ايه حسناً ! هل المعلم موجود ؟ فأجاب الرجل .

- انه هنا .

- وأين .

- ايه باتيوشكا ! انك بلاريب لست أعمى ، انني انا المعلم .

وترجع تششيكوف بالرغم عنه وثبت نظره في مخاطبه ، لقد شاهد كثيراً من الناس وكثيراً من النفوس التي يجهلها الكاتب كما يجهلها القارىء ولكنه لم يلتق قط برجل يشبه بلبوشكين .

كان ذا وجه نحيل متجمد يشبه وجوه جميع الكهول النحيلين ولا ينفرد عنهم بشيء خاص ، وكانت ذقنه فقط بارزة قليلاً تؤمن له الايصى خارجها ، ولذلك كان عليه ان يضع دوماً متديله على فمه بلا انقطاع ، وكانت عيناه الصغيرتان تلمعان تحت حاجبيه الغليظين بنظرة فيها حيوية وثبات ، وكانت البسمات الخفيفة تنبعث من اماكنها المعتمة وهو يفتل شاربيه ، كما كانت اذنه الرهيفة تتحسس الجو لتستشعر بوجود قط أو طفل لعين .

وكانت بڑته التي يرتديها هي الميزة التي يمتاز بها ذلك انه من المحال ان تعلم من أي قماش صنعت ، أما اكمامه وثنايا ثوبه الخلفية فقد كانت ملبئة بالشحوم اللامعة التي تشبه الى حد بعيد تلك المادة التي يحتاجها الناس لتلميع الاحذية ، وكلت رداؤه ذا شقين يؤلفان اربع قطع منفردة حيث تخفي بطانة الثوب المحشاة ، وكان عنقه محاطاً بربطة من نوع خاص أشبه بالشبال أو الزنار ولكنها

بطبيعة الحال لانشبه على الاطلاق ربطة العنق ولو ان تشتبكوف شاهد هذا الانسان على باب كنيسة اذاً لرمى في يده قطعة نقدية من فئة الكوبيك ، ذلك ان بطل قصتنا يملك قلباً شفوفاً فاضلاً ولا يستطيع ان يمر بالقرب من متسول دون ان ينفعه بصدقة ، غير ان هذا الرجل الذي امامه لم يكن فقيراً ، بل هو سيد يملك اكثر من الف نفس كما يملك كمية محترمة من القمح والطحين وبعض مستودعات للمبجلات والاقمشة والاصواف والاسماك والخضار ، وفي المركز الرئيسي لأملاكه يمكننا ان نرى كثيراً من ذخائر الحشيش والامتنعة من جميع الالوان لدرجة يمكن الاعتقاد فيها بان في موسكو تجارة للنجارة عالية ، حيث يتبع صاحبنا دائماً زوج الأب وبنت الزوج وخدمها لاجل ايجاد خشب مفتول وآخر مستدير وثالث مجدول: وعلب ودنان واجرة وسطول وطبول. وصال وقفاف من جميع الانواع ، وغير ذلك من شتى الاصناف والاشياء التي تحتاجها روسيا الغنية والتعبسة على السواء .

وماذا ترى بليوشكين يفعل بهذا الفنى المتراكم ؟ انه يملك تقريباً مايعادل ملكين مجتمعين لاقطاعين بل مايفوقها ، وكان الى جانب ذلك يسير كل يوم في جميع طرقات قريته ليرقب مانتحت الجسور وما بين اكداس القمامات ، فيجلب بعضها معه ليرمي بها في تلك الزوايا القذرة من الغرفة المعدة لتخلص من الاشياء التي لايرغب فيها : كالنعال البالية والحرق الممزقة ، والمسامير وبعض القطع الجلدية الصغيرة وكل مايقع في متناول اليد ، وكان الفلاحون عندما يرونه يفتش بين اواضار القمامات يقولون : « هاهوذا الصياد يصيد » وكانت الطرقات عقب قيامه بمثل هذه النزعات ، تخلو من كل شيء يرمى به على الارض ، وحدث مرة لضابط ان اضاع ياقته فالتقطها بليوشكين ، ونسي مرة اخرى فلاح دلوه قرب البئر ، فلم يجده عندما عاد ليتفقد ، ذلك ان بليوشكين التقطه واخفاه ، ولكن هذا الرجل كان اذا ماشاهده فلاح يلتقط شيئاً يخصه وينهبه الى ذلك ،

فانه عند ذلك يعيد له ما يخصه في الحال دون اي جدال ، غير ان هذا الشيء اذا اخذ طريقه نحو مستودع القمامات في منزله ، فما من شيء عندئذ يستطيع ان يجبره على اعادته ، ذلك ان بلبوشكين كان يعتقد ان أي شيء يخصه أما لانه اشتراه في يوم كذا من مكان كذا ، وأما لانه عاد اليه من تركه والده ، ففي منزله كان يلتقط بأناة وحذر كل ما يقع على الارض ، حتى تلك القطعة الضئيلة المتبقية من الشمعة والقصاصه الصغيره من الورقة والربشه ويضع الجميع فوق مكتبه أو على حافة نافذته .

وكان هذا الرجل الى جانب ذلك من الملاكين الكبار في السابق كما كان كثير الاقتصاد في نفقاته وينظر دائماً في عاقبة جميع الامور ، متزوجاً وله عائلة ، وكان يستقبل بكثير من التردد الاصدقاء الذين يأتونه في الاماكن القصية ليجلوا في ضيافته ويسألوه ان يرشدهم عن كيفية ادارة الاملاك . وكان الجميع يحبون ان يعملوا بنظام ونجاح ، سواء كان ذلك في المطاحن او في المصانع ومعامل الاقمشة والورشات والمصانع . ففي كل مكان كان سير العمل نشيطاً تحت انظار المعلم الخالية من كل إسفاق ، ولم يكن لتبدو عليه الا الفطنة والحذر ، اما حديثه فانك واجد فيه الكثير من أثر الاختبار ومعرفة الناس . وكان كل واحد يسر لحديثه والاصفاء اليه ، أما سيدة المنزل فكانت امرأه مضياقة تثرثر بكل شيء يجري لها او تعرفه ، وهناك فتاتان جميلتان غضتان كالزهور ترننان هذه الاسرة ، وكان الأخ الصغير يركض وهو لطيف مرح ، ليرتمي على عنق اي كان مقبلاً هذا او ذاك دون ان يفكر فيما اذا كانت هذه البادرة تطيب للناس وتلقى قبولاً حسناً . وكانت جميع النوافذ مفتوحة آنذاك الحين اما الطابق العلوي فقد كان يشغله المربي الفرنسي ، وهو رجل مغرم بالصيد جداً وكان غداؤه دوماً يتألف من البط والدجاج وكمية من بيض المصافير الدورية يصنعون له منها عجة لا يأكل منها احد غيره . وهناك ايضاً امرأة

افرنسية تشاطره طابقه وتقوم بخدمة الفتاتين . و كان سيد المنزل يضع في بعض الاحيان رداء على الطاولة وهو رداء مستعمل قليلاً الا انه نظيف ويمكن الظهور به امام الناس .

اضاع بليوشكين زوجته فعاد اليه شطر من المسؤولية في ادارة المنزل ، واصبح بذلك اكثر ارتياباً وبخلاً كغيره من المترولين . ولم يستطع ان يضع ثقته عند الكسندرا ابنته البكر و كان هذا التصرف من جانبه في عمله ذلك ان هذه الفتاة لم تلبث ان فرت في احد الايام مع ضابط من الفرسان بعد ان عقدت قرانها منه بسرعة في كنيسة القرية الصغيرة ، وكانت تعلم ان والدها يخشى جميع الضباط ويرى فيهم فئة من المقامرين المختلسين . وصحب الوالد اللعنة عليها ورفض ان يتبعها ليعبدها الى المنزل . وهكذا أصبح البيت اكثر خلاء كما اصبح المعلم اكثر بخلاً ، ولم يلبث ان شاب شعره و كان اكبر الاثر في ذلك لبخله . ثم صرف المربي الفرنسي من الخدمة لان ابنه بلغ سن الجندي ، كما طرد الخادمة لأنها اتهمت بمساعدة الكسندرا ستيبانوفنا على الهرب . وارسل ابنه الى العاصمة ليدخل في سلك دواوين القضاء ، فدخل هذا سرية الجنود وارسل الى والده بعد ان مهر التمهيد المطلوب منه في السرية كي يبعث اليه بعض النقود لتجهيز نفسه . فكان جواب والده : « لن ابعث البك بكوبيك واحد واني لن أعرف عليك بعد الآن » . وعندما ظلت الفتاة الثانية وحيدة في ذلك المنزل ادركتها الوفاة بعد زمن قليل . وهكذا ظل ذلك الشيخ هو السيد والحارس الوحيد لجميع ارباب ملكه العريض .

و كانت هذه الحياة القاسية تسمح لبخله بالاتساع والتكامل ، و اضمحلت جميع مشاعره الانسانية وأخذت نفسه تموت شيئاً بعد شيء . واذا اردنا ان نعرز ما زعمناه لبليوشكين من غرائب فاننا نقول ان ولده اضاع في الميسر مبلغاً ضخماً فصب الشيخ لعنته الابدية على وحيده ولم يعد يهتم ابداً بوجوده او عدم وجوده .

وفي كل عام تغلق بعض النوافذ والى الابد ، ونحن نعلم ان تشيتشيكوف لم يشاهد غير اثنين مفتوحين ، ، وتراكت الانتفاض في القصر والبساتين عاماً بعد عام ، ولم يعد بليوشكين يهتم الا بقصاصاته الصغيرة وقاذوراته ، واصبح شيئاً بعد شيء شرساً مع عملائه الذين كانوا يدفعون له ائماناً جيدة لبضائعه ، ولكنهم ازاء معاملته انتهوا بان اهملوه نهائياً مصرحين بان الشيطان قد ركبته وانه ليس بانسان . ولم يلبث القمع ان فسد في مستودعاته وكذلك الشعر وتحول الطواحين الى اطلال ومزابل ، واصبح الطحين في اقبية كالحجارة الصلدة ولم يعد بالامكان تكسيها الا بالماحول ، وأما الاقشة النسيجية فقد غابت بجميع انواعها تحت التراب .

وانتهى بليوشكين بان نسي مايملك من ثراء ، ولم يعد يفكر إلا بما تبقى عنده من زجاجات الخمر . واخذ يرسم اشارات على حيز المستوى الذي وصلت اليه الخمر في دفتها كي لا يستطيع احد ان يشرب منها سراً . واعتنى أيضاً بخواتيم الشمع والريشات وبخابئها . وظلت محاصيل املاكه كما هي ، ذلك انه يترتب على كل فلاح ان يدفع نفس القيمة التي كان يدفعها سابقاً . كما كان كل فلاح مجبراً على ان يسلم نفس كمية محصول البندق ، او ان يقدم نفس عدد القطع النسيجية التي كان يقدمها . ودب العفن في كل شيء في مستودعات المعجلات والدكاكين ، وتحول إلى خرق بالية يعمل في زواياها العفن ، وحتى السيد نفسه مع جميع مايملك اضحى خرقه انسانيه بالية .

ومرة جاءت ابنته الكسندرا ستيبانوفنا لرؤيته مع طفل لها لعله ينال من والدها شيئاً من النقود . ذلك ان حياة الجندي مع ضابطها لم تكن قط جذابة كما تخيلت قبل زواجها منه . وقد صفح بليوشكين عن زلتها وأعطى الطفل ذراً لينتهي به ولكنه لم يقدم لابنته كوبيكا واحداً . وعادت الكسندرا مرة ثانية للمجيء ، وكان معها طفلان وجلبت لوالدها قطعاً من الكانو لأجل الشاي

ورداءاً منزلياً نظيفاً ذلك ان الرداء الذي يلبسه ابوها يبعث على الحجل . فلاطف بلبوشكين حفيديه وشكر ابنته للاشياء التي جلبتها له ولكنه لم يعطها شيئاً . هذا هو الانسان الذي كان امام تشتشيكوف . وهو ظاهرة موضوعية فادرة في الروسية ، في ذلك البلد حيث يكون الرجال أميل إلى افشاء الحقائق من كتمانها ... ولعل هذه الظاهرة الموضوعية الحسية تشمل كثيراً من الملاكين الذين باتوا سعداء في معيشتهم ، يحبون منشرحين دائماً وهم لا يعدون من الروسيين ، ويجرفون ، كما يقال ، الحياة من جميع مسامها . اما الفلاحون الذين يجتازون هذه الاراضي فانهم يندهشون عند مشاهدة القصور ويتساءلون من هو ذلك الامير الذي يملك جميع هذه الاملاك . فنأزل هؤلاء السادة الامراء بجاراتها البيضاء تشبه القصور في جميع مظاهرها ، في مدافنها وجناحاتها وغرفها المعدة لشي الطبقات من الاصدقاء الطارئين . وهاهي ذي المسارح والملاعب المرتجلة ، والانوار المنسابة والحدائق الفناء . فالاقليم كله يوجد في هذا المكان ملخصاً تقريباً . وان جميع صعوبات الحياة واخطارها لتزحف امام هذه الاضواء الاصطناعية التي تتفجر خلال العوامج الملتفة والاشجار ونخيل لونها الاخضر إلى لون آخر اقل عدوبة . اما في الاعالي ، فان السماء المظلمة لتصبح اشد عبوساً وقتاماً ، بينما تبدو ذرى الاشجار وكأنها منعسة في الظلام الخيم وابعدها فيه قراباً ، كما تبدو متلهفة امام ذلك النور الزائف الذي يضيء جذوعها .

وقف بلبوشكين ساكناً مدة وجيزة أما بافل ايفانوفيتش فانه من جهته لم يحاول ان يستهل الكلام ، بل كان مندهشاً مشتب الفكر امام مرأى سيد المنزل وتلك القاعة ، واعمل فكره لايجاد علة تبرر زيارته ظاناً انه يحسن به ان يطري فضائل بلبوشكين وخصاله النادرة ، وانه مسرور بالمثل امامه واعلان خضوعه له ، ولكنه شعر بان مثل هذا الكلام مبالغ فيه مباغلة ظاهرة ، فرمى بآخر نظرة على جميع تلك الاشياء التي تملأ المكان وفكر بان الفاظاً « كالفاضل

والحصال الجيدة ، يجب عليه ان يبذلها بألفاظ اخرى كالنظام والاقتصاد ، وسرعان مايدل عبارته ، والقي بها موجزة تعبر عن سروره بالتعرف على رجل مثله وتؤكد احترامه له ، وكان بمقدور تشتشيكوف ان يجد حجة اخرى افضل من تلك الحجة ولكن الخيال لم يسعفه .

وكان بليوشكين اثناء ذلك يجيب بالفاظ غير مفهومة ويدندن بشفتيه ، ولم يكن في فمه اسنان وكأنا كانت أحاسيسه توحى له هذا القول : « اذهب الى الشيطان انت واحترامك » الا ان قوانين الضيافة الروسية قاسية جداً لاتسمح لأي انسان كان ، ولو انه بخيل ، ان يزدريها ، ثم اضاف بليوشكين بصوت مرتفع :

- تفضل بالجلوس .. لقد مر زمن طويل دون ان استقبل أحداً واءتلف لك باني جد مسرور من ذلك كثيراً .. لقد سادت عادة سيئة في مجتمعنا ، ألا وهي الزيارات .. لقد تغذيت منذ زمن والمطبخ منخفض جداً وقد تحطم القرن لسوء الحظ هذا الصباح .. ولو اني اوقدت النار فيه الآن لعم المنزل الحريق . « آه آه .. » هتف بذلك تشتشيكوف في نفسه ، لقد قبل لي ذلك .. ولحسن الحظ اني تغذيت غذاء جيداً عند سوبا كييفيتش ، وتابع بليوشكين : - اما فيما يتعلق بعلف الدواب فلا يوجد عندي رجل خاص به .. وكيف احتفظ بمثل هذا الرجل ؟ ان املاكي صغيرة وفلاحي كسول ، يكره العمل فاقضي طيلة ايامي مع جراب المسئولين ، وقال تشتشيكوف بشيء من الحيرة والارتباك .

- لقد قيل لي انك تملك اكثر من الف نفس .
- ومن قال لك ذلك ؟ يجب ان تبصق في وجهه باباتيوشكا ! انه بلا ريب لص خبيث أراد ان يسخر منك .. ان عدد فلاحي قد تناقص بسرعة .. ذلك ان الحمى قتلت كثيراً من عبيدي خلال تلك السنوات الثلاث الاخيرة .
- أأضعت كثيراً من عبيدك حقاً !

.. اجل .. اضعت عدداً كبيراً جداً .

.. أسمح لي بـؤالك عن عددهم بالضبط .

.. ثمانون . .

.. مستحيل .

.. انا لا اكذب باباتيوشكا .

.. وتلك النفوس الميتة ! أهي معدودة في آخر احصاء .

.. لقد فقدت منذ الاحصاء الاخير حتى الآن ما يربو على المائة والعشرين فلاحاً .

وهنف تشنشيكوف :

.. مائة وعشرون .

.. باباتيوشكا . اني رجل كبير السن ولذلك لا اكذب ، فلقد بلغت السبعين

من عمري .

والظاهر ان بليوشكين قد اخطأ في فهم سبب هتاف بافل "ايفانوفيتش" ، وعرف الاخير انه اساء التصرف لانه لم يظهر شفقه لمصائب الآخرين ، فصعد زفرة وشرح عطفه العظيم على بليوشكين لهذه الكوارث التي حلت به .

.. ان العطف باباتيوشكا لايحني في شيء .. انظر مثلاً انه بالقرب من منزلي يوجد ضابط ، لعل الشيطان قد جاء به ، يقول انه قروي ، ولا ادري من أين ينبع هؤلاء الاقرباء ! انه يناديني بعمه العزيز ، ويضم يدي بجمرة .. ثم ، وعندما يبدأ بقص شكايته لي .. آه ! فاني عند ذلك أضع القطن داخل اذني .. ان وجنتيه عمرتان دوماً كالجر .. انه بلا ريب يسبح في البحر ! لقد أخاع مامعه منذ ان بدأ حياته كضابط بالميسر أو مع ممثلة من الممثلات .. وهاهو يحاول استدراج عواطفني .

وحاول تشنشيكوف ان يشرح لبليوشكين بان اسفاقه عليه ليس له أية صلة بذلك الضابط ، واستطاع ان يبرهن له ان ذلك ليس بالكلام العادي المعسول بل بالحجج الدامغة اذ صارحه بانه على استعداد لأن يدفع له نقداً المدفوعات

المرتبة عليه عن المائة والعشرين عبداً المتوفين منذ الاحصاء الاخير . وبدا ان هذا العرض قد جدد بلبوشكين ، فانفجرت عيناه انفراجاً كبيراً ، وحلق في مخاطبه طويلاً ثم قال :

- ألم تخدم في الجيش قط يا باتيوشكا ؟

- لا .. اني مازلت من المدنيين .

- من المدنيين ؟ ثم أخذ يحرك بشفتيه كما لو انه يمضغ بعض الاطعمة ...

انك سوف تحضر نقوداً لقاء هذا العمل .

- اني على استعداد تام لان أضيع النقود كي أسعدك .

- آه يا باتيوشكا ! بالك من محسن كريم .. هتف بذلك بلبوشكين دون

ان يلحظ انه اثناء نوبة سروره قد اوقع بعض التبغ من غلبونه وان رداؤه

المنزلي قد انفرج انفراجاً اكثر مما تسمح به الآداب . ثم تابع :

- انك لتقدم جميلاً لشيخ كبير . آه ! ايها الاله المخلص ! وبأولياء السماء!

ولم يستطع ان يضف شيئاً ، ولكن الفرحة ظهرت على وجهه القاسي وعاد

تعبيره الى اكتساب طابع الاهتمام الشديد . فجفف وجهه بمنديله ومسح

شفته العليا به .

- اوضح لي ، ارجو المذرة اذا قاطعتك ، كيف تستطيع بحق السماء ان

تدفع هذه الضريبة السنوية ؟ .. والنقود .. اتعطينيها لي أم تدفعها لخزاة

الدولة بنفسك ؟

- اليك ما سنفعل ... سنعمل صكاً ببيع العبيد كما لو كانوا احياء ونسجل

فيه اني اشتريتهم منك .

- صك بالمبيع ، اجل ، قال ذلك بلبوشكين وهو كالخالم واخذ بتجربك

شفاهه . صك بالمبيع ان هذا يكاف ... ان مثل هذه المعاملات ليس من ذمة

فيها .. لقد كنا في السابق ننال ما نريد ببضعة كوبيكات ووعاء مليء بالدقيق

اما اليوم فانه يلزمنا عربات مليئة بالبرغل .. وقطعة صغيرة حمراء من فئة العشر وروبلات .. ما هذا الجوع للذهب !... هؤلاء الذين يستطيعون ان يقودوا الى هذه المعاملات حتى جميع الفوانين المسلكية المسيحية . ان الكلام الجميل له سلطان عظيم .. وما من انسان يستطيع المقاومة امام نفوذ الكلام الذي ينقذه .

« وانت ... لقد قاومت » فكر ،ذلك تشيتشيكوف وتبين له انه يجب عليه احتراساً من بايرشكين ان يجعل نفقات الصفقة مكان اعتبار .

وجزم بلبوشكين بان مخاطبه احمق سخيف ، لم يخدم في الجندية قط، ولم يستطع ان يخفي سروره فتمنى كل النجاح والسعادة لجميع الناس على السواء ونيس لتشيتشيكوف فحسب بل حتى لجميع اولاده ولم يحاول ان يسأل عما اذا كان له اولاد ام لا . ثم اقترب من النافذة وضرب زجاجها بيده وصاح :
- ايه ! بروشكا !

ومرت برهة طويلة ، ثم سمع بعدها انسان يركض في دهليز المنزل ، وبقي هذا الراكض مدة طويلة وقد خرجت من حذائه ضجة عظيمة وفتح الباب اخيراً ودلف منه شقي يبدو عليه انه في الثالثة عشر من عمره ينتعل حذاء اخضر من قدميه بكثير . ولكن لماذا لم ينتعل بروشكا حذاء جيداً ؟ السبب في ذلك انه وضع زوجاً واحداً من الاحذية بقياس ضخم يصلح لجميع خدم بلبوشكين ، وهذا الزوج يجب ان يوضع دوماً في مدخل بيت المعلم . وكل فلاح يستدعيه السيد عليه ان يسرع بالهجيء حافياً يقفز في باحة المنزل فوق الماء والحجارة . وعندما يصل الى الدهليز ينتعل ذلك الحذاء ويظهر بعد ذلك امام المعلم . وفي أواخر فصل الحريف حيث يبدأ التجلد بالظهور في كل مكان يمكن مشاهدة العبيد يقفزانهم العجيبة كالراقصات او الراقصين في الباليه .

- انظر الى هذا الرأس القدر ! قال ذلك بلبوشكين وهو يشير الى وجه بروشكا ... انه حيوان يبدو كصنع من الخشب ، ولكنني نسيت نعماً

آخر له ، هو انه سارق ايضاً. ماذا جئت تعمل هنا ! هيه اجب ايا الابله .
وساد السكون . أعد لنا السباور أنتسمع ؟ خذهاك المفتاح ، اعطه لافرا ،
وقل لها ان تذهب للمطبخ وتأتي بالكاتو الذي جلبته لي الكسندرا ستبانوفنا ،
والذي صنعته خصيصاً للشاي ... ولكن انتظر إلى ابن تركض ؟ يالك من أبله !
ليذهب الشيطان بقدميك . هيه ؟ استمع الآن ، ان أسفل الكاتو قد اصابه
العفن ... ليكشط عنه عفته هافرا بسكينه ، ولا تدء، يرمي بشيء بل لبأت به
إلى بيت الدجاج ... اما أنت فعلبك ان تحذر، اياك ان تدس أنفك في المطبخ...
وإلا فالعصا تعرفها جيداً ! انها لتزيد في شهيتك ... احذر ان تدس أنفك ...
وإلا فسترى !... .

— ان هذا المخلوق لا يمكن اثباته على شيء ! تابع بليوشكين حديثه بهذه
العبارة متوجهاً بها الى تششيكوف بينما انصرف بروشكا .

ولم يفت بليوشكين ان يرمي بافل ايفانوفيتش بانظار حذرة. لقد كانت
طيبة غير عادية مما جعلها تبدو في نظر بليوشكين مستحيلة فقال في نفسه :
« الشيطان وحده يعلم ما إذا لم يكن يعظم نفسه كهؤلاء الضباط اللصوص ، انه
يكذب كي يكلمني ويتناول الشاي من عندي ، ثم يذهب بعد ذلك دون ان
أقال منه شيئاً » . ثم ، ومن قبيل الحذر ، ولأجل الاختبار ، طلب من بافل
ايفانوفيتش تحريك صك المبيع بأسرع وقت ، ذلك انه لا يمكن الوثوق بالغد ،
فالذي يجيا اليوم قد يموت غداً . ووضح تششيكوف انه مستعد لذلك دون
اي تأخير واكتفى بطلب قائمة تامة بجميع اسماء العبيد .

وانقضت غمامة الشك عن عيني بليوشكين ، وحاول ان يتعجب من ضيفه ،
فتناول المفاتيح واقترب من الخزانة ، ففتحها وبعد ان حرك فيها الكثير من
الزجاجات والكؤوس قال :

— هاهي ذي ، لقد وجدتها ... هنا يوجد قليل من المشروب الرائع ...
لقد شرب لي اكثرها هؤلاء اللصوص .

وكان تششيكوف قد ساعد قبل قليل زجاجة صغيرة بين يدي بليوشكين
مغطاة بالغبار .

- انها زوجتي التي صنعت هذا ... ومنذ ان تزلت نسي ان يغطيها الوضوء
فوقع في داخلها جميع انواع البعوض ، ولكني استخرجت جميع ما وقع فيها
وهاهو ذا الشراب نظيف صاف . سأملأ لك كوباً صغيراً .

غير ان بافل ايغانوفيتش امرع بالرفض معتذراً بأنه قد تناول الغذاء كاملاً
قبل ان يأتي لزيارته . فقال بليوشكين :

- لقد اكلت وشربت اذن ، وهذا صحيح ، ان الاشخاص الذين ينتمون
للطبقة العالية يعرفون انفسهم جيداً ، انهم لا يأكلون وإن كانوا جائعين .. بينما
اولئك اللصوص يزدردون كل شيء دون توقف .. مثال ذلك جاري الضابط
فانه يدخل الى بيتي وهو يصبح : « اعطني مائة كل ياعماء » وانا لست بعمه ؛ وهو
ليس عنده ما يتبلغ به ؛ وأنا متأكد من ذلك ؛ ولا لما اتاني يتسول .. وانت انك
تريد قائمة باسماء هؤلاء اللصوص .. هذا حسن .. سأكتب لك منذ الآن على ورقة
خاصة لأحذف اسماء المبتئين من قائمتي حتى الاحصاء القادم .

وثبت بليوشكين نظارتيه فوق أنفه وذهب إلى المنضدة ليحلب بعض
الاوراق . وهناك فك حزمة ضخمة بعد ان أزال عنها ما تراكم عليها من الغبار
بما سبب لتششيكوف العطس وتناول اخيراً ورقة عليها اسماء الفلاحين تحوي
على مائة وعشرين اسماً . وتبسم تششيكوف وهو يرى هذا العدد الكبير من
النفوس الميتة . فوضع الورقة في جيبه وقال لبليوشكين انه يتحتم عليه ان
يذهب غداً إلى المدينة ليختم عقد الصفقة .

- إلى المدينة ! ماذا تقول ؟ ولما أترك هذا المنزل ؟ وليس عندي فيه غير
اللصوص انهم سينهبون كل شيء في أقل من اربع وعشرين ساعة . بل اني سأجد
عند العودة قميصي مفقوداً .

- أما من صديق عندك ؟

- صديق ؟ لقد مات جميع اصدقائي ومنهم من تركني . ليس لي صديق
يا باتبوشكا ! ثم هتف بلبوشكين . عندي واحد فحسب هو رئيس المحكمة نفسه ...
ولقد جاء هنا مرة راداً لي الزيارة ... لقد كنا في الصغر نشترك معاً في جميع
الحماقات ... واني استطيع ان اكتب اليه .
- وهل يمكنك ذلك .

- لقد كنا نحب بعضنا كثيراً ... وكنا زملاء في مدرسة واحدة .
ولم يلبث وجه بلبوشكين المصفر ان استضاء قليلاً بالاختلاجات العاطفية
التي انعكست عليه . وهذا الحادث الواقعي المحسوس نستطيع ان نشبهه بفريق
طفلاً فوق سطح الماء بما جعل الناس الذي وقفوا يشاهدونه يطلقون صرخة الفرح
والسرور ، ولكن عبثاً يرمي اخوته واصدقاؤه له الجبال ذلك لان جسده لم
يظهر لهم قط ، فهو ثقيل ضيق عار فوق الشج . هكذا اصبح وجه بلبوشكين
بعد هذا الوميض المنع من العواطف اكثر قساوة وشراسة .

- لقد كان فوق هذه المنضدة فرخ من البورق الابيض ولكني لست اعلم
ما حل به ، كان بلبوشكين يقول ذلك وهو يفنش في كل مكان تقع عليه انظاره ،
فوق الرياش ، وفي كل ركن وزاوية . ثم اخيراً نادى بصوت عال :
- مافرا ! مافرا !

وركضت امرأة نحمل صحناً عليه قطع الكاكو التي كان المعلم قد طلب جلبها .
فسألتها بلبوشكين :

- ايته المنكودة اين وضعت فرخ البورق ؟

لم أره ايها المعلم ، لم أر غير قصاصة البورق التي سدت بها هذه الزجاجاة .

- أرى عينيك تكذبان أرى فيها انك سرقتها .

- ولماذا ؟ وماذا تريدني ان اكتب عليها ! اني لا اعرف حتى القراءة .

- انك كاذبة ... لقد اعطيتها القندلفت الكنيسة ... ذلك الذي لا يعمل شيئاً غير توسخ الورق ... لقد اعطيتها له .
 - لو كان القندلفت يحتاج إلى الورق لاشتراه ، فهو ليس بحاجة لوريقتك .
 - انتظري قليلاً ... ستأخذك الشياطين يوم الدينونة وستشوي جسدك بالنار الالهية ... سترين !
 - ولماذا تشوي جسدي طامناً اني لم اقرب من رقعته ... قد اكون ضعيفة كغيري من النساء ، ولكني لم اسرق شيئاً قط .
 - لقد قلت لك ان الشياطين ستقذف بك في النار تشويك شيئاً ، وذلك لانك لا تنقطعين عن تخطئة معلمك ، لسوف يستخرجون من جسدك دهنة بعد ان يغلي .
 - وأنا سأقول لهم بان ذلك غير صحيح ... خذ هاهي ذي وريقتك ... انك دوماً ترميني بالتهمة ظلاماً .
 - وشاهد بليوشكين ورقته فصمت قليلاً ثم تابع :
 - ولماذا تحتدين؟ ياله من أمر مي . . الأجل كلمة واحدة تقال لها تردبعشرين كلمة ؟ اذهبي واثنين بالنار كي استطيع ختم الرسالة ... ولكن انتظري ... انك ستأنين بالشعدان ... لا ، انه يشتعل بسرعة ويكلف غالباً ... احضري لي عود ثقاب .
 وخرجت مافرا ، وجلس بليوشكين على مقعده وتناول قلمه وأخذ يطوي الورقة واستمر كذلك طويلاً ليرى ما اذا كان نصفها يتسع للشيء الذي يرغب بكتابته . ولما رأى ان ذلك مستحيل ، غمس قلمه داخل الدواة المليئة بسائل اسود غطاء البعوض . ثم اخذ يكتب بخط اشبه بالنوطة الموسيقية . ولما نعمت يده اليسرى نقل القلم الى يسراه واخذ يخط جاهداً اكبر عدد من الاسطر وهو متأسف بينه وبين نفسه لان اسفل الورقة سيظل ابيض خالياً من الكتابة .

تلك هي الخزيات ، وذلك هو الانحطاط الاخلاقي وحرمان العدم التي تردى فيها ذلك الانسان ! فهل صحيح ان هذا الحادث واقعي ؟ بل كل ذلك صحيح فجميع الامكانيات موجودة في الذات البشرية وان الشاب المليء بالحياة ليرتجف فرقاً حين يفكر بما تخفي له الشيخوخة . يجب ان تعبثوا جميع المظاهر الغالية لكل سن وعقد . لا تحتقروا أمة سطوة من السطوات الانسانية . فانكم ان لم تفعلوا ذلك لن نستطيعوا استعادة تلك الحياة قط . ذلك ان الشيخوخة قاسية رهبة لانهب شيئاً ولا تدع اي شيء .

- ألا تعرف صديقاً لك يستطيع ان يشتري شيئاً غير النفوس الميتة ، كالنفوس الآتية مثلاً ؟ سأل ذلك بليوشكين وهو يطوي الرسالة .
- وهل يوجد عندك عبيد آبقون ؟ قال ذلك تشيتشيكوف وهو يحملني بعينه :

- أجل بطبيعة الحال .. ولقد حاول صهري ان يقبض على هؤلاء الفارين .. ولكنه للأسف فقد آثارهم ، غير انه جندي وسيتسكي الى الحاكم .
- وكم يبلغ عدد هؤلاء الفارين ؟
- نحو السبعين .
- مستحيل !

- اقسم لك على ذلك ... ما من سنة تمضي وإلا ويهرب فيها الكثيرون .. انهم كلهم شرهون .. لا يفكرون الا بالطعام وانا لا يوجد عندي هنا ما اقتات به ؟ ولكنني اقنع بسرعة .. قل ذلك لصديقك واعلمه ايضاً انه لم يقع في الفخ من هؤلاء العبيد الا عشرة وهذا سيجعل صفقته مربحة جداً .. وانت تعلم ان العبد الواحد يساوي خمسمائة روبل .

« طبعاً لن اقول شيئاً لأي انسان » قال ذلك تشيتشيكوف لنفسه ثم اجاب بانه لا يجد بالمرء ان يتكل على أحد ؛ فان النفقات المباشرة تبدو اعلى من الارباح ، فالذهاب الى الحاكم يكلف كل شيء تقريباً حتى يبلغ حد تضيق

الملابس . ولكنه ، اي تشيتشيكوف ، لا يرغب الا بمساعدة بلبوشكين .
- اذن كم تدفع لي ؟ طرح بلبوشكين هذا السؤال وقد تشبعت يداها
كالهودي .

- خمسة وعشرين كوبيكاً عن كل نفس .

- في الحال .

- أجل .

- ولكن يا باتبوشكا ، انا رجل فقير ، اعطني اربعين عن كل نفس .

- سبدي العزيز ، هتف بذلك بافل ايفانوفيتش ، ان ما اريد اعطائك إياه
ليس اربعين كوبيكاً فقط ، بل ارجب باعطائك خمسةائة كوبيك عن كل نفس ،
ذلك اني لا استطيع ان ادع شيئاً له قلب مثل قلبك يتألم ويعيش في مثل
هذه الحال من البؤس الشديد .

- هذا صحيح ، هذا صحيح ، قال ذلك بلبوشكين وهو يحني رأسه ليتخذ
مظهر الشهيد ، أجل ... ان حالي حسن ! ...

- فانت ترى اذن بافي اعرفك جيداً ... اذن لماذا لا ادفع لك الخمسةائة
كوبيك عن كل نفس ... ان السبب في ذلك اني لا املك مالا ... ولكني
مع ذلك سأضيف لك خمسة كوبيكات ... فيكون المجموع ثلاثين كوبيكاً
عن كل نفس وهذا كل ما استطيع ان ادفعه لك .

- اصف كوبيكين ايضاً .

- ليكن لك ذلك ... اثنان وثلاثون كوبيكاً ، وعندك سبعون نفساً .
أليس كذلك ؟

- بل ثمان وسبعون بسمر اثنين وثلاثين كوبيكاً عن كل نفس .

وفكر بطلنا هنية ثم قال : سيكون المجموع اربعة وعشرين روبلاً وستة
وتسعين كوبيكاً . ان تشيتشيكوف قوي جداً في الحساب .

ثم طلب كذلك من بليوشكين ان يجره له قائمة باسماء العبيد الهاربين واعطاه المبلغ نقداً ، وامسك بليوشكين بالنقود وحملها الى الطاولة بنفس الاثارة والحذر الذي تتحلى به عندما تقرب من فئنا كئاساً من الحذر طافعة كي لا يقع منها شيء على ثيابنا فيتلها ؛ وعندما وصل الى المائدة نظر الى نقوده مرة ثانية ثم وضعها بحرص شديد داخل درج الطاولة ، ان هذا الكنز سيظل هكذا مدفوناً في هذا المكان حتى ذلك اليوم الذي يدفنه فيه الابوان كارب وبوليكارب سيدا القرية وتكون الفرحة الكبرى لابنته وصهره كما قد تكون ايضاً لذلك الضابط الذي يدعي انه من اقاربه ، وهذا بليوشكين بعد ان نظم نقوده ، ومر وقت طويل وهو هادئ . ماكن لا يكاد يجد موضوعاً يشير فيه النقاش .

- هل ستغادرون الآن ؟ قال ذلك صاحبنا وهو ينظر الى تششيكوف يقوم بحركة لأخذ منديله ، واعاد هذا السؤال لذهن بافل ايفانوفيتش بانه ليس لديه وقت لتضييعه ، فأجاب وهو يتناول قبعته .
- اجل انه وقت الرحيل .
- والشاي ؟ .

- اذا سمحت سنتناوله معاً في المرة القادمة .

- ولكن كيف .. لقد اعددت السامور ، ثم اني والحق يقال لست براغب جداً بالشاي .. فالشراب غالى الثمن والسكر ابدأ سعره يتعالى ، ثم صاح : ياروشكا لانأتني بالسامور وأعد هذه القطعة من الكاتو الى ماقرأ كي تضعها في نفس المكان الذي كانت فيه .. لا .. انتظر قليلاً ! سأذهب بهذه القطعة انا .. إذن بحفظ الله بابانوشكا ، بوركت اعطى هذه الرسالة لرئيس خزانة السجلات .. وليقرأها انه صديق قديم .. ولقد تزوجنا معا في يوم واحد .

ثم قام ذلك الشيخ الغريب ، ذلك الشيخ العجيب بمرافقة بافل ايفانوفيتش الى الباب الكبير ذي الرجاج انغليظ الذي مالبت ان قفل بعد ذلك خلف الزائر

مرتين وطاف بعد ذلك بجميع املاكه ليرى ماذا كانت الحرس مازالوا في اماكنهم ، فوجدوهم يضربون على برميل فارغ بجوارف خشبية مما يجعل اللصوص يتمتعون عن الدخول الى هذه الاملاك فتتامن الحراسة ، ثم عاد الى المطبخ ليرى اذا كان الجميع قد اكلوا جيداً ، أما هو فقد ازدرد صحناً مليئاً باللحم المسلوق وبعد ان عامل عبيده معاملة اللصوص عاد الى غرفته ، وهناك ظل وحيداً يفكر في كيفية مكافأة زائر العظم لأجل طيبته التي لامثل لها حقاً ، « سأجعل له هدية مؤلفة من ساعة .. ستكون جميلة جداً ، لانها من الفضة الخالصة لامن النحاس أو الزنك .. انها لانسير سيراً حسناً ولكنه بلا ريب سيصلحها . » انه شاب فهو يحتاج الى ساعة لأجل زيارته لحبيبته .. لا ا قال ذلك فجأة بعد لحظة تفكير : سأدعها له في وصيتي ليتذكرني بها دوماً .

اما بطلنا فانه رغم ذهابه دون هدية فقد كان غارقاً في سرور عظيم ، ذلك ان الكسب الذي حصله يساوي في الواقع اكثر مما هو في الحقيقة ، لقد ربح مائتي عبد من الموتى ، ولكن ربحه لم يقتصر على الموتى بل تعداه الى الآبقين ، ذلك انه ربح منهم الكثير ، لقد كان متأكداً من خدمه عندما زار بليوشكين بانه قام بعمل رائع ، غير انه لم يفكر بانتصار كهذا الانتصار ، أجل انه كثير المرح ولذلك اخذ يصفر فيايبين اصابعه كما لو انه ينفخ في مزمار ، وقد انتهى من صفيره بانفجار هائل لأغنية مضحكة سخيفة ، حتى ان سليفان نفسه بعد ان أصفى اليها مندهشاً قال وهو يمز رأسه : باللهلم انه يعني .. انظروا اليه كيف يعني .

وكانت الظلمة قد عمت الكون تقريباً عندما وصل الى اول بيت في القرية وكانت الاشياء تبدو انها غارقة في الظلمة التي بدأت تزداد قتاماً ، وبدت الران الحواجز غير واضحة ، أما شوارب الحراس فقد كانت تتراعى انها الرفع من جبينهم بينما كانت انوفهم مخفية تماماً تقريباً ، وقد فهم تشنشيكوف من قرعة

العجلات واهتزاز العربات انه يسير فوق طريق معبد ، لم تكن المصابيح موقدة بعد ، ولكن كانت انوار ضئيلة تجتاز بعض النوافذ ، وكانت الجنود والعامل والحدوة يلتقون في المنعطفات والأزقة فيتناقشون في امور مهمة يستدعي إعادة في هذه الليلة هبوط الليل وتولي النهار ، وكان الناظر يرى ايضاً نساء بشال احمر واقدام غارية داخل الاحذية ، ومجموعة من الاحياء التي ينحلقها المنخفض في المحال العامة تشبه الحفائش .

لم يلحظ تششيكوف شيئاً من ذلك ، بل انه لم ير حتى الموظفين وهم يأتون من نزاهتهم الى المدينة متسلحين بعضهم الصغيرة ، وكانت تفرع اذنه من وقت لآخر صرخات نسائية مختلطة : انت تكذب ايها الكبير ، اني لم اسمح له بمعاملة سيئة كهذه ابداً ، اواه .. لاتضربني ايها الحيوان القذر .. اذهب الى مفش البوليس وسوف اتبعك ، وهناك صرخات اخرى تبعث على الجنون تلبعث من حناجر الشباب المراهقين الذين لم يتجاوزوا العشرين ، وهم يحملون عند خروجهم من التياترو الى « شوارع اسبانيا » الى المعبودات من النساء اللواتي يحفظنهم ليلاً على اصوات الجيثار ، ان نشوة الخيال تجعلهم في السماء يزورون شير .. ولكن هاهم يعودون الى الاقدار ، الى الحقيقة التي لا مفر منها ، الى أوشاب السوق الرئيسي ، الى الحياة الارضية العادية التي تكون في كل يوم .

وبعد هزة اخيرة ظهرت العربات وكأنها تسير داخل حفرة ؛ كانت قد وصلت في الحقيقة الى ماتحت باب خادم الفندق ، وجاء بتروشكا فاستقبل تششيكوف وكان يحمل بيده جانب رذائه كي لا يتطاير في الهواء بينما يمد يده الاخرى لسيد* كي يعينه على الخروج من العربات ، وظهر بعد ذلك صبي الفندق وهو يحمل شمعاً بيده ومنشفة على كتفه « ولكن ترى ، هل سيعجب بتروشكا بعوده معلمة حقاً اني اجهل ذلك ، ولقد تبادل مع سليفان النظرات فالتصمت ضحكة فرحه في وجهه العبوس .

وعندما صعد نشتشيكوف الدرج الى غرفته خلف الصبي الذي يحمل بيده
الشمعة ، قال له هذا الاخير :

- لقد تنزهتما طويلاً .

- أجل هذا صحيح وانت كيف حالك .

- حسن والله الحمد .. لقد جاءنا احد الضباط البارحة فاحتل الرقم ١٦ .

- ضابط ؟

- من ريزان .

قال نشتشيكوف وهو يلج غرفته .

- حسن جداً . عد الى عملك كي ارضى عنك .

وعندما اخذ يجتاز الممشى قال لبتروشكا .

- لقد استطعت على الاقل ان تفتح النوافذ .

فأجاب بتروشكا بانه فتحها ، ولكن نشتشيكوف أحس انه يكذب ، الا

انه كان زاهداً في النقاش ، انه تعب لدرجة الاعياء الشديد من جراء اسفاره

الطويلة ، فطلب حساء خفيفاً ثم نفى عنه ثيابه ، وانطرح فوق فراشه وراح في

صبات عميق لا يستطيع ان يوقظه منه شيء .

الفصل السابع

ما أسعد الانسان الذي يعود إلى منزله بعد سفر طويل يمل غائى فيه التعب وقاسى الشيء الكثير من ضجيج الاجراس وتصلب العربات مع المتشردين الذين يصادفهم في الطريق . حقاً ما أسعد رجلاً كهذا يعود فيستمتع بالضوء ينير له الطريق منذ وصوله وهو يجتاز غرفاً حبيبة اليه ويسمع صيحات الترحيب من أقراء الاطفال ويشعر بمظاهر الود والحنان تحيطها به امرته فينسى من ثم متاعب السفر . ألا ما أسعد مثل هذا الانسان وما أشقى العازب .

ثم ما أسعد الكاتب الذي يبتعد عن النفوس الكثيبة ويترك الواقع المؤلم ويصف الطبايع الراقية . وانه لسعيد سعيد ذلك الكاتب الذي يختار من الاوساط المنحطة الشخصيات الشاذة فلا يخون إلهامه ولا ينحط إلى مستوى البؤساء فينطلق في الاجواء الاثيرة حيث لا تعيش غير المخلوقات الجميلة . ان مثل هذا الكاتب يحمد على شيئين ، فهو في محيطه يصف هذه الاجواء اولاً ونجده أبعد صدى ثانياً . ذلك انه يضع ستاراً كثيفاً على عيون الاشخاص الذين وصفهم ليحجب عنهم احزان الحياة ويكتفي بوصف الجليل والنبيل فتصق له الجماهير وتنبه وتنادي به كعقوبة فذة تحوم في خيالاتها كالنور بداعب أعلى

القسم . وتحقق القلوب لدى ذكر اسمه وتسبل دموع الاعجاب . . . انه إله .
واما الكاتب الذي يجرؤ على نشر ما لآراء العيون العادية ويفتخر من آنية
مصائب الحياة ويعرض الشخصيات البائسة المسكينة الفارقة في الانحطاط من
التي يصادفها كل يوم . . . اما هذا الشاعر القاسي الذي يصف بقوة وغفوات
ويبرز هذا الواقع ليطل عليه الناس ، اما هذا الرجل فليس له ان ينتظر تصفيق
الجاهل ، ذلك انه لن يرى ابدآ دموع الاعجاب ولن يشعر بحماس القلوب كما
لن نهرع اليه عذراء اخذتها الشفقة ، وهو نفسه لن يغيب عن وعيه مأخوذاً بروعة
اشعاره ولن يفلت اخيراً من حكم معاصريه المنافقين الذين يدينون أدبه ويضعونه
في مصاف الكتابات المبصرة المهينة للانسانية متجاهلين القلب والروح والعاطفة
التي أوحى بمثل هذا الادب . ذلك ان هؤلاء الحكماء لا يفهمون ابدآ ان العبقريّة
هي هي عندما يصف الانسان الشئوس البعيدة وحين يرسم لوحات لحياة
الحشرات التي لا يلحظها احد ، ولا يفهمون ان الموهبة عظيمة جداً حين تستدعي
سخط المجموع ، وان الضحكة الشديدة تعادل الاعجاب الارستقراطي الهادي ،
وان الهوة التي تفصل بين الضحكة الصافية وبين تكشيرة دجالي السوق انما هي
هوة سحيقة . كلا . . . ان الحكماء المعاصرين ليجعلون هذه الحقائق ولا ينون
عن إهانة الكاتب الذي يبقى وحده محروماً من العاطفة والتأييد فيجتاح حياة
قاسية في وحدة مريرة مع نفسه .

اما أنا فيجب علي ان اسافر طويلاً مع شخصياتي الغريبة وأتأمل الحياة
التي تنكشف للابصار بصورها التي لا تكاد نحصى ، وأدرسها بعمقها ساخرة
تنقل بين الاجبال ، وبدموع غامضة مجهولة . . . ولكن لنمض في طريقنا ،
فان هذه الاشياء التي مرت ظلالها امام انظارني بعيدة عني . . . فماذا يفعل
تشتشيكوف ؟

استيقظ بافل ايفانوفيتش من نومه وغطى فـشـعـر بالراحة ، وتذكر وهو

مستلق على ظهره بأنه أصبح سيد اربعمائة نفس فأخذ يفرك يديه مبتهجاً ثم ففر من سريره دون ان ينظر الى المرأة وهي عادة كانت حبيته جداً الى نفسه اذ كان يحب كثيراً ان يتأمل وجهه وخاصة ذقنه ويفخر بشكائها أمام اصدقائه : « انظر كيف هي مستديرة » . وفي هذا الصباح انتعل بسرعة حذاءه المزين بشتى انواع النقوش من مختلف الالوان . ونسي سنه ووقاره فقفر مرتين ، ثم وقف على رؤوس اصابعه . وتناول محفظته وفرك يديه ابتهاجاً كأنه قاض يجلس للغداء بعد تحقيق طويل وتناول اوراقه ، وكان قد قرر ألا يرجي اعماله الى الغد وان يجرر بنفسه عقود البيع ويكتب عنها نسخة ثانية كي لا يدفع عليها اجراً ثانياً وكان في القديم قد نشق بمعرفة طريقة كتابة العقود .

كتب بحروف كبيرة : « عام الف وثمانمائة و . . . » ثم كتب بحروف أصغر من الاولى : « نحن الموقعين ادناه . . . » وتابع الكتابة . . . وبعد مرور ساعتين كان قد انتهى من عمله .

واحد تثنيشيكوف بشعور لا يوصف وهو يقرأ أسماء هؤلاء العبيد الذين عاشوا كفلاحين شرفاء مجتهدين او كسكابين كسولين خدعوا اسبادهم بمختلف الطرق . كان هناك ثمة ميزة خاصة بكل قائمة ومن خلال هذه الميزة كانت العبيد المسجلون في القائمة يعودون الى الحياة بطبيعة خاصة حسب ميزة القائمة . كان لكل من فلاحي كوروبتشكا لقب . وكانت قائمة بلبوشكين متماز بالايجاز فأسماء العبيد مسجلة عليها بالحروف الثلاثة الاولى فقط ثم يلي ذلك عدة نقاط بعدها . اما قائمة سوبا كيفيتش فقد كانت تعدد الصفات ، ودونها بها يستلفت الانظار ، ذلك ان سوبا كيفيتش لم ينس صفة واحدة من صفات فلاحيه : « نجار ممتاز » و « ذكي ... لا يسكر » فكان يذكر كل شيء حتى آباء وامهات فلاحيه واخلاقهم ، وقد اضاف الى صفات فلاح يدعى فيدوشوف هذه العبارة : « مجهول الاب ... مولود من خادمة المزرعة كابيتوليننا ولكن اخلاقه جيدة »

ولا يسرق » فمثل هذه الاوصاف على كثرتها كانت تضفي على القائه الحياة
فيظهر العبيد وكأنهم عادوا ثانية الى الحياة .

شعر بافل ايفانوفيتش بالحنان وهو يقرأ هذه الاسماء فتند وقال : « يا الله ...
ما اكثركم اُجيبوا ما ذا فعلتم في حياتكم وكيف جاهدتم حتى لا تموتوا
من الجوع ؟ »

وتوقف دون قصد على اسم : « بيوترسافلين فيوناجاي كوريتو كوروبتشكا »
ولم يستطع تششيكوف كتمان دهشته فهتف : « ما هذا الاسم .. انه يكاد
ياخذ مطراً برمته .. هل كنت عاملاً ماهراً أم فلاحاً بسيطاً ؟ وكيف مت ..
أفي الكوخ أم سحقتك عربة في الطريق ؟ » وشاهد اسماً آخر فتابع :
« بروبكاستيان .. خطاب .. رجل فنوع جداً .. آه لقد كان يصلح للخدمة
في غرفة الحرس .. لقد اجتاز الريف الروسي وهو يحمل في حزامه فأسه وعلى
كتفه حذاءه ، وكان يتغذى بكوبيك خبزاً وبكوبيكين سمكاً ثم يعود الى منزله
ومعه مائة تسلكوفيس (نقود روسية تعادل الواحدة منها اربعة فرنكات
افرنسية) وقد احتاط باخفاء مبلغ في حذائيه ، وانت كيف انتهيت ؟ هل
اردت ان تربح مبلغاً كبيراً باصلاح قبة جرس فوقعت من شاحق وكاث في
الاسفل وجل وليكن اسمه ميشي ، فما إن وقعت حتى حك برفقه وقال :
« لقد تحطم غليونك يا صديقي فاينا » ثم ربط وسطه بجبل متين ونسلق البرج
ليجمل مكانك .

وقرأ من جديد : « مكسيم تلياتنيكوف .. حذاء .. » ثم فكر :
« حذاء .. مكبر كالحذاء .. اني اعرفك جيداً باعززي وإن شئت فأتروي
لك قصتك .. لقد تعلمت مهنتك من الماني كان يضربك عند كل خطيئة تقع فيها
ولم يكن يسمح لك بدقيقة واحدة تراح فيها ، وكان يمتدحك كثيراً عندما
تتحدث عنك مع زوجته ، وعندما انتهيت من تعلم المهنة قلت في نفسك : « لقد

جاء دوري الآن في استئجار محل لي ولن اكون كهذا الالماني الذي لم يربح شيئاً في حياته ، أجل سوف احاول أن اصبح غنياً ، وبعد ان دفعت لسيدك فدية كبيرة استأجرت دكاناً وتلقيت الكثير من التوصيات ثم اشترت جلدأ رديئاً من حيث لايعلم أحد وبعته احذية مصنوعة بضعف الثمن الحقيقي ، وبعد مرور خمسة عشر يوماً كانت الثقوب تملأ تلك الاحذية ، فلعنك الزبائن و فرغت دكانك ، فأخذت تنجول في الطرقات ثملاً وانت تزجر : لقد ساءت الاحوال كثيراً جداً ، ولم يعد في مقدور الروسيين ان يعيشوا في بلادهم لان الالمان اصبحوا السادة في كل مكان .

وانتقل إلى اسم آخر وقال : « وهذا الفلاح ؟ آه ... ان هذا اسم امرأة ... أليزافينا فوروي ولكن ماذا تفعل هذه المرأة هنا ؟ لقد خدعني ذلك المحتال سوباكيفيتش » وكان تشنشيكوف على حق فقد كان الاسم لامرأة وقد دسها سوباكيفيتش بين أسماء العبيد بعد ان حرف في اسمها قليلاً ، بحيث يتوهم المرء انها رجل وحذف بافل ايفانوفيتش الاسم بكل بساطة ، وقرأ اسماً آخر : « غريغوري الذي قد يصل او لا يصل . . » وفكر : « وانت كيف كنت ؟ لقد كنت تملك زحافة وعربة فغادرت قربتك واخذت بالتنقل من سوق إلى آخر مع التجار ... فهل فارقت الحياة وانت تسير ؟ أولم يفلح اصدقاؤك في تقييدك بأرملة جندي متوردة الخدين ؟ أو لم تلفت عربتك بجيولها الجميلة نظر سارقي الاخشاب ؟ وثم ... وبعد تفكير طويل هل دخلت احد الفنادق حيث اودعت روحك في حجرة حقيرة هناك ؟ ... حقاً ان الشعب الروسي مضحك ... وان روسيا لا تحب الفخامة في الموت . »

وتابع تشنشيكوف وهو يقرأ أسماء عبيد بليوشكين الآبقين : « وانتم يا اصدقائي الاعزاء ما زلتم احياء ولكنكم لاتصلحون لشيء ، ولذا فأنتم والاموات سواء . أخبروني أكنتم تعانون كثيراً عند بليوشكين ام انكم

استسلمت لنزوة طارئة عندما تهتم في القفار تقطعون الطرقات ؟ أنتم اليوم في السجن ام انكم تخرجون الارض في خدمة سيد آخر ؟ أرمي كارباكين ... نيكيتا فولوكيتا وابنه انطون فولوكيتا .. ان قراءة هذه الاسماء وحدها تكفي ليعلم المرء ان اصحابها من اللصوص المحتالين .. وهذا بوبون خادم المزرعة يبدو انه يجيد القراءة .. هو لا يقتل بالسكين ولكنه بلا ريب قد أصبح لصاً بطريقة شريفة .. وبما انك لاثلك جوازاً فقد اوقفك الكابتن اسبرافنيك وكنت بلاريب جريباً في التحقيق ، وسألك الضابط وهو يضيف الى اسمك نعماً وناناً :

- من يكون سيدك؟

فأجبهته بجرأة :

- النبيل فلان .

- وماذا تفعل هنا ؟

- اني في عطلة .

- وأين جوازك ؟

- لقد اعطينه لببوتوف ، معلمي .

- فليدخل ببوتوف هذا .. أنت ببوتوف .

- أجل انا .

أصحح انه اعطاك جوازه ؟

- لا .

وهنا قال الضابط وهو يكرر استعمال النعت الرنان :

- لماذا كذبت ؟

فأجبهته بحساسة :

- هذا صحيح فاني لم اعطه جوازي لأنني وصلت الى البيت ليلاً ولكني

اعطينته لقارع الاجراس بروشوروف .

- فليدخل قارع الاجراس .. هل اعطاك جوازه كما يزعم ؟

- لا .

فهتف الضابط وهو ياعن ويشتم :

- لقد كذبت ثانية .. أين هو جوازك ؟

فأجبتته بجرأة :

- لقد كان معي جواز ولكنني قد اكون فقدته وأنا في الطريق فقال الكاتب:

اسبرافنيك وهو يضيف الى اسمك نعتاً مهيناً :

- لماذا سرقت معطف الجندي ... ولماذا سلبت الكاهن حافظة نقوده ؟

فأجبتته ببرود :

- هذا غير صحيح فاني لم أسرق في حياتي ... اما كيف جاءني هذا المعطف

فالحق اني لا أدري ... ولا شك في ان احدهم قد حمله إلي .

فصاح الكاتب اسبرافنيك :

- حيوان ... حيوان ... قبدوه وضعوه في الزنزانة فأجبت :

- بكل سرور ... فليكن .

وتناولت علبة سعوطك بكل هدوء وقدمتها لجنديين مشوهين جاءا لتقييدك

وأنت تستفهم منهم في أي حرب اصبوا ومتى تم فصلهم من الخدمة الحقيقية .

وانت الآن تعيش في السجن بينما يستمر التحقيق في قضيتك . ثم قررت المحكمة

نقلك من سجن تساريفوتشيك الى سجن آخر . وعندما وصلت الى السجن الجديد

قلت : لقد كانت الزنزانة هناك انظف وأوسع وكان فيها عدد كبير من

المساجين .

وقرأ تشتشيكوف : « اباكوم فيروف » ثم أخذ يفكر : « وانت كيف

كنت ؟ هل استهواك الفولغا وحياة البحارة الحرة » ثم غرق بافل ايفانوفيتش

في احلامه وهو اجسه . ترى ماذا كان يفكر ؟ أني مصير اباكوم فيروف ام في

صور الحياة الحرة التي يجبهها كل روسي مهما كانت طبقته ؟ وعاد اخيراً الى

التفكير في فيروف :

« أين فيروف الآن ؟ انه بلا ريب يذهب ويحيي على المرفأ حيث تتكسد
الحبوب فيساوم على ثمن بضاعته . ان جميع العمال يضحكون ويمرحون قبل ان
يفادروا عشباتهم ونساءهم . وهم يغنون ويرقصون بينما يروح الحمالون تحت وطأة
أحمال الشعير التي ينقلونها الى قعر المراكب بين عاصفة من الشتاء والاهانات .
وكانت إهرامات من الاكياس تنتظر بعيداً ان تنقل الى البواخر الكبيرة .
تلك هي حياتكم بآعمال المرافيء فأنتم دوماً مرحون وكما ترقصون وتشدون فانكم
ستعملون وتتعبون وانتم تحاولون تسلية انفسكم باغنية طويلة لا تنتهي كالروسيا
نفسها . وهتف تشتشيكوف وهو ينظر الى ساعته : « آه انه الظهر ... لقد
تأخرت ... لو اني انهيت عملي ، إذن لما ان الامر ، ولكني ما أزال في البداية ...
لقد شغلني الاحلام ... اني حيوان » .

وسرعان ما ارتدى ملابسه على عجل وشد حزامه ولكن دون ان يفلح في
تصغير حجم كرشه ، وتعطرت ثم أخذ قبعة وأورافه وذهب الى المحكمة لتسجيل
عقود البيع . وكان في عجلة من امره لا لأنه يخشى ان يكون متأخراً ف رئيس
المحكمة صديقه وهو وحده يستطيع ان يختصر او يطيل اوقات الدوام كالاله
زبوس الذي كان يطيل الايام ويقصر الليل لمصلحة من يحبهم ويسمح لهم بذلك
ليربحوا معركة او لينهوا خصومة . ولكن بافل ايفانوفيتش كان يرغب بانهاء
مشاكله بسرعة لا لان كل شيء يبدو له غامضاً قلقاً ، فقد كان لا يصدق انه
يملك هذه الارواح لذلك كان يريد ان ينتهي بأسرع ما يمكن من تسجيل العقود .
وما كاد يخرج من فندقه وهو يرتدي معطفاً من الفرو حتى صادف رجلاً
آخر يرتدي معطفاً آخر من الفرو ايضاً وقبعة مصنوعة من فرو كلب الماء وصرخ
الرجل عندما شاهد تشتشيكوف ، انه مانيلوف ؛ وسرعان ما ارغمى الرجلان
على بعضهما وبقياً هكذا مدة خمس دقائق يتبادلان القبل بشكل ظل كلاهما
يعاني الامرين من ألم اسنانها طيلة ذلك النهار . كان فرح مانيلوف عظيماً وقد

خالت عيناه مغلقين طويلاً ولم يترك يد تششيكوف إلا بعد مضي ربع ساعة ،
وقد شعر هذا الأخير بأصابه تحرقه بشدة عندما افلتها مانيلوف من قبضته .

قص مانيلوف على بطلنا كيف وصل الى المدينة وصور له شدة شوقه لعناقته
وكان يستعمل في ذلك أعذب الالفاظ وارثتها ، وانهى كلامه ليفرغ الى مديح
لا يوجهه إلا رجل لفتاة واقصاها في احدى الحفلات . وفتح تششيكوف فمه وهو
لا يدري بماذا يجيب ثم قدم له مانيلوف ورقة يلفها شريط وردي اللون .
- ما هذه الورقة ؟

- قائمة اسماء الفلاحين .

ففتح بافل ايفانوفتش الورقة وابدى اعجابه الشديد بالخط .
- لقد كتبت الاسماء جيداً ، ولا حاجة بي لاعادة كتابتها الآن ...
وهذا الرسم ... لو رسم جيداً عندك .
- لاتكلم عن هذا .

اهو انت ؟

- لا ... بل هي زوجتي .

- آه ... اني خجل لما سببته لك من المشقة .

- ابس هناك من مشقة عندما يتعلق الامر ببافل ايفانوفتش .

فانحنى تششيكوف ساكراً . وعندما علم مانيلوف ان صاحبه في طريقه
الى المحكمة لتسجيل عقود البيع عرض عليه ان يرافقه . وهكذا ذهب الصديقان
الى المحكمة يتأبط كل منهما ذراع الآخر . وكان مانيلوف كلما صادف عقبة
في الطريق من منخفضات او مرتفعات او أدراج ، يسند تششيكوف وكأنه
يريد ان يحمله ، ذلك انه لا يحتمل ان يؤلم تششيكوف قدميه الصغيرتين .
واخيراً وصل الصديقان الى المحكمة . وكان مقرها يقع في بناء مؤلف من
ثلاثة طوابق من الحجر الابيض ترمز نظافته الى نقاء موظفي العدالة المحلية .
واما بقية الابنية المجاورة فكانت أصغر من بناء المحكمة ؛ وكان هناك مخفر

للجنود يقف الديدبان امام بابه ، و كان يوجد عربتان او ثلاث تنتظر زبائنها لتقودهم الى السجن . و اخيراً كانت هناك اسوار عالية تملؤها الكتابات والصور المرسومة بالفحم ، و كان هذا كل ما يزين ذلك الميدان المنمزل .

كانت رؤوس الموظفين تطل من نوافذ الطابق الثاني والثالث ولكنهما سرعان ما توارت فجأة ؛ ذلك انه بلا ريب قد مر الرئيس بهذه المكاتب في تلك الآونة . وصعد الصديقان السلام أو بالاحرى اجتازاهما فزراً ، ذلك ان تششيكوف كان يسرع الخطى خشية ان يحاول مانيلوف مساعدته ؛ بينما كان مانيلوف يقفز بدوره كي لا يتعب صديقه . ووصل الصديقان الى بهو طابق المكاتب وقد انهمرت انفاسهما من التعب . ولم يكونا بحاجة لالظهار اعجابهما ببيئة المكان ذلك انه لا يهتم احد بتنظيفه والقدر يظل قدراً على مر الايام ، ذلك ان العدالة تستقبل ضيوفها دون كلفة . كان يجب وصف المكاتب ولكن المؤلف يشعر بالجنون امام مكاتب الموظفين ، فاذا ما اتفق له ان مر في الغرف الفخمة حيث يروق فيها كل شيء ، فانه يسير بسرعة وانظاره متجهة بتواضع نحو الارض بحيث لا يكاد يرى شيئاً .

وشاهد بطلانا كمية كبيرة من الورق الابيض والورق المسود بالكتابة ورؤوساً منحنية واعناقاً غلاظاً ومعاطف انيقة وثياباً خيطة في الريف . ولفت نظرهما معطف رمادي صاف و كان الرأس الذي يخرج من هذا المعطف ملتصقاً به تقريباً .

كان هذا الرجل يكتب بسرعة محضراً يتعلق باملاك اشتراها ملاك مسلم ورغم ان هذا الملاك عاش حياته ملاحقاً من قبل العدالة فقد كان يعيش بأمان مع عائلته يحيط به اولاده واحفاده . و كانت تتعالى من حين لآخر امثال هذه الصيحة : « أتريد الملف رقم ٣٦٨ يا فيدوسي فيدوسفيتش » او « انك تبذر حبر التاج » . و كان صوت مرنان يتعالى في بعض الاحيان ويقول بلهجة آمرة : « اكتب بسرعة والاحسنت عليك مراتب ستنة ايام » فاسرع الاقلام في

وكضها فيخرج عند احتكاكها بالورق صوت شبه بصوت زحافات تمر فوق
الكداس من اوراق الاشجار الميتة .

وانجه تشتبكوف مع صديقه مباشرة الى اول طاولة فسألا موظفين شاخين
كانا وراءها :

- أترسمحان بأن ندلانا أين يجب ان نتوجه بشأن قضايا العبيد ؟
فأجابا :

- وماذا تريدان ؟

- عندي طلب اريد ان اقدمه .

- وهل اشتريت عبيداً ؟

- اريد ان اعرف اولاً اين يوجد مكتب العقود أهر هنا ام في مكان آخر؟

- قل اولاً ماذا اشتريت وماهو السعر الذي دفعته وبعد ذلك ندلك على

المكتب ، والا فمن المستحيل ان ترشدك .

وفهم تشتبكوف ان هذين الموظفين فضوليان كجميع الشباب أو انها
يريدان ان يسبغا على نفسيهما الوقار والاهتمام فقال :

- اسمع لي ؛ اني أعرف تماماً ان جميع قضايا بيع العبيد تعالج في نفس المكتب

فأرجوكا إذن ان ترشداني الى هذا المكتب اما اذا كننا تجهلان عملكم فسنوجه
الى آخر غيركما .

ولم يجب الموظفان ولكن احدهما اكتفى بأن أشار باصبعه الى زاوية في
الغرفة كان موظف هرم يرتب اوراقاً فيها ، فر تشتبكوف ومانيلوف بين
عدة مناخذ واقتربا من الشيخ الذي كان منصرفاً الى عمله فقال تشتبكوف
وهو يجيبه :

- اسمح لي ان اسألك عما اذا كنت المكلف بعقود بيع العبيد .

- نحن لانعالج قضايا العبيد هنا .

– وأين اذن ؟

– في مكتب العقود .

– وأين يكون هذا المكتب .

– هناك حيث يجلس ايفان انطونوفتش .

– وأين هذا الايفان انطونوفتش ؟

فأشار الشيخ الى زاوية اخرى من الغرفة .

فذهب تشتشيكوف مع صديقه الى ايفان انطونوفتش .

وما إن رأهما هذا الاخير حتى التقى نظره خلفه ثم التقى نظره اخرى عليها وعاد

بعد ذلك الى عمله .

قال بافل ايفانوفتش :

– اسمح لي ان اسألك عما اذا كان هنا مكتب عقود بيع العبيد .

ولم يبد على ايفان انطونوفتش انه لانهاكه في عمله ولذلك لم يجبه .. لقد

كان رجلاً ناضجاً لافتياً ثقاراً ، وكان يبدو عليه انه تجاوز الاربعين من عمره ،

كث الشعر اسوده ، قد برز القسم الاوسط من وجهه بحيث يبدو على سوية

واحدة مع انفه .. وكان وجهه في جلته من الوجوه التي تسمى عادة باسم :

قبضة الاربيق .

وعاد تشتشيكوف الى السؤال :

– هل تسجل العقود هنا .

– نعم .

– اليك اذن بطلي .. لقد اشتريت عبيداً من عدة ملاكين في هذه المقاطعة

وهاي عقود البيع معي ، ولم يبق غير تسجيلها .

– هل البائعون هنا ؟

– ان بعضهم موجود ولكن بعضهم الآخر منحني تفويضاً مطلقاً ..

- وأين طلبك ؟

- ها هو معي .. اني بحاجة الى السرعة ، ايمكن ان انقض يدي من المشكلة اليوم ؟

- يستحيل ذلك ، إذ يجب ان نرى ما اذا كان هؤلاء العبيد محجوزين .
- ان علاقتي طيبة مع رئيس المحكمة ايفان غريغورفتش ولتعجيل الامور يمكن ..

فقاطعه ايفان انطونوفتش بشدة :

- ان ايفان غريغورفتش ليس الوحيد هنا .
وفهم تشنيكوف بان عليه ان يكون حريصاً هنا فقال .
- اني لاناى احداً فقد كنت في خدمة الدولة وأعرف كيف تجري الامور .
فقال صاحبنا بلهجة ألطف :

- اذهب الى الرئيس واحصل منه على امر للاشخاص الذين تتعلق قضيتك بهم فينتهي الامر .

فمد تشنيكوف يده الى جيبه وأخرج ورقة مالية ووضعها بلطف امام ايفان انطونوفتش ولم يبد على صاحبنا انه لاحظها ولكنه غطاها بجلدة مصنف ، فأراد بافل ان ينبه اليها غير ان ايفان انطونوفتش افهمه بإشارة من رأسه ان لا داعي لذلك ، ثم أشار الى موظف وقال :

- سيؤدك الى قاعة المحاكمات .

كان الموظف الذي اشار اليه قد خدم العدالة باخلاص بحيث ان تقوب كمي معطفه نسج برؤية البطانة بوضوح ، ورافق الموظف صديقنا الى قاعة المحاكمات حيث كان هناك بعض المقاعد وطاوله عليها لوحة خشبية مثلثة سجلت عليهم القوانين الثلاثة الاساسية للعدالة الروسية ، وكتابان كبيران كان الرئيس وراءهما يشع كالشمس .

ودار الموظف على عقبيه احتراماً لهذا الحرم الذي لم يكن ليجرؤ على دخوله
بعد ان فتح الباب للصديقين .

وعندما دخل مانيلوف ونشتشيكوف القاعة رأيا ان الرئيس لم يكن
وحيداً فقد كان سوبا كيفيتش جالساً الى جانبه محتجباً خلف تلك اللوحة المثلثة ،
وعلت صيحة ترحيب تستقبل الصديقين وتحركت المقاعد الرسمية محدثة ضجيجاً
مزعجاً ووقف الرئيس كما بسدا سوبا كيفيتش بكمين طويلين ، وتلقى الرئيس
بافل ايفانوفيتش بين ذراعيه ورددت جدران الغرفة صدى القبلات وسأل كل
منها الآخر عن صحته وصرح الاثنان انها يعانيان آلاماً في الكليتين وقد عز
الامر للحياة العصرية .

كان سوبا كيفيتش قد أعلم الرئيس بمشتربات بافل ايفانوفيتش فأسرع هذا
بهنئه مما جعل نشتشيكوف يتأثر كثيراً بالتهنئة وبشكره بجرارة مرتفعة جداً عليها ،
ثم توجه الى سوبا كيفيتش وسأله :

- وانت كيف صحتك .

فأجاب سوبا كيفيتش .
- لا اشكو شيئاً والله الحمد .

وبالفعل فانه يمكن للعديد نفسه ان يتأثر بالبرد اكثر من هذا الملاك القوي .
وقال الرئيس :

- انك مشهور بالصحة فقد قبل لي ان المرحوم والدك كان قويا كالطود .
فقال سوبا كيفيتش

- لقد كان بوسعه ان يصرع دُباً وحده .

- ولكن يبدو لي انك الآن تستطيع بسهولة ان تصرع دُباً لوحدهك .

- لا ... فقد كان أبي اقوى مني

ثم نهده وتابع :

- لم نعد من نفس الطينة اليوم... انظر الى حياتي فهي ليست في الواقع حياة
- وما الذي ينقص حياتك لتكون جميلة؟

فقال سوبا كيفيتش وهو يهز برأسه :

- اوه ... لاشيء حسن بالمرّة ... احكم بنفسك يا ايفان غريغوروفتش ! لقد
تجاوزت الخمسين من عمري ولم أرض يوماً قط ... كان من الممكن ان اصاب
بألم في حنجرتي او في اي شيء آخر ولكن ... لاشيء ... لاشيء ... ان هذا
لدليل سيء فمن المؤكد بانني سأدفع ثمن هذا غالباً ذات يوم .

وبدا على سوبا كيفيتش انه حزين . فحدث كل من الرئيس وتشتشيكوف
نفسه قائلاً : انه يبالغ ... كيف يجرؤ انسان في مثل قوته على الجأر بالشكوى؟
واخرج بافل ايفانوفيتش من جيبه رسالة بلبوشكين ثم قال متوجهاً بجديته
الى الرئيس :

- عندي رسالة لك

فأجاب الرئيس وهو يتناولها :

- ومن؟

ثم مزق الغلاف وهتف

- آه ! من بلبوشكين ... أما زال على قيد الحياة ... باللحظ لقد كانت
انساناً ذكياً وثرياً جداً في الماضي ... ترى ماهي احواله الآن .

فقال سوبا كيفيتش

- انه كاب حقير يميت عبيده جوعاً .

وقال الرئيس بعد ان قرأ الرسالة

- حسناً اني اقبل ان أمثله ، متى تريد توقيع العقود فأجاب تشتشيكوف :

- اليوم لاني اريد ان اغادر المدينة غداً وعندي جميع الاوراق .

- حسناً ولكن ثق باننا لن ندعك هكذا ، سنسجل العقود اليوم ولكننا

سنلهو معاً ... انتظر قليلاً لألقي أوامري .

وفتح الرئيس باباً يطل على غرفة مليئة بالموظفين الذين يشبهون النحل في كثيرهم إذا جاز لنا ان نشبه خلية نحل مليئة بالعسل ، بمكتب في محكمة ، ونادى الرئيس :

– هل ايفان انطونوفتش هنا ؟

فأجابه صوت : « نعم »

– إيتني به

وجاء ايفان انطونوفتش الى قاعة المحكمة فجاء باحترام :

– خذ جميع هذه العقود يا ايفان انطونوفتش ... فقاطعه - وبا كيفتش .

– لا تنس يا ايفان غريغوروفتش انه يلزم شاهد لكل فريق فاستدع

المدعي العام فهو دائماً دون عمل لأن حاجبه زولوتوشكا وهو اكبر وغد في العالم

يقوم بعماله . واستدع كذلك مفتش الشؤون الصحية فهو فارغ دوماً واستجده

في مكتبه ايضاً الا إذا كان يلعب بالورق عند صديق . واخيراً هناك بالقرب

من هنا تروخاتشفسكي وبيفوشكين اللذان لا يعرف احد ما جدوى حيائهما .

فهتف الرئيس :

– انها فكرة حسنة .

وأرسل في الحال موظفاً لاستدعاء الاشخاص المذكورين .

وقال تشتشيكوف :

– أرجوك ايضاً ان تستدعي وكيل ملاكة اشترت منها عبيداً وهو أبونا

الكاهن سيريل وأحد موظفيك . فأجاب الرئيس :

– بكل تأكيد ... سننجز كل شيء ولكني أرجوك ألا تدفع شيئاً لأحد

فأصدقائي لا يدفعون . ثم وجه امرأ بصوت منخفض الى ايفان انطونوفتش يبدو

انه لم يعجب الاخير . وأثرت عقود البيع في نفس الرئيس تأثيراً حسناً وخاصة

عندما رأى ان قيمة المشتريات ترتفع الى مائة الف روبل تقريباً فنظر الى تششيكوف بفرح ثم قال :

- آه ! ... لقد اشتريت كل هذا يا بافل ايغانونتش ... هذا مدهش ... هذا مدهش .

فأجاب تششيكوف :

- أجل لقد اشتريت كل هذا .

- انها صفقة مدهشة .. بلى مدهشة .

- لم يكن بإمكانى ان افعل احسن من هذا . ان هدف حياة الانسان يتحدد عندما يضع قدماً ثابتة على الارض ويجزر الاوهام التي غدت شبابه .

ثم وجه بافل ايغانونتش عبارة مناسبة في مهاجمة الافكار التحررية والشباب . ولكن كان عدم الاقتناع بما يقول يبدو في كلماته ؛ وكان يحدث نفسه قائلاً : و ان جميع ما تدلي به يا صديقي غير صحيح ... وانك لكاذب ، ولم ينظر الى سوبا كيفتش او مانيلوف خشية ان يقرأ الامتعاض على وجهها ، ولكن خوفه كان في غير محله فقد ظل سوبا كيفتش على بروده وأما مانيلوف فقد سحره خطاب تششيكوف فكان يمز رأسه بسرود كما لو كان احد عشاق الموسيقى يستمع الى مغنية بلغت أوج الفن في غنائها .

وفجأة قال سوبا كيفتش :

- ولكن لماذا لا تقول لايفان غريغوروفتش ماذا اشتريت ؟ وانت يا ايفان غريغوروفتش لماذا لا تستفسر عن مشترياته ... لقد اشترى ذهباً صافياً ، لقد بعته صانع العربات فيجييف .

فأجاب الرئيس :

- فيجييف ؟ انك تمزح ... اني اعرفه جيداً ... لقد اصلح عربتي ، ولكن اسمح لي ان اذكرك بأنك قلت لي انه مات .
فهتف سوبا كيفتش دون ان يضطرب :

- فيجيب مات ؟ ان اخاه هو الذي مات ، اما فيجيب فحي وفي صحة جيدة ... لقد صنع لي منذ ايام عربة يحمدي عليها سكان موسكو انفسهم ... انه يستحق ان يشتغل عند القيصر .

- نعم انه عامل ماهر ويدهشي انك استغنيت عنه .

- اوه لقد بعته آخرين ايضاً ... لقد بعته بروبكاستيان الخطاب وميلوخين وماكسيم تلماتنيكوف الخذاء ... لقد ذهب الجميع ... لقد ذهبوا ...

فسأله الرئيس عن السبب في بيع عبيد يفيدونه كهؤلاء .

- لا ادري ... حاقة ... لقد قلت لنفسي : ماذا لو تخلصت منهم ... وبالفعل فقد تخلصت منهم .

وأخى رأسه كما لو كان نادماً على حماقته وأضاف :

- لم يزد ذكائي مع بياض شعري .

وسأل الرئيس بافل ايفانوفتش :

- ولكن اسمع لي ان اسألك : انك تشتري العبيد دون الاراضي فهل

تنوي ان ترسلهم لبشتلوا في مناطق اخرى ؟

- نعم .

- هذا أمر آخر ... وأين تريد ان ترسلهم ؟

- الى ... الى حكومة خرسوك .

فقال الرئيس :

- ان الاراضي ممتازة هناك والمراعي خصبة ، ولكن هل تملك كثيراً من

الاراضي هناك ؟

- ما يكفي لتشغيل الفلاحين الذين اشتريتهم .

- وهل تملك انهاراً او مستنقعات ؟

- أجل عندي الانهار والمستنقعات ايضاً .

وألقي تششيكوف نظرة سريعة على سوباكيفتش وهو يتلفظ بهذه العبارات

ولكن وجه الاخير كان عديم التأثير كالمعتاد ، ومع ذلك فقد كان يبدو انه يقول لتشتشيكوف :

« ماهذه الاكاذيب التي نسمعا إياها ، انك لانتك انهاراً ولا مستنقعات بل لانتك الاراضي »

وبدا في هذه الاثناء الشهود بالورود : وكان اولهم المدعي العام ثم مفتش الادارة الصحية واخيراً تروخاتشفسكي وبيغوشكين وآخرون من الطفيلين كما وصفهم سوما كيفتش . وكان تشتشيكوف يجمل شخصيات بعضهم ، وقد اكتمل العدد اللازم من الشهود ببعض موظفي المحكمة ثم جاء سيويل وابنه . ووقع كل منهم ذاكرة تحت توقيعه طبقته وجميع ما يحمله من أوسمة وشهادات ، كما وقع بعضهم باحرف مائلة وبعضهم الآخر باحرف مستقيمة . وكانت بعض الاحرف تقرب من بعضها حتى لتبدو غريبة عن الابجدية الروسية وأنهى ايفان انطونوفتش الشكليات وسجلت العقود ووضعت عليها الطوابع ودفع تشتشيكوف اقل قدر ممكن من المال ، ذلك ان الرئيس قد أمر ألا يؤخذ منه الا نصف المبلغ المحدد بالقانون واما النصف الآخر فقد ألغى بطريقة لا يفهمها انسان ، وعندما انتهى كل شيء هتف الرئيس :

— لم يبق الآن الا ان نشرب على شرف هذه الصفة .

فقال تشتشيكوف :

اني تحت تصرفكم وما عليكم الا تحديد الساعة ذلك اني لا استطيع ان ارفض بضع زجاجات من الخمر الجيد لهذه (الشلة) الكريمة .

فأجاب الرئيس :

— انت لم تفهمني ، إذ اننا نحن الذين سنقدم لك الخمر لان هذا من واجبنا ، وما انت الا ضيفنا فعلياً ان ندعوك .. عندي فكرة جيدة ايها السادة ..

لنذهب الى مدير البوليس فهو من صانعي المعجزات ، وما عليه الا ان يبدي

اشارة بسيطة حتى تقام مأدبة فاخرة وجيدة في نوعها ثم تلعب بعد ذلك الوبست سوباً .

لم يكن في مقدور انسان ان يرفض اقتراحاً كهذا ، فكلمة مأدبة وحدها تكفي لأن يشعر الشهود بشبهة عظيمة ، وهكذا اخذ كل منهم قبعته ورفعت الجلسة ، وعندما مروا بكتب ايفان انطونوفتش تقدم (قبضة الابريق) من تشتشيكوف ونغم :

— لقد اشتريت بجائة الف روبل عبيداً ولم تدفع لي الا ورقة مالية صغيرة .

— فأجابه بافل ايفانوفتش بصوت منخفض :

— أي عبيد .. انهم عديمو الجدوى ولا يساوون نصف هذا المبلغ .

ففهم ايفان انطونوفتش انه امام انسان لا يستطيع ان يأخذ منه كوبيكا واحداً ، وفي هذه البرهة اقترب سوبا كيفتش من تشتشيكوف وسأله بصوت منخفض :

— كم دفعت ثمناً للعبد الواحد عند بليوشكين ؟

— قل لي انت اولاً لماذا وضعت اسم فوروبيا في قائمتك ؟

— اي فوروبيا ؟

— المرأة الزافيتا فوروبيا .. أتذكرها .. لقد ذكرت اسم الزافيتا .

فقال سوبا كيفتش وهو يلحق بالجماعة .

— كلا فاني لم اسجل اسم فوروبيا .

ووصل الجميع الى مكان مدير البوليس ، وكان هذا بالفعل من صانعي المعجزات ، فما ان عرف رغبة الوافدين عليه حتى نادى ضابط الحرس وهمس في اذنه كلمتين ثم اضاف بصوت عال : « افهمت ؟ » وفي الحال ، وبينما بدأ الاصدقاء يلعبون الوبست امتلأت الطاولة في غرفة الطعام بشتى انواع اللحوم والأسماك والحلويات الفاخرة النادرة .

كان مدير البوليس بمثابة أب لهذه المدينة الصغيرة فقد كان يعيش مع مواطنيه وكأنهم من عائلة واحدة ، فهو يتصرف بالحواسن والاسواق كما لو كانت في منزله تماماً . وكان الى جانب ذلك يحسن القيسام بواجبه كمدير للبوليس حتى ليصعب التمييز فيما إذا كان قد خلق لهذه الوظيفة ام انها خلقت له . وكان قد رتب اموره بشكل يجمع معه اضعاف موارد أسلافه ، ومع ذلك فقد غزا قلوب سكان المدينة . فالتجار يحبون له عدم تكبره وهو بدوره يحضر عمادة اولادهم ويدخل بيوتهم . واما أنه كان يسخرهم لزيادة ثروته فهو يفعل ذلك على الاقل بمهارة . ذلك انه كان يربت على اطفالهم عندما يراهم ويضعك معهم ويقدم لهم الشاي ويستفهم عن أحوالهم وينصحهم بأدوية يحددها لهم إذا علم ان احداً اولادهم مريض ... لقد كان بالفعل رجلاً طيباً .

وعندما يجتاز المدينة بعربته كان يلحظ كل شيء ، ويعرف كيف يلقي الكلمة اللطيفة على مسمع كل انسان : « هيه ميثيتش يجب ان نلعب الفوركا » فيجيب ميثيتش : « بكل تأكيد يا أليكسي ايفانوفتش » ... « وأنت يا إيليا بارامونوفتش تعال شاهد جوادتي ولنجعلها يتسابق مع جوادك وسنرى من يربح » فيضحك التاجر الذي يحب حيواناته من اعماق قلبه ويحب وهو يداعب لحينه : « حسناً سنرى يا أليكسي ايفانوفتش » . وأما موظفوه الذين يمنعون قبعاتهم له عند التحية لا يستطيعون ان يمنحوا انفسهم من القول حال مروره : « ان أليكسي ايفانوفتش انسان طيب » والحلاصة انه استطاع الفوز بشعبية قوية ، وكان التجار يقولون : « ان أليكسي ايفانوفتش يحددنا ولكنه يعرف كيف يجيبنا عند الزوم . »

وما إن وضعت الاطعمة على المائدة حتى طلب مدير البوليس من ضيوفه الانتقال الى غرفة الطعام وتأجيل اتمام اللعبة الى ما بعد الغداء . وكانت الروائح الشهية تداعب انوف الضيوف وكان سوبا كيفتش يراقب سمكة كبيرة وضعت

في طبق بعيداً عن سائر ألوان الطعام. وبعد ان تناول الجميع كأساً من الكحول تساحوا بشوكة وانقضوا بها على المائدة واندفع كل منهم الى نوع من المقبلات . وتناول بعضهم الكافيار والبعض الآخر اخفى بهجومه سمك السردين والبيض والجن . اما سوبا كيفتش فقد نظر باحتقار الى هذه المقبلات وجلس قرب السمكة الكبيرة، وبينما كان الآخرون يشربون ويثرثرون ابتلع صاحبنا السمكة في اقل من ربع ساعة . وهتف مدير البوليس بضيفه عندما تذكر السمكة : « ايها السادة ها كم احدى معجزات الطبيعة » ولكن معجزة الطبيعة تلك لم يبق منها في هذه اللحظة الا ذنبها . وكان سوبا كيفتش في تلك الاثناء قد انتقل الى طبق آخر مليء بالسك المقلي ، وبعد ان سجل نصره انتحى جانباً واخذ يرقب (الشلة) وعيناه تغمران باستمرار .

اما مدير البوليس فقد كانت يحجب الحمر لدرجة الهيام ، ولذلك لم تنتهي الانخاب . وبالطبع فان الكاس الاولى كانت نخب سيد خرصوك ثم نخب ازدهار اراضيه ونخب نجاح توطين عبيده في ذلك البلد الجديد ، ثم نخب زوجة بافل ايفانوفتش المقبلة الحسنة دون ادنى ريب ، وبالطبع فان هذه الكلمات كانت تشجع بطلنا على الابتسام . وقد احاط به الجميع ورجوه ان يبقى بينهم خمسة عشر يوماً على الاقل .

— لا يا بافل ايفانوفتش ... ان الانسان لا يفتح باب غرفته ليدخل البرد اليها ... ستبقى معنا قليلاً ... سنزوجك ... سنزوجه يا ايفان غريغوروفتش أليس كذلك ؟

هتف الرئيس :

— أجل سنزوجه ... عبثاً تقاوم ... سنزوجك ... لقد زرنا ... لا تقل شيئاً فنحن لا نحب المزاح .
فقال تششيكوف مبتسماً :

- ولم المقاومة ؟ ان الزواج شيء جميل حقاً ، ولكن الامر امر الخطيئة .
- ستكون لك خطيئة ... ولم لا ؟ ستحصل على جميع ما ترغب .
- اوه ... ولكن لي خطيئة بالفعل .

فهنف الجميع :

- برافو سيبقى ... عاش بافل ايفانوفتش ... هوذا هوذا ! ...

واقترب الجميع منه يحملون بايديهم الاكواب فقرعوها وصاح المتحمسون :
« ايضاً .. ايضاً » وقرعت الكؤوس ببعضها ثلاث مرات وكان المرح عاماً ،
اما الرئيس فقد كان يقبل بافل ايفانوفتش بلطف يتزايد كلما أمعن في الشراب
بوينادييه بأعذب الاسماء : « اياروحي الصغيرة .. أياامي الفتية » ثم اخذ (يفتش)
أصابعه ويتراقص حوله وهو يغني الاغنية الشعبية : « أهذا انت بافلاح كامارا)
وقدمت الشبانبا مع نبيذ هنغاربا فزاد هذا في صرح (الشلة) ونسي الاحدقاء
الويست واخذوا يتناقشون ويصيحون ويزجرون ؛ كانوا يتحدثون في كل شيء
في السياسة ، وفي الشؤون العسكرية ، ويبدون من الآراء الثورية مالو أيدها
ولد احدثهم منذ ربع ساعة لجلوده ، كما وجدوا حلولاً كثيرة لأعقد المشاكل ،
اما تششيكوف فلم يسبق له ان شعر بهذه النشوة وكان يعتقد انه فعلاً ملاك في
خرسوك فأخذ يتكلم عن الاحداث التي سيدخلها في اراخيه كما تحدثت عن سعادة
قلبين جمع بينهما الحب ، ثم أنشد سوبا كيفتش قصيدة من قرن الى شارلوت ،
ولكن هذا لم يقلع في اثارة اهتمام حديقه الذي زادت السكة في نعاسه .

وادرك تششيكوف بسرعة خطر هذا المرح فطلب عربة ولكن المدعي
العام قدم له عربته وكان حوذها رجلاً مجرباً ففاد العربة بيده اليسنى بينما امسك
الششيكوف بيسراه كي لا يقع على الطريق ، وهكذا وصل صاحبنا في هذه
الشروط الى الفندق ، وكان خياله شاردًا يحلم بعذراء فتية وجيلة كما اخذ يحلم
القرى خلاصة حول خرسوك ، وأموال وفيرة ، فدعا اليه سليفان وامره ان

يجمع فلاحي المستعمرة الجديدة في باحة الفندق وان يتناديهم باسمائهم . واصفى سليفان الى سيده مدة طويلة دون ان ينس بحرف ثم ذهب الى بتروشكا وقال له : « اذهب وساعد السيد على خلع ملابسه ! » فأسرع بتروشكا الى تششيكوف وكان السكر قد بلغ بيطلنا حدّاً كاد ان يوقعه على الارض فأخذ الخادم ينزع الخذاء من قدميه . وبعد ان خلع ملابسه استلقى على سريره نام وهو يعتقد انه بالفعل سيد خرسوك .

اخذ بتروشكا الملابس وعلقتها على مشجب صغير ثم جعل ينفضها بقوة حتى مثلاً المر بسحب من الغبار . وفي اللحظة التي بدأ فيها بالدخول الى غرفته شاهد سليفان يخرج من الاسطبل ، فنظر كل منها الى الآخر بصمت وفهم كل واحد ان الآخر يقول : « لقد نام السيد فلنذهب لنسرح قليلاً . » وفي الحال رتب بتروشكا ملابس بافل ايفانوفتش ونزل الى الباحة ومشى الصديقان جنباً الى جنب دون ان يقول احدهما للآخر اية كلمة عن هدفها . وكانت تزهنيها قصيرة فقد اجتازا الطريق ثم دخلا حانوتاً تجاه الفندق فوجدا نفسيهما في غرفة شبه كهفاً يجلس فيه اشخاص عديدون الى موائد خشبية . ترى ماذا فعل سليفان وبتروشكا ؟ ان الله وحده يعلم ذلك ، فقد خرجا بعد مضي ساعة بمسك كل منهما بيد الآخر ويديان لبعضهما ، ولكن بصمت ، كل انواع الود والمحبة . وبعد ان قضيا ربع ساعة طويلة في تسلق الدرج نجحوا في اجتياز الدرجة الاخيرة وفتحوا باب غرفة بتروشكا . ووقف هذا برهة كبيرة قرب سريره متسائلاً كيف تنام ثم استلقى على الارض بجانب السرير ، ووضع سليفان رأسه فوق بطن صديقه ونام ناسياً ان عليه ان ينام في غرفة الخدم او في الاسطبل . ونام الاثنان في الحال وقد ملأ الغرفة شخيراً ، وكان معلمها يجيب عليه بصفير خفيف يخرج منه من انفه ، ثم خيم هدوء عميق على الفندق وبقيت نافذة واحدة مضاءة ... انها نافذة غرفة الضابط الذي وصل بالامس من بازان ، وكان من هواة الاحذية ؛ ذلك انه اوصى حين وصوله على اربعة ازواج من الاحذية وقضى نهاره برمته

وهو يجرب الخذاء الخامس ، واقترب من سريره اكثر من مرة ليخلع هذا الخذاء وينام . كان في هذه البرهة يجلس على حافة السرير ويرفع ساقيه بين الفينة والاخرى ، ولكنه لم يستطع ان يمنع نفسه من الاعجاب بشكل خذائه .

الفصل الثامن

أصبحت مشتریات تشتشيكوف حديث المدينة وأبدیت مختلف الآراء والنظريات حول مدى فائدة شراء عبيد لتوطينهم في ارض جديدة. وكان بعضهم يقول ان اراضي الجنوب خصبة بلا ريب ولكن ماذا سيصنع فلاحو تشتشيكوف دون ماء؟ ذلك انه لا يوجد انهار هناك .

— ان عدم وجود الماء ليس بذي قيمة باستيفان ديمتريش ولكن نقل هذا العدد ... تلك هي المشكلة . وبعد ، تصور عبدآ في أرض جديدة دون بيت او بقعة مألوقة فانه سيهرب ملا أدنى ريب . واني متأكد من ذلك تأكدي من ان الاربعة هي حاصل ضرب اثنين باثنين ، أجل سيهرب دون ان يدع اثرأ خلفه . — اسمح لي يا الكسي ايفانوفتش ان اعترض على قولك ؛ اني لا اعتقد ان عبيد تشتشيكوف سيهربون . فالروسي قادر على كل شيء وهو يعتمد بسرعة على تغيرات الاقليم . ولو انك ارسلت العبد الى كاماشتكا شريطة ان تزوده بمعطف دافئ ، فانه سيضرب يده بالآخرى ويمسك بمطرقته ليبدأ ببناء بيت له . — انك تسمى نقطة هامة باليفان غريغورفتش وهي اخلاق عبيد باذل ايفانوفتش .

ان الملاكين لا يبيعون العبيد الشيطانيين ابداً ، واني لأراهم على قطع عنقي بان
كلّ من عبيد تششيكوف إن لم يكن سارقاً او سكيراً ، فهو على الاقل
كسول او مشاكس .

- هذا صحيح ... ان الملاكين في الواقع لا يبيعون احسن عبيدهم وما عبيد
تششيكوف الا من السكيرين . ومع ذلك فهناك نقطة يجب مراعاتها : انهم
هنا كسولون ولكن تغير الجو والبيئة سيؤثر فيهم ، ونحن نعرف امثلة كثيرة
من هذا القبيل ، والتاريخ نفسه يبرهن على صحة هذا الرأي .

فهتف مدير مصانع التاج :

- ابداً ... ان هذا لا يحصل على الاطلاق ... ان فلاح تششيكوف
سيكون له الآن عدوان : أولها المقاطعات الروسية التي على الحدود حيث تباع
الكحول ، وأؤكد لكم بانهم سيبصحبون بعد مضي اسبوعين من وصولهم
سكيرين لدرجة الموت . واما العدد الثاني فهو عادة التشرد والتجوال التي
متغلغل في اعماقهم اثناء عملية نقلهم ... هذا الا اذا قام تششيكوف بمراقبتهم
باستمرار ، وعرف كيف يقودهم ويعاقبهم على اقل ذنب دون وسيط ...
فيضربهم بنفسه على الفك او على النقرة ...

- ولماذا يضربهم تششيكوف بنفسه ؟ سيكون له وكيل يقوم عنه
بهذه المهمة .

- الوكيل ؟ انهم عصاة لصوص .

- هذا صحيح ، والسبب في ذلك ان الملاكين انفسهم لا يهتمون باعمالهم .
فهتفت عدة اصوات :

- هذا حق .

- اذا كان الملاك يعرف كيف يدبر املاكه واذا كان يفهم الناس فهماً
صحيحاً فانه بلا ريب سيستطيع ان يحصل على وكيل طيب .
وهنا قال مدير المصانع بانه لا يمكن الحصول على وكيل بأقل من خمسة

آلاف روبل في العام . فأجاب الرئيس بأن اي وكيل يقبل ثلاثة آلاف روبل بسهولة ، فهتف مدير المصانع :

— هلا دلتني ابن يوجد ؟ أفي انك ؟

— ولماذا في اني ؟ اني اعرف واحداً في مقاطعتنا .. واسمه بيوزبيوتوفتش ساموالوف ؛ وان تششيكوف بحاجة مثله .

وابدى الكثير عظمهم على تششيكوف ، وكانت مصاعب نقل هذه الكبيرة من العبيد بخصفهم ، فبدأوا بالخوف من ثورة هؤلاء العبيد وهنا قال مدير البوليس بان الثورة مستحيلة وان الكابتين اسبرافنيك يعرف كيف يحافظ على الامن ، وهو لن يحتاج الى ازعاج نفسه بل سيكتفي بارسال عمرته .. وهذه العمرة وحدها كافية لسوق الجميع حتى خرسوك ، ثم انتقل الجمع الى بحث الوسائل التي تؤدي الى ترويض نفوس تششيكوف الشائرة ، فاقترح بعضهم اقصى الاساليب العسكرية واما البعض الآخر فكان ارحم قليلاً ، وقال مدير البوليس بانه يتوجب على بافل ايفانوفتش ان يكون اباً لعيده فيجعلهم يستفيدون من خسرات العلم .

تلك هي الاحاديث التي دارت في المدينة الصغيرة ، وتوصل اصدقاء تششيكوف الى نصحه بان يطلب فصيلة من الجنود نواكب عبيده ، ولكن بافل ايفانوفتش شكرهم واعن بانه سيعرف كيف يستفيد من تلك النصائح ، ولكنه رفض كل مساعدة عسكرية لان فلاحيه هادئون بالاضافة الى انهم يرغبون بالذهاب الى خرسوك فلاخوف والحالة هذه من حدوث ثورة .

وكانت لهذه الاحاديث نتائج طيبة لم يكن تششيكوف لينتظرها . وقد اشاع بعض اصدقائه بانه ملبونير لا اكثر ولا اقل . وكان سكان المدينة يحبون تششيكوف حباً عميقاً كما كانت امثال هذه الشائعات تزيد في تقدير المدينة وحبا لبطلتنا . وسكانها اناس طيبون يعيشون متفاهمين وتسود بينهم الالة والمحبة .

اما احاديثهم فهي مليئة بالتعابير البسيطة والعاطفية : « يا صديقي العزيز ايليا ايليتش » « اسمعني يا اخي انثيباتور زاخارفتش » « ايه ! .. ولكنك تكذب ياامي الصغيرة ايفان غريغورفتش » اما عندما يكون الحديث موجهاً الى مدير البريد فان الحديث إذ ذاك تضاف اليه بعض التعابير الالمانية .

والخلاصة انهم يحبون كعائلة واحدة ولم تكن الثقافة لتنقص بعضهم؛ فريثس المحكمة يحفظ فصيدة « ليودميلا » لجوكوفسكي عن ظهر قلب . بل كان يلقي منه باتقان عدة مقاطع امثال : « الغاب والهضبة تمام » « كان ينام » يلفظ (تنثاب بقوة حتى ان المرء يكاد يرى الهضبة تنقفو ، ورغبة منه في زيادة التأثير بسبيل جفنيه شيئاً بعد شيء . واما مدير اليوايس فقد كان منصرفاً الى الفلسفة يقرأ في الليل باستمرار « ليالي بانغ » و « مفتاح اسرار الطبيعة » لايكارته اوس . وكان ينقل منها مختصرات كثيرة ولكنه لم يكن يعرضها على انسان كما ان هذه الدراسات لم تكن لتسعه من ان يكون روحياً . وكان يحب الالفاظ المنتقاة ويرغب في ان يراها مزدهرة في خطبه كما كان يقول . وبالفعل فان المرء يسمع اكثر من مرة في عباراته : « باسيدي العزيز » و « انت تعرف ... انت تفهم ... » و « تصور ... » و « نسبياً كما يقولون » و « على شكل ما » وفوق ذلك كان يغمز بعينه عندما يتلفظ بتعبير جميل . اما كبار بقية الموظفين فقد كانوا ايضاً مثقفين . فهذا قرأ (فارامسي) وذاك اشترك في « انباء وسكو » والثالث لم يقرأ شيئاً البتة . وهناك ثمة انسان يعيش دون حراك حتى انه يتوجب عليك ان تدفعه لتشعر بحياته ، وهناك آخر يقضي حياته مستلقياً على أريكة ولا فائدة من إضاعة الوقت معه فهو عاجز عن إبداء اي جهد للنهوض .

وأما عن صحتهم فالجميع على احسن حال ولم يحدث ان اعرف احدهم معنى السل الرئوي ؛ والكل ينعم بسماع زوجته تناديه : « ياقرعتي الكبيرة » ياكرتي الضخمة . ، والجميع طيبون ومضيفون حتى ان كل غريب يذوق خبزهم

ولهم ويلعب معهم اليست يصح حالا من اخصائهم . وهكذا كانت الحال مع بافل ايغانوفيتش الذي عرف فوق ذلك كيف يرضهم بعدوبته وميزاته العديدة . وكان الجميع يظهرون حبهم بشدة لبطلنا الذي كان يتساءل كيف يفادر المدينة ذلك انه كان يسمع دائماً : اسمع يا بافل ايغانوفيتش ابقى بيننا اسبوعاً واحداً ،

ولكن الأدهش من كل ذلك حقاً ، هو ذلك الاثر العميق الذي تركه تشتشيكوف في نساء المدينة . ولهم هذا الاثر يجب التوسع في وصف هؤلاء النساء مجتمعتهن والوان ارواحهن الفارقة . وهي مهمة صعبة على المؤلف لانه يحترم زوجات كبار موظفي المدينة جداً ؛ ومن جهة اخرى ... اجل من جهة اخرى ليس الامر من السهولة (باي مكان) .

كانت سيدات مدينة (ن) ، كانت ... لا ، لا استطيع ... اني لأشعر الحجل حقاً ... كان ابرز ما فيه ... امر غريب ... آه ! انت القلم ليرفض الاستمرار ... وهو يصيح ثقيلآ كالرصاص . فلندع هذه المهمة اذن لمن يملك الوائأ حية ، واما نحن فسنكتفي بقول كلمتي عن مظهرهن الخارجي ، وسنقولهما بشكل سطحي .

ان هؤلاء السيدات ، كما يقال عادة ، يصلحن للظهور في المجتمعات ، ومن هذه الوجهة يمكن اعتبارهن مثلاً يحتذى به . ان هؤلاء السيدات في سلوكهن وانتقائهن اللهجة والالفاظ ، وفي محافظتهن على تقاليد المجتمعات وتنبيه آخر تفاصيل تطور الازياء ، ان هؤلاء السيدات في جميع هذه الاشياء يسبقن سيدات بطرسبرج وموسكو بمراحل كبيرة . فهن يلبسن آخر الازياء ويتنزهن في عربات يقف في مؤخرتها خادماً يرتدي بزة مذهبة . وكانت بطاقة الزيارة مطبوعة من كل انسان حتى ولو كانت مكتوبة باليد وعلى ورقة من ورقات اللعب . وكان هناك ثمة عادة اخرى قد تتخاضم صديقان اذ خطر لواحدة منهما تجاهلها وهذه العادة هي رد كل زيارة بزيارة مثلاً . وعشياً يحاول زوجها او اقاربها اصلاح ذات البين بين هاتين الصديقتين . ويحد الجميع انفسهم مرغنين على الاعتراف

بانه وان كان كل شيء ممكن على الارض فمن المحال ان تصفح حيدة عن نجاهل تقليد الزيارات . وقد تحصل مشاهد عنيفة من جراء هذا الامر اذ يشهر الزوجان ببقية باقية من اخلاق الفروسة حين يتدخلان لانهاء المشكلة ، ولكن الامر لا يصل ابدأ الى المباراة ؛ والسبب في ذلك ان الجميع كانوا موظفين مدنيين ، ولكن لا بدع احدهما فرصة تمر دون ان يوجه الى خصمه اهانة ما ، الامر الذي يخلق حالات اصعب بكثير مما لو وقعت المباراة بالفعل .

وكانت سيدات مدينة (ن) فاسيات جداً من الوجهة الاخلاقية ، ولهذا فان كل ما هو رذيلة أو اعراء يغيظهن ، فيعاقبن كل ضعف دون رحمة ، ومع ذلك فانه اذا اتفق ان حصلت مفارمة صغيرة بينهما ، فانهن إذ ذاك يكنسن السر جمعاً ، فتبقى المظاهر سليمة ويكون الزوج بالتالي مهيباً لوضع حد لكل سؤال فضولي وهو يضيف هذا المثل : « ليس من خصائص احد التدخل اذا عاشر الاشبين الاشينة » ، ولنقل ايضاً ان سيدات مدينة (ن) كأخواتهن سيدات بطرسبرج ، يمتزبن بانتقاء عباراتهن ، فلا يقلن مطلقاً : « تمخضت » أو « مسحت عرقي » أو « بصقت » ، بل نجد ان مثل هذه العبارات ينطقها على هذا الشكل : « لقد خفت عن انفي » أو « لقد استعملت منديلي » كما انهن لا يقلن ابدأ : « هذا الكوب أو هذا الصحن منتن » بل يقلن : « هذا الصحن أو هذا الكوب ليس كما يجب » ، وكن ايضاً ، وذلك بقصد تجبيل اللغة الروسية يتحدثن بنصف لغتنا تقريباً ويستعصن عن النصف الثاني باللغة الفرنسية .

هذا كل ما استطع ان اقله عن سيدات مدينة (ن) بصورة سطحية غير اني اذا شئت ان اتعمق .. انه لمن الخطر التعمق في النظر الى قلوب السيدات فلا تأتبع إذن .. وبصورة سطحية طبعاً .

كانت سيدات مدينة (ن) قد تحدثن قليلاً جداً عن تشنشيكوف غير انهن كن مجمعات على انه بهي الظلمة ، وما ان انتشرت الشائعات حول ثروته حتى وجدن له مزايا عديدة مستجدة .

ان سيدات مدينة (ن) لا يتأثرن بالثروة في الواقع ، ولكن كلمة مليون أثرت فيهن كثيراً ، ذلك انه في هذه الكلمة ، عدنا عن معنى المال الذي تحمله ، شيء يؤثر على جميع الناس ، صغاليك وأغنياء ، فالمليونير بوسعه ان يتسلى بمشاهدة الحطة والدناءة دون ثمن ؛ والكثير يعرفون ان لا أمل لهم مع هذا المثري ، اذ لاحق لهم في هذا الأمل . ومع ذلك فانهم يدعون له وينحنون احتراماً ويسمعون الى ان يدعوم الى العشاء معه . ولا يستطيع ان يقول ان هؤلاء السيدات شعرن باستعداد خاص لهذا النوع من الحطة دون غيره ، ولكنهن مع ذلك ازددن في التحدث عن بافل ايفانوفش . وكانت أحاديثهن عنه ، انه بلا ريب ، ليس جيلاً جديداً ، ولكنه سيبدو اقل جمالاً لو كان اكثر بدانة وبالمناسبة فان هؤلاء السيدات عندما تحدثن عن رجل نحيف قلن انه يشبه المسواك اكثر مما يشبه الرجال . وقد ازداد اعتناء السيدات بهندامهن وأضحت المخازن تعج بمجموعهن حتى غدت مكاناً جديداً للزخرفة لا يعدم الانسان فيه التسلية . ودهش التجار عندما وجدوا ان كميات من الاقمشة كانت كاسدة عندهم لارتفاع ثمنها قد نفدت بسرعة . واما في الكنيسة ، فان كل سيدة تأتي للصلاة ، كانت تجر وراءها ذيل ثوبها الطويل مما يضطر الشرطي معه الى شق الطريق لها بين الجماهير كي لا تقع مصيبة لهذا الثوب الجميل .

واصبح من المستحيل على تشتشيكوف ألا يلاحظ انه موضوع هذا الاهتمام . وفي ذات يوم عاد الى غرفته فوجد على الطاولة رقعة صغيرة ولم يستطع ان يعرف من اين جاءت . فقد قال خادم الفندق ان الشخص الذي حملها له قد حصل منه على وعد شريف بالسكوت والكتمان . اما الرسالة فكانت تبدأ هكذا : « كلا ... يجب ان اكتب اليك ... » وتدعي الكاتبة بعد ذلك ان شيئاً ما يؤلف بين قلبيهما ... ثم انت بعد ذلك بأفكار حول الحياة : « ماهي حياتنا ؟ انما واد عامر بالآلام ... وما هو العالم ؟ اكداس من الكائنات عديدة الحسن وتتابع الكاتبة بعد ذلك : « اني اسقي بدموعي صفحات كتبها أمي التي

توفاها الله منذ خمسة وعشرين عاماً ، ثم ندعو الكاتبة بعد ذلك تشتشيكوف الى الهروب من المدن ، حيث يجتنتي الانسان في الاطر الضيقة ، الى هدوء الصحارى وسكونها . ثم تنهي رسالتها بعبارات تصور فيها اليأس ، وتردفها بهذه الابيات :

متدلك حامات

على جنني المتجمدة

وسيقول لك نواحها

انها ماتت غريقة بدموعها

وكان البيت الاخير مختل الوزن ... ولكن ما الاهمية في ذلك ؟ وكانت الرسالة مكتوبة بروح العصر ولكنها لانحمل تاريخاً ولا توفيقاً ولكن يوجد فيها حاشية تقول : ان على بافل ايفانوفتش ان يحزر من كتب له ، وان كاتبة الرسالة ستكون مساء الغد في حفلة الحاكم الراقصة .

واهتم تشتشيكوف بالموضوع ، فقد اثارت هذه الرسالة اهتمامه فقرأها واعاد قراءتها ، وتم آخر الامر : « يجب ان اعرف على الاقل من كتب لي هذه الرسالة » وفكر في الموضوع اكثر من ساعة ثم هز رأسه وقال : « انها محبوبة جيداً » ثم طواها ووضعها في الصندوق ، بين اعلان ودعوة الى زواج لم يغير موضعها منذ اكثر من سبع سنوات . وبعد بضعة دقائق ، تلقى تشتشيكوف دعوة الى حفلة الحاكم ، وهذه الطريقة ، كانت هي الوحيدة لتعبيرها الطبقة الارستقراطية عن جهاد احترامها للسلطات الحاكمة .

وتوقفت اعمال المدينة ، واتجهت جميع الافكار والجهود في هذه الحفلة الراقصة . ومن المؤكد انه منذ خباقة العالم لم يستغرق الهندام في اية بقعة من بقاع المعمورة ، ما استغرقه من الوقت في هذه المدينة . فقد وقفت السيدات اكثر من ساعة قرب المراة يجربن على وجوههن التعابير المختلفة ، ويتلفظن بكلمات غير مفهومة تشبه نوعاً ما الكلمات الفرنسية ، وهي اللغة التي لا يفقه منها

تتشيكوف حرفاً . ونهياً بافل ايفانوفتش للحفلة بدوره ، فوقف قرب مرآته ينسلي بتقطيب حاجبيه وتحريك شفتيه ، ثم داعب ذقنه بعد ان اعجب بجماله ثم انصرف الى هندامه ، وكان حسن المزاج ، فأخذ بذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يضع ربطة عنقه ، ويجبي وينحني . ورغم انه لم يرقص في حياته قط ، فقد مشى خطوتين راقصاً ، فأسقط الفرشاة على الارض وارتجت خزائنه

أحدث وصول تششيكوف الى الحفلة اثرآ عميقاً ، فأسرع الجميع الى استقباله . وكان يحمل بعضهم ورقاً للعب ، بينما قطع البعض الآخر حديثه عند عبارة : « أجابت المحكمة على هذا ... » ونسي المحدث ماذا اجابت المحكمة وأسرع الى بافل ايفانوفتش وصاح :

- بافل ايفانوفتش .. آه .. يا آلهي ! بافل ايفانوفتش . يا عزيزي بافل ايفانوفتش .. ايها المحترم بافل ايفانوفتش .. يا روهي الصغيرة بافل ايفانوفتش ، أهذا انت يا بافل ايفانوفتش .. اعطونا اياه لنستطيع معاقته . آه يا عزيزي بافل ايفانوفتش .

وألقى بطلنا اصدقاءه يقبلونه دفعة واحدة ، فما كاد يتخلص من عناق رئيس المحكمة حتى وجد نفسه بين ذراعي مدير البوليس ، وسله هذا الى ذراعي مفتش الشؤون الطبية ، وألقى هذا به الى مدير مصالحة الكحول ومن ثم الى المهندس .

كان الحاكم في هذه الاثناء يقف وسط السيدات وهو يحمل تحت ابطه كلباً ، ويبيده الاخرى كبساً من الحلوى . فما كاد يرى بافل ايفانوفتش حتى رمى بالحيوان والكبس اوضاً . والخلاصة ان تششيكوف استقبل بفرح وغبطة ، فلم يكن وجهه إلا وشع بالسرور والرضى ، حتى ليقال إنها السماعة التي سرحت على وجوه الموظفين بعد وصول رئيسهم ، فأفرخ روعهم بعدان وجدوا الرئيس في وضع سار ، حتى انه ألقى ببعض الكلمات اللطيفة استقبلها الموظفون الذين

سمعوها بالضحك ، واما الذين لم يسمعوها فانهم ضحكوا ايضاً مع الآخرين .
ويبدو بعداً عنهم شرطي ، لم يضحك في حياته قط . قد شاعت الابتناء في
وجهه وكأنها يجبس نفسه عن قهقهة .

اجاب بطنا ببشاشة على الجميع ، وحيا من البين ومن اليسار ، ففتن الجميع
واحاطت به السيدات وكأنهن حديقة من الزهور والعطور ، واخذت تنشيكوف .
ينشق من هذا العير بتلذذ . وكانت زينة النساء في تنافس ، فالشرائط والزهور
تداخلت في بعضها بتشويش طبيعي لتزين اثوابهن .

واما قوامهن فكان يبدو شيقاً . ولنقل بالمناسبة ، ان نساء مدينة (ن)
يلن الى البدانة ، ولكنهن يعرفن كيف يستعملن الحزام بفن ودراية تتوارى
معهما السنة . وكن الى جانب ذاك يفكرن في كل شيء . ويتذكرن التفاصيل
وكانت الصدور والاكتاف عارية ، ولكن ، دون ان يندى لها الجبين . ذلك
انهن يسفرن مفاتهن الى حد لو تجاوزنه قليلا ، اذن ، لتسبين حتما بضباع
لب رجل . وكن يسترن بذوق رفيع ، فهناك شريطة تعرف باسم « قبلة »
وتغطي العنق وما تحت الاثواب ، وكانت تبدو هناك زخارف من الحرير المشين .
تدعى باسم « تواضع » . ولا شك في ان هذا « التواضع » يخفي ما لا يمكن باي
شكل ان يسبب ضياع رجل ، ولكنه كان يخلق جواً من الغبوض يبعث على
الاغراء . وكانت القفازات ترتفع حتى الكرق وتترك اجمل قسم من الذراع
عارياً . وبالفعل ان اكثر اذرعة النساء بضعة مقتولة بشكل يحسدن عليه . وقد
حاولت بعض السيدات ان يرفعن القفاز اكثر من ذلك بقليل ، ولكن النتيجة
انتهت بتمزيق هذا القفاز . والحلاصة ان كل شيء كان يهتف : « لسا في الريف .
... هذا العاصمة ، هنا باويس نفسها » . وبالتأكيد كان بإمكان المرأة ان يرى
هنا وهناك قبعة صغيرة او ربطة طويلة تتعارض مع الزي ، ولكن البس من
مميزات مدينة ريفية ان تنكشف بشكل ما النخبة المزمنة .

كان تشيتشكوف يتساءل وهو ينظر الى هذه السيدات : « من كتب لي هذه الرسالة ؟ » ولكن موجة من الاكام والمرافق والأشرطة والقصاصات المعطرة كانت تمر امام ناظريه بسرعة . كان هناك زوجة مدير البريد ، وزوجة الكابتن مفوض الشرطة ، والسيدة ذات الريشة الزرقاء ، والاخرى ذات الريشة البيضاء ، والامير تشيبشيلبسف الجيورجي ، وموظف من بطرسبرج ، وفرنسي يدعى كوكو ، وبير شونوفسكي ، وبير بندوفسكي ، كان كل هؤلاء يرقصون القالس .

وفكر بافل ابغانوفتش وهو يتراجع : « هوذا الريف ينطلق » . وما كادت السيدات تعود الى الجلوس ، حتى اخذ يتأمل فيهن واحدة فواحدة علمه يكتشف صاحبه من تعبيرات وجهها . ولكنه لم يستطع اكتشاف شيء ، ذلك ان وجوه السيدات كانت تبدو مغلقة لا يمكن فهم ما تعبر عنه ، فقال تشيتشكوف : « اية نفسية هي نفسية النساء ، وبداعليه القنوط ، اذ انه لن يتمكن من تفسير ما يرى على وجوههن ... ان المرأة وحدها مملكة يتبعها الرجل ، ولا شيء يمكنه من انقاذه منها فيما لو استسلم . انه لمن المحال ان يحدد حال هذه النظرات : دافئة ، عذبة ، نعبة ، منتشبة ... جذابة ... مثيرة ... تبهت على الجنون ... المرأة ؟ ! ولكنها الضف الجليل من الجنس البشري وكفى !

وعذراً من القارئ ! ان بطلي قد تلفظ بكلمة تخدش أذواق النساء المترفات . ولكن ما العمل ؟ ان الشعراء الروس مرغون احياناً على استعمال اللغة الشعبية ولكن القراء وحدهم هم المسؤولون عن هذا ، وخصوصاً قراء الطبقات العالية . انه لمن المستحيل ان يسع الانسان لفظة روسية منقاة ، فالجميع يعبرون عن افكارهم بشكل مدهش بالفرنسية والألمانية والانكليزية ؛ فهم يكلمون بهذه اللغات جيداً ويتلفظون بها بصورة أحسن . فيلفظون الفرنسية من أنوفهم ويؤلفون كالصغور بالانكليزية ، وطنينهم لا يظهر الا في بيوتهم الريفية .

هؤلاء هم قراء الطبقة العليا وكل من يريد ان ينتمي الى هذه الطبقة . وهذا ما يدعونه : « يجب ان تكون اللغة الروسية معقولة وصافية ، ولكن لاحق لها في ان تستلم اي جهد » .

لم ينجح تشتشيكوف في اكتشاف « المجهولة » التي كان دائماً على البحث عنها . وقد امكن في النظر فلاحظ ان نظرات جميع السيدات ترمي الى إشارة شعور هو خليط من الامل والالم . فاستلم أخيراً للبأس وحدث نفسه : « لافائدة من البحث فلن أنعرف عليها » . ومع ذلك فقد بقي مزاجه صافياً ، فكان يتبادل الكلمات اللطيفة مع الفاتنات ماراً أمامهن بخطى صغيرة كما يفعل الكهول الرشيقون ، دافعاً بتحية نحو البين وبانحناء نحو اليسار . وكان بافل ايفانوفتش يتقدم فيضع قدمه ثم يرفعها وأخيراً يعيدها الى مكانها فوق الارض راسماً بذلك فوق بلاط الغرفة أشكالاً هندسية متنوعة اما السيدات فقد كن مسرورات لانهن وجدن فيه الى جانب الظرف والفتنة ، تلك الطلعة المهيبة الجريئة التي تسمو الجنس الجميل . ولم يمض وقت قليل حتى بدأ بالانفاس من أجله ، وقد لاحظ بعضهن انه من الواجب الوقوف امام الابواب ، فأمرعن الى احتلال المقاعد الخالية في تلك المناطق للاقترب منه . ووقعت مشادة بين سيدتين ، وكادت تكون العاقبة وخيبة في النتيجة ، وقد وصفت السيدات اللواتي نجعن بالجلوس قرب بافل ايفانوفتش بالوفاقة .

وانشغل تشتشيكوف بالحديث مع السيدات اللواتي عرفن كيف يحطن به ويثرون اهتمامه بالاحاديث الجذابة التي لم يستطع ان يفقه منها حرفاً ، حتى انه نسي ان يقدم فروض الاحترام لربة المنزل . وقد تذكر ذلك عندما سمع صوت زوجة الحاكم وكانت تقف الى جانبه ، فقالت له بنبرة يمتزج فيها اللوم بالعذوبة : - آه يا بافل ايفانوفتش ... انه لمن المستحيل ان يصل المرء اليك .

ولن استطيع ان انتقل بالنص كلمات زوجة الحاكم فقد كانت من النوع المصقول الذي برع في وصفه كتابنا الحديثون الذين يفهمون تماماً اللغة المنتقاة

واساليب حديث الطبقة العالية . واستدار بطلنا نحو ربة الدعوة وكاد يجيبهم ا
بمبارة من فصيلة عبارات زنوفسكي ولبتسكي ولبدن وغريبن وغيرهم من
العسكريين اللقيين . ولكن ما إن رفع عينيه حتى أصيب بالذهول والبهرة ؛ ذلك
ان زوجة الحاكم لم تكن وحيدة . بل كانت تمسك بيد فتاة في السادسة عشر
من عمرها ، شغراء فاتنة ، مع انسجام في القسما ، ووجه لطيف بديع من
النوع لا يصادف الا على ندرة في روسيا حيث يمتاز كل شيء بالفضامة ، سواء
أكلت ذلك امرأة ام مدينة ، ام جبلاً وغابات ام وجوه وشغراء وأقدام .
وكانت هي بنفسها تلك العتاة التي صادفها وهو في الطريق عندما غادر نوزدريف
واصطدمت عربته بعربتها بشكل أضنى فصلهما العم مينيا وميناي . وبلغ من
ارتباك تششيكوف انه لم يستطع ان يجد لفظة ذكية ، ولم يعد بين عباراته
وعبارات غريبن وزنوفسكي ولبدن اي وجه للمشابهة .

قالت زوجة الحاكم :

— انك لا تعرف ابنتي بعد ، والسبب في ذلك انه لم يمض كبير وقت على
مغادرتها المدينة .

واجاب تششيكوف بانه يدين لصدقة سعيدة باهرة بالتعرف الى ابنة الحاكم
واراد ان يضيف بضع كلمات اخرى ، ولكن الالهام لم ينجده . فقالت زوجة
الحاكم عبارة اخرى ثم غادونه برفقة ابنتها الى (شقة) اخرى . واما بافل
ايفانوفتش فقد ظل برهة طويلة دون حراك كرجل خرج للنزهة ثم تذكر انه
نسي شيئاً هاماً ، ففقد لامبالاته واخذ يجهد نفسه ليشكر ما ينقصه ، فمضيه
معه ، وكذلك تفورده ، ولكنه يسمع مع ذلك هاتفاً مجذبه بانه نسي شيئاً ما ،
فينظر بذهول الى الجموع المتماوجة امامه ، وتختلط امام ناظريه العربات والمارة
وبنادق الجنود الذاهبين .

وفجأة أصبح تششيكوف غريباً عن كل ما يحيط به ، ولكن اليبات لم

ينقطعن عن إرهابه بالاسئلة المخرجة :

« اتسمع لنا ، نحن سكان الارض ، ان نتجراً على سؤالك عن موضوع احلامك ؟ » او « ابن تكون هذه البقاع المباركة التي تسكن اليها افكارك ؟ » او « ما اسم تلك التي تثير فيك جميع هذه الاحلام المورقة ؟ »

وقد تلقى بافل ايفانوفتش هذه الاسئلة بعدم اكتراث ، بل انه غادر هؤلاء السيدات دون استئذان ليجد ربة المنزل وابنتها . غير ان السيدات العنيدات لم يثنان الاستسلام ، فقررن استعمال احط الاساليب للفوز بتشتشيكوف . ان نقطة الضعف في بعض النساء ، ولا اقول في جميع النساء ، انهن عندما يكتشفن موضع جمال في انفسهن ، في الجبهة مثلاً او الشفتين او البدن ، يخجلن حين ان هذه الفتنة تبهر جميع الانظار ، وان كل من يراهن من الرجال يقول في نفسه : « ما ابداع هذا الانف الاغريقي الاسم » او « يا لهذه الجبهة الجميلة الناصعة » ، وأما من تكون ذات كاهلين جميلين فانه يخجل اليها انها تسع سلفاً آهات الشباب المدججين وهمسهم : « ما اروع هذين الكتفين ! » . وهي نظن ايضاً أن هؤلاء الرجال لن ينظروا الى الشعر والانف والجبهة والوجه . بذلك كان السيدات يفكرن ، ولذلك فان كل من اتى الى هذه الحفلة منهن قد صمم على اظهار مفاثنه اثناء الرقص .

كانت زوجة مدير البريد تحب رأسها بتراخ وهي ترقص الفالس ، حتى انها لتشبه بالفعل مخلوقة سماوية . وكان يوجد سيدة لم تحضر للرقص لان قدمها اليسنى تعاني تورماً قالت عنه بالفرنسية إنه في حجم حبة العدس .. ولكنها لم تستطع ان تقاوم الاغراء ، فرقصت قليلاً حتى لا تظن زوجة مدير البريد نفسها ملكة الحفلة . ولم يتم تشتشيكوف بكل هذا ولم ينتبه للحلقات التي ضربت حوله ، فكان يقف على رؤوس اصابعه ليحظى بمشاهدة الشقراء الفاتنة . وشاهدها اخيراً جالسة قرب امها التي عرفها من عمامتها الشرقية المزينة بريشة تهز بعظمة وخيلاء . فأسرع اليها وكأنه يريد ان يشن هجوماً عليها ... ترى أكانت الرغبة هي

السبب في اندفاعه ام ان اندفاعه هذا تسبب عن تراحم جموع الراقصين خلفه ؟ في الحق انه ما من احد يدري ... ولكنه كان يسرع في مشيته وهو يرتطم بالجميع . وتلقى مزارع منه ضربة كاد يقع معها على الارض ، ولكنه تماسك لحسن الحظ بصعوبة ، ذلك ان سقوطه سيجر معه سقوط صف كامل من الراقصين . وتراجع مدير البريد بدهشة مزوجة بالتهكم وهو يشاهد باقل يفانوفتش ، ولكن بطلنا لم ير احداً لان نظاره كانت معلقة بالشقراء الجميلة اللابسة قفازها بشكل ينم عن رغبة بالرقص عارمة . وكان يوجد بالقرب منها اربعة ازواج من الراقصين يرقصون المازوركا ، وكان ضابط من سلاح المشاة يحرك قدميه وذراعيه وجسده متخذاً من الاوضاع ما لا يمكن تصوره حتى في الاحلام . ومر تشتشيكوف بجانب الراقصين حتى وصل الى قرب زوجة الحاكم وابنتها ، ولكنه جبن فجأة وظهر الارتباك في حركاته .

لبس في مقدورنا ان نقرر ان بطلنا قد أحب ، إذ انه من المشكوك فيه ان يكون امثاله من الرجال المتراوحين بين النحول والبدانة ، قادرين على الاحساس بشعور كهذا . ومع ذلك فقد احس بانفعال مبهم عصبي التفسير يضيق عليه الحناق . وقد بدا له ، كما اعترف فيما بعد ، ان الخفلة الراقصة غابت عن ناظره ، وان القيثارات والابواق تعزف في البعيد خلف الهضبة ، وان كل شيء قد تلفع بضباب يشبه الضباب الذي يحيم على الحقول .

وفي اعماق هذا القرار الغامض كانت قسما الفتاة الجميلة تسفر عن وجه جميل مبيض . وقوام رفيف ورشي ، وثوب ابيض يضم اعضاء جسمها الفض بجنان ما بعده حنان ، لقد كانت ابنة الحاكم وحدها تبدو وحدها بيضاء شفافة وسط هذا الجمع الغامض .

هكذا يتحول كل شيء في هذه الدنيا ويصبح امثال تشتشيكوف شعراء ، ولو كان ذلك لساعات قصيرة في حياتهم . وربما كان هناك ثمة مبالغة في اطلاق

لفظة شاعر ، ولكن بافل ايفانوفتش ظن نفسه شاباً بل فارساً . وشاهد قرب السيدتين مقعداً شاغراً فاقتعده ، كان الحديث في مبدأ الامر صعباً ، ولكن بطلنا سرعان ما شعر بالاتياع فازداد جرأة .

وهنا يتوجب علينا ، بله الاسف ، القول إن الرجال الوقورين الذين يحتلون المناصب الرفيعة لا يعرفون كيف يكونون خفيفي الظل في احاديثهم مع السيدات ، فالسادة الضباط ابرع منهم في ذلك ... ولكن هؤلاء ماذا يفعلون ؟ انهم لا يقولون اشياء غريبة او عظيمة ، ولكن الفتاة التي يتحدثون معها لانتي عن الضحك . واما الوزراء فان الله وحده يعرف ماذا يرون : هم يقولون بأن الروسيا بلاد واسعة ، ثم يتفوهون بمديح مأخوذ من احدى القصص ، وبعد ذلك يغامرون بمزاح يضحكهم اكثر مما يضحك مستمعهم . اقول هذا لوضح السبب الذي ادى بالشقاء الى التثاؤب ، ولكن بطلنا لم يلاحظ شيئاً من هذا ، فراح يكبل للفتاة عبارات ، احفظها عن ظهر قلب ، من الثناء كان قد قروها بنفسه كثيراً من المرات في ظروف اخرى مماثلة : في سيبير يسكي عند سوفون ايفانوفتش بيزيتشين أمام ابنته وزوجات اولاده الثلاث ماريا واميليا والكسندراجافر يلوفا ، وعند فيدور فيدوروفتش بيريكون ، وفي ربا زنسك ، وعند فرول فاسيلفتش بوييدونسي في باتزا ، وعند اخيه بيوتر فاسيلفتش امام شقيقة زوجته كاترينا ميخايلوفا وابنتي اخيه روزا فيودورفنا واميليا فيودورفنا ، وفي فياتنسكا عند بيوتر فارستوفتش امام شقيقة زوجة ابنة بيلاجيا ايجوروفنا وابنة اخيه صوفياروسنسلافنا وابنتي عمه صوفيا الكسندروفنا وماكلا نورا الكسندروفنا .

وسخطت السيدات لسلوك بافل ايفانوفتش . فمرت احدهن بالقرب منه ليلحظ امتعاضها ، ومرت طرف ثوبها الطويل فوق قدم الشابة الشقاء ، ولزتها بطرف منديلها ، وفي نفس اللحظة ألقت سيدة اخرى بعض العبارات الحبيثة الجارحة . ولم يسمع بافل ايفانوفتش اي شيء من هذا ، بل الاخرى

ان نقول انه لم يظهر عليه ما يدل على انه سمع . وكان هذا خطأ منه ، إذ يتوجب عليه ان يقيم وزناً كبيراً لرأي السيدات ، ولقد ندم على موقفه هذا فيما بعد ، ولكن بعد ان سبق السيف العذل ، اي عندما لم يعد يتقدوره إصلاح ما افسد . وارتسم الغضب على الوجوه ! لقد كان تششيكوف يستع بالتقدير للابينة ، ولظاهرة النبيل . ولكن ، كانت هناك امور لا تغفرها النساء ، والرجل خامر بعدها بلا مراء . ان المرأة اضعف من الرجل واقل منه ثباتاً ، ولكنها تبدو في بره معينة قوية تسيطر على الظروف . ان اللامبالاة التي اظهرها تششيكوف قد اعادت الوحدة الى السيدات ، تلك الوحدة التي تهددت عند الهجوم على المقاعد . ثم اخذت هؤلاء السيدات بايجاد المعاني السيئة لبعض العبارات البريئة التي تلفظ صاحبنا بها . وما زاد الطين بلة ، ان شاباً نظم قصيدة ساخرة حول الراقصين والراقصات ، الامر الذي يحدث دوماً في الحفلات الراقصة في الريف . فنسبت على الفور الي بافل ايفانوفتش ، وبدأ الخلق يتزايد فأخذت جميع السيدات تحكم على بطلنا بقسوة ، واما ابنة الحاكم فانها عولت بقسوة اشد . كانت مفاجئة بغيضة جداً تنتظر بطلنا ... إذ بينما كانت الشفراء الجليظة تتناوب وبينما كان تششيكوف يروي لها قصصاً من ابطالها الفيلسوف ديوجينوس نفسه ، ظهر نوزدوف في قاعة الرقص . ترى هل كان قادماً من البوفيه ام انه جاء من الصالة الخضراء حيث كان فيها اكبر المقامرين ، ثم ، هل خرج منها باختياره ام انه غادرها مطروداً ؟ وما الفرق ... فقد كان مرحاً يمك بيد المدعي العام منذ أمد طويل بلا أدنى ريب ، ذلك ان هذا الاخير المكين كان يقطب حاجبيه ويحاول بشكل ظاهر ان يتخلص من نوزدوف الذي كان يتناول كوبين كبيرين من الشاي المزوج بمقدار من الروم جعل طلاقته لا تكاد تنضب . وما إن رآه تششيكوف حتى قرر مفاداة القاعة لانه لم يكن يتوجس خيراً من هذه المقاتلة . ولكن ، سوء الحظ ، تقدم الحاكم بنفسه ليعلم ابنهاجه برؤية صديقه العزيز بافل ايفانوفتش ، وطلب منه ان يكون حكماً في مناقشة جرت

مع سيدتين عن وقار النساء في الحب . ولكن نوزدويف كان قد رأى بدوره
بافل ايفانوفتش قمى مباشرة نحوه . ثم صاح من بعيد بضحكة ارتعش لها خداه
الطربان المتوردان :

- آه ... سيد خرسوك ... ملاك خرسوك ... ايه ... لقد اشتريت
كثيراً من الاصوات ...

ثم صاح متوجهاً بجديته نحو الحاكم :

- ولكن سعادتك لانعلم بانه يتاجر بالارواح الميتة ... اسمع ، اني في الحق
يا نشتشيكوف اقول لك هذا بكل مودة لاننا صديقان ، أليس كذلك ؟ اقول
لك امام سعادته باني كنت اشفقك لو استطعت الى ذلك سييلا ... اجل ... اني
في الحقيقة اشفقك .

وود بافل ايفانوفتش من امحافه لو ان الارض ابتلعت .

- انك لن تصدقني ، يا صاحب السعادة ... ولكنه عندما قال لي : بعني
ارواحاً ميتة انفجرت من الضحك ، ولما جث هنا قيل لي انه اشترى بثلاثة
ملايين روبل فلاحين لينقلهم الى بقعة من الارض ... ولكنه طلب مني ان
ايعه امواتاً . اسمع ، يا نشتشيكوف ... انك وحش ... وحش حقيقي ...
واني اردد هذا امام صاحب السعادة .. أليس كذلك ؟ يا سيدي المدعي العام ؟
ولكن المدعي العام ونشتشيكوف والحاكم كانوا مرتبكين فلم يجدوا
جواباً . وتابع نوزدويف مستفيداً من الارتباك العام التحيم على الجميع :

- ايه .. وانت ، يا اخي .. لن اتركك قبل ان تقول لي لماذا تشتري نفوساً
ميتة ؟ انصت لي ، يا نشتشيكوف .. يجب ان نخجل في الحق من نفسك .. وانك
لتعلم باني من اخلص اصدقائك .. وها هو ذا صاحب السعادة حاضر وكذلك
المدعي العام .. انك لا تستطيع يا صاحب السعادة ان تتصور الى اي حد يعبد
أجدنا الآخر .. اني اتصور لو انك سائلتي قائلاً : نوزدويف ، قل لي بصدق
من نحب اكثر : انا ام نشتشيكوف ؟ لأجبتك بصدق وبدون تردد :

« تششيكوف » . انتظر يا صديقي العزيز لسوف اقبلك ، اتسمح لي يا صاحب السعادة بتقبيله؟ .. هيا يا تششيكوف لا تمنع ، واسمح ان لي اطبع على خدك الناصع كالتج قبله صغيرة .

ولكن تششيكوف دفعه عنه بعنف كاد معه ان يقع على قفاه ، فابتعد الجميع ولم يعد يصغي اليه احد .
ومع ذلك فان ما أدلى به حول النفوس الميتة قد سمع بوضوح في انحاء القاعة وانهر له جميع المدعوين .

بدا ان الخبر غريباً فبقي الجميع مبهوتين يتساءلون بأنظارهم .
ولاحظ بافل ايفانوفتش ان عدة سيدات قد اخذن بتبادل ابتسامات تنطق بالحبث . وكانت بعض الوجوه تعبر عن الحيرة العميقة التي تتأب النفوس .
وكان الجميع الى جانب ذلك يعرفون عن نوزدوف افكه ووقاحته . وما من احد يدعش اذا سمع منه اغرب القصص . ولكن طبع الانسان غريب حقاً ، ذلك ان الخبر مهما كان مصدره فانه يأخذ طريقه في المجتمع حتى ولو كانت الغاية من سريانه هي السماح لبعض المثرثين ان يقولوا : « اسمعوا هذه الكذبة المنتشرة » .
ولبعضهم الآخر ان يجيب بعد ان يستمع اليه بسرور بالغ : « اجل انها كذوبة فذرة لا تستحق اي اهتمام » . ومع ذلك فانهم يسارعون الى روايتها في كل مكان . ويهتف الجميع : « يا لها من اكذوبة خيئة » وهكذا تسمع المدينة برمتها تلك القصة التي لا تستحق اي اهتمام .

واثر هذا الحادث ، التافه في ظاهره ، كثيراً في بطننا ، بما يدل على ان كلمات الاحق يمكنها في بعض الاحايين ازعاج رجل زكي ، فقد شعر بالارتباك فجأة كرجل لمع حذاه ثم اتسخ بالوحل حالا . حاول ان يفكر في شيء واراد ان يسلي نفسه بلعبة الورست ولكنه لم ينجح في اللعب ، وارتكب اخطاء فاضحة وكان رئيس المحكمة يعرف عن بافل ايفانوفتش انه لاعب قدير ، ولذا لم يستطع ان يفهم سبب هذه الاخطاء . سخر مدير البريد والرئيس ومدير البوليس من

تششيكوف وادعوا انه عاشق ؛ بل صرحوا أنهم يعرفون الشخص المجرم الذي جرح قلبه . ولكن شيئاً ما لم يستطع ان يعزي بطلنا رغم محاولته الضعيف والمزاح . فظل على ارتبائه اثناء العشاء رغم ان الحاضرين بدوا لطفاء دمتين ، ورغم ان السيدات طردن نوزدوف منذ امد طويل بعد ان احقن سلوكه ، ذلك انه جلس على الارض اثناء الرقص وجذب مرافقته من ثوبها ، وهذا لا مثيل له في الرفاقة كما قلن .

كان العشاء مرحاً جداً ، فقد جلس المدعون حول شمعدانات بثلاثة اذرع ، وزهور ، وحلويات ، وزجاجات ، وقد ظهر الفرح على وجوههم . وكانت الضباط والسيدات والرجال يتنافسون في الظرف . وكان الرجال يغادرون مقاعدهم وينتزعون الصحف من ايدي الخدم ليقدموها بأنفسهم الى السيدات . وقدم عقيد الى جارته صحناً طفق بالحساء على رأس سيفه . اما الرجال الناضجون الذين جلس بينهم تششيكوف فقد كانوا يتناقشون ويصبحون وهم يهتمون كميات هائلة من السك واللحم . وكانوا يعالجون مواضيع كان من الممكن ان تثير اهتمام تششيكوف في وقت آخر . ولكن بافل ابغانوفش ظل صامتاً كأنه مسافر انهكه التعب ، غير قادر على الاشتراك في حديث هام لان جميع افكاره قد غادرته ، ولم ينتظر نهاية العشاء فعاد الى غرفته في ساعة مبكرة . كانت نفسه قلقة عندما رجع الى غرفته كهذا المقعد الذي يجلس عليه . وكان القلق يستولي عليه ، واما فكره فكان يسبح في الفراغ ويردد غاضباً : « ليذهب بكم الشيطان بعيداً ، يا من ابتدتم الحفلات الراقصة ! ، ثم . . . ولماذا هذا المرح ؟ ان الموسم ردىء والاسعار مرتفعة ، وبالرغم من ذلك فان الجميع يذهبون الى تلك الحفلات الراقصة . . . والسيدات . . . انهن يرتدين الملابس الثمينة ، وهذه واحدة منهن قد ارتدت ثوباً يكلف آلاف الروبلات التي يدفعها الفلاحون . . . ان ضمير الانسان لشيء عجيب . . . ترى لم كل هذا

الفساد وتلك الاكاذيب؟ .. بلى ! ان كل هذا يحدث كي يشتري الرجل لزوجته شيئاً او اقمشة جميلة .. اجل ! كل هذا يحدث لتلا تقول امرأة ان زوجة مدير البريد ترتدي ثوباً اجمل من ثوبها . ويهتف الجميع : الى الرقص .. الى الرقص .. الى المرح .

ان الحفلات الراقصة لمي عار اي عار ، وفضيحة اي فضيحة . هي ليست روسية ولا نلائم مزاج الروسيين والروح الروسية . ومن المضحك حقاً ان تشاهد رجلاً ناضجاً متشججاً بالأسود الرسمي ، يقفز فجأة برشاقة الشيطان ، ثم يلوح بساقيه كالاطفال ، او ان تشاهد آخر يناقش اموراً هامة وهو يقفز كالوعل الصغير ويميل من السبع ومن اليسار . حقاً ان هذا التقليد على طريقة القروء . اما اذا كان الفرنسيون يظنون اطفالاً حتى سن الاربعين ، فهل يتوجب علينا ، نحن الروس ، ان نكون على شاكتهم . اني لا أشعر بعد كل حفلة راقصة باثي قد ارتكبت حماقة امتمعض جداً لمجرد تذكرها . ما من شيء يعلق في الذهن .. اني اذا تحدثت مع احد رجال المجتمعات فانه يتكلم في جميع المواضيع ويجتر ما قرأه في الكتاب ببلاغة وطلاوة لانظير لهما ، ولكن ليس ثمة شيء ينم عن شخصية هذا الرجل . واتحدث بعد ذلك الى بائع لا يعرف غير عمله فقايد منه اكثر مما افدت من جميع احاديث المجتمعات ... ثم ماذا افيد من الحفلات الراقصة ؟ ... لو شاء كاتب ان يصف ما يجري فيها لمكست صفحاته نفس الفراغ .. وماذا تكون النتيجة ، أخلاقية أم لا أخلاقية ؟ لا اعلم ! ولكن الكتاب عندئذ لا يصلح الا للقفز به جانباً . بهذا كان يفكر تشتشيكوف بعد عودته من تلك الحفلة ، ولكن غضبه كان له في الواقع سبب آخر . ان الحفلة لم تغضبه بجد ذاتها بقدر ما اغضبه الفشل الذي مني به والدور المضحك الذي مثله فيها . وكان عندما يحاكم الامور بهدوء يرى ان جميع ما حدث لا تحشى عقاب طالما ان صفقة النفوس المينة قد تمت . ولكن الانسان عجيب حقاً ، فتشتشيكوف لا يطبق ان يسيء به الظن اولئك الذين يحتقرهم ولا يقيم لهم وزناً . فهو وإن كان يأخذ عليهم تقاهتهم وفحاشتهم

الفارغة فقد كان ما يشيره انه اعتبر نفسه مسؤولاً عما يحدث في تلك الليلة . ومع ذلك فانه لم يحكم بقسوة على نفسه ، وهو على حق في هذا ، إذ اننا جميعاً نشترك في نقطة ضعف شاملة ألا وهي التساهل مع انفسنا في اخطائنا وإلقاء التبعة على الآخرين ، على الخادم ، او الموظف ، او الزوجة ، او الكرسي الذي نرى انه من المناسب ان يتحطم على احد الابواب . كان على تششيكوف اذن ان ينفث غضبه ، فصب على نوزدويف وابلاً من الشتائم لم يسمع بمثلاً اي حوذي من ضابط او جنرال مهما كان ماهراً في الابداع ، كما انه لم ينبج شخص واحد من عائلة نوزدويف من شتائم بطلنا .

كان بافل ايفانوفتش جالساً على مقعده يشتم نوزدويف مهتاجاً ، يتناوبه النعاس والافكار السود ؛ بينما كانت الشمعة تحترق مهددة بالانطفاء السريع ، وكان الليل قد اقترب من هزيعه الاخير ، فصمت من بعيد بعض الديكة تصبح ، واما في المدينة الفارقة برفادها فقد كان بعض المارة يجتازون الطرقات الوعرة التي يعرفها السكIRON الروس معرفة جيدة . ومع ذلك فقد كان حادث يتهاى هناك في الطرف الآخر من المدينة من شأنه ان يزيد في حراجة موقف بطلنا .

كانت عربية غريبة تسير بضجة في شوارع وأزقة المدينة الصغيرة المفقرة ، ولم تكن هذه العربية لنشابه عربية او عجلة او زحافة ، ولكنها نشبه جذع شجرة وكب فوق العجلات .

كان بابا هذه العربية لا يفلقان جيداً بسبب خلل في القفل وقبضة الباب . ولم يكن البابان لبشبا في مكانهما لولا أنهما ربطا بالحبال . كانت العربية مليئة بالوسائد والاعطية والاكياس والحبز وجميع انواع المعجنات . وكان على درجة العربية خادم يرتدي معطفاً وطنياً تكسو وجهه لحية وطنية مهمة خالطها المشيب ... وكان هذا الخادم من النوع الذي يدعى دائماً « يا صغيري » . وأيقظت ضجة العربية مع صرير البابين حارساً ليلياً رفع رأسه وصاح وهو يغالب النعاس :

« من هذا ؟ » ولما لم يبصر احداً وسمع صوت عجلات العربية بعيداً مديده الى ياقه معطفه فالتقط حشرة ثم اقترب من النور وسحقها على إظفره والقي سلاحه، ومن ثم عاد الى النوم حسب قواعد الفئة التي ينسب اليها .

ولم تعد الحيوانات تقوى على جر العربية والسير بها لعدم اعتيادها على طرقات المدينة المدهشة التعبيد . فدارت في عدة طرقات ثم دخلت اخيراً في زقاق مظلم ومرت امام كنيسة القديس نيقولا ووقفت قرب باب مسكن الكاهن . وهبطت من العربية فتاة الفت بشال وامسكت بيديها باب العربية بقوة كقوة الرجل وكان الحادم نائماً اذ ذاك الحين .

وعوت الكلاب وفتح الباب فدلقت العربية الغربية الى باحة ضيقة مليئة بالأخشاب واللال وبيوت الدجاج . وخرجت السيدة من العربية وكانت هي بذاتها كوروبنشا الملاك . ان هذه العجوز قد قلقت بعد ذهاب بطلنا ، فضت ثلاث ليال لاتعرف للنوم طعمها ، واخيراً قررت السفر الى المدينة لتعلم اذا كان تشنشيكوف قد خدعها ام لا . كانت تريد ان تعرف الثمن الحقيقي للنفس المبينة لانها كانت تخشى ان تكون قد باعنها بثلت الثمن الحقيقي .

وسوف يعرف القارئ نتائج وصول كوروبنشا الى المدينة من حديث بين سيدتين . وسنروي هذا الحديث في الفصل القادم .

الفصل التاسع

في ذلك الصباح ، وفي وقت مبكر جداً عن اوقات الزيارات العادية ، خرجت امرأة من منزل خشبي بلون البرتقال ، له نافذة صغيرة اقيمت فوق أعمدة زرقاء . كانت هذه المرأة تلبس ثوباً أنيقاً مخططاً بالتريعات ، يرافقتها خادم على رأسه قبعة مستديرة ، ويلبس رداء ذا ثنيات عديدة مطرزة بشرايط الذهب . صعدت هذه المرأة الى عربتها بسرعة واغلق الخادم بابها وفك (فرامل) السير وصاح بالسائق : « سر ! » . وفي نفس اللحظة كانت المرأة تحاول ان تستعيد القصة التي سرت لتعرفها عليها كي تحفظها . ولم تنقطع عن النظر من خلال زجاج الباب لتتأكد ، وهي غاضبة ، بأنها مازالت في منتصف الطريق . كان كل منزل يبدو لها أطول مما كان ، والمستشفى بنوافذه الصغيرة العديدة يبدو وكأنه لا نهاية له . وهتفت هذه المرأة بعد ان فقدت صبرها : « يا اللبنة الملعون ، انه يأبى الاختفاء ! » أما الخوذي فقد تلقى هذا الأمر مرتين : « بسرعة أكثر ، بسرعة أكثر بالاندريوشكا . انك لم تنتهي اليوم ! » وفي النهاية وصلت بطلتنا .

توقفت العرببة امام منزل رمادي مؤلف من طابق واحد عليه نقوش بيضاء نائنة تحت نوافذه ؛ ونهضت بالقرب منها (شعرية) من الحشب عالية ، ويبدو على بعد قليل حائط مؤلف أوتاد قد ابيضت لكثرة ماتراكم عليها من الغبار . وفوق النوافذ صفت أواني للازهار ، وبيغاء تتأرجح

داخل قفصها وقد خطم منقارها داخل حلقة ، وكلبان نائمان تحت اشعة الشمس .
وفي هذا البيت كانت تقطن صديقة وفيه « لسيدتنا » .

ان الكاتب ليهم كثيراً باعطاء اسم لهانين المرأتين يرضى عنه الجميع .
ويرى انه من الخطأ ابداع اسم مرادف ، لذلك فهو يجد دائماً احدهم لحل هذا
الاسم في اي زاوية من زوايا مدينة ضخمة . وهذا في الحق ما يثير الغضب
والسخط ، ذلك ان الكاتب متهم دوماً بالتجسس ، وبافشاء اقل سر في حياته
وبالحديث عن الصحف التي يجربها والملابس التي عليه ، وعماهين له زوجته كي
يصلح لطبقته ، وبذلك تصبح الطبقة الاجتماعية اكثر خطراً .

لقد اصبحت طبقتنا الاجتماعية اكثر اهمية في عصرنا ، ذلك انه ينطبع كل
شيء بطابعها ويبدو انه خطأ شخصي بحث ، مداره الهواء الذي يسري . ويكفي
ان يقال ان احمق يقطن المدينة كي يصبح رجل من الخارج مقراً : « وانا ايضاً
اقطن هذه المدينة ، واذن ، فأنا سخي ! »

وكي اتجنب الضجر ايضاً ، سأدعو المرأة التي كانت موضع الزيارة : « بالمرأة
المحبة من جميع وجهات النظر » . هكذا كانت تدعوها مدينة (ن) يومتها في
جميع الامكنة . ان هذه المرأة قد نالت هذا الاسم بصورة شرعية ، ولكنها
كانت دوماً تعمل لصالحها لتكون ابدأً محبوبة كثيراً ، محبوبة من ذلك الحب
الذي يخفي غالباً : نخزات الدبايس وخطوطاً رهيفة انثى . ولا يجب علينا ان
نقول بأن الخطر قد اسرع بذلك التي تجرأت على منازعته المكان الاول ! ولكن
ذلك بأجمعه قد اصبحت معروفاً بأنه محتفي خارج الوجود . في حركات هذه المرأة
كثير من الظرف ، وهي تحب الحشرات ، وتعرف كيف تأخذ نفسها بالأمور وهي
تخفي رأسها ببطء . والجميع موافقون على دعوتها : « بالمرأة المحبة من جميع وجهات
النظر » .

اما الصديقة التي جاءت لزيارتها ، فانها ليست كثيرة الغنى بمزاياها ؛ فلندعها
نحن ايضاً : « بالمرأة المحبة بكل بساطة » . ان قدوم تلك المرأة قد ايقظ

الكليين الصغيرين اللذين ينامان معرضين للشمس: أدبل بشعره الطويل، وبوبوري بخطاه السريعة. وقد أسرع كل منهما في الدهليز رافعاً ذيله الى حيث خلصتها المرأة من لجاميهما. وكانت هي في داخل ثوب ذي لون عصري، وعلى عنقها اطوق طويل؛ اما جو العرفة فكان مفعماً بعبير طيب الياسمين.

وما إن عرفت المرأة المحببة من جميع وجهاً النظر بفدوم المرأة المحببة بكل بساطة، حتى هبطت سريعاً لتقذف بنفسها بين ذراعي صديقتها. وتعاقت المرأتان وأخذتا بتصعيد الحنايات الداخلية الحديثة العهد. وأما القبلات فكانت اشد ضجيجاً من الكليين اللذين اخذاً بالنباح من جديد، مما سبب لهما ضربة بالمنديل. ثم ان الصديقتين ذهبتا الى الصالة الزرقاء حيث وجدتا منضدة أهليلجية وحواجز مزينة بالبلابل. وجاء علي اثرهما الكليان، أدبل بشعره الطويل وبوبوري بخطواته المسرعة.

هتفت سيدة المنزل وهي تدعو صديقتها الى الجلوس فوق الاريسة:

– هنا، ها، في هذه الزاوية الصغيرة؛ اجل هكذا... وهذا المسند.

وكانت وهي تقول ذلك، تضع المسند الذي طرز عليه رسم ضابط مدرج الالف مربع الشفاء.

– لكم انا سعيدة لانك.. لقد سمعت ضجة العربية فآلت نفسي: من يأتي في

مثل هذا الوقت المبكر؟ وقالت لي باوشاً: «ولكنها امرأة نائب الحاكم!». فأجبتها: أ جاءت هذه الحفقاء لترعجني... سوف لن استقبلها.

وعندما حاولت المرأة ابلاغ صديقتها النبأ العظيم الذي جاءت من اجله خرجت صرخة من المرأة المحببة من جميع وجهاً النظر، أعطت انجهاً مخالفاً للحديث تمام المخالفة.

– الهندية الحسنة. هتفت بهذه العبارة وهي تنظر الى رداء المرأة البسيطة

المحببة.

– اجل جميل الى حد كبير! وقد قالت لي يواسكو فيا فيدورو فنتا بأنها تحب

ان تشاهد التربيعات اصغر قليلاً ... وان تكون التنقيطات زرقاً لا كستنائية ... ولقد عدت الى إرسال قماش جميل جداً لاختي ... فيه من الجلال مالا يعبر عنه بالكلام ! ... فني مواجهتي قليلاً .. خطوط صغيرة ... دقيقة ، دقيقة ... ادق من ان يستحضره الخيال الانساني ... وفي الاسفل لون سماوي وبين الخطوط عيون واذرع ثم عيون واذرع من جديد ! ... انه نسيج وحده ! نستطيع ان نقطع في الحقيقة بأنه لا يوجد ما هو اجمل منه في الدنيا .
- ولكنك يا صديقتي العزيزة جداً لقد زينت كثيراً .

- ابدأ

- اوه ! أؤكد لك ...

يجب ان نعلم بأن المرأة المحببة من جميع وجهات النظر كانت مادية قليلاً ، وكثيرة الاهتمام بالمشاكسة والشك ، وترفض ان تصدق ما يؤمن به الناس . فبعد ان برهنت لها بأنها لا تزين لها الكلام في الثوب ابدأ ، هفت المرأة المحببة بكل بساطة :

- آه نهائي ... لا يوجد فيه خل ابدأ !

- كيف ؟

- اجل ... والغالب في الاكليل الزهر !

- ولكن الاكليل ليست جميلة !

- الاكليل .. كل شيء اقل جمالاً من الاكليل .. زوار بالاكليل ،

وأكليل على الاكمام ، والاكتاف ، وفي الاسفل ، وفي كل مكان .

- اكليل في كل مكان ، ان ذلك ليس بشيء جميل يا صوفي ايفانوفنا .

- سري يا أنا غريغورينا ، ولكنه لطيف طريف ! لفتتان ... فتحات

عريضة ... وهذا ما يدهشك اكثر أيضاً ! ... هذا الذي سيجعلك تهتفين اعجاباً

... أتعلمين ان الحصر يصبح اكثر طولاً ... (فالتنورة) مشاة على شكل

حلال قديم .. وتوضع ايضاً وسائد صغيرة محشاة ، وهكذا تصبح المرأة جميلة جداً .

- هذا ، واعترف لك بأنه كثير ...

- انا من رأيتك تماماً !

- اقم لك بأني لم ارتدي هذه الاثواب مطلقاً .

- ولا انا ... ثم انه لا يمكننا ان نعرف الى اي حد سينتج الطراز !...

وهذا يستدعي اي شيء !... لقد طلبت من اخي طرازاً صميمة للضحك ...
ولقد بدأت ميلاني بالحياطة ...

فصاحت المرأة المحببة من جميع وجهاً النظر وهي لا تستطيع أن تخفي
حاضرها عليها من اضطراب :

- آه ! هناك طرز في حوزتك اذن ؟

- اجل ، ولقد جلبتها لي شقيقي .

- اعطينها ... أيا وروحي الصغيرة ... استحلقت بأقدس القديسين .

- آه ! ولكنني وعدت بـ ابراسكوفيا فيدوروفنا ... فاذا اخذتها انت

فانك ستلين هذا الطراز بعدها .

- ولكن من يقتني ثوباً بعد ابراسكوفيا فيدوروفنا ؟ إنه لغريب من جهتك

ان تؤثري الاغراب .

- ولكنها عمي .

- عمك ... من جانب زوجك ! ... لا يا صوفيا اي فانوفنا ، لا اريد ان

اسمع شيئاً ... انها اهانة فظيعة منك !... اني ارى بأن صداقتي التي لها وزنها
عندك تريد ان تحط بها !...

ولم تعد تعرف المسكينة صوفيا اي فانوفنا ما تفعل ؛ فقد أدركت الطريق

الخاطئ الذي ورطت نفسها بسلوكه ... لذلك فهي تود لو تقطع لسانها !

وسألت المرأة المحببة من جميع وجهاً النظر بقوة :

- وهذا الولد الجميل ؟

- آه ! ايها المولى القدير ! انا التي أظن هنا ... ان هذا لعجيب ! ولكنني

قد جئت لك لأجله . لقد أخطأت المرأة المحببة بكل بساطة بأضاعه نفسها تحت
مد الكلمات التي تورطت فيها عندما بكرت بقول كل شيء !

- انك تستطيعين ان ترتلي مدائح ذلك الرجل ، وان ترتقي به الى السحاب ؛
ولكني اقول لك بأنه قدر ، قدر ، قدر !
- لتسمعي اذن ما سأقصه عليك .

- لقد عدوه رجلاً عظيم الجمال !... أهو رجل جميل ؟ ... ان له انقاً ...
انقاً متقلباً قوياً !

- ولكن اسمعي لي ان اقص عليك ... يا آنا كريكوريفنا ، يا وروحي
الصغيرة ، اسمعي ان اقول لك ... انها قصة ، انقهييني ... قصة ... ما يسمى بقصة .
وتلفظت صوفيا ايفانوفنا هذه الكلمات بالفرنسية بلهجة حزينة متوسلة .

وليس من الصعب ان نلاحظ ان المرأتين قد خلطنا مجادلتها بكثير من
التعابير الاجنبية وبعبارات فرنسية طويلة ايضاً . وبما ان الكاتب مليء اعجاباً
بالفرنسية التي استدعت لانقاذ شقيقتها الروسية ، ومليء باجلال اعضاء المجتمع
الراقي ، هذا المجتمع الذي يتكلم افراده في جميع الساعات اليومية بالفرنسية حباً
بوطنهم ، فان الكاتب قد فضل ان يستعمل عبارة اجنبية واحدة فحسب ، في
تلك القصيدة الروسية . واذن فلنتابع بالروسية .
.. ولكن اي قصة .

- آه ، يا عزيزتي ! لو انك تصورين في اي طريق وجدت نفسي هذا الصباح ،
لقد جاءت زوجة الاب سيريل ... وماذا تظنين ؟ ان رجلنا هادى جداً ،
اقصد مسافرنا ... من هو ؟

- ماذا ! اقام بدور زوجة الاب سيريل .

- دور ! ... ليس هذا بشيء ، يا آنا كريكوريفنا ، اسمعي مقالته
لي !... ان الملاكه كوروبتشكا قد جاءت اليها ، خائفة مصفاة الوجه كالملوث ...
وسردت ... سردت ... لا ولكن اسمعي ... قصة حقيقية !... لقد فعل

ذلك بقسوة ، في ليلة مظلمة بعدما نام الجميع عندها طرق الباب طرقة خفيفة
ثم خرجت صرخات تقول : « افتحي ، افتحي ... او يكسر الباب !... »
ماذا تقولين ؟ وماذا تظنين في هذا السيد الجميل ؟

- وهذه الكوروبتشكا ؟ ... أمي صغيرة ، جميلة ؟

- انها امرأة عجوز .

- لطيف ! .. فهو يركض اذن خلف العجائز !... اني افنى سيداتنا ،

لقد عرفن من بعثتن .

- ولكن ، لا يا آنا كريكوريفنا ، انك لست كذلك ! انظري اليه

لقد اصبح جندياً من قمة رأسه الى اخمص قدميه ... من جنس رينالدو وريالديني ...

ومنسق : « بيعيني جميع ما تملكين من النفوس الميتة ! » فاجابته كوروبتشكا

متفكرة : « لا استطيع بيعها لانها ميتة » - لا انها ليست ميتة ... وهذا

يمكنني من معرفة ما اذا كانت ميتة ام لا ! » . ثم صرخ : « انها ليست ميتة ...

ليست ميتة ، ليست ميتة ! » وقصارى القول انه اثار فضيحة . فتراكض جميع

اهل القرية ، وبكى الاطفال ، ولم يفهم اي شخص شيئاً ما ... فساد الهول

والاضطراب بكل بساطة !... ولكنك لاتستطيعين ان تتصورني هلمي وانا

اسمع هذا الحديث . وقد قال لي ماشكالي : « سيدتي العزيزة ، انظري انك

مصفرة » . ولم يكن في نظري اي حزن ... فقلت : سأسرع وكضاً الى آنا

كريكوريفنا . وهكذا اسرعت ... وقد سألتني الحوذي : ابن الذهاب ؟ فلم

اعرف بماذا اجيب ، واخذت انظر اليه وكأنه مجنون ... وقد ظن حتماً اني

فقدت حواشي ! آه !... اليس لديك اية فكرة عن اضطرابي ورجفاني ؟

فهتفت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر :

- ان هذا نسيج وحده ! ثم ماذا تعني تلك النفوس الميتة ! اصارحك بانني

لم افهم شيئاً ، وتلك هي المرة الثانية التي اسمع فيها عن تلك النفوس الميتة . وقد

اكده لي زوجي ان نوزدويف قد كذب !... ولكن هناك بعض الحق

الى جانبه حتماً .

- ولكن راقبي سلوكي وانا اسمع هذه القصة . ثم ان كوروبنشكا قالت :
« وانا الان لادري ما افعل ، انه يضيق علي كي أمهر له ورقة غير صحيحة ،
وقد اعطاني خمسة عشر روبلاً ثمناً لكل رأس .. واني امرأة متوملة تنقصها
التجارب والدعامات ! ، اجل هذا ماجرى ! رباه ، لكم يفلأني هذا !
- على وسلك ، كما تشاؤن .. ولكن هذه النفوس الميتة تخفي وراءها
شيئاً ما .

- اجل ، اني اعترف لك بهذا . قالت المرأة المحببة بكل بساطة .
ولكي تعرف الى اي حد ولكن سيحتفظ هذا الحديث بسريره سألت :
ولكن باذا تفكرين ؟
- وانت ؟

- انا ... سأضيع كلية .
- اريد ان اعرف تماماً جميع اقتراحاتك .
ولم تجد المرأة المحببة بكل بساطة لديها ما تقوله . ولذا تأثرت بسهولة .
ولكنها وجدت نفسها لاتصلح لتأليف اقل فكرة ، لقد كانت دون هذه
المقدرة ، وهي تحتاج اكثر من غيرها الى النصائح والصدقات .
قالت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر :
- اذن استمعني الي ، ان النفوس الميتة ...
- وصديقتي ، كلها عيون وآذان ، وهي بالرغم من انها ثقيلة نوعاً ما ، فقد
بدت أخف ، حتى انها لتشبه ريش الطائر تقذف به اقل نفخة . او هي تشبه
صياداً روسياً عندما يصيب الحيوان بالرغم من العاصفة التي تبيض عينه وشاربيه
وحاجبيه بأغشية رقيقة من الجليد .

قالت المرأة المحببة من جميع وجهات النظر :
- ان النفوس الميتة ...

فهمت صديقتها :

- حسناً ؟ ماذا ؟

- ان النفوس المينة ...
- قولي ... بحق السماء !
- انها تخفي .. الحقيقة .. وهي .. ان تشيكوف يريد ان يخطف ابنة الحاكم .
- كانت هذه الحادثة غير متوقعة بالاضافة الى انها جنونية من جميع وجهاً النظر . وبدا أن المرأة المحببة بكل بساطة قد تحجرت ، فشعب وجهها ، وارتعدت من الخوف واضحت بيضاء كالاموات .
- يا الهي !.. ليس في مقدوري ان أظن !
- اعترف لك بأنه منذ ان تكلمت .. تنبأت بكل شيء !
- يا لسلامة النية ! لكم ارتفع ضغطها .
- سلامة النية ! لقد سمعتها .. انها قالت اشياء لا اكاد اجد الجرأة الكافية في نفسي لأقولها .
- يا آنا كريكويفيا . . ان القلب لينزق حسرة عندما تفكر في جميع هذه الاخلاقيات .
- ان جميع الرجال مجنونون بها .. واعترف لك بانني لم افهم بعدما ذاك تلك هذه الشابة .
- انها متصنعة ، وهذا لا يطاق .
- انها تشبه الرخام .. وليس في وجهها اي حيوية .
- انها متصنعة . . متصنعة .. متصنعة ! ولا اعلم من استقت كل هذا التصنع .
- وهي الى جانب ذلك بيضاء كالنخال ، كاللوتى .
- لا باصوفيا ايفانوفنا ، لا تقولي ذلك . . انها تضع الحرة . . . بوقاحة ما بعدها وقاحة .

- ولكن لا .. يا آنا كريكوريفنا .. انها بيضاء ، بيضاء كقطعة الحوار .
- ولكني باعزيتي قد جلست بقربها في احد الابام .. فشاهدت الحرة التي
نضعها .. انها في ثغانة الاصبع .. تنساقط منها كقطع الجص الدقيقة .. وكل ذلك
ذلك من تربية امها .. ان البنت تصبح ايضاً اكثر اعتناء بهندامها من الأم !
- اسمحي لي .. اني على استعداد للمخاطرة ، لاي مخاطرة ، اني على استعداد
لتضييع اطفالي ، وزوجي ، وارزائي .

فهمت المرأة المحبة من جميع وجهات النظر وهي تضرب كفاً بكف :
- ماذا تقولين اذن ، يا صوفيا ايفانوفنا ؟

فاجابت المرأة المحبة بكل بساطة وهي تضرب يديها ايضاً :

- انك لغريبة ، يا آنا كريكوريفنا .. اني انظر اليك و... انت تدهشيني .
مثل هذه المحادثة مجدها القاري . طيبة جداً بين صديقتنا اذا كان الموضوع
التقاء انسانيتين في نفس اللحظة . وان كثيراً من الاشياء لتبدو بيضاء صافية لتلك
السيدة التي ظهرت بلون القرمز امام صديقتها .
وتابعت المرأة المحبة بكل بساطة :

- ان البرهان باهت جداً ... انذكر .. باني جنست قرية من مانيلوف
وقلت له : انظر اليها ، كم هي صفراء !

- يجب على ازواجنا ان يكونوا بليدين كي يغمى عليهم امامها ، وفيما يخص
وچلنا الجميل ... انك لا تستطيعين التصور ، يا آنا كريكوريفنا ...
لكم يلذ لي .

- ان الكثيرات يتعلقن به .

- طبعاً لست من هؤلاء .. يا آنا كريكوريفنا .. انك لا تستطيعين
ان تقولي ذلك .

- اني لا اتكلم عنك .. فأنت لست الوحيدة في الميدان .

- ابدأ ، ابدأ ، يا آنا كريكوريفنا ! اسمعي لي ان ألقت نظرك الى اني
لا اعرف تماماً .. هناك اخريات كثيرات بعيدات المنال .
- اسمعي لي ، يا صوفيا ايفانوفنا .. اني لا اقوم بمثل هذا الفنج ابدأ ..
لعل الآخريات يفعلن ذلك ، اما انا فلا !

- ولم الغضب ؟ .. ان النساء الآخريات يكن في المرقص .. اولئك اللواتي
كن ينسارن نحو الابواب مثلاً لاحتلال المقاعد .

وهذا الكلام الاخير الذي ادلت به المرأة المحببة بكل بساطة ، كانت من
شأنه ان يحرك العاصفة .. ولكن الصديقتين سكتنا . وتذكرت المرأة المحببة
من جميع وجهاً النظر بانها لم تنل بعد بغيتها من طراز الثوب التي طمعت فيه ،
في حين ان المرأة المحببة بكل بساطة كانت تنوق الى تفصيلات اخرى حول
موضوع اختطاف ابنة الحاكم . ولذا فان العاصفة التي هبت سريعاً واستفعلت
ما عنت ان خبت وهمدت . اما في المواقف الاخرى فان هاتين السيدتين
كانتا عاجزتين تماماً عن التعرض للسوء والتصرف الوقح . ولكن ، في المجادلة ،
كانت كل واحدة منها لا تقوى على مقاومة لذة القذع والقدح : « فقد كانتا
تقولان مثلاً لبعضهما : اليك . التقطي .. خذي وابتلعي والحق ان لقلوب
النساء والرجال حاجات كثيرة .

قالت المرأة المحببة بكل بساطة :

- لم استطع بعد ان اهتم ، كيف ان تششيكوف ، هذا المخافر البسيط ،
يتجرأ على مثل هذه الضربة ! ثم أليس له شركاء ؟
- آوه ! أنتنطيعين افتراض ذلك ؟
- ولكن من يعينه ؟
- اعتقدي ان نوزدوف ! ..
- نوزدوف ! .. حقاً ! ..

- انه لجدير بذلك ... لقد اراد ان يبيع أباه ... انه اللعب بالورق .
- يا آلهي ! ... يا لها من احاديث جديدة هامة ترفينها الي ... اني لم افترض
قط ان نوزدويف يمكن ان يختلط في هذه القصة .
- ان هذه الفكرة قد جاءتني بصورة طبيعية .
- الا يجب ان تكون في العالم ؟ .. انظري ، اتمكن من الاعتقاد
بكل هذا عندما يصل تشتشيكوف ... آه ! لكم ارتجفت ، يا آنا كريكوريفنا !
... فاذا لم احظ بصدافتك ! ولطفك ... فاني تائهة . وقد راقبت ماشكا
اصفراري ، فقالت : ولكنك بيضاء كالاموات - انها تصرف احسن من
هذا يا آلهي ... ونوزدويف ايضاً ... اني اكاد اجن !
وارادت المرأة المحببة بكل بساطة ان تعرف حقائق اعمق عن الحوادث ساعة
وقوعه ، مكان وقوعه ، ولكنها اشتطت في مجنها ، فاعلنت المرأة المحببة من جميع وجها
النظر انها نجعل كل شيء . فهي لا تعرف الكذب ولا تسع - وهذا غريب
جداً - ان تستبدل عقيدة تعتقها بأي ثمن .
اما الاختطاف الذي لم يكن بالنسبة الى الصديقتين باديء الامر الا مجرد
فرضية ، فانه سرعان ما اصبح حقيقة . وقد سار الرجال الاذكاء ، كما يقولون
عن انفسهم ، بنفس هذا الاتجاه . ويمكن الاعتراف حتى بهذا بالنسبة لاعمق دروس
علمائنا . وكان يبدأ هؤلاء ، بكل لطف ، بالاسئلة البقية وهم في تمام هدوئهم :
« أليس السبب الاصيل هكذا ؟ واسم هذه البلاد أليست من هذه الرقعة من
العالم ؟ وثم ، هذه الحجج الا تدل على عهود اخرى سحيقة في القدم ؟ واخيراً
هذا الاسم الدال على شعب بالذات ، ألم يكن اسماً لأمة اخرى ؟ » واخذوا
بتعداد اسماء الكتاب القدماء لعلهم يجدون بينهم بادوة تؤيد فرضيتهم ، وقد تجرأوا
الان فنكسوا عن الكتاب الراحلين ، ينقبون بينهم ويجيبون عنهم ، ناسين للباقة التي
كانت مبدأ فرضيتهم الاولى . لقد ظهر كل شيء لهم واضحاً كما قالوا : « لقد
ثبت الامر ، هذا هو اسم الشعب الذي نرغب ، وهكذا يجب ان تحل

المائل !» سقطت هذه الكلمات من على المنبر ، ودوخت تلك الحقيقة الجديدة العالم ، وقهرت كثيراً من المتعصبين والمتحمسين الامناء .

وبينما كانت الصديقتان مشغولتين بحل تلك المسألة الصعبة اللاذعة ، دخل الوكيل غرفة الاستقبال . وفي الحال ، وضعته المرأتان في معرض الفكرة الجديدة ، وأعلمته بقصة النفوس الميتة . فأخذ يغمض عينه اليسرى وينظف لحيته الملوثة بالتبغ ببنديله ، ولكنه لم يفهم حرفاً مما تحدثت به المرأتان . فتركناه وخرجنا للتجوال في أنحاء المدينة الصغيرة . لقد تم لها ما ارادته ، ولنا بحاجة لأكثر من نصف ساعة حتى يحتاج الشعب ويشور ، ولكن مامن لإنسان اكثرت للقصة . انهما ستقهران العالم اجمع ، وعلى الخصوص هؤلاء الموظفين الذين يحبون متبليدين وقد بدت حالهن كتلميذ حلم اتساءل نومه ان رفاقه قد غرقوا في البحر جندياً ، او كورقة تنطير في الفضاء وقد ملئت تبغاً . وقد شعر هذا التلميذ في نومه بكل ما يخالجه نفس الفريق ، فما إن استيقظ حتى اخذ يقفز حول نفسه ، ولا يشعر الا بريح زهرير باردة ، فأجبر نفسه على فهم ما يجري حوله . ثم شاهد بعد ذلك أشعة الشمس تتراقص على الجدران ، وسمع قهقهات رفاقه المحبطين في الزوايا ؛ كما شاهد من خلال نافذته الفجر حالت انبثاقه ، والغابة تستيقظ على حذاء العصفير ، والجدول السليل وقد ملئ بالساجين . ثم لاحظ أخيراً ان الجندي الفريق بمنعه من النفس ! تلك هي الحالة الاولى التي كان يعانيها السكان والموظفون في مدينة (ن) ... بادى الامر . ولكنهم يشبهون ايضاً حالة الخراف وهي تثب دون أن تعلم ماذا تريد أن تفعل . النفوس الميتة ، هذه الفكرة العجيبة قد اختلطت بآبنة الحاكم حتى لم يعد التمييز بينهما سهلاً . لقد هذا بعد ان تملكهم الحيرة وأغلقت مجرى تفكيرهم فأخذوا يعدون للامر عدته حاقدين لانهم لم يروا اي شرح عقلي لكل هذا . اي شيء هذه النفوس الميتة ؛ اي شيء هي ؟! ... اي منطق تحمله تلك النفوس الميتة ؟! ... وكيف يمكن شراء نفوس ميتة ، بل أية حماقة هذه ؟ واي ثمن باهظ يدفع ، ولاي شيء

تصلح تلك النفوس؟ ... وابنة الحاكم ، ماذا ستفعل إزاء هذا الحادث الغريب؟ وهو ، إن كان يريد شراء نفوس ميتة فلماذا يحاول خطف ابنة الحاكم ؟ أيريد أن يقدم لها هذه النفوس كهدية ؟ وهذه المدينة ، أية سخافة تجري فيها؟ واخيراً ، ما سبب هذه النفوس الميتة؟ ... انه لا سبب لها ! ... ان هذا شيء بسيط ... سورينت اينها الحقاء ... ليأخذك الشيطان !

انظروا هوذا المدينة بقضها وقضيضها تثرثر بهذه النفوس الميتة وابنة الحاكم وتشتبكوف ، وهكذا... وهكذا ابدأ ... تمر العواصف بهذه المدينة الصغيرة الراقدة دوماً ... ولقد خرج الرجال العاقلون من أفضاصهم . والآن ، هاهي الاحلام تدور حول هذه المخلوقات التي قضت حياتها داخل أثواب النوم ، الصارخات في وجه صانعي الاحذية والخدم والسكران والحياطين الذين يتأخرون دوماً عن مواعيدهم . وهكذا ايضاً تدور الاحلام حول هؤلاء الذين قضوا صلاتهم مع العالم ، فلا يعاشرون الا الزغاليشين والبوليجافيين والسويكوفيين والترابوفينتسكيين . ويشاهد اخيراً ، من جديد ، هؤلاء الناس الذين حاربهم الروسيا يجمع قواها ، لا يتمكنون ان يخرجوا من انفسهم . لقد ظهرت مدينة (ن) فجأة ، مدينة كبيرة تغص بالشبان ، حتى اكأنها مدينة واسعة الارضاء . وشوهد سبوحوا بافتو تيفتش ، وماكدونالد كارلوفيتش الذي لا يعرفه انسان ، وهو مجهول اجتاز الصالونات ، مجروح في ذراعه ، ذو قامه طويلة . وامتلاّت الشوارع بالعربات والمسافرين الغراء الذي والمحافل للعجيبة الشكل . ولكن كل هذا الضجيج كان لا يجذب انتباه اي انسان في مناسبة اخرى او بزهة ثانية . الا ان مدينة (ن) كانت منذ زمن طويل وكأنها قطعت عن العالم ، حتى ظهر في هذه المدينة منذ ثلاثة شهور وبدون حدوث أية ضجة ، جماعة ثرثارون لا بد من وجوههم في مدينة احوج ما تحتاج اليه هو الاحياء . وانقسمت المدينة قسمين ، وتنازعها رأيان : الاول يؤلفه جماعة الرجال ، والثاني يؤلفه النساء . فأما القسم الاول ، وهو الاكثر حماسة ، فانه لم يكثر

الا بالنفوس الميتة . واما القسم الثاني ، فانه لم يهتم الا باختطاف ابنة الحاكم . ويجب ان نعترف هنا بان النساء قد ظهرت بمظهر النظام والاحترار ، وهؤلاء يعرفن بطبيعة الحال ، كيف كيف تكون ربات البيوت ، وكيف يمكن ترتيب المنازل وتنظيمها . كان كل شيء بالنسبة لهن واضحاً وثباتاً كلنا وضع في رواية محكمة العقدة مترابطة الحيوط . ويجب هنا ان نعرف بان تششيكوف كان مغرمًا منذ مدة طويلة . وقد شوهد مع ابنة الحاكم في حديقة تحت اشعة القمر ، ولكن الحاكم كان بلا ريب يريد ان يزوج ابنته من نوي كبير ، يهودي مثلاً . ولكن . . . ولكن تششيكوف كان قد طلق امرأته (ولم يعلم احد انه كان متزوجاً) . وقد كتبت امرأته هذه رسالة مؤثرة الى الحاكم فقرر تششيكوف ان يختطف الفتاة قبل ان يعلم بذلك احد .

ان التاريخ ليروي هذه الاشياء محرفة . ان تششيكوف لم يكن متزوجاً ، ولكنه من الرجال الذين لا يصلحون لشيء . وكانت تربطه علاقات مع امرأة الحاكم ثم طلب بعد ذلك يد ابنتها . ولم ترد الام ان توقع جرمه ، فرفضته رفضاً قاطعاً تحت وخز ضميرها . ولذا صمم تششيكوف على عملية الخطف . لقد روى بعضهم هذه الحادثة على هذا الشكل ، الا ان البعض الآخر رواها بشكل مخالف . وعلى اية حال فان هذه الحادثة قد اذيعت في احياء المدينة بالطول والعرض . ان العامة تريد دوماً ان تتغذى بغذاء الخاصة . ولقد كان الحديث عن تششيكوف يدور في بيوت لم يشاهد فيها قط . ولكن ، كما هو الحال دوماً عند اشاعة الاخبار ، فقد اضيفت الى الحادثة زيادات وتعليقات وتحشبات ، فازداد انتشار الخبر ساعة بعد ساعة حتى وصل الى اذن امرأة الحاكم . وبما انها ربة امرة عظيمة ، وبشار اليها بالبنان في المدينة ، فقد اغتاظت كثيراً . واشمازت من العمل . ولم يقتصر الخبر على الام فحسب ، بل تعدى ذلك الى ابنتها المسكينة التي لم تكن باحسن حال من والدتها . وقد لاقى هذا الخبر ، بطبيعة الحال ، سيلاً من الاسئلة والتهديدات والنصائح وغير ذلك

ما يروج عند انتشار الشائعات . ولم تفهم الفتاة المسكينة اي شيء من هذا لانها كانت غريقة دموعها .

وبعد انتهاء كل شيء ، اوضحت النساء بصف الرجال بعد ان افحصوهن بصحة نظرهم . ولكن النفوس الميتة ليست الا مجرد اشاعة وألمية لابعاد كل شبهة عن تحقيق الحطف . وقد رضى بعض الرجال لهذا الرأي وانضموا الى فئة النساء رغم التنبيهات العديدة والتحذيرات الكثيرة من بقية الرجال الذين وصروهم بالتخنت لانضمامهم لفئة النساء .

ولكن فئة الرجال لم تحظ بالنظام والاتقان الذي تحلت به الفئة المتقابلة ، بالرغم من المساعي والجهود التي بذلوها . كان كل شيء عندهم مشعناً غليظاً قبيحاً ، تعوزه الادارة الحسنة . وبقيت افكارهم حائرة ، مرتبكة ، متناقضة . فأخذ الفراغ بخناقهم لطبيعتهم العاجزة عن كل تنظيم ، وكل معرفة بالهدف ، وامتلأوا بالخوف والشك . ولذا استنتجوا أن هذه الاشاعة إن هي الا اضحوكا ومهزلة ، وان اختطاف ابنة الحاكم انما هو من شأن رجل عسكري ، ليس من العامة . فتشتبكوف لن يستطيع القيام بامر من هذا النوع . واخذ النساء يكذبن مرددات : هذه فئة من الفاجرات ، وتلك تشبه الدرافيل ، ثم اخذن ينقلن ما يسمعن مع الاضافة والتشويه . ولكن الشيء الهام الذي يجب تركيز الاهتمام عليه ، انما هو ثمن تلك النفوس الميتة . ولكن في اي مكان نخفي تلك النفوس ؟ .. ان الشيطان وحده يعلم بذلك ! .. يجب الحصول اذن على قصة اسوأ من هذا او اكثر اذية ! .. ترى لماذا يعتقد الرجال ان الاستمرار التخفية انما هي خاطئة ؟ والآن لقد قدم حاكم آخر ليحكم المقاطعة ؛ وهذا ما جعل الرعب يسيطر على قلوب الموظفين . ان هذه التولية الجديدة انما تعني ، في واقع الامر ، بحثاً وغجبات وتحقيقات ومحاسبات ومراجعات . ثم ان الرئيس الجديد لابد له من ان يستدعهم .

وقال الموظفون التعماء :

- واذا علم الحاكم الجديد بهذه الضجة المنتشرة في مدينتنا... ان ذلك سيكون بلا ريب سبباً في حياتنا او في موتنا جميعاً .

وسقط مدير الصحة مريضاً في فراشه ، ذلك انه اعتقد ان النفوس المينة تعني ، بكل بساطة ، جميع المرضى الذي ماتوا في المشافي بعد مرض معد ، دون ان يؤخذ لهذا المرض اي تدبير من قبل السلطات . وبالنسبة اليه ، كان تشنيكوف رسولاً من قبل الحاكم العام ليفتح تحقيقاً في هذا الموضوع . ولذلك فقد امرع مدير الصحة الى الحاكم ليخبره بخوافه وهو اجسه . وقد رد عليه الحاكم بان فكرته هذه لا يقوم عليها دليل ، ومن ثم عراه الاصفرار وسأله :

- أمانت نفوس تشنيكوف حقاً ؟ فهو يملك الثمن اذن ؟ ثم ما ادراك اذا لم يكن الحاكم العام الجريد قد قبض الثمن ؟ وركض الحاكم بدوره لبيت مخاوفه الى اصدقائه . فاصفر الجميع وشلبهم الخوف بسرعة اكثر من مرة انتشار الطاعون .

واخذ يتساءل جميع من في المدينة : اية غلظة هذه ؟ ان النفوس المينة لتأخذ معنى لم يفكر به احد من قبل . ولقد دفنت جميع هذه الاخبار عندما انتشر حديثان جديدان هزا المدينة هزاً عنيفاً . وكان اولهما بدور حول تجار من سولفيد تشيكود جاءوا الى مدينة (ن ...) اثناء السوق السنوية ، فدعوا الى وليمة غداء عند اصدقائهم الاوستيسولسكيين . وكان عصر اللوز والليمون واشياء اخرى كثيرة ، من حلويات هذه الوليمة . وقد انتهى الغداء حسب العادة بدعوة الى ألعاب المصاوعة . وقد تغلب السولفيد تشيكوديون على زملائهم تغلباً ميبساً . وكانت النتيجة ان تلقى احد المنتصرين ضربة من جمع يد قوية على انفه حطته وهدت كيانه .

وانتهى الامر بأن اعترف المنتصرون بمخطئهم وطلبوا الصفح على أساس انه ما جرى كان من قبيل المزاح فقط . وهكذا عم الضجيج في كل مكان عندما ترك المنتصرون اخصامهم واعطوهم بعض القطع النقدية . لقد ظل كل شيء غريباً وانتهى الامر على ان الاوستيسولسكيين قد هزموا شر هزيمة .

واما الحادثة الثانية فقد جرت قبل ذلك . كان فلاحوا قرية فيشيفا بايسيس قد تعاقدوا مع الموجيك وهم في منطقة بوروفكا - زاديريلوفا على استبدال الشرطي بانسان آخر يدعى دروباجكين لينوب عنه . وقد زار هذا الشرطي اولي نعمته زيارة ودية ، كان داعيا ان رجل الامن هذا ، كان قد يكشف عن مر رجل حقير ينصب الاشراك للنساء والفتيات . ولم يستطع احد ان يكتم التحقير الذي يستحقه هذا الرجل الشرير ، ولكن الموجيك اكدوا ان الشرطي قد اظهر عدوه بمظهر المر رغم تبينهم له على ذلك اكثر من مرة . وقد وقع الشرطي يوماً في احد الاشراك ، وهذا ما يستحق . ولكنه لم يهذر الموجيك على عدم انقاذهم له ، وهكذا وجد المسكين ميتاً على الطريق وقد تمزقت ثيابه ولم يعرف احد لون وجهه شكله . ففتح القاضي تحقيقاً واسعاً ، ولكن الجرم ما زال مجهولاً . وبما ان الموجيك كانوا حاضرين باجمعهم ؛ فقد كانوا بحاجة الى رأى جازم نهائي ! وهكذا قالوا اجمعهم : ان الشرطي هو وحده الجرم ، لانه لم ينقطع عن ايزال للمظالم بالناس الآمنين ، وقد مات في مكان ناه بالسكتة القلبية .

ان هذا العمل اشبه شيء بالخطوة المرسومة ، وقد اتخذ الموظفون الآن بالتساؤل : لماذا تكون النفوس الميتة من الرجال المقضي عليهم في مثل هذه المناسبات ؟ وقد جاء الى الحاكم من جديد دليلان في وقت واحد فذعر جميع الموظفين . قال الاول للحاكم : انه بحسب بعض التقارير تبين ان ضارب النقود الذي يصنع المناجل كان موجوداً في حكومته . وقد تجول داخل المدينة تحت اسماء مختلفة ، فأصدرت الاوامر حالا للبحث عنه . واما الدليل الثاني فقد نقل تقرير حاكم المقاطعة المجاورة بتوقيف من لا يحمل جواز سفره . وقد اخافت هذه الاشياء مدينة (ن) وذهبت جميع الفرضيات والحلول السابقة ادراج الرياح ، ولم يدري اي سؤال حول تشبكه كوف . وقد اخذ الجميع الآن يقولون ان الامر يتعلق بقاضي بافل ايفانوفتش . فهو قد ذكر بنفسه ، مرتبكا ، من ابن

جاء ، وقد قص آلامه الناجمة عن تتبعه الحقيقة بغموض ما بعده غموض . كما اعترف بالاعمال الشريرة التي حاكها له اعداؤه العديدون اثناء حياته السالفة . كما ذكر ان حياته في خطر ، وانه مراقب دوماً ! ولكن لماذا ؟

من هو تششيكوف ؟ انه لا يصنع المناجل ولا يشابه الاصوص ، فمن يكون اذن ؟ ان جميع الموظفين يضعون هذا السؤال منذ المقطع الاول من قصتي هذه ! يجب ان يستفهم هؤلاء الذين اشترى منهم النفوس المبته ، ترى ماذا يعني الشراء ؟ وماذا تعني النفوس ؟ ان بافل ايفانوفتش قد اعترف بقصده المكتوم فتحدث عن نفسه شخصياً مع كثير من الاشخاص المختلفين .

ذهب الموظفون بادى الامر الى كوروبتشكا ، ولكن المعلومات كانت معدومة تقريباً . فتشتشيكوف قد اشترى نفوساً واشترى ايضاً ريش طيور بخمسة عشر روبلاً وكان يشتري اشياء كثيرة بلاريب . انه يشبه رجلاً آخر يشتري ريش الطيور ، عرف كيف يجدها ، ويجدع زوجة السكاكين باكثر من مائة روبل . وقد رددت كوروبتشكا هذه الاحاديث عدة مرات فتتحقق لدى جميع الموظفين انها بلهاء . اما مانيلوف فقد اقسم انه يأخذ تششيكوف على مسؤوليته وانه ليضحى بجميع املاكه له ملك فقط جزءاً من مائه من مزايا بافل ايفانوفتش . والخلاصة ان تحدث مادحاً واذاف الى حديثه بعض تأملات عميقة عن الصداقة صحبها بغيزات وشيقة من عينه . وقد دلت هذه الاحاديث على رقة قلب مانيلوف ولكنها لم توضع للموظفين اي شيء يحل المسألة .

اما سوبا كيفتش فقد اكد ان تششيكوف رجل شريف وانه باعه احسن عبيده وكلهم احياء ولكنه لا يريد ان يقتبأ بالمستقبل ، فالفلاحون قد يموتون بعد السفر بسبب التعب وهو ليس مسؤولاً عن ذلك لان هذا تابع لارادة الله فالحيات والامراض القاتلة تملأ العالم وهناك قرى بكاملها قد ذهبت الاوبئة بها . فلجأ الموظفون عند ذلك الى طريقة يعوزها الشرف ولكنها يمكن ان تحقق لهم فائدة ، الا وهي استجواب خدمي تششيكوف بواسطة خدم المدينة . وقد

حالوها عن تفاصيل حياة سيدهم الماضية ولكنهم لم يفيدوا من ذلك شيئاً لانهم
 لم يفهموا من بتروشكا اي شيء . واما سيقان فقد قال ان تششيكوف قد
 شغل اول امره منصباً في الدولة ثم عمل بعض الوقت في الحمارك . ان لمثل هذه
 النوع من البشر طبيعة غريبة . فاذا ما أُلقيت عليهم سؤالاً صريحاً مباشراً ، لا
 يدكرون لك شيئاً ، ولا تكون لديهم اقل فكرة . وما إن تنتقل الى موضوع
 آخر حتى يتحدثون معك عن أشياء كثيرة مفصلة حتى تصبح راغباً باسكاتهم فقط .
 وهكذا أدت تحقيقات الموظفين الى زيادة تأكيدهم بانهم لا يعرفون اي شيء
 عن تششيكوف . ومع ذلك فان تششيكوف يجب ان يكون شخصاً ما ؛
 قد أتى من جهة معينة . فقرروا عقد اجتماع ليتدارسوا المسألة ويفحصوا التداوير
 التي يجب ان يتبعوها ؛ وان يبحثوا عما اذا كان بإمكانهم اعتقال بافل ايفانوفتش
 كمشبوه ، او عما اذا كان بإمكانه ان يلقي بهم في السجن باجمعهم . وقد تقرر ان
 يكون مكان الاجتماع منزل مدير البوليس الذي كان يعتبر كما نعرف أباً أو
 محسناً لمدينة (ن . .) .

الفصل العاشر

لاحظ الموظفون الذين اجتمعوا عند والد المدينة البار كم هزلت اجسادهم من الهم . فقد ارهقهم تعيين حاكم جديد للمدينة ، كما ارهقتهم الوثيقات والشائعات التي انتشرت في كل مكان ، الى اصبحت فيه وجوههم شاحبة ومعاطفهم اكثر عرضاً .

أما رئيس المحكمة فقد نخل ايضاً مثل صديقه مفتش الشؤون الصحية ، واما المدعي العام فقد اصبح مثل انسان يدعي سبميون ايفانوفتش لم يناده احد باسم امرته . وكان هذا يحمل في سبابته خاتماً تعرفه سيدات المدينة معرفة جيدة ، لقد نخل هذا الرجل ايضاً واصبحت سبابته بالتالي نخلة ... وبطبيعة الحال كان يوجد في المدينة بعض الشجعان الذين ظلوا محافظين على رباطة جأشهم ، ولكنهم كانوا جد قليلين ، وكان من بينهم مدير البريد الذي لم يتعكر مزاجه بل كان لا يني عن القول : « اني اعرفكم جيداً ايها الحكام العامون ، فزكم تبدلوا اماكن وظائفكم ثلاث او اربع مرات ، واما انا فما زلت هنا منذ ثلاثين عاماً ، وكان الآخرون يجيبون : « حسنا ايها العزيز ايفان اندريفتش ، انك

في مركز حسن ، لم تتلقى رسائل او ترسلها ، فانك تستطيع ان تغلق مكاتبك ساعة قبل انتهاء الدوام ، كما تستطيع ان تؤخر رسالة لتاجر ، او ترتكب خطيئة ، وهكذا فانت تبدو في مركزك دوماً قوياً ، ولكن ماذا تفعل لو كانت الى جانبك الشيطان بعينه ابدأ ؟ »

لكم هو مزعج حقاً قبول ما سبق ان رفضته ، او ارضاء هذا والابنسام لذلك .

بهذا كان الموظفون يفكرون فيما بينهم .. وبالطبع لا تكن مقاومة الشيطان وهكذا اجتمعوا عند مدير البوليس ، ولكن كان عند بعضهم ما نسبته العامة بالتفكير السليم . نحن الروس ، لم نخلق لاجتماعات من هذا النوع ، انك تستطيع ان تجد في اجتماعات العلماء واجتماعات الفلاحين رئيساً ، ولكن النتيجة ستكون الفوضى والبلبلة . واما السبب في ذلك فانه من الصعب معرفته ، إذ لنا نصلح للمآدب والحفلات والنوادي ، ولكن هذا لا يمنعنا من المبادأة إطلاقاً ، فكل ربح ندفعنا الى تأسيس جمعيات خيرية او غير ذلك ، يكون الهدف منها جيداً ، واما القوة التنفيذية فمعروفة . وفي بادئ الامر رضى عن انفسنا حتى ليخيل لنا ان العمل قد انتهى . فعندما تؤسس جمعية لاغاثة الفلاحين وندفع اشتراكات كبيرة فاننا اول ما نبدأ به هو الاحتفال بالامر ، ويكون ذلك باحياء حفلة ندعو اليها جميع شخصيات المدينة فننفق بهذا نصف ما جمعناه ، ثم نستأجر للدائرة شقة فخمة ، ونستأجر لهذه الشقة خدماً ، ثم .. ثم يكون الباقي خمسة روبلات ونصف الروبل فقط ، لتوزع على الفقراء ، ومع ذلك فما من احد مرف كيف توزع هذه الروبلات المسكينة ، فيبدي كل رأيه في الموضوع . اما اجتماع موظفي مدينة (ن.ن.) فقد كان من نوع آخر ، لم يكن الامر هنا متعلقاً بالفقراء او الاغراب . بل كان كل من هؤلاء السادة المجتمعين مهتماً بصورة شخصية ومباشرة بالقرار الذي سيتخذ . كان هناك اذن خطر

واحد يهدد الجميع ، ولذا يجب ان يكون الاتفاق تاماً . ومع ذلك فقد كانت الحالة سيئة ؛ فقد ان التوجيه التام يبدو واضحاً ، وكل ذلك بالاضافة الى الافكار المتناقضة التي كانت من طبيعة كل اجتماع او مؤتمر .

فقد قال احدهم مثلاً : « ان تششيكوف يزور المستندات » ، ثم لم يلبث ان اضاف : « ومع هذا فيمكن الا يكون الامر صحيحاً » . واكد آخران « باقل ايفانوفتش كان مبعوث الحاكم العام » ثم قال : « ولكن هذا لا يبدو على وجهه » وقد نفى الجميع اعتباره لصاً متخفياً . فطلعت النيدلة واسلوبه في الحديث لا يثبت عن رجل بمقدوره ان يقوم بجميع اعمال اللصوصية .

وفجأة هتف مدير البريد بمد ان غرق برهة في الصمت ، وبدا كأنه مدفوع بوحى مفاجئ :

— ايها السادة ، اتعرفون من هو تششيكوف ؟
وتلفظ بهذه الكلمات بنبرة هزت الجميع ؛ فهتفوا دفعة واحدة :
— من هو ؟

— ايها السادة ! انه الكابتن كوبيكين .
وعندما قالوا :

— ومن هو الكابتن كوبيكين ؟
اجاب مدير البريد :

— انتم لا تعرفون اذن من هو الكابتن كوبيكين ؟
فاعترفوا جميعهم بجهلهم ، ففتح مدير البريد علبة سعوطة قليلا كي لا يستطيع الاصابع ان تغوص فيها لانه لم يكن يؤمن بنظافتها ، ولذا كان يقول غالباً :
— ايها الاصدقاء اني لا اعرف اين تضعون اصابعكم غالباً ، ولكن الذي عرفه ان التبغ يجب ان يظل نظيفاً .
وقال ، وهو يرص اصابعه على التبغ :

— ان الكابتن كوبيكين يمكن ان يكون موضع قصة عظيمة .

— فأبدي الموظفون عند ذلك رغبتهم في التعرف على هذه القصة أو هذه القصيدة كما شاء مدير البريد ان يسبها .
وبدا صاحبنا حديثه :

قصة الكابتن كويكين

انه بعد حملة ١٨١٢ ياسيدي العزيز ، قال هذا بالرغم من ان المستمعين كانوا ستة اشخاص ، وجد الكابتن كويكين بين الجرحى . وكان رجلاً مجنوناً وشيطاناً مريداً عرف كيف يصلح لكل شيء ، وفقد في كراستوي وليزيغ ذراعاً ثم ساقاً . وفي ذلك العهد لم يكن هناك قدير خاص بالجرحى ومشوهي الحرب .

والخلاصة ان الكابتن كويكين وجد نفسه بحاجة ماسة الى العمل كي يقوم بأوده . ولكن لم يبق له الا البند اليسرى فذهب الى ابيه الذي قال له : وليس لدي ما اعيلك به ، والذي عندي لا يكاد يكفي ، فقرر الكابتن عند ذلك ان يذهب الى بطرسبرج ليحصل على مساعدة منها ، لانه دفع للوطن الشيء الكثير من دمه وحياته . وهكذا وصل بحقيبته الى العاصمة . تصوروا الكابتن كويكين وقد وجد نفسه فجأة في بطرسبرج ، المدينة التي لاتضاهيها مدينة في العالم ، وقد بهرت انوارها وعماراتها .

وحاول الكابتن ان يجد لنفسه مسكناً ، ولكن الاسعار كانت مرتفعة ، كويكين لا يملك اكثر من عشر ورقات كل منها من فئة الخمسة روبلات ، وبهذا المبلغ لا يستطيع الانسان ان يشتري قرية ، او انه يستطيع شراء قرية ولكن اذا اُضيف الى المبلغ حوالي اربعين الى روبل يقتضها من ملك فرنسا . وهكذا سكن كويكين في فندق قبله بروبيل واحد في كل يوم ، وكان يقات بالحساء والملفوف ولحم البقر . وهناك في بطرسبرج ، سأل عن

يتوجه اليه فأجيب : « الى من تتوجه ؟ لا يوجد في العاصمة احد » .

وبطبيعة الحال كانت السلطات في باريس ، والجيش لم يعد بعد . ولكن كانت هالك لجنة ، وثقة فقيل له : « جرب ، فقد يعطونك شيئاً » ، فاجاب كوييكن : « سأذهب الى هناك وافول لهم اني سفت دمي وبذلك حياتي في الخدمة » .

وهكذا باسدي العزيز ، استيقظ كوييكن باكراً وحلق لحيته بقدر ما يستطيع باليد اليسرى ، لانه لم يكن لديه نفوذ يدفع منها اجرة الحلاق ، وارادى ملاعبه العسكرية وذهب يحرق رجله الخشبية لمقابلة رئيس اللجنة .
سأل عن مسكن الرئيس فقيل له : « هناك تجده » ، في ذلك المنزل قرب الرصيف . وكان البيت يشرق بالرخام والزجاج الأخاذ ، وعلى الباب كانت توجد ازوار معدنية يجب أن تفصل اليد بالصابون مرتين قبل لمسها . وقد وقف على الباب حارس مهندم .

وبعد مضي اربع ساعات ، ظهر احد رجال الحرس ليقول : « هوذا الرئيس ! » ، وظهر في البهو عالم كامل من النجوم المتراحة كمجرات الفاصولياء داخل الوعاء . واخيراً دخل الرئيس ، ونصروا الآن كيف كان هذا الرئيس : انه رجل يفرض الاحترام والطاعة على الجميع ، فكان يقترب من هذا أو ذاك ليقول : « ماذا تريد ! . ولم انت هنا ؟ » .
واخيراً باسدي العزيز ، ها هوذا بالقرب من كوييكن الذي روى له قصته وقال : « فأنت ترى كبت بذلت دمي وفقدت ساعدي وساقني ، ولم يعد بإمكانني العمل ، ولذا فاني انجاسر على طلب مساعدة ، أو إذا صح التعبير ، فاني انجمرأ على طلب راتب لي » .

وشاهد الرئيس بألم عينه الساق الخشبية والكم الفارغ من الذراع فقال له : « حسناً .. لنعد الي بعد ايام ! » . وظن كوييكن ان الامر قد انتهى . فذهب يفقر فرحاً ، ودخل مشرباً ليتناول كوباً من الفودكا ، ثم تناول العشاء في فندق انكلترا وشرب معه خمرأ ، ثم ذهب الى المسرح وعندما خرج منه شاهد

على الرصيف انكليزية حسناء ، فصعد الدم الى رأسه ، واراد ان يركض خلفها بساقه الخشبية ولكنه راجع نفسه وفكر : « هذا يكفي .. لقد انفقت كثيراً فلا تترك النساء الى حين اتسلم مرتبي » . وارجو هنا ان نلاحظوا انه انفق مامعه في خلال ثلاثة او اربعة ايام ، ثم ذهب الى اللجنة وقال انه يريد تعويضاً عن الدم الذي سفكه ، والحياة التي بذلها . فأجابه الرئيس : « حسن جداً » ، ولكن يجب ان اقول لك انه لا يمكننا ان نفعل شيئاً لاجلك دون اذن السلطات العليا ، وانت ترى بنفسك هذه المرحلة التي نجتازها ، فالحرب لم تنتهي تماماً . انتظر اذن عودة الوزير وكن واثقاً اننا لن ننساك ابداً ، واذا لم يكن لديك ماتعيش منه ، فهذا كل ما نستطيع ان اعمله لك . . ولعلكم فهمتم جيداً انه لم يعطه الشيء الكثير ، ولكن هذا المبلغ الذي اخذه كوبيكين منه يسمح له بانتظار القرارات التالية . ولكن صاحبنا كان يريد شيئاً آخر ، فقد كان يعتقد انهم سيعطونه الوف الروبلات ويقولون له : « خذ ايها العزيز ، اشرب وامرح ! » وهو من جازبه لم يكن يحلم الا بالمرح وانجر والانكليزية الحسنة . وهكذا خرج من القصر ككلب طرده الطاهي وقد نكس ذنبه الى مابين قوائمه . ثم ان حياة بطرسبرج قد جذبتة وكان قد اعتاد عليها ، ولكن لا يمكن عمل اي شيء فيجب عليه اذن ان يحيا بطريقة لا يعرفها الا الشيطان . وهذا صعب على رجل قوي الجسم يتسع بشبهة جيدة . ومرة مر امام مطعم فشاهد طاهياً اجنياً يرتدي ثياباً بيضاء كالثلج ، وهو يهوى الواناً من الاطعمة يستطيع كوبيكين ان يلتهمها كلها بشبهة . ثم مر بالقرب من محلات ميلوتين فرأى هناك على النوافذ سمكا وكرزاً وباقات من الفريز تنتظر احق يدفع مائة روبل ثمنها . والخلاصة انه كان يرى في كل خطوة يخطوها ما يجذبه ويفرجه ويسيل له لعابه ، ومع ذلك كان عليه ان ينتظر . فمن جهة كان يقدم اليه السك والكرز ، وباليد الثانية ، لون من الطعام يدعى « غداً » . فقال في نفسه : « حسناً .. كما يريدون ... » . سأقلب اللجنة رأساً على عقب وأصبح بالرؤساء : كما تريدون ! ، وبالفعل عاد بطلنا الى اللجنة غاضباً وهو على استعداد لأن يحطم كل شيء .

وعندما وصل قبل له : « أهذا انت ، ولكن قبل لك ان ... » فأجاب كوبيكين : « عفواً ، ولكنني لا استطيع الحياة هكذا .. اني في اشد الحاجة لأن آكل لحماً ، وأثر ب خمرأ فرنسياً جيداً ، وأذهب الى المسرح . أفهم ؟ » فهتف الرئيس : لا انك تبالغ ، ثم ان للصبر حدوداً . انه لديك في الوقت الحاضر ما يساعدك على العيش حتى يتقرر مصيرك . وستكافأ كما يجب حتماً ، لانه لم يسبق لنا في روسيا ان اهلنا رجلاً خدم وطنه . اما اذا كنت تريد ان تسكر وتأكل اللحم وتذهب الى المسرح .. فان هذا لن يكون . وفي هذه الحالة عليك ان تدبر امورك بنفسك .

وبدا ان كوبيكين لم يسمع شيئاً حتى لكانهم يصبحون في واد . فأخذ يزجر ، وثار على الجميع دون ان يجتنب اي انسان : « انت لا تعمل شيئاً ... ما انت الا احمق .. انك تحرق القوانين » . وفي هذه الاثناء ظهر جنرال ، فتأوله كوبيكين نصيبه . عند ذلك وجد الرئيس انه من الضروري اللجوء الى القوة والعنف . فقال :

— حسناً فليكن .. انت لا تريد الا كنفاء بما اعطيناك والانتظار بهدوء حتى يتقرر مصيرك .. اذن فنصحبك الى مكان اقامتك الجديدة . احضروا عربة ! وظهر فلاح طويل القامة .. له ذراعان خلقا ليكونا ذراعي جوذي ... او طبيب انسان . فقاد كوبيكين الى العربة . فقال هذا في نفسه : « حسناً ... هذه سفرة اجرها على الاقل » . وبينما كانت العربة تسير به كان يفكر : « لقد قلت لي انه يجب علي ان اساعد نفسي بنفسي .. حسناً فليكن ... لسوف اجد عملاً . »

وما من انسان يعلم ابن قادوه . ولم يعد احد يتكلم عن الكابتن كوبيكين . قد غرق هذا الرجل في بحر النسيان كما يقول الشعراء . ومن هنا ياسيدي العزيز تبدأ القصة الحقيقية للكابتن كوبيكين . لقد فقد كل اثر له ؛ الا انه بعد شهرين ظهرت عصاة من قطاع الطرق اخذت نعيث في

غابات ، يازان فساداً ، ولم يكن رئيس العصاة يامبيدي العزيز ...
فهنف مدير البوليس فجأة مقاطعاً :

— اسمح لي يايفان اندريتش ، انك تقول ان الكابتن كوبيكين فقد ذراعاً
وساقاً ، اما تششيكوف ...

فصاح مدير البريد صيحة عظيمة وضرب بقضة يده على جبينه . انه لم يستطع
ان يفهم كيف غاب عنه هذا الامر . واعترف بصحة المثل الروسي القديم القائل :
« ان فكر الرجل الروسي اشبه شيء بالدرج » . ومع ذلك فقد حاول حالاً
التخلص من هذه المشكلة ، فأكد انهم في انكلترا يضعون سيقاناً من الخشب ،
يكفي ان يضبط فيها على زر خفي حتى تحمل الساق صاحبها الى مكان لا يعرفه
الا الله وحده .

ولم يشأ احد من الموظفين ان يصدق بان تششيكوف هو الكابتن كوبيكين
بالذات . ووجدوا ان مدير البريد قد ذهب بعيداً جداً . ولكنهم تأثروا على
اية حال بالقصة فبالقوا في فرضياتهم حول شخص تششيكوف . فقد يكون
تششيكوف نابوليون بنفسه ، ثم ان الانكليز يحدون روسيا لعظمتها وقوتها .
كان هناك صور كارينكاتورية مثل روسيا يتحدث مع انكليزي ، وكان هذا
الاخير يقود كلباً مقيداً يدعى نابوليون . قال الانكليزي : « احذر ، فاذا
تابعت فاني اتركه يهاجمك » . ومن يدري ؟ لربما تركت انكلترا نابوليون يخرج
من جزيرة القديسة هيلانة ليتجول في روسيا تحت اسم تششيكوف .

ولم يصدق الموظفون هذه القصة ايضاً ، ومع ذلك فقد لاحظونا وهم يفكرون
ان المنظر الجانبي لوجه تششيكوف يشبه صورة نابولون ، وكان مدير البوليس
يقومون بمخدمته العسكرية عام ١٨١٢ . وقد شاهد بنفسه نابوليون . واعترف
ان الامبراطور لم يكن اطول ولا اضخم ولا اخل من تششيكوف .

وقد يقول بعض القراء ان هذا الحديث لا يبدو واقعياً ، وكذلك المؤلف
فانه من نفس رأي القارئ . ولكن لسوء الحظ كانت الامور تجري على هذه
الصورة بالرغم من ان مدينة (ن) تقع بين العاصمتين لا في صحراء نائية .

ولبذكر القارئ الحوادث التي تلت طرد الجيش الفرنسي ، فان جميع الملاكين ورجال الاعمال والتجار والحقوقيين والمتعلمين اهتموا بالسياسة ثمان سنوات على اقل تقدير .

وكانت جريدة « اخبار موسكو » و « ابن الوطن » موضع القراءة من اول حرف الى آخر حرف . وكان الناس عوضاً عن ان يسألوا عن سعر الشوفان يقولون :

« ماذا يقال في الصحف ؟ اهرب نابوليون مجدداً من جزيرته ؟ » . اما التجار فكانوا كثيري الخوف لانهم يعتقدون بنبوة نبي كان مسجوناً منذ ثلاث سنين ، وكان هذا النبي قد جاء من مكانه لا يعرفه احد ، وهو يرتدي بزة قدرة تنتشر منها روائح سمك متفسخ . واعلن ان نابوليون عدو لدود للمسيح ، وانه يعيش خلف ستة اسوار وستة بحار مكبل بالقيود . ولكنه سيحطم السلاسل يوماً وسيسيطر على العالم . وقد القي القبض عليه بعد تلك النبوة التي روعت طبقة التجار الروس برمتها . ومروا وقت طويل كان فيه هؤلاء التجار عندما يدخلون الفنادق ويتعارفون لقضاء اعمالهم ، يبدأون بالحديث عن عدو المسيح وهم يتناولون الشاي . وسرت عدوى الاساطير هذه الى الموظفين والنبلاء ، فكانوا يجدون معنى عميقاً لكل حرف من حروف اسم نابوليون . وقد وجد الكثيرون منهم فيها حروف وؤيا يوحنا اللاهوتي .

فمن الطبيعي اذن ان يفكر موظفو مدينة (ن) طويلا في هذا التشابه بين تشنشيكوف وامبراطور الفرنسيين ، وبعد ان تناقشوا فترة من الزمن قرروا التوجه مباشرة الى نوزدوف ، فمر اول من تكلم عن النفوس الميتة ، وله علاقات متينة مع بافل اييفانوفتش فهو حتماً يعرف بعض التفاصيل عن حياته الخاصة .

ان هؤلاء الموظفين غريبو الاطوار ، انهم يعرفون تماماً ان نوزدوف يكذب دائماً ، وانه لا يمكن الوثوق به وبأحاديثه ، ومع ذلك فقد هرعوا اليه . وهكذا الانسان ، انه لا يعتقد بوجود الله ، ولكن اذا وخزه الله ظن ان يومه الاخير قد جاء ، فلا يقرأ ديوان شعر مليء بالامل والبساطة والانسجام ،

بل هو يسرع الى قراءة كتاب تبدوا الطبيعة فيه قبيحة ، فهتف : « ما اعمق هذه المعرفة بخفايا قلب الانسان . » وآخر لا يفتأ يعلن استنزاهه من الاخبار فيذهب يومياً يستشير عجوزاً مشعوذة تعالجه بالدمدمة او باختراع دواء كريبه يتناوله وكأنه الدواء الناجح الوحيد .

وكان لموظفينا عذرم في ما يحبط بهم من ظروف حرجة . فالعريق يتعلق بالقشة دون ان يفكر بحجسه الذي يزن مائة كيلو غرام ، وهكذا تعلق النعساء بنوزدويف .

ففي المساء دعا مدير البوليس نوزدويف الى منزله ، وقد حمل اليه الدعوة حارس متورّد الحدين . . . وكان نوزدويف مشغولاً جداً ، ذلك انه كان قابلاً في غرفته منذ اربعة ايام ، وقد شحّب لونه ونخل جسده كثيراً ، وكان عمله يقتضيه انتباهاً عظيماً ، لان الامر يتعلق بالتفتيش بين عدة دستات من اوراق اللعب لا خفاء بمجموعة لا تظهر عليها الاشارات واضحة لكل انسان فتسمح له بالربح .

وكان هذا العمل يقتضي منه اسبوعين على الاقل ، وفي هذه الفترة كان على الخادم يورفيوري ان يعين بالكتاب الصغير ويفسله بالفرشاة الخاصة ثلاث مرات في اليوم .

وقد اغتاظ نوزدويف كثيراً لازعاجه اثناء عمله ، فبدأ بالشتم ولكن ما ان قرأ ان بين الحضور غريباً يمكن ان يلعب معه حتى هدا واغلق الباب ، ثم ارتدى ملابسه بسرعة وذهب الى بيت مدير البوليس . وقد الهبت اقواله الموظفين ، ذلك ان الشك غير موجود بالنسبة لهذا الانسان ، وبقدر ما كنت يبدي الموظفون شكهم فيما يقول كان هذا يزيد في تأكيداته ويجيب على كل شيء بدون ادنى تردد .

كان تششيكوف حسب اقواله قد اشترى نفوساً مينة بعدة آلاف من الروبلات ، وهو نفسه قد باع منها اذ لم يجد مانعاً من ذلك . فسأل الموظفون : « اليس هو بجاسوس انان ، ألم يأت ليقوم بتحقيق سري ؟ » فأجاب نوزدويف : « ان تششيكوف تاجر ، وعندما كنت معه في المدرسة عرف بهذه الصفة ،

وفي ذات يوم ضربه رفاقه لهذا السبب حتى ان اهله اثناء معالجته اضطروا الى وضع مائتين واربعين علقه في جسده لامتناس الدم المفسود .
وكان نوزدوف يريد ان يقول «اربعين علقه» ولكن عدده المائتين والاربعين قد افلت منه بشكل طبيعي .

— الا يزور تششيكوف المستندات ؟

فأجاب نوزدوف بالايجاب ، وروى بالمناسبة قصة عن مهارة بافل ايفانوفش لقد علم ان تششيكوف يملك مستندات مزورة بمليو في روبل . ففتم البوليس منزله بالشع الاحمر ، ووضع على بابه حارسين ، غير ان تششيكوف بدل جميع المستندات في ليلة واحدة ، وعندما جاء البوليس في الصباح لم يجد مستنداً واحداً مزوراً .

وسئل ايضاً : هل كان تششيكوف يريد خطف ابنة الحاكم ؟ وهل وعد نوزدوف بالمساعدة .

فاجاب نوزدوف : بكل تأكيد ، اذانه دون مساعدتي لن يتمكن من النجاح في مهمته ؟

ووقف عند هذا الحد لانه فطن الى ان كذبة من هذا النوع قد تكلفه غالباً ولكن كان يستحيل عليه ان يملك لسانه ، ويجب ان نعترف ان هذا الامر صعب جداً لان تفاصيل مثيرة كانت تجول في رأسه .

عين نوزدوف بعد ذلك القرية والكنيسة التي كان يجب ان يتم فيها الزواج . وكان اسم القرية «تروشمانشيفا» واسم الكاهن «سيدور» ، وقد طلب خمسة وسبعين روبلا للقيام بعملية الزواج ، ولم يقبل بهذا المبلغ الا بفضل نوزدوف الذي هدده بكشف فضيحة الزواج غير الشرعي الذي باركه بين تاجر الدقيق ميخايلو وشريكته في الشهادة بمعدية احد الاطفال (١) . وقد قدم هذا الكاهن عربته وجياده للسفر . وذهب نوزدوف في اكذوبته الى حد ذكر معه اسماء الخوذية الذين سيقودون العرب . فقاطعه الموظفون واثاروا انتباهه الى النشابة

(١) مثل هذا الزواج تحرمه الشرائع المسيحية .

فين نابوليون وتششيكوف ، واكنهم سرعان ما ندموا على ذلك لان حاضبتنا اندفع في سبيل من الحماقات والا كاذيب ، بما جعل الجميع يهجرونه عدا مدير البوليس الذي بقي بضفي اليه وحيداً على يسع كلمة صحيحة . وعندما ينس منه هتف به : « ليهـ ذهب بك الشيطان » . واتفق جميع الموظفين على صحة المثل القائل : « مهما فعلت بالثور فانك لن تستطيع ان تستخرج منه فطرة حليب واحدة » . وهكذا وجدوا أنفسهم في حالة اسوأ من السابق ، واضعى من المستحيل عليهم ان يعرفوا من هو تششيكوف .

ولسبب لا يعرفه أحد ، احدثت جميع هذه الشائعات والابحاث والجهود اثرها في نفس المدعي العام ، ولما عاد الى منزله اخذ يفكر ويتأمل كثيراً حتى قضى نجه دون سبب او علة . كان موته بسكتة قلبية او بسبب شي آخر مفاجيء ، فسقط على الارض ولم يكن لدى ذوية الوقت الكافي لقول : « آه ، يا آلهي ! » فدعوا الطبيب ليأخذ شيئاً من دمه ولكن دون جدوى ؛ اذ ان المدعي العام لم يكن إلا جسداً بلا روح . عند ذلك تذكر الناس ان للمدعي العام روحاً ولكنه ، لتواضعه الجهم ، لم يظهرها طيلة حياته . ان الموت لشيء رهيب ، يصيب الكبير ويصيب الصغير ، ففي الامس فقط كان المدعي العام يروح ويحيى ، يلعب الويست ويناقش ويوقع الاوراق ، متميزاً عن الجميع بكثافة حاجبيه وغزرات عينه . وها هو الآن بمدد بلا نامة ولا حياة ، وقد سكنت عنه اليسرى بينما تقطب حاجباه كأنما ينساء لان : وماذا ينبغي الموت ؟ ولم عاش ولم يموت ؟ ان الله وحده يعلم ذلك .

ولكن هذا غير منطقي ولا معقول ... انه لمن غير المنطقي ان يجن الموظفين من الخوف وان ينصرفوا عن جادة الصواب عندما يعرف طفل ما الحقيقة . هكذا مينا قش القارىء الامور وبتم المؤلف بانه يروي له اشياء غير معقولة ، وربما قال عن هؤلاء الموظفين انهم اغبياء ، ذلك ان المرء ليستعمل كلمة

(غي) اكثر من عشرين مرة في اليوم . لكن لك عيب واحد الى بجانب عشر مزايا ، فان اشباهك من الناس سوف لن يروا فيك الا هذا العيب : ان القراء يستطيعون الحكم بسهولة اذا كانوا يرقبون الاشياء من عل ، حيث تقفهم التفاصيل . وهذه الصورة يبحون من تاريخ الانسانية قروناً عديدة تبدو لهم دون معنى . إن أخطاء كثيرة قد ارتكبت ، وهي اخطاء لا يقتربها طفل في وقتنا الحاضر ، ثم ان الانسانية قد اختارت طرقاً ضيقة ومنعزلة وبطئية تعبر بها الشعوب عن الهدف المطلوب والحقيقة المستغاة . ورغم ذلك فان الطريق المستقيمة كانت تظهر بوضوح لندل المملوك على المجد .

ورغم ان هذه الطريق نيرة مشرقة ، فان الانسانية بدت بانقرب منها سادرة في الظلمات . ومع ذلك فان الوحي لم ينفعها ، وقد كشفت السماء لها عن هذه الطريق ، ولكن الانسانية استمرت في ضلالها وسارت في وضع النهار داخل ممرات مظلمة تريد في كثافة الضباب الذي يحيط بها وهي تسير نحو الموهة للنساءل بعد ذلك : . ولكن كيف الخلاص ؟ وأين الطريق ؟ . ان الاجيال الحاضرة لتفهم اخطاء الماضي فتدهش لها وتسخر من خطيئات الاسلاف . كما انها لا ترى ان هذا التاريخ قد كتب بنار السماء ، وان كل حرف يطلب الانتقام وهو يشير الى الانسانية الحاضرة . وهذه بدورها تضحك وتسخر ثم تقترف اخطاء جديدة تسخر منها الاجيال القادمة .

كان تشيكوف يعمل تماماً الشائعات التي تدور حوله . وكان قد اصيب بالتهاب في حنجرته وهذا شائع جداً في مدننا الريفية . فقرر ان يمكث في غرفته ثلاثة ايام ليعفظ حياته الثمينة التي لم تشها سائبة . ولم ينقطع عن الفراغرة بالحليب المغلي ، وكان يرتدي (طاقة) من القطن .

وقد وضع قائمة جديدة كاملة بالفلاحين الذين اشترام ليقضي وقته ، كما قرأ كتاباً باسم « دوقه فالير » وجده داخل حقيبته . وصنع تشيكوف اشياء كثيرة وقرأ بعض الملاحظات ولكن هذا العمل خلف التعب في جسده بسرعة ،

ولم يفهم لماذا لم يقبل احد من الموظفين للاستفسار عن صحته ، في الوقت الذي كانت عربات عديدة منذ ابام تقف عند باب فندقه ، ومن بينها عربة مدير البوليس والمدعي العام ورئيس المحكمة ، وغير ذلك من الاشخاص .

واخيراً شعر بتحسّن فكان بذلك كثير السعادة لانه يستطيع ان يستنشق الهواء الطلق . فأسرّع في ارتداء ملابسه وحلق ذقنه وتغطر (بالكولونيا) ولف عنقه بشال وخرج .

ان هذه التزّهة بالنسبة اليه عيد حقيقي ، فكل شيء ينسم له : المنازل والفلاحون المارون به ، ولكن اسأريهم مع ذلك كانت رصينة . وكانت اول زيارة قام بها تششيكوف من نصيب الحاكم ، ورغم الافكار التي كانت تفتابه فان صورة الشابة الشقراء لم تغادره مطلقاً ، فسرّه هذا باديه الامر ثم سحره ، وبهذه الصورة دخل بيت الحاكم ، وبدأ بخلع معطفه ، فأسرّع الخادم اليه وقال له :

– لقد تلقيت امرأ بعدم استقبالك .

– كيف ... انك لم تعرفني حتّى ... انظر الي ملياً .

– ولماذا لا اعرفك ، انها ليست المرة الاولى التي اراك فيها ، ثم انك الوحيد

الذي يجب علي ألا اسمح له بالدخول .

– لماذا ؟ وكيف ؟

فاجاب الحارس السوبري :

– لقد تلقيت ، امرأ ويجب ان يكون هناك ما يبرره .

ثم اضاف ، وقد ارتسمت على وجهه السخريه والتردد :

– فاذا طردك السيد والسيدة فهذا لانك لاتساوي شيئاً .

فحكر تششيكوف : « هذا غريب » . ثم ذهب حالا الى رئيس المحكمة ،

ولكن هذا ما ان رآه حتى اصيب بارتباك شديد لم يتسكن معه من التلفظ
 بكلمة ، فافترق الاثنان حائزين . وذهب لزيارة مدير البوليس ونائب الحاكم
 ومدير البريد ، فلم يستقبله البعض واما البعض الاخر فقد استقبلوه ولكن بصورة
 غريبة ، اذ تبادلوا معه احاديث بلهاء جعلت تشنشيكوف يشك بعقولهم .
 وحاول أن يرى اشخاصاً آخرين ولكن عبثاً ، فناء في المدينة منهوك اقوى مسائلها
 اذا كان قد جن ام ان جميع الموظفين قد فقدوا عقولهم ، ام انه مجمل ، ام انه
 بالحقيقة يعيش هذه المهزلة البلهاء .

وعاد الى المدينة في ساعة متأخرة من الليل ، فطلب شاياً وشربه ليتغلب
 على قلقه ، وبينما كان مجلماً بغرابة وضعه فتح باب غرفته فجأة ودخل نوزدويف
 دون ان يستأذن . وهتف وهو يحك قبعته :

- ان قطع سبعة (فرسات) لرؤية صديقي لاتعد شيئاً كما يقول المثل .
 لقد رأيت النور مضاءً فقلت لأدخل ، انه ليس نائماً .. حسنا هذا شاي ، واني
 لأشرب منه بكل سرور ، فقد ابتلعت كثيراً من الاقدار اثناء العشاء .. اني
 اشعر بأن معدتي ليست على مايرام - املا لي غليوناً - اقصد غليونك .
 فأب تشنشيكوف بجفاء :

- اني لا ادخن الغليون

- حقاً .. لقد نسبت انك دجاجة قدرة .. ايه .. ما اسم خادمك ...

تعال يا « داكرامه » ...

- ان اسمه بتروشكا ، لا « داكرامه ».

- كيف ولقد كان عندك خادم يدعى « داكرامه ».

- لم يكن قط عندي خادم بهذا الاسم .

- هذا صحيح . . ان داكرامه هو خادم . . دريبين . . ولقد

تخاصمت عمتي مع ابنها الذي تزوج خادمة فأوصت لابن اخيها بجميع
 ممتلكاتها . . كم اود لو يكون لي عمة مثلها . . ولكن لماذا لم نعد
 نراك ، يا اخي ؟ انك تهرب من الناس . . اني اعلم متأكداً ان مسائلك العالمية

تشفلك وانك تحب القرامه . (ونحن نجمل وكذلك بافل ايفانوفتش ايضاً ، لماذا
 بطن نور دوف ان تششيكوف يقوم بدراسات علمية) . آه ياخي تششيكوف ،
 لو انك رأيت .. ان ذلك بإمكانه ان يكون غذاء لروحك الساخرة . (ولماذا
 كان تششيكوف ساخراً ؟ هذا ما نجهله ايضاً) . لقد لعبنا القووكا عند التاجر
 ليخاتشيف ، لكم سرورنا وتهكمنا هناك .. وقد حزن بريانديف كثيراً لعبابك .
 (ولم يكن تششيكوف قد قابل في حياته رجلاً يدعى بريانديف) . اعترف
 ياخي بانك تصرفت معي بغلظة في المرة الماضية عندما لعبنا الضاما .. ولكني
 لست حقوداً .. وبهذه المناسبة اقول لك إنهم يحقدون عليك في المدينة
 ويتهمونك بتزوير السندات .. ولقد سألوني فقلت اننا كنا في المدرسة معاً ،
 واني اعرف اباك ، وقد اخبرتهم .

فهتف تششيكوف ، وهو يقفز من مقعده :

- انا ازور مستندات ؟

- ولكن لماذا انت تخيفهم الى هذا الحد ، بحق الشيطان ! انهم يرتجفون من
 الخوف جميعاً . فهم يظنونك لصاً وجاسوساً ، وقد مات المدعي العام من الخلع
 وسيدفن غداً .. هل تأتي ؟ وانهم خائفون جداً من المدعي العام الجديد .. وهم
 يخافون بسببك ، ولكن هذا الحاكم لن يفعل حسناً اذا اساء معاملة النبلاء ، ومن
 ثم ليس على هؤلاء النبلاء الا ان يمتنعوا عن اقامة الحفلات الراقصة .. ولكنك
 باتششيكوف ورطت نفسك في عمل قذر .

فسأل بافل ايفانوفتش قلقاً :

- ولكن اي عمل ؟

- خطف ابنة الحاكم .. لقد كنت مقتنعاً من ذلك منذ ان رأيتك في
 الحفلة الراقصة ، وكنت على استعداد لمساعدتك ، ولكنك اسأت الاختيار ،
 اذ ليس فيها شيء جميل . اني اعرف واحدة .. هي ابنة اخوتي ، وانها عظيمة
 وتساوي عناء خطفها .

فهتف تششيكوف محققاً :

- ماذا نقول ؟ انا اخطف ابنة الحاكم ؟ لقد فقدت عقلك !

- هيا بنا ، ياخي ... لماذا تتكلم ؟ لقد جئت لمساعدتك . اني أزوجك وأضع الكليل الزواج فوق رأسك وأهتم بالعربة والجياد بشرط واحد ، هو ان تقرضني ثلاثة آلاف روبل احتاج اليها ، لأن القضية قضية موت او حياة .

وخلال هذا السيل العزير من الاكاذيب ، كان تشتشيكوف يفرك عينيه ليتحقق من انه ليس في حلم : تزوير مستندات ، خطف ابنة الحاكم ، موت المدعي العام بسببه ، وصول الحاكم الجديد .

وفكر : « ان كان الامر كذلك فليس من مجال للتردد اذن ، يجب ان امرع بالذهاب ! »

ونخلص من نوزدويف ، ودعا سليفان وامره بتنظيف العربة واعدادها للسفر في الساعة السادسة صباحاً . فاجابه هذا « تحت امرك ! » ثم طلب المعلم من بتروشكا ان يأتيه بالحقيبة ، واخذ يضع في داخلها جميع مايقع تحت يده من جوارب وقمصان واحذية . وكان يعمل مسرعاً لانه لا يريد ان يؤخر سفره عند الفجر . سليفان الذي كان واقفاً يرقب معلمه وبتروشكا ان يذهب . فهبط الدراج ببطء تاركاً عليه آثار حذائه المتسخ . ترى لماذا كان يحك رقبة وماذا تعني هذه الحركة عادة ؟ أهو غاضب لأنه لم يعد باستطاعته السهر مع صديق ، ام لأنه يجب عليه انهاء مغامرة جميلة والاتقطاع عن الذهاب الى مواعيد بجانب بوابات المنازل حيث يضغط على يد بيضاء صغيرة ؟ ام ان السبب في ذلك كونه مرغماً على هجران زاويته الدافئة في المطبخ والسير تحت الامطار وبين الوحول ؟ ان الله وحده يعلم هذا ، فالفلاح الروسي الذي يملك رقبة يخفي افكاراً عديدة مهمة .

الفصل الحادي عشر

لم تسر الامور حسب تقدير تششيكوف ، فقد استفاق قبل كل شيء متأخراً عن الساعة المحددة ، وعندما سأل عن العربة علم انها لما تعد بعد . فغضب كثيراً ودعا اليه سليفان ليناقله الحساب . وانتظر بفارغ الصبر سماع الاسباب التي اجبرته على التأخير ، وعندما جاء سليفان أخيراً سمع منه بافل ايفانوفتش المحاضرة التي يسميها عادة السادة من خدمهم عندما يكونون على عجلة من امرهم .

- يجب حدو الجبل ، يا بافل ايفانوفتش .

- ايها اللص القذر ، ألم يكن باستطاعتك ان تقول هذا نهار البارحة ؟

- بلى كان ذلك باستطاعتي .. ثم يجب تصليح العجلة ، يا بافل ايفانوفتش ،

لان الطرق وعرة سيئة ، وكذلك يجب تصليح مقدمة العربة .

فهتف تششيكوف وهو يرفع يده مهدداً :

- ايها القذر ، انت تريد قتلي ... ايها الحيوان ، لماذا لم تقل ذلك أمس ؟

هذا وقد مر علينا ثلاثة اسابيع هنا وانت لم تقل شيئاً رغم انك تعرف جميع

ما يلزم . هل تعرف جميع ما يلزم للعربة قبل الآن أم لا ؟ أجب ايها الحيوان القذر !

فأجاب سليقان ، وهو خافض الرأس :

- بلى كنت اعرف .

فصاح تششيكوف :

- إذن لماذا لم تقل ذلك في حينه ؟

فلم يجب سليقان بشيء ، ولكنه اخذ يحدث نفسه : « ايبكون غريباً ان اعرف الامر ولا اذكر شيئاً عنه ؟ »

- اذهب واحضر حداً بسرعة ، يجب ان ينتهي كل شيء خلال ساعتين !

أهملت ؟ واذا لم يعد كل شيء بعد ساعتين فأسطرك شطرين .

كان بطلنا مهتاجاً غاضباً ، فاتجه سليقان نحو الباب ولكنه توقف

قليلاً وقال :

- هناك امر آخر باسدي ، يجب بيع الحصان واستبداله بآخر . . . انه

نذل وسيخلق لنا متاعب طيلة الطريق .

- اتعتقد حقاً اني سأشرع ببيعه ؟

- افسم لك يا بافل ايفانوفتش انه حيوان محتال .

- ايها اللص المجنون ، اني ابيعه حين اشاء ، انتظر قليلاً ، اذا لم تحضر الحداد

وتنهي كل شيء خلال ساعتين فأسأقتلك ، ولن تستطيع ان تبين شكك بعد ذلك .

اخرج من هنا !

فخرج سليقان .

خرج تششيكوف عن طوره ، فألقى بالسيف الى الارض ، وكان هذا

السيف يحمله دوماً في اسفاره ليرهب به قطاع الطريق . واضاع بعد ذلك ربع

ساعة في التفاهم مع الحدادين ذلك ان هؤلاء يطلبون دائماً ستة اضعاف اجرهم

العادي عندما يرون زبونهم مستعجلاً . وعبثاً دعاهم تششيكوف لصحواً ومحتالين

فانهم لم يذعنوا ، وهم لم يتمسكوا بالسمر الذي طلبوه بل قضاوا في عملهم خمسة ساعات بدلاً من ساعتين .

وهكذا أتبع لبافل ايفانوفتش ان يحيا اللعذاب العذبة التي يقضيها جميع المسافرين . كان كل شيء معداً على الاطلاق ، واما الغرفة فكانت لا تحوي إلا الحفائب المهزومة وبضعة اوراق ممزقة . الا ان جسم المسافر وإن كان موجوداً هنا فان أفكاره قد سافرت ، ولذا أخذ يذرع ارض الغرفة وقد ازداد به الغضب .

إلا أنه لكل شيء نهاية ، وهكذا أخيراً دنت الساعة المنتظرة وتم نصليح العربدة وانصرف الحادادون بعد ان عدوا نقودهم جيداً متمنين لتشتيكيكوف سفرأ سعيداً . ووضع تشتيكيكوف داخل عربته قطعتين من الحلوى ساختين كما أخفى سليفان في جرابه بعض المؤونة . ثم صعد بافل ايفانوفتش الى العربدة في حين اجتمع حشد من الخدم والحوذية لتعبته التعبه الاخيرة .

وسارت العربدة آخر الأمر فغادرت باحة الفندق ، فقال تشتيكيكوف في نفسه بعد ان رسم إشارة الصليب : « شكرأ لله ! »

وقرّع سليفان بسوطه ، وجلس بتروشكا بجانبه بينما انكأ بطلنا على وسادة من الجلد في حين اخذت العربدة تتهادى على الطريق .

كان بطلنا يرقب بشعور مههم جميع ما تقع عليه انظاره ، من البيوت والجدران والطرق التي اخذت تتوارى ببطء خلفه . في احدى المنعطفات توقفت العربدة عن السير امام موكب جنازتي حاشد ، فأمر بطلنا بتروشكا لمسأل عن الميت فقيل له المدعي العام . فاختبأ في زاوية العربدة واسدل الستائر بينما خلع سليفان وبتروشكا قبعتيهما واخذا باحصاء عدد المشيعين الراجلين والذين داخل العربات ، وامرهما بافل ايفانوفتش بعدم التحدث مع انسان بينما اخذه هو في تأمل الموكب .

ان جميع الموظفين يسرون خلف النمش . فخاف بافل ايفانوفتش ان

يتعرفوا عليه ، ولكنهم كانوا مشغولين في واقع الحال . كان هؤلاء يسرون صامتين دون اي ثرثرة كما تجري العادة في مثل هذا الموقف ، ذلك ان افكارهم كانت مشغولة بمصيرهم ، بالتساؤل عن الحاكم العام الجديد ، وعن كيف سيكون تصرفه تجاههم وكيف سيستقبلهم . اما السيدات المتشحات بالسواد فقد كن داخل عرباتهن التي تسير خلف الموظفين . وكانت تدل حركات شفاهن على انهن يتحدثن بجرارة . ومن الظاهر انهن يتحدثن ايضاً عن الحاكم العام الجديد ومتدولات في اثناء ذلك جميع الفرضيات حول الحفلات الراقصة التي سيقبها وحول الاقمشة والازياء الحديثة . وخلف عرباتهن تلك كان قحط خمس عربات تسير فارغة . واخيراً أصبح بمقدور عربة تششيكوف ان تسير ، فرفع بافل ايفانوفتش الستائر وتهد طويلاً ثم قال في نفسه :

« هذا المدعي العام . . . لقد عاش . . . ثم مات » . ان الصحف بلا ريب سوف تعلن هذا النبأ الذي افجع أبناءه كما افجع الانسانية جمعاء . ان هذه الصحف ستقول بانه كان مواطناً محترماً واباً ممتازاً وزوجاً فاضلاً . وهي ستضيف فوق ذلك بان دموع اليتامى والايامى قد تبعته حتى مثواه الاخير . ولكن ... اذا شاء الناس الحقيقة الواقعة ، فان المدعي العام لم يتميز عن غيره الا بشيء واحد فقط ، وهذا الشيء الوحيد هو ان حاجبيه كانا كشيئين .

أمر تششيكوف حوذيته سليفان بالامراع ثم فكر : « يجب ان اكون مصروفاً لمصادفتي هذا الموكب ، اذ ان مصادفة الميت في السفر فالحسن ! » واجتازت العربة اخيراً عدة طرقات مقفرة ، ثم تعدت حواجز خشبية طويلة كانت تشير الى نهاية المدينة .

وهكذا توارت المدينة في البعيد ولم يعد يشاهد غير الطريق اللامتناهي . وكان هناك ثمة اشارات تدل على المسافات والآبار والقرى ، القرى الرمادية حيث سماءور الشاي والمشعوذات والفلاحون الذين يركضون حاملين حزم

الشوفان ... ثم المدن الصغيرة بجوانبها الضيقة الخشبية الملائى ببراميل الدقيق والاحذية والجلود وشتى انواع البضائع . وبدت الجسور الطويلة والطرق الممتدة وبيوت الملاكين ، ثم ظهر جندي يتطلي جواداً ، يحرس صندوقاً اخضر كتب عليه : « بطارية المدفعية رقم كذا ... » ، ثم بدت الاراضي المحروثة حديثاً ، وسمع من بعيد صدى الاغاني والاجراس بينما رقت في السماء اسراب من الغريان كالذباب .

ايه ... اينها روسيا ! ... اني لأخيلك الآن وأفكر فيك وأنا في هذه البلاد الغريبة (١) . ان مدنتك لفقيرة شقية لا يتوفر فيها اي شيء من وسائل الراحة ، غارية من جمال الطبيعة ومبتدعات الفن ، فليس هناك قصور مشيدة فوق الصخور ، ولا اشجار ضخمة ، ولا ليلاب فوق البيوت . وان العيون لا ترتفع فيك لتشاهد صخوراً بديعة او قبة مزينة بالبلابل وآلاف الزهور البرية . وان قمم الجبال العالية الخالدة لا تندفع شامخة في السهوات بين الاثير ، ذلك ان كل شيء مكشوف .

ايه اينها روسيا ... ان مدنتك لمنخفضة قمبة ، لا تظهر بين أثباج الصخاري الواسعة الاكتفاط دقيقة وبقع صغيرة ، ليس من شيء فيها يحمل على الاغراء او يفتن الابصار .

واذن ... ما هذه القوة المندفعة الخفية الطاغية التي تجذبني نحوك ، أينها روسيا ؟ وكيف يمكنني ان اسمع اغانيك الحزينة الجبارة يتردد صداها بين البحار داخل حدودك الممتدة الواسعة . وهذه الاغنية ، اي شيء تحفيه ، واية نداءات مبتهلة ودموع مشرقة تتوارى فيها ؟

ان هذه الاغنيات العميقة الجبارة لتصهر قلوبنا وتقتصرنا لتخلق القلق في

(١) لقد بدأ جوجول قصته النفوس الميتة في مدينة فيفاي في سويسرا وأنهى القصة

الاول منها في روما من عام ١٨٣٦ - ١٨٤١ .

أرواحنا والحجر في نفوسنا .

إيتها الروسية ، ماذا تريدن مني ، وما الآصرة العبيقة التي تربط
بيننا ؟ لم تنظرين هكذا الي ولم يتجه نحو ي كل شيء مجاً ومحقق فيك
منظرات بعيدة الغور .

اني لأتأمل فيك حائراً ساكناً ... فأرى الغمام الكثيف ، المتلبد ، ينحدر
مشعباً بالعواصف المهددة ، والزواجع المدمرة . وان افكاري لتخرس ازاء
مسافاتك البعيدة المتوامة في الندى . ترى ... اي مستقبل يتوارى خلف هذا
الاتساع البعيد .. البعيد ... اللامحدود ؟ ترى ... أيلداعظم الابطال طراً في
الروسيا ، حيث تسمع لهم هذه الآفاق الواسعة بالحياة ؟ ان هذه القوة الصادرة
الجبارة الثابتة في هذا الاتساع والمسافات لتجذبني نحوها . وان عنفوانها الرهيب
لتتغلغل في أعماقي فيشتعل في عيني لهب قوة خارقة . اين إيتها الروسية ...
بالأرض الجمال والبدايع المجهولة ! ...
وصاح تشتشيكوف بسليمان :
- قف ؟

وزجر حوذي بشارين عربيين كانت عربته تجري بسرعة كبيرة :
- سأفنتك بسيفي ... لنتنزع الذئاب روحك النبعة ، ألم تر ان هذه
العربة حكومية .
ثم توارت العربة وسط الضجة والفبار .

لكم من الاشياء الغريبة الجذابة الساحرة تثيرها هذه الكلمة الروسية
« دوروغا » (١) . وانكم هي جبهة هذه الطريق . تغيم الساء وتغطي اوراق
الحريف الارض ويهب نسيم بارد يفتح الوجوه ، فيغطي المسافر أذنيه بقبعته
ويلتف بمعطف الفراء ويقع في زاوية العربة ، فتستولي على الجسم حرارة عذبة
ثم يهاجم النعاس عينيك فتغضها ، وتسمع بغموض وقع حوافر الجياد تترج
بصرير العجلات ، فتنام دافعاً بجمارك الى الزاوية الاخرى . وعندما تنيقظ

(١) الطريق .

تكون العربة اجتازت خبي محطات ، فترى القمر ومدينة مبهولة وكنائس
بقباب خشبية واقواس سوداء . وترى بيوتاً بعضها قائم وبعضها الآخر قد بني
بالحجارة البيضاء . كل شيء ساكن ... راقد . ونرى هنالك وهنا نوراً باهتاً
منعزلاً لا سكا في محيط حذاء ، أو حذاء يهبي عجيبة .

هنا ... الليل وعظمة الساء ... هنا الهواء شفاف والسموات العالية
بعيدة مع الآماد . هنا برد خفيف يداعب الوجوه فيستولي النعاس والذسيان
على المسافر من جديد ؛ فيدمدم الجار انتضايق لان صديقه يتقل عليه ، فيستفيق
الاخير فلا يرى شيئاً غير الحقول والصحارى والعزلة والافاق الواسعة المكشوفة .
وتتوارى الجسارة الدالة على المسافات ، وتشرق الشمس فيبياض الافق
البارد وتتكسر عليه خيوط من الذهب الخالص ، ويتردد الهواء ... وان مثل
هذا البرد ليجبه الانسان فينام ... ثم يستيقظ عندما تصل العربة الى قرية ما
تتصاعد منها اصوات الفلاحين فيشعر الانسان بالجوع .

لكن انت جميل ايها الطريق البعيد ! ولكم من المرات كنت فيها تائهاً عن
نفسى غارقاً في همومي فأنتقذني بما انا فيه ! اجل ايها الطريق البعيد ... لقد
عشت معك عدة احلام شعرية ومشاعر ملهية !

وهكذا ايضاً استسلم بطلنا تشنشيكوف للاحلام .. ولكن ترى ، بماذا
كان يشعر ؟ انه لم يشعر بشيء باديء الامر فكان يتلفت بعض الاحيان للتأكد
من انه غادر بالفعل مدينة (ن ..) كانت البيوت قد نوات ولم يعد يظهر الا
الطواحين ، كما نوات ايضاً ضواحي المدينة وكنائسها الحجرية باقواسها البيضاء .
وكان بافل ايفانوفتش ينظر بينة ويسره ، ثم اصبحت مدينة (ن ..) بسرعة
بالنسبة اليه ذكرى غامضة مبهمة كما لو انه غادرها منذ سنوات ، فأغمض عينيه
واسند رأسه الى الرسادة . لقد كانت الطريق غير هامة بالنسبة اليه . ويعترف
المؤلف بأنه سعيد لذلك ، لانه يجد هنا ساحة للكلام عن بطلنا قليلاً ، ذلك ان
نوزدويف والحفلات الراقصة والسيدات العجيبات ، كل ذلك قد منعه حتى الآن
من الكلام عنه . فلننس كل شيء اذن ولنهتم ببافل ايفانوفتش وحده . وانا

أشك في ان البطل الذي اخترته قد اعجب القراء . فالنساء لم يحبينه ، وهذا أمر طبيعي لأنهن يردن دائماً ان يكون البطل نموذجاً للكمال ؛ أو الويل كل الويل له اذا بدا فيه نقص خلقي أو خلقي ؛ فانه لن يرضيهن حتى ولو حلل المؤلف نفسيته بعمق ورسم صورته بصفا كصفاء انعكاس النور على المرآة . ان سن تششيكوف وممنته قد اساءتا بلا ريب اليه ، وخاصة عندما اكتشفن نيته باختطاف بعض السيدات . ان المؤلف يعرف كل هذا ولكنه للأسف لا يستطيع ان يتخذ لقصته رجلاً فاضلاً . غير ان هناك اوتاراً اخرى مازالت تهتز الى الآن ، وهي عذراء مجهولة . انه لمن الممكن ان تصادف رجلاً يتحلى بمواهب إلهية ، او فتاة روسية جميلة لامثيل لها في العالم ، حائزة على جميع فضائل الروح الانثوية . انه لمن الممكن ان يبدو جميع فضلاء العالم ، بجانب هذين الشخصين ، ساحبين كثيراً كما يبدو الكتاب ميتاً اذا قورن بالكلمة .

ان الروسيا منسقيظ ولا ريب ، وسيفهم العالم كم من الاسرار المستعصية على روح الشعوب الاخرى قد تغلغت بعمق في الطبيعة السلافية . ولكن لماذا الكلام عما سوف يحدث ؟ اذ لا يجب على مؤلف نضج بعامل السن والحياة الداخلية القاسية ، ان يتصرف بعدم اكترات كفتى صغير ، ذلك انه لكل شيء زمان ومكان !

اني لم ارغب بانخذ الانسان الفاضل بطلا لسبب وحيد : هو ان الحين قد حان للفضلاء كي يستريحوا . ولكن لماذا ؟ لأن كلمة « انسان فاضل » اخذت تفقد قسيتها لكثرة استعمالها في يومنا هذا . اذ لا يوجد كاتب واحد الا ويمتطي ظهر « الرجل الفاضل » ويهزه بسوطه حتى قتلت الفضيلة وتقلص ظلها ، فلم يعد يبقى منها الا الجلد والعظام . ان الناس يتكلمون عن الرجل الفاضل بنفاق وحقارة وهم لا يجترمون الفضيلة . ولذا فقد آن الوقت لأن يذكر الاوغاه . فلنستخدم اذن الرجال الاندال .

لقد كانت ولادة بطلنا غامضة ؛ ولا يعلم غير الله وحده عما اذا كان أهلوه من النبلاء ومن اي نوع منهم : القدماء أم المستجدون . ان لم يكن يشبه احداً

من اقاربه من الناحية الجسدية ، حتى أنه عندما تمت ولادته امسكت به قربة
 قصيرة الجرم بين ذواعيها وهفت : « انه ليس كما كنت انتظر .. لقد كان عليه
 ان يشبه جدته لأمه ، غير انه لا يشبه اياه ولا أمه حتى ولا الضيف الذي مر من
 هنا » . وبدت له الحياة بادية الامر بغيضة قاة . كما لو انه نظر اليها من خلال
 زجاج داكن . لم يكن له صاحب امصديق ، فعاش في غرفة ضيقة لا يجد الهواء
 اليها منفذاً في الصيف ولا في الشتاء . وخاصة بالنسبة الى السيدات : ان المؤلف
 يعرف كل هذا ولكنه مع الاسف لا يستطيع ان يتخذ بطلاً لقصته رجلاً
 فاضلاً . ولكن هناك اوتارا اخرى تهتم ازال الى الآن عذراء مجهولة فيمكن
 ان تصادف رجلاً يتحلى بمواهب إلهية او فتاة روسية جميلة لامثيل لها في
 العالم حائرة على جميع فضائل روح الانثوية . وربما بدا جميع فضلاء العالم
 بجانب هذين الشخصين شاحين جداً كما يبدو الكتاب ميتا اذا قورن بالكلمة .

وكانت ابوه المريض بشن دوماً ويذرع ارض الغرفة ويصق في
 وعاء مليء بالرمل مثبت في زاوية الغرفة . واما الولد فقد كان جالساً
 دوماً وقد ثلثت بالحب اصابه ويداه . وكان يقرأ سحابة نهاره هذه
 الحكمة : « لا تكذب .. استمع الى ما يقوله الشيوخ وغذ الفضيلة في
 قلبك ! » وكان يسمع اياه بصرخ دون انقطاع ، وهو يحرق حذائه على الارض :
 « أهذا انت ايضاً ، ايها الطائش ! » وعندما يكتب كان يضيف ذبلاً او خطأ الى
 الحروف في حين يتقدم اليه والده ليشد له أذنيه . هكذا مرت السنوات الاولى
 من طفولته ، وهي سنوات لا يحتفظ منها الا بذكريات شاحبة . الا ان كل
 شيء يتبدل بسرعة في هذه الحياة . ففي ذات يوم مشمس من ايام الربيع اصعده
 ابوه الى عربة كان حوذيها رجلاً أحذب الظهر هو الاب الوحيد للعائلة الوحيدة
 من العبيد التي كان يملكها والد تششيكوف ، وكان ايضاً يتم بجميع شؤون
 المنزل . لم تدم الرحلة أكثر من يومين ، وقد نام المسافرين في الطريق واجتازا
 نهراً واقفاناً باللحوم المبردة حتى وصلا آخر الامر الى المدينة صباح اليوم الثالث .

وبينما اعتبرت الدهشة الصغير لما وآه من جمال الطرقات وفخامتها ، أوشكت الجياد ان ترمي بالعربة في حفرة مليئة بالوحل . وقد رزح الجواد المسكين تحت وطأة ضربات الحوذي والمعلم حتى استطاع الخروج من الحفرة ودخل في باحة صغيرة . وكان هناك شجرتا تفاح بجانب منزل صغير مخنف خلف حديقة صغيرة ، في اقصاها كوخ خشبي متهدم السقف .

كان يقطن في المنزل قريبة هرمة مهزولة الجسم ، ولكنها رغم هزالها وهرمها كانت تذهب صباح كل يوم الى السوق ثم تعود وتجنف جواربها على سماور الشاي الساخن . داعبت هذه المعجوز النابتة وجنتي الصغير وأبدت إعجابها بصحته . وكان عليه هو ان يقيم عندها ويدخل مدرسة المدينة .

قضى الاب ليلة مع ولده ثم ذهب في الصباح . وقد اعطى ابنه قبل ذهابه دروبلاً ونصف الروبل لتفقاته بعد ان زوده بالنصائح التالية : « اصغ لي يا بافلوشكا . . . لتدأب على العمل دوماً دون تراخ . اطع معلمك وجميع رؤسائك في المدرسة ، واذا مارضي عنك المدير فانك ستصبح في المرتبة الاولى في صفك حتي ولو لم تكن مبرزاً في دروسك ، ولو لم يمنحك الله اية ميزة خاصة ... لاتعاصر رفاقك في المدرسة لانك لن تتعلم منهم اي شيء ، ولكن اذا اردت معاشرتهم فاختر الاغنياء منهم لتستفيد من ذلك . لاتعط شيئاً لاني ، ولكن تصرف بشكل يخدمك الناس ويدلونك . اقتصد في جميع نفقاتك ، اذ ان المال احسن شيء في الوجود . ان رفاقك واصدقاءك قد يخدعونك ، اما المال فلا يستطيع ان يخونك قط ، وبه وحده يستطيع الانسان ان يعمل كل شيء وينجح في كل عمل ! »

وهكذا ودع الوالد ابنه بعد ان أنهى نصائحه هذه ، ومضى في عرخته . وكانت هذه المرة هي الاخيرة التي يراه فيها بافل ايقاتوفتش ، ولكن كلماته الاخيرة تلك قد عززت في قلبه ونقشت في ذاكرته نقشاً .

ومنذ اليوم الثاني دخل بافلوشكا المدرسة ، فلم يبرز في اي ميدان على

الاطلاق ، الا انه امتاز بنشاطه ونظاميته . وابدى بالمقابل روحاً واقعية مذهشة حقاً . فقد فهم بسرعة خارقة مصلحته ، وعمل على جعل رفاقه يدعونه بكثرة ويقدمون له الحلوى دون ان يرد لهم شيئاً مقابل ذلك . بل كان غالباً ما يجني ما يأخذه منهم ثم يبيعهم اياه بعد ذلك عند الحاجة ، وقد اعتاد وهو طفل على ان يحرم نفسه من كل شيء فلم ينفق كوبيكا واحداً من المبلغ الذي اعطاه والده . وفي نهاية السنة كان المبلغ قد تضاعف بفضل موهبته العملية المدهشة بالنسبة لمن هم في مثل سنه . ذلك انه صنع طيراً من الشمع ثم باعه لرفاقه بعد ان طلاه كما وجد طريقة اخرى لزيادة وارداته ، وهذه الطريقة تتلخص في انه كان يشتري طعاماً من السوق ويجلس في الفصل بالقرب من اغنى الطلاب ، وما ان يلاحظ على وجه رفيقه ما يدل على ان الجوع قد بدأ يداومه حتى يقدم له كعكة يطلب منها نقداً حسب شهية الطالب .

واهتم خلال شهرين بفأرة وضعها داخل القفص صنعه من الحشب ونجح في تعليمها كيف تقف على قائمتيها ، وكيف ترقد وتقف وتطيع جميع اوامره ، ثم باعها بعد ذلك بسعر جيد .

وعندما تجمع لديه خمس روبلات وضعها في كبس خاظه جيداً ، ثم ما عزم ان ملأ كبساً آخر .

اما سلوكه مع اساتذته فقد كان اكثر ذكاه . اذ لم يكن هناك انسان يمكن ان يمكث هادئاً اكثر منه داخل الفصل ، وكان استاذة يحب الصمت والسلوك الجيد ويشتمز من الطلاب الاذكياء الصاخين . وذلك لانه يتوهم انهم يسخرون منه ، والويل كل الويل لمن كان يمتاز منهم بخفة روحه . فقد كان يكفي ان يأتي بحركة بسيطة حتى يعاقب بشدة ويطرده من الفصل مع زجاجة ترافقه من الاستاذ : «يا صغيري ، سأحطم غرورك وعصيانك ، اني اعرفك يا صغيري اكثر مما تعرف نفسك ، انتظر قليلاً وسأريك ، ارفع ، هكذا انت محروم من الغداء ، ويفرك الصغير المسكين ركبتيه من الالم ويموت من الجوع اويكاد ، خلال ايام ، دون ان يعرف ما

الذنب الذي اقترفه . وكان المعلم يصيح : « ان المواهب والمقدرة لانتهني ابداً »
 ان السلوك وحده ما يهني ! وانا اعطي اعلى درجة في جميع الدروس لمن لا يعرف
 كيف يكتب اسمه ، ولكنه يعرف كيف يتصرف جيداً . واني لأعطي الصفر
 لمن تظهر عليه الحقة والطيش ، حتى ولو كان اذكى الجميع ! »
 هكذا كان استاذنا يناقش الامور ، وكان الى جانب ذلك يكره كريلوف
 لانه كتب : « اشرب اذا شئت ولكن انتنبه الى ما تفعل ! » وكان ايضاً
 يحب ان يتحدث طويلاً عن الهدوء الذي كان يخفاً على صف سابق علم فيه ، فقد
 كان سماع طنين طيران الذبابة فيه امرأ متوقراً ، ولم يكن يشعر بوجود التلاميذ
 داخل الفصل حتى ساعة قرع الجرس .

وفهم تششيكوف استاذة بسرعة ، وهكذا غدا سلوكه نموذجياً . فهو
 جامد لا يتحرك فيه شيء ، بل لا يرف له جفن ، ولولا وخزه رفاقه بالدابيس
 فانه ما كان ليتحرك قط . وعندما يقرع الجرس كان يسبق جميع رفاقه ليناول
 الاستاذ قبعة . كما انه عندما يخرج من المدرسة ، كان يقف ثلاث مرات في
 طريق استاذة ليقدّم له التحية . وقد افلحت هذه الحطة واعتبره جميع الاساتذة
 خلال سني دراسته نموذجاً للتلميذ الممتاز . ثم غادر المدرسة بعد ان حصل على
 أعلى الدرجات في جميع المواد ، كما حصل على شهادة وكتاب كتب عليه بلاء
 الذهب العبارة التالية : « هدية لنشاط مثالي وسلوك عاقل » .

وكان تششيكوف في ذلك الحين قد اصبح شاباً محبباً يحاكي لحبه . وقد
 مات والده حديثاً . فورث عنه اربعة معاطف مهترئة وسترتين قديمتين ومبلغاً
 تافهاً من المال . ان هذا الوالد كان يحسن اعطاء النصائح الثمينة لجمع المال ولكنه
 لم يجمع هو بنفسه شيئاً . وباع باقل ايفانو فقتش البيت الصغير وقطعة الارض بمبلغ
 الف روبل وعاد الى السكنى في المدينة مع عائلة عبيده . وكان يريد من ذلك
 ان يختار لنفسه مهنة فيها .

وفي هذه البرهة طرد استاذہ القديم من المدرسة ، إما بسبب غبائه أو بسبب خطيئة عابرة ارتكبها . فاستسلم الرجل الذي يمشى الهدوء والحكمة للخمرة ، ثم انقطع عنها بسبب ضيق يده . واهمله الجميع فعاث في غرفة صغيرة يعاني آلام الجوع والحرمان . وعرف تلاميذه القدماء ، الذين طالما أنبهم بحالته فجاءوا له مبلغاً كبيراً من المال ، وباع بعضهم اشياء ثينة يحتاجها كي يحصلوا لاسنادهم على المال اللازم . اما بافل ايغانوفش فاعتذر بأنه لا يملك ثروة ودفع خمسة كوبيكات فقط ، فرماها رفاقه في وجهه وهتفوا به : « ايها التمس البخيل ! » .

أنهى المعلم وجهه بين يديه وبكى عندما علم بهذا التصرف النبيل من تلاميذه القدماء ، وقال بصوت ضعيف : « لقد أراد الله ان اذرف الدموع في ساعة الموت » . وعندما قصوا عليه ما كان من تششيكوف تتهيجزن وقال : « إيه يا بافلوشكا ! كم بتغير الانسان ٠٠٠ لقد كان طبيباً لا يعرف الى القضب سييلا . . . لقد خدعني كثيراً ! » .

ولا يمكنني التصريح بان بطلنا قاس الى هذا الحد ، لا يشعر بماطفة ما . لقد كان يشعر بالاشياء ولا يطلب اكثر من ان يساعد قريبه ، ولكن شريطة الا يتجاوز العطاء حداً معيناً ، فالمال الموضوع جانباً لتكوين رأسمال محترم ، يجب ان يبقى غير ملموس . ولقد اعطت نصيحة والده أكلها : « حافظ على مالك واجمع الكوبيكات ! » . ولم يكن بافل ايغانوفش يحب المال لاجل ذاته ، ولم يكن نجبلاً ، ولكنه كان مجلم بمستقبل سعيد لا يعوزه فيه شيء : العربات والاملاك المنظمة والمآدب الفاخرة . ولتحقيق احلامه تلك كان يجمع الكوبيكات ويحرم نفسه من اشياء كثيرة كما يحزم الآخريين منها ايضاً . وكان تششيكوف يقف مسروراً في مكانه عندما يرى رجلاً ثرياً يتنزه في عربة فخية فيأخذ يستمتع كما لو كان في حلم : « لم يكن هذا الانسان الا موظفاً بسيطاً في السابق ، وكان يخلق شعره بطريقة تعطي رأسه شكلاً مستديراً » . وكان يحدث

في نفسه اعمق الآثار كل ما من شأنه ان يوحى بالثراء .

فتش تششيكوف عندما غادر المدونة عن وظيفة ؛ ولكنه لم يحصل الا على وظيفة صغيرة في الحكمة رغم شهادته الممازة التي يحملها . فالانسان بحاجة الى الوساطات في كل مكان حتى ولو كان في الريف . ان ثلاثين او اربعين روبلاً في العام لمبلغ زهيد صغير ، الا انه قرر ان يبدي نشاطاً عظيماً ، وان يتغلب على الصعوبات المختلفة ، وقد عرف في الواقع كيف يظهر دباطة جأش وثباتاً عظيمين ، مع صبر غريب لا يقوى عليه غيره . فكان يكتب من الصباح الى المساء ، دون ان يخشى التعب الجسدي او العقلي ، غارقاً بين اكداش من اوراق الحكمة . وكان لا يعود الى منزله في الاعم الاغلب فينام على مناضد المكتب ويتناول طعامه مع الحراس . وكان فوق كل ذلك يعرف كيف يظل نظيفاً ... لبقاً ... وكيف يعطي لوجهه شكلاً محبباً ، ولتصرفاته مظهر النبيل . ولنصف الى ذلك بأن موظفي الحكمة كانوا يتميزون على العكس من بافل ايفانوفتش بالقبح والعادات السيئة . وكان لبعضهم وجوه تذكر بالخبر الذي لم يتم نضجه بعد : خد منتفخ كثيراً وذقن دثثة وشفة مشقوقة متورمة . وكانوا يتكلمون بقوة حتى لكانهم يتأهبون لضرب احد او يقدمون ضحية لباخوس ، مبرهنين في ذلك على ان الطبع السلافي فيه بعض الاتجاهات الوثنية . وكانوا غالباً مايأتون الى مكاتبهم ثملين ، فيصبح الهواء ثقيلًا خائفاً مسمماً ورائح الكحول . وبطبيعة الحال برز تششيكوف من بين مجموع زملائه هؤلاء ، وكان لا يشرب ابداً ، بينما كان وجهه سالماً وصوته عذباً ومع ذلك فحياته قاسية . وكان يعمل تحت إمرة كاتب مسن يمثل عدم الحساسية التامة واللامبالاة المطلقة . ولم يكن بالامكان التفاهم معه ، فهو لا يتسم ابداً ولا يسأل عن صحة مرؤوسيه مطلقاً . ولم يشاهده مخلوق ، سواء في البيت او في الطريق ، يختلفاً عما هو عليه . كما لم يشاهده احد يشرب حتى يصل الى حانة السكر التي تسمح له بالضحك ، انه لم يستلم قط الى أحد هذه المباحج التي يستلم لها القاتل نفسه حين يشمل . لم يكن

فيه شيء جيد او قبيح . وهذا التحرر من كل فكرة او شعور كان يبدو مخيفاً حقاً . وان له لوحاً رخامياً لا يلاحظ فيه شذوذ بارز ولا يشبه مخلوقاً . كان وجهه يمتاز بتناظر فاس ؛ وكان يمكن القول ، حسب التعبير الشعبي ، بأن الشيطان قد سحق عليه ، في الليل ، بضع حبات من الحمص . انه ليستحيل ان تحصل علاقات مع رجل كهذا وان تحصل صداقة . ولكن تششيكوف بالرغم من كل هذا حاول صنع شيء فبدأ اول الامر بتفاصيل صغيرة لاتعني شيئاً . فبعد ان فحص الריشات التي يستعملها رئيسه للكتابة برى له منها عدة ريشات ووضعها بالقرب من محبته وكان فوق ذلك ينظف طاولة من التبع والرمل ويناوله قبعته (وهي قبعة فظيعة) عندما يهم بالانصراف . وكان تششيكوف ينظف أيضاً معطف رئيسه بالفرشاة اذا ما اتسّع بالحوار . ولكن جميع هذه الاشياء ظلت دون جدوى ولم يتنازل الرئيس لملاحظتها .

استعلم بعد ذلك تششيكوف عن حياة رئيسه العائلية فقبل له ان له ابنة في سن معينة وتشبه في وجهها الجامد اباهما الى حد بعيد ، فقرر تششيكوف ان يوجه هجومه من هذه الناحية ، فاخذ يذهب في ايام الاحاد الى الكنيسة التي تصلي فيها هذه الفتاة ويقف تجاهها مؤدباً حسن الهمد . واخيراً انتهى هذا الجهد بنجاح عظيم ، فقد تأثر الكاتب الهرم الجاف ودعات تششيكوف ليتناول معه الشاي . ولم يعرف احد من الموظفين بما يجري الا بعد ان انتقل بافل ايفانوفتش الى بيت رئيسه واصبح شيئاً ضرورياً فيه . فكان يقوم بشراء السكر والدقيق ويتصرف مع الفتاة كخطيب ويدعو رئيسه « بابا » ويقبل له يديه . واقسم الموظفون ان الزواج سيتم قبل بدء الصوم الكبير (١) . وتوسط الكاتب الخفيف تششيكوف لدى المحكمة . فشغرت وظيفة سرعان ما عين فيها ايفانوفتش . وهكذا توصل بطلنا الى هدفه فغادر منزل رئيسه القديم واقام منذ اليوم الثاني في سكن جديد ولم يعد ينادي صديقه « بابا » كما لم يعد يقبل يديه . وانقطع الناس عن الحديث عن الزواج . ومع ذلك فقد كان بافل ايفانوفتش يضغط يد

(١) الصوم الكبير هي الايام الاربعون قبل عيد الفصح .

صديقه القديم بود كلما صادفه ويدعوه الى تناول الشاي عنده . وكان الشيخ الجامد رغم جوده وبروده يحني رأسه ويتسم : « لقد خدعتني ... لقد خدعتني يا ابن الشيطان ! » .

وهكذا اجتاز تششيكوف الخطوة الاولى والصعبة ، فأصبحت حياته إذ ذاك سهلة عذبة ، وأصبح هو بسرعة رجلاً هاماً في القصر الحكومي . ولم لا ، فانه يملك جميع الصفات اللازمة : يملك السلوك المحبب مع الجراة في الاعمال ، وقد عرف بافل ايفانوفتش الى جانب ذلك كيف يستفيد من وظيفته ويجعلها مثمرة . وفي ذلك الحين كانت الملاحقات الصارمة تجري بحق الموظفين المرتشين . ولكن هذه الصرامة لم تخف تششيكوف فقد عرف كيف يجعلها لمصلحته مظهراً في ذلك روح ابتكار روسية تستيقظ دوماً في عصور الطغيان . كان يتصرف على الشكل الآتي : منذ ان يتقدم اليه مراجع ما بكتاب توصية من الأمير كونسكي (١) (كما كان يقال عندنا في روسيا) فانه يعتدل في مكانه ويقول مبتسماً :

« لا... لا... لا نعتقد اني ... ان هذا من واجبتنا ونحن لانسعى الى المكافأة . تفضل باعطائي عنوانك ولن نحتاج بعد ذلك الى اي إزعاج ، اننا سنعلمك بالنتيجة بأنفسنا » .

ويعود المراجع الى منزله مسروراً وهو يقول : « هذا اخيراً رجل نحتاج الى المزيد من امثاله .. انه لجمهرة نادرة ... انه لكنز اي كنز ! » . وينتظر يوماً او يومين فلا يأتيه انسان ، وكذلك في اليوم الثالث لا يحدث شيء . فيعود الى المحكمة ليرى ان عمله لم يتحرك قيد انملة ، فيسرع اذ ذاك الى الجمهرة النادرة . فباخذ تششيكوف يده بلطف ويقول : « عذراً .. ارجو المذرة ، لقد كان عندي كثير من الاعمال ، ولكن كن على ثقة ان الامر سينتهي غداً ، بلى ، غداً دون ريب .. اني محتجل منك حقاً .. » . ويصحب

(١) ورقة مالية

هذه الكلمات بحركات يهوائية كأنه مشعوذ . وقر الايام فلا يتم شيء . ويستلم المراجع فيفهم ان عليه ان يدفع مبلغاً بسيطاً للموظفين :

- ولماذا لا دفع روبلا او اثنين فقط ؟

- لا ... يجب عليك ان تدفع قطعة بيضاء ... يجب ان تدفع خمسة وعشرين روبلاً .

- كيف ... بطاقة بيضاء برمتها الى الموظفين ؟

- اوه ! لا تنضب فالموظفون لا يحصلون الا على روبل واحد ، واما الباقي فانه يأخذ طريقه الى الرئيس .

فيضرب المراجع على جبهته بقبضة يده ، ويلعن الحالة الجديدة والملاحقات عند المرتشين وعذوبة الموظفين ويقول :

- كنا نعرف في الماضي على الأقل كيف نعمل .. فقد كنا نعطي روبلاً واحداً للرئيس فيسير العمل ... اما الان فيجب دفع مبلغ خمسة وعشرين روبلاً واطافة اسبوع لمعرفة ما يجب عمله ... ألا فليذهب الشيطان بشرف الموظفين .

وهذا المراجع على حق بلاريب فالرؤساء جميعهم شرفاء والموظفون وحدهم اللصوص .

وفتح امام تشنشيكوف مجال واسع للعمل ، فقد تألفت لجنة لاشادة بناء حكومي ، واصبح بافل ايفانوفتش من انشط اعضائها .

اخذ الجميع بالعمل ، ومرت ست سنوات دون ان يتقدم هذا البناء مرحلة الاساسات اما بسبب رداءة الجو او لنقص المواد ، واستطاع كل عضو في هذه الاثناء ان يبني في طرف المدينة بيتاً صغيراً جميل المظهر . ذلك ان الارض في تلك المنطقة يجب ان نكون احسن منها في وسط المدينة .

وفي ذلك الحين ترك تشنشيكوف شيئاً بعد شيء قواعد نكران الذات

القاسية التي جعلها دوماً رائده . وقرراً لا يحرم نفث شيئاً واطهر عند ذلك انه يجب جميع هذه المباحج التي حرم نفسه منها منذ شبابه . منذ ذلك العهد الذي لا يملك الانسان فيه زمام امره .

وسمح تشيكوف لنفسه ببعض المبالغات فحصل على طاء ممتاز وارتندي القمصان الهولندية الجميلة واشترى قمشة لا يرتدي . منها احد في الريف ، وأصبح لون ثيابه بعد ذلك كستنائياً وحصل على عربة وجوادين ، وكان يقود عربته بنفسه كما اعتاد على الاغتسال بصابون معطر وبناء الكولونيا الغالي الثمن .

وحدث ان عين رئيس للمحكمة جديد ، وكان رجلاً عسكرياً يكره الرشوة والمذوعة . وقد أرهب جميع الموظفين منذ وصوله ، وطلب دفاتر الحسابات واخذ يفحصها بدقة . وكان المال ناقصاً في الصندوق ، ذلك ان الموظفين قد بنوا لانفسهم بيوتاً في الاحياء البعيدة من المدينة . وهكذا بدأت عملية التطهير ، فصرح بعض الموظفين وصدورت ممتلكاتهم ونحوت الى التاج لاستخدامها كمدارس او مبرات . وعانى الجميع من قسوة الرئيس الجديد ، وعانى تشيكوف اكثر مما عاناه الجميع . ذلك ان تصرفاته اللبقة لم تعجب الرئيس لسبب لا يعلم به الا الله فنقم عليه حتى الموت .

كان الجنرال اذن قاسياً صلباً . وبما انه كان عسكرياً يجهل مداورات المدنيين ، فقد عرف الموظفون اخيراً كيف يكسبون ثقتهم بتذللهم وخضوعهم التام دون قيد او شرط . وهكذا وجد الرئيس الجديد نفسه مريعاً بين ايدي ، عصابة من اللصوص اخطروا من الذين سبقوهم . وكان هو سعيداً بامتلاكه ناصيتهم ويفخر بان لديه رجالاً لهم هذه الصفات النادرة .

هكذا فهم هؤلاء الموظفون نفسية رئيسهم ومزاجه ، فتابعوا ظلمهم بحماس صيادي القولفا ، فاجتمع لديهم من هذا الصيد الثمين وأعماله من ألوف الروبلات . عند ذلك عرف عدد من قدماء الموظفين هذه الحقيقة عن نفسية الرئيس فاستطاعوا العودة الى وظائفهم .

الا ان تششيكوف لم ينجح رغم جميع ما بذل من الجهود ان يحصل على رضى الرئيس . ومع ذلك فقد حاول سكرتير الجنرال الخاص ان يحصل له على وظيفة بواسطة الامير كونفسكي ، ولكن ذلك كان مستحيلاً . إذ انه من السهل ان يقاد الجنرال من انفه ، ولكن ما إن تستقر في ذهنه فكرة ما حتى تلتصق فيه كأنها مسرة ولا يستطيع احد مهما اوتي من حجاج ان يغير منها . وكل ما استطاع السكرتير عمله حذف الحواشي المحقرة التي كتبت في سجل خدمة بافل ايفانوفتش . ولم يتوصل الى هذا الا بعد ان اثار شفقة الرئيس على عائلة تششيكوف ، وهي عائلة لم يكن لها لحسن الحظ وجود .

حدث بافل ايفانوفتش نفسه قائلاً : « وماذا ؟! » . لقد انقطع الشعر الذي القيته ، والدعوع لم تعد تجدي فتياً ، فيجب ان اعاد العمل ، فقرر ان يجتري مهنة جديدة ، وتسلح من جديد بالصبر ، وعزم ايضاً على احتمال الفقر والحرمان كالسابق ، وكان عليه ان يقصد مدينة اخرى ويعرف اوساطها به . وعانى كثير من المشقة في بادىء الامر ، وتقلب في فترة قصيرة بين ثلاث وظائف ، لانها كانت كلها فذرة محقرة . ويجب ان نذكر هنا بان تششيكوف كان يتصرف دوماً كرجل اجتماعي لبق . ومع انه اجبر في السنوات الاولى على ارتياد وسط قدر يبعث على الاستمزاز ؛ فقد عرف كيف يحتفظ بصفاء روحه ونقاها متطلعاً دوماً الى العمل في المكاتب ، حيث يوحى كل شيء هناك بالاستقرار طيبة . ولم يكن ليسمح لنفسه مطلقاً ان يتفوه بكلمة نابية ، وكان يشتر كثيرأ اذا لاحظ من زملائه عدم احترامهم للالقب واللطافات .

ولا شك في ان القاريء سبسر إذا علم بانه كان يغير ملابسه كل يومين في فصل الشتاء ، وكل يوم في فصل الصيف . وكانت الروائح الحبيبة تجعله مريضاً لذلك كان يحشر في أنفه زهرة قرنفل عندما كان يتروشكا بساعده على خلع ملابسه . وكان بافل ايفانوفتش مرهف الحس كالفتاة ، ولذلك كان من الشاق

عليه ان يجد نفسه في وسط تسبطر فيه البذاءة والادمان على بنت الحان .
 وحاول ان يضبط اعصابه ولكنه عانى الكثير من جراء ذلك ، وانتابه الهزال
 بشكل مفرغ . وهتف ذات يوم وهو ينظر في المرأة : « لقد اصبحت قبيحاً »
 وانقطع عقب ذلك مدة طويلة عن الاعتناء بهندامه أمام المرأة .

احتمل بطلنا هذا البؤس بصبر واستسلام ونجح أخيراً في الحصول على وظيفة
 في الجمارك . وكان قد رأى كيف يحصل على رجال الجمارك على الاشياء الثمينة
 الآتية من الخارج ، كما شاهد الاقمشة الغالية والحزف الجميل الذي يرسلونه الى
 صديقاتهم وخالاتهم وشقيقاتهم . فقال لنفسه اكثر من مرة متهدداً : « هوذا
 العمل الذي يجب ان احصل عليه فأصبح قريباً من الحدود واصادف أناساً
 اكثر مدنية ... واستطيع ان احصل بسهولة على قمصان هولندية فخمة ! » .
 ويضاف الى ذلك ان نشتشيكوف كان يفكر في الصابون الفرنسي الجيد الذي
 يجعل البشرة بيضاء ناعمة ، ويسبغ على العذارين نعومة لا توصف . ولم يكن
 يعرف اسم هذا الصابون ، ولكنه كان واثقاً من إمكان وجوده على الحدود .
 وكان بافل ايفانوفتش عضواً في لجنة الابنية عندما خطر له للمرة الاولى
 ان يدخل في خدمة الجمارك . ولكن كان هذا الامر بدا له حلاً بعيداً ولم يكن
 ليتترك الفريسة من اجل ظل ، ولم يكن ليفلت من يده العصفور الصغير من
 اجل « كركي » رآه وسط الغيوم . وهكذا ، ومنذ ذلك الحين قام بعدة مساع
 ليتوظف في الجمارك ، وقد نجح في ذلك أخيراً .

اظهر نشتشيكوف مباشرة نشاطاً عظيماً فوق كل ثناء وكأنه ولد موظفاً
 في الجمارك ذلك انه ابان دقة وذكاء عظيمين . وفي غضون ثلاثة او اربع
 اسابيع وجد بافل ايفانوفتش نفسه مطلعاً على جميع دقائق مهنته الجديدة .
 ولم يعد بحاجة الى الوزن او القياس ، اذ انه كان يعرف من الفاتورة كم يجوي
 هذا الصندوق من الاقمشة او من المواد الاخرى . وكان يكفي ان يمس (بالة)

ليعرف وزنها . اما تفتيشه لحقائب المسافرين فقد كان وفاة يتدحون ، بعد كل تفتيش ؛ حاسته الغريبة في اكتشاف المهربات . ولم يكن في الامكان عدم الاعجاب بالصبر الذي يظهره عند تدقيق كل حاجة ، وكان بروده وأدبه ييجان الاعصاب . وفي حين كان المسافرون ينتظرون بصبر فارغ ، ويشعرون برغبة لا تقاوم في قتل هذا الموظف المؤدب كان تششيكوف يقول لهم بادب جم دون ان يتغير شيء من تعبير وجهه : « هل تسبح بان تزج نفسك قليلاً وتقف ؟ » او : « أيسرك يا سيدي أن تذهبي الى الغرفة المجاورة ؟ ان زوجة أحد موظفينا ستفاهم معك قليلاً ، او اخيراً : « اسمح لي يا سيدي ان افتح بهذه السكين بطانة معطفك ! » .

وبعد ذلك ، كان يسحب من البطانة ، مناديل وشالات كأنه يخرجها من حقيبته الخاصة . وكان المفتشون انفسهم يدهشون ويقولون ان تششيكوف هو الشيطان بعينه . وكان يفتش عجلات العربات وجراراتها وآذان الخيول ومواضع اخرى دقيقة لا يجراً أي مؤلف على ذكرها ، وحبث يستطيع رجال الجمارك فقط ان ينظروا فيها . وكان المسافرون بالمقابل يحتاجون الى وقت طويل بعد ان يغادروا الحدود ، لتهديئة انفعالاتهم ، وكانت حالتهم تذكر بحالة التلميذ الذي يخرج من غرفة مديره بعد ان ركله هذا بصورة مفاجئة غير منتظرة .

وهكذا اضحى التهريب مستحيلاً تماماً ، وأصبح تششيكوف مربع اليهود والبولونيين . وكانت أمانته ونزاهته فوق التصور ، فقد كان يرفض ان يحتفظ لنفسه بالاشياء المصادرة التي ضاق بها المستودع لتراكم الاشياء فيه . ولم يكن مثل هذا الاخلاص في العمل ليسر دون ان يلفت نظر الرؤساء ، فرفضوا وتبته ومنحوه ثقتهم . وعند ذلك قدم بافل ايفانوفتش تقريراً الى رؤسائه طلب فيه منحه الوسائل اللازمة للذخاج في محاربة المهربين ، فوضعت تحت تصرفه فرقة من الجنود ومنح مطلق الصلاحية في التفتيش ، وكان هذا ما يريد . ويعمل للتوصل اليه .

وفي ذلك الحين كانت عصابة قوية من المهربين قد تأسست ، وكان عملها منظماً بدقة ، بشكل جعل أفرادها يجنون الملايين . وكان بافل ايفانوفتش يعرفها منذ زمن طويل ، حتى انه استقبل بعض عملائها القادمين اليه لشراؤه واجابهم ببرود :

« لم يكن الوقت بعد ! » اما الان فقد اصبح حراً في التصرف كما يهوى ، ولذا كتب الى رئيس العصابة هذه الكلمات البسيطة : « لقد أذنت الساعة ! »

كانت تقديرات تششيكوف متينة ، فقد كان بمقدوره ان يربح في سنة واحدة ما لا يمكن ان يجمعه في عشرين سنة من العمل المجد . ولم يكن بافل ايفا نوفتش يريد ان يتصل بالمهربين قبل ذلك . فقد كان هؤلاء في الحقي يعاملونه باديء الامر وكأنه كمية مهمة . وكان ما سيدفعونه له ضئيلاً جداً . اما الان فقد تغير الوضع واصبح بمقدوره ان يفرض كما يريد . وكى ينجح في عملياته هذه اشرك معه موظفاً آخر لم يستطع ان يقاوم الاغراء رغم سنه وشعره الاشيب .

واتفقوا على الشروط وقرروا مباشرة العمل . ويعرف القاريء بلا شك قصة الخراف التي اجتازت الحدود وهي تحمل تحت صفوفها انزائف ما ثمة الملايين من الدانتيل .

ان هذه القصة قد جرت في نفس الآونة التي كان فيها تششيكوف موظفاً في الجمارك . ولولا انه اشترك في هذه العملية لما نجح يهودي في العالم فيها . وقد اعيدت هذه العملية البسيطة ثلاث أو أربع مرات ، فحملت الى كل من تششيكوف وزميله ربحاً صافياً قدره اربعمائة الف روبل . وبما ان بافل ايفا نوفتش كان اقدر من زميله فقد حصل على خمسمائة الف روبل فقط . والله وحده يعلم مقدار الارباح الجنونية التي كان سيجنيها الاثنان لولا ان شيطاناً

خبيثاً هدم البناء رأساً على عقب ، فقد تخاصم الشريكان ونشب بينهما عداوة حتى الموت . ذلك ان تششيكوف حدث ان دعا زميله مرة بعد مناقشة رجا شرب اثناهما « بابن الكاهن » ورغم ان هذا الاخير كان فعلاً ابناً لكاهن فقد شق عليه ان يذكره احد بأصله فأجاب بعنف : « انك تكذب ! ... أنت ابن الكاهن » وردد عدة مرات : « نعماً . . . انت ابن الكاهن ! » وكان بالامكان اعتبار الامر منتهياً بعد هذا الرد على تششيكوف . الا ان الموظف لم يكتف بذلك بل ارسل تقريراً سرّياً كشف فيه النقاب عن نشاط تششيكوف . ومع ذلك فقد ساءت علاقاتها قبل ذلك بسبب امرأة جميلة يشبه لهما المكتنز الطري اللفت على حد تعبير موظفي الجمارك .

وامتوَجِر بعض الرجال لقتل بطلنا ولكن الشريكين سرعان ما وجدا نفسيهما مخدوعين اذ ان هذه المرأة قد فضلت عليهما الكابتن شامشاريف . وماذا يهم ذلك كله ، فان القاريء باستطاعته ان ينسج ما يشاء حول هذا الحادث ولكن الشيء الذي لا يمكن اصلاحه هو اطلاع الادارة على علاقات بافل ايفانوفتش السرية مع المهرين . وفقد الشريك وظيفته وجبر معه تششيكوف . ووقف الموظفان وصدورت أموالهما . ومات بعد ذلك زميل بافل نوفتش في زاوية مجهولة من الريف ، اما تششيكوف فلم يدع العاصفة تجتاحه ، اذ انه نجح في اخفاء قسم من ثروته وخدع أبرع مفتشي البوليس الذين كلفوا بالتحقيق في الحادث .

وقد عرف ايضاً كيف يدافع عن نفسه مستخدماً في ذلك ذكاه ، وفتنة مظاهره ، وحرارة خطبه ، والتسلق الذي لا يسيء الى احد ، كما استخدم الى جانب كل ذلك المال . وهكذا افلت بافل ايفانوفتش من العدالة ، فكان اسعد حظاً من زميله الواشي .

وقد خسر ، بالتأكيد ، وأسماله والهدايا التي كانت تأتيه من الخارج ولكنه

كان يملك عشرة آلاف روبل احتفظ بها للايام السود ، وبعض القصص المولندية وعربية من النوع الذي كان يستخدمه العازبون ، وعبدان هما سليفان الحوذي وبتروشكا ، وتأثر الموظفون من زملائه بالمصيبة التي نزلت بساحة رئيسهم السابق فأعطوه بعض الصابون الفرنسي الذي يحافظ على نعومة الحدود ، لذلك فانه عندما كان يقول : « وهكذا قاسيت كثيراً في خدمتي الحقة ... » كان يشير بذلك الى البلية التي انقضت على رأسه .

ان القارىء ليعتقد دون ريب بأن تششيكوف بعد ما مرت به هذه المحن والأحزان ، وتلك الكارثة الاخيرة ، قد اعتكف في مدينة صغيرة لينعم بحياة هادئة . وهناك يرتدي دوماً ثوبه المنزلي ويقضي ايام الاحاد في فض منازعات الفلاحين . ثم يذهب بعد ذلك لينتقي بنفسه الدجاجة التي سيأكلها مساء . ويقضي حياته هكذا دون إحداث ضجة . ولكن القارىء بلا شك واهم ، ونحن نعتقد لكل تأكيد ، بقوة تششيكوف المعنوية النادرة . ان هذه العواصف لم تهدى . او تخفف من حدة بطلنا ولم تطفىء جذوة الحساس التي كانت تنقد فيه مطلقاً . كان اذن يروح تحت وطأة الآلام فتار على العالم أجمع ولعن الحظ وجور البشر . ثم قرر ان يجرب حظه من جديد في مبدان آخر . وأظهر ثباتاً وحرارة يبدو أمامها حب الالمان باهتاً ، وهم الشعب الذي يمتاز بدورة دموية بطيئة . لقد كان تششيكوف على العكس من هؤلاء الالمان تماماً ، اذ ان دمه كان يحول فيه بعنف وكان لابد من عقل واجح وارادة قوية تكبح جماح هذا العنفران الذي يطلب ان يشب ويعبر عن نفسه بحرية .

أجرب بطلنا المحاكمة الصائبة الآتية : كيف حصل ذلك ؟ ولماذا انضبت هذه المصائب فوق رأسي ؟ ومن لا يغتنى من الوظيفة ؟ اني لم أشق انساناً قط لم اسرق أموال أرملة ولم أسلب أحداً مركزه . لقد استفدت من العمل الذي يقدم عليه اي انسان ، ولولم أقدم عليه لاستفاد منه انسان آخر . ثم لماذا نجح هؤلاء في حين أصابني الفشل ؟ كيف لا أشعر بتبكيت الضمير اذا ما أضمت وقتي

سدى ؟ وماذا سيقول اولادي فيما بعد ؟ انهم بلارب سيقولون : لقد كانت والدنا وغداً . . انه لم يتوك لنا شيئاً .

ونحن نعلم ان بافل ايفانوفتش كان يفكر كثيراً في سلالته . وهي مشكلة مؤثرة ، اذ من الذي يتابر على نشاطه ويلاحق اعماله بنفسه لولا وجود مشكلة الاولاد ومستقبلهم ؟ وهكذا فان أب المستقبل يشبه الى حد كبير قطعاً حذراً ينظر بطرف عينه ما اذا كان صاحبه حاضراً ؛ وحين لا يرى انساناً يأخذ جميع ما يعثر عليه بالقرب منه ، سواء كان ذلك صابوناً او شمعاً او عصفوراً صغيراً ولا يدع شيئاً يفلت منه . كان بافل ايفانوفتش يئن ويشكو اذن ، ولكن الرغبة في العمل كانت تستيقظ في داخله ، وكانت الافكار تزدهم في ذهنه ، الا أن ما كان يهوزه فقط ، هو الحطة الدقيقة المحكمة .

ومن جديد عاد الى الجباه القاسية وحرّم نفسه كل شيء كما تخلى عما اعتاد عليه من حياة رعية ناعمة . فقبل وظيفة وكيل اعمال بانتظار عمل أفضل . ولم تك هذه الوظيفة قد اخذت حقها بعد من الاحترام في روسيا . فالوكيل كان محترماً من قبل أي موظف صغير ، ومن قبل الذين يستخدونه ، وغالباً ما كان يجد نفسه هدفاً لقسوة الناس وبذاءاتهم .

وفي ذات يوم كلف برهن مائة عبدقن . وكان وضع صاحب الفلاحين سيئاً جداً ! فالموسم ردي ، والمواشي أصيبت بالأوبئة وانتشرت امراض اودت بكثير من العمال ، والى جانب ذلك كله كان الملاك طائشاً . فقد بنى منزلاً فخماً في موسكو أنفق عليه آخر كوبيك يملكه . وكاد ان يموت من الجوع ، والافتراض من الدولة ، كان امراً جديداً لا يقدم عليه احد دون رهبة وخوف .

قام تششيكوف بصفته وكيل الملاك بالخطوات الاولى اللازمة . ولم يكن في الامكان تقديم اي طلب دون دفع ثمن زجاجة من المادير لكل موظف . وأوضح بافل ايفانوفتش بعد ذلك ان العبيد موتى وسأل ما اذا كانت هناك صعوبات ستنبج عن ذلك في المستقبل . فأجاب السكرتير : ان اسماء هؤلاء

الموتى مسجلة في لوائح الاحصاء ، أليس كذلك ؟ اذن لماذا تقلق نفسك بسبب ذلك ؟ وان الاولين يموتون ثم يولد آخرون مكانهم فيستقيم بذلك الحساب ، وكانت هذه الكلمات بمثابة كشف جديد بالنسبة الى تششيكوف ففكر : « لى انا ابله ... اني افتش عن الفقار بينما هو معلق في سطي ... اني اشترى نفوساً ميتة قبل الاحصاء الجديد ... وليكن عددهم ألفاً مثلاً . فؤسة القروض تقرضني مقابل رهن هؤلاء الفلاحين مائتي روبل عن كل عبد ، فيصبح في حوزتي رأسمال قدره مائتي ألف روبل . ان الظرف مناسب فالأوبئة منتشرة وخدمات عدد كبير من العبيد ، كما ان الملاكين قد خسروا في القمار ، أو بذروا أموالهم في اللهو ، أو أن الديون قد أرهقتهم فذهبوا الى بطرسبرج يفتشون عن الثروة . ان املاكهم مهلة ودفع الضرائب صعب عليهم ، لذلك فيستخلون لي بسرور عن أموالهم ولو كان ذلك في سبيل الخلاص من دفع الضرائب عنهم ... ان هذا للعب وجريء ، ولكن علي أن أخاطر ! والا فلماذا وهب الانسان الذكاء ؟ ن ما تخلفني هو كون الامر غير معقول بحمد ذاته فلا يصدق به انسان ! ولا يمكن بالتاكيد شراء عبيد او رهنهم دون ارض ، ولكني سأستريح وارسلهم الى مناطق جديدة أستغلها ، إذ أن الاراضي تمنح دون مقابل في حكومي خرسوك وتوريد وما على الانسان الا سكناها ! وهكذا ارسل اليها نفوسي الميتة . واذا واذا أراد أحد أن يتحقق من صحة وجود هؤلاء الفلاحين فاني ابرز له العقود الشرعية الموقعة من قبل الكابتن اسبرافنيك في المنطقة التي تم فيها الشراء . واما القرية فيمكن ان اسميها بقرية تششيكوف ، او أن ادعوها باسم المعمودية « قرية بافلوفسكي » . وهكذا وضع بافل ايفانوفتش هذه الحطة الغريبة . وسواء أأرضت القاريء أم لم ترضه فان المؤلف يمتن في قرارة نفسه من بطله هذا ، لانه لو لم يتبع هذه الحطة لما كتب هذه القصة ان تأخذ طريقها الى عالم الوجود .

ودسم تششيكوف اشارة الصليب على الطريقة الروسية وباشر بتنفيذ خطته دون تهرب . وقرر ان يدرس بنفسه مناطق بلادنا المختلفة متذرعاً بحجة تغيير

حل إقامته ، كما قرر ان يدرس بصورة خاصة المناطق التي قاست كثيراً من
المواسم السيئة وارتفاع نسبة الوفيات فيها اكثر من غيرها . فقد كان يستطيع
ان يشتري منها ، بسعر ارخص ، النفوس الميتة التي يحتاج اليها . ولم يتوجه
مطلقاً الى اي ملاك بل كان يختار الاشخاص الذين يتوسم فيهم اللبونة في مثل
هذه العمليات . وكان بافل ايفانوفتش يعقد علاقات مع الشخص ويسعى لكسب
ثقته كي يحصل على ما يريد باسم الصداقة اكثر منه باسم عقد صفقة .

ولا يجب على القراء ان يفضوا اذالم تعجبهم شخصيات هذه القصة فتشتيكوف
وحده هو المسؤول عن ذلك ، وهو هو السيد وعلينا ان نتبعه حيث تقوده
رغبته . واذا اتهمنا بعضهم بعدم الانسجام في الابعاد وبضالة الاشخاص
واقلامهم ، فانتنا سنجيب بكل بساطة بان الفكرة العميقة للمؤلف لا تتكشف
مطلقاً منذ البداية .

ان الوصول الى مدينة او الى عاصمة هو دائماً شيء باهت اللون . اذ ان كل
شيء قائم رتيب . وفي كل مكان مصانع ومعامل لا تكاد تنتهي قد اسودت
بالدخان . اما البيوت المؤلفة من ستة طوابق ، واما الشوارع العريضة وأجراس
الكنائس والاعمدة والآثار والابراج وكل الضخامة وعظمة منتجات الفكرة
الانسانية ... اما كل هذه الاشياء فانها لا تتكشف الا بعد ذلك .

ان القارئ يعرف الآن كيف تمت صفات تشتيكوف الاولى ، وسنرى
فيما يلي ما ينتظر بطلنا من نجاح وفشل ، وكيف سينتظر على أصعب العقبات .
ان الطريق طويلة اما عربتنا التي تقل تشتيكوف وبتروشكا وسلبقان وهناك
ما زالت (فرسات) طويلة .

انتنا نعرف بطلنا كما هو ، وربما طلب البعض اعطاء صورة نهائية مرسومة
دفعه واحدة تبرز فيها طبيعته الاخلاقية . انه من الذين لا يملكون فضيلة ولا
كلاً ... وهذا أمر معروف عنه فمن يكون إذن ؟ أهو وغد ؟ ولماذا يكون
وغداً ؟ ثم لماذا هذه القصة في نظرنا الى الآخرين ؟ انه لا يوجد في روسيا

أوغاد في عصرنا هذا ولا نعرف الا رجالاً دمثين طيبين النية . والذين اهينوا
بضعهم علناً نادرون نعرف منهم اثنين او ثلاثاً . ومن الافضل ان ندعو بأقل
ايقانوفتشه بالسيد الجامع . إذ أن الجمع يظل دوماً علة كل شيء ، فهو أصل
جميع العمليات التي يصفها بأنها ليست نظيفة جداً . وانه بكل تأكيد يوجد في
هذا الخلق ما يدفع على الاشتزاز . ومع ان القارىء يصادف في كل يوم انساناً
من هذا الطراز ويقاسمه الحبز والملح ، ويعيش معه ساعات لطيفة ، فانه يحتقره
ويشتز منه اذا صادفه بطلاً للأساءة او قصيدة . ان العاقل هو الذي يلقي دون
حقد نظرة فاحصة على الاشياء وبسر غور جميع الطبائع ويدرس منها اكثر
المظاهر خفاء . ان كل شيء يتغير سريعاً في الانسان ، وتنمو في اعماقه بسرعة
فائقة دودة مخيفة لا نكتفي بأن تأخذ شكل عاطفة مخيفة فحسب بل تأخذ ايضاً
شكل هو بسيط لا معنى له . وهكذا فان هذا الرجل الذي خلق لحياة جميلة
وشريفة ، ينسى واجباته العميقة المقدسة معتقداً انه وجد العظمة والقداسة في
اعمال صغيرة لا معنى لها . ان العواطف الانسانية كثيرة في عدد حبات الرمل
على شاطئ البحر ، وكل منها لا تشبه الاخرى ، وهي مجموعها ، سواء كانت
رفيعة أم منحطة ، تكون بادية الامر عبدة للانسان ثم لا تلبث ان تصبح
بالنسبة اليه السيدة الطاغية .

سعيد هو الانسان الذي يستطيع ان ينمي في نفسه عاطفة ما ؛ فان سعادته
العظيمة اذ ذاك تنمو وتتسع من ساعة الى اخرى ومن دقيقة الى دقيقة ، وتنعمق
في اجواء روحه اللامتناهية . الا ان هناك عواطفاً ليس للانسان ان يجتازها ،
فهي تولد معه وليس في مقدوره ان يرفضها ، فتكمن فيه حتى الموت . وكل هذه
العواطف تعمل على احداث سلسلة من الاشياء يجعلها الناس حالياً .

ربما كانت العاطفة التي تحفز تششيكوف غير صادرة عنه . وربما كانت حياته
المظلمة الباردة تحتوي على عنصر يجعل الرجل في المستقبل يركع على ركبتيه
امام حكمة السماء . أليس ظهور مثل هذا الوجه في هذه القصة مرأى ؟ لا يعني

ان لا يرضى القارىء عن بطلي فانا متأكد من ان تششيكوف نفسه يمكن ان يرضى قرائي ، وهذه الثقة ثقيلة على نفسي . فلو لم اتعمق في اغوار نفسه واحرك فيه ما يخفى عادة ، ولو لم اكشف عن الافكار السرية التي لا يفصح عنها الانسان مطلقاً لاشباهه ولو صورته كما بدا لما نيلوف ولمدينة (ن ...) الصغيرة : لو فعلت كل ذلك .. اذن لحتف الجميع : كم هو مسل هذا الرجل بافل ايفانوفتش . ولو فعلت ذلك لما قلقت نفوسهم ولتابعوا اللعب بالورق بعد قراءة هادئة ، هذه اللعبة الوطنية حقاً والتي تعزي روسيا بكاملها عن آلامها .

لم تكونوا التودوا ، ايا قرائي الاعزاء ، ان تروا البؤس البشري عارياً على حقيقته ؟ انتم تقولون : « لماذا ؟ وما المقصود من ذلك ؟ أفلا نعرف بان الحفارة والحق موجودان ؟ ان الاشياء المعزية قليلة في حياتنا ولذلك نفضل ان نجد الجمال والبهاء في العمل الادبي فنحن نريد ان ننسى . »

وهكذا فان الملاك يقول لوكيله : « لماذا تروي لي بأخي بان اعماله تسير سيراً سيئاً ؟ أليس لديك ما نقوله لي غير ذلك ؟ دعني أنس احزاني واعمل على جعلي سعيداً ! » وبهذه الصورة يتبخر الماء الذي كان يمكن ان ينقذ البيت ، اجل يتبخر في سبيل تعزية السيد . وهكذا فان فكر الانسان ينام عوضاً عن ان يبحث عن سبل الاصلاح . ثم يأتي اليوم الذي تباع فيه الاملاك بالزاد في حين يبحث السيد عن النسيان ويندهور من سيء الى اسوأ .

لربما اكون قد أغضبت بعض من يدعون الوطنية الذين يقعون بهدوء قرب النار مهتين بأعمالهم الصغيرة التافهة ويزيدون ثروتهم ، ويننون سعادتهم على حساب الآخرين . ولكن ما إن يقع حادث يسيء في رأيهم الى الوطن ، وما إن يصدر كتاب يعرض لحقائق قاسية حتى يهتزون ويجن جنونهم كالعناكب حين ترى ذبابة عالقة بجيوبها وبصبحون : « ما الفائدة من كشف هذه الامور ؟ ان هذا كله يتعلق بنا فقط ... وماذا سيقول الأجانب ؟ انهم سيكونون رأياً سيئاً عنا .. بالهصبة ! لقد انعدمت الوطنية . » واني لأعترف بمعزي عن الاجابة على هذه الملاحظات العاقلة خاصة فيما يتعلق بالأجانب ومع ذلك ...

كان رجلان يعيشان في زاوية مفقودة في روسيا ، وكان أحدهما ، وهو كيفامو كيفنش ، رجلاً هادئاً يقضي حياته في ثيابه المنزلية . ولم يكن يلتفت لأسرته ويكتفي بحياة نأملية ولا يهتم إلا بحل المشاكل الفلسفية كالتشكك المتألمة التي كان يحدث نفسه بها وهو يذرع أرض غرفته : « هوذا مثلاً حيوان أتى الى هذا العالم عارياً ... فلماذا ولد عارياً ولماذا لم يولد كالطائر الذي يخرج من البيضة ... حقاً انه كلما نصبنا بالاشياء كلها قل فهمنا لها .. » . يمثل هذه الامور كان صاحبنا كيفامو كيفنش بتفلسف .

واما ثاني فكان يدعى موكي كيفوفتش وهو ابن كيفامو كيفنش . وكان فارساً شجاعاً او « بوغانير » كما يقال عندنا في روسيا . وفي حين يسمى ابوه الى تعليل ولادة الحيوانات ، كان موكي يطلق العنان لطبيعة المنبسطة ولم يكن يلبس شيئاً ويتركه كما هو ، ولذلك كنت ترى على طريق ذراعاً مقطوعاً هنا وأنفاً مجدوعاً هناك .

وما إن يظهر في البيت حتى يهرب الجميع ، من الخادم الى الكلب ، بأنفاس مبهورة . وفي غرفة نومه حطم سريريه وجعله قطعاً صغيرة ... هكذا كان موكي كيفوفتش . ومع ذلك كان طيب القلب . وكان الاصدقاء والأغراب يقولون للوالد : « اسمع باباتيوشكا كيفامو كيفنش ... ان ابنك موكي كيفوفتش شقي كبير فلا مجال للدعة معه » . فكان يجيب : « نعم انه صاحب قليلاً ، ولكنني لا استطيع شيئاً فقد فات الأوان ولن أقاتل معه الآن ليقال عني أب سيء انه يمتد بنفسه فاذا قومت سلوكه أمام الأغراب فانه سيكت ولكن البلد ستحدث كلها عما سيحزني بمد ذلك وسينعتونه بأنه كلب . لا تعتقدوا بأن سلوك ولدي لا يعينني ... ألسنت أباه ؟ اني أهتم بالفلسفة ، هذا صحيح ولكنني مع ذلك أبوه ... اني أبوه وليذهب بهم الشيطان جميعاً ... اني أحله في قلبي » . ويضرب كيفا مو كيفنش على صدره ضربات قوية ويترجرجر : « اذا كان

كلاً فليبق كذلك فلت الذي يقول ذلك ... ولست الذي يخون ولده ..
ويتصرف هكذا كأب طيب وبدع موكي كيفوفتش يتابع وتصرفاته ، يعود
هو الى مسأله افلسفيه مهما فجأة بالمشكلة التالية : « لو ولد فيل من بيضة فان
قشرتها ستكون ضخمة جداً ولاستطيع قذيفة مدفع ان تحطبها ، واذن يجب
اختراع سلاح ناري جديد » .

هكذا كان يحيا رجلانا في بقعة مجهولة من روسيا الكبيرة . وقد ظهر
فجأة في نهاية قصتنا لبسحالي بالاجابة على اتهامات الوطنيين المتحمسين . ففي
الواقع ان هؤلاء لا يفعلون شيئاً غير التفلسف ولا يعملون الا لزيادة ثرواتهم
على حساب ثروة وطنهم العزيز ولا يفكرون في منع الشر ، ولكن في منع
الكلام عن الشر الذي يقترفونه . كلا ! ان وطنيتهم ليست هي المصدر الأساسي
لאתهاماتهم ؟ فهذه الاتهامات تخفي شعوراً آخر .

ولماذا لانسمي هذا الشعور باسمه ؟ ان الكاتب مسؤول عن اعلان الحقيقة
المقدسة ، انهم يخافون من النظرة التي تنفض بعق . انهم خائفون من ان
يلقوا بانفسهم نظرة متعمقة على الاشياء لانهم لا يحبون النظر الا بعيون
تنزل على السطح .

لربما سخرتم جميعكم من تششيكوف ، ولربما قلتم وانتم تدحون المؤلف :
« ما اقوى ملاحظته .. أي مرج ينطوي عليه ؟ » ثم تضيفون وانتم راخوت
عن انفسكم فريرو العين على كبريائكم : « ومع ذلك فلنعترف باننا نصادف في
الريف امثال هؤلاء الناس السفهاء والادعياء » .

ولكن من منكم يجرأ وهو منطو على ذاته ان يتساءل بنحشوع المسيحي :
« أليس عندي شيء من تششيكوف ؟ » .

ويعر قرب قارئ احد اصدقائه المنتمين الى الطبقة المتوسطة ، فيلكر القاري
جاره في الحال ويهتف وهو يكم رغبته في الضحك :

« انظر ... انظر هوذا تششيكوف مار » . ثم يندفع كطفل ناسياً وقار

السن والمركز الاجتماعي ويركض وراء النعس يضحك منه ويسخر به :
« تششيكوف ، تششيكوف ، انظروا تششيكوف » .

ولكن آه .. ان صوتنا قد ارتفع كثيراً . وان بطلنا الذي كان دائماً داخل
عربته طيلة هذه المدة التي استغرقناها في الحديث عن قصة حياته ، قد استيقظ
من نومه الآن . ويمكن له ان يسعنا نردد اسمه بكثرة . وهو كثير التشكك
وسريع الغضب اذا لم نتحدث عنه بالاحترام الواجب علينا تجاهه .

ولا يهم القارئ ان يغضب تششيكوف او يرضى ، أما أنا ، فليس عندي
أية رغبة في الخصام مع بطلي . فالطريق التي علينا ان نجتازها طوبى ، إذ ان
أمامنا جزئين آخرين ومهمتنا مازالت قاسية .

صاح تششيكوف بسليمان :

.. ايه ... ايه ماذا تفعل ؟ انت ..

فاجابه سليمان ببطء :

.. ماذا تريد ان تقول ؟

.. كيف ؟ ايها الابله ! انت لا تتقدم ! السرع

وكان سليمان نصف نائم منذ وقت طويل ، ويضرب بالعنان حيواناته
بصورة آلية وهو مغمض العينين تقريبا .

اما بتروشكا فبعد ان فقد قبضته مال على ركبتيه معامه ، وقد كاد بافل
ايضا يوفتش يتخلص منه اكثر من مرة بدفعه الى الارض .

واخيراً استيقظ سليمان وضرب الجواد المبرقش بالسوط على ظهره فجري
الاخير مسرعاً . ثم قال الحوذي مداعباً حيواناته : « لانتحشوا شيئاً يا
صفاري » . جرت الجياد واخذت العربية تطوي الارض بسرعة . وكان سليمان
يقفز فرحاً فوق معقده وهو يصيح :

« ايه ... ايه ... » وصعدت العربية . مرتفعاً ثم هبطت منحدرأ ، ثم

قلاده من جديد مرتفع خفيف متتابع ، وكان نششيكوف يتسم وهو يتروح بين ومائه اذ انه كان يحب السرعة العظيمة ، واين هو الروسي الذي لا يحب السرعة؟ ان روحه لتنتفتح عندما يجتاز المسافات بسرعة فيهتف اذ ذاك : وايه... ليذهب الشيطان بكل شيء! ، وكيف لا يحب السرعة التي تبدو كأنها نسر شيئاً سحرياً ، فيعتقد المسافر ان قوة سحرية تحمله على جانحها فيطير وتطير معه (الفرستات) وتختفي خيوط العربات اللامتناهية مع غابات الصنوبر حيث يخرج نبعق الغربان بوقع ضربات الفؤوس ...

كل شيء يختفي ، ويختفي الطريق نفسه في الجهول البعيد ، وتأخذ الاشياء معنى مخفياً ... والسما وحدها فحسب تتميز بفيومها الخفيفة ، وينزل القمر خلال هذه النجوم التي تبدو شابة .

آه .. ايها العربية .. ايها العربية الطائرة من اخترعك اذن ؟ انه لا يمكن لك ان توجد في الاغند شعب ذي اخلاق بطولية على ارض تعيش فيها الاشياء العبيقة ، ارض تشغل نصف الكرة الارضية حيث لا يوجد من يضع وقته بتعداد (الفرستات) انك ايها العربية لاثنتين شيئاً غريباً .. انت سريعة الصنع ، فضربة فأس ومقص فلاح ماهر من جاروسلاف يكفي لصنعك . ولبس اللعوزي الحذاء الالماني القوي .. لا .. ولكن له لحية وقهازان بلا اصابع يجلس على كرسي ويتحرك في مقعده قليلا ، ويفرقع في الهواء بسوطه ، ويدوي صوته بالاغنية ، فتطير الحيوانات وتندور العجلات وترنش الطريق ويقف المشاة وهم يصرخون مذعورين ، وتمرق العربية مخفية طائرة .

وانت ايها الروسية المقدسة ، اية زوبعة تحملك مثل هذه العربية التي لا يستطيع ان يلحق احد بها انك تثيرين عواصف الغبار فتتصف الجسور ويتراجع كل شيء وتجتازين كل شيء . ومن يركبك يقف وكأنه مذهول امام معجزة الالهة . الا يمكن ان تكوني صاعقة تقذف بها قوة من السماء مقدسة ؟ وماذا تعني هذه

الحركة المحيضة ؟ ما هي هذه القوة الغامضة التي تسكن هذه الجياد الفريدة المجهولة؟
آه ! ايها الجياد الروسية .. ايها الجياد ! لكم من المواصف تختفي في
اعرافك ! وعلى القمم تدوي الاغاني المعروفة ، فتستد رثات الجياد البرونزية
ولا تكاد حوافرها تمس الارض . ثم تتناول وتبدو كأنها خطوط مستقيمة غير
متناهية تختفي وتطير في السماء . أيا روسيا المقدسة اجبي !؟ ولكن روسيا
لا تجيب ! وترن الاجراس ويعلو رنينها العذب ويدوي الهواء البارد بقصف
الرعود .. ويهرب كل حي على وجه الارض ، وتختفي بقية الشعوب وتبتعد
بقية الامبراطوريات ، لتفسح كلها لك الطريق ايها روسيا المقدسة .

القسم الثاني

الفصل الأول

ترى لماذا أصف دوماً البؤس والفقر وجفاف الحياة ؟ ولماذا أزعج سكان البقاع المجهولة من ريفنا الروسي ؟ ولكن ما العمل اذا كان اتجاهي هكذا ، واذا كنت عاجزاً عن وصف اشياء اخرى غير مظاهر البؤس والعاهات البشرية وحياة أناي القرى في دولتنا هذه ؟ وهكذا فاننا نجد انفسنا مرة اخرى في الوحدة في القرى الضائعة .

كانت سلسلة غير متناهية من الهضاب كأنها قلعة ضخمة ذات أبراج تمتد بخط منكسر على طول اكثر من ألفا (فرست) . وكانت القمم تلتصّب بجبالها على السهول الفسيحة كأنها أسوار عالية تتخللها الشقوق ، تتكور بشكل نهود ، مخضرة مغطاة بنسج من الاعشاب حبكت جذور الاشجار التي نجت من القاس المحرم بأعجوبة . وكان نهر ينساب كالافعوان و فياً لشطآنه ، ولكنه كان يحفر لنفسه في بعض الاماكن منعطفات فجائية ، نهرب نحو المراعي وتنبسط فيها كمرآة

من نار تعكس اشعه الشمس ثم تضبع في الغابات ، وتمر أخيراً تحت الجسور والطواحين والحواجز التي تبدو كأنها تهرب هي الاخرى كلما مرت بها المياه . ولكن هاهي ذي الجبال تتوارى تحت كتلة ضخمة من الاشجار الخضراء ، وكأننا التقت فيها شجيرات الشمال والجنوب . وهناك اشجار والصنوبر الصفصاف والبلاب وحشيشة الدينار والزان والحور ، وقد كانت جميع هذه الاشجار تتساند وتتشابك او يمتزج بعضها بعضاً وهي تنحدر أو تصعد في الجبل . وعلى قمة هذه الغابة الكبيرة يطفو سقف احمر لقصر سامق وسقوف عزب الفلاحين المجاورة ، وبيت السيد بشرفته العريضة ونافذه الكبيرة . وفوق هذا الحضم الطامي من الاشجار والسقوف ، ارتفعت كنيسة قديمة بأقواسها الذهبية التي تعكس شعاعات باهرة على القرية بكاملها . وكانت صلبان يونانية مثبتة عليها بسلاسل ثقيلة من المعدن نفسه . وهكذا يخيل للمرء عن بعد انه يرى قصرًا معلقاً في الهواء بأعجوبة إلهية يعكس لمبأ ذهبياً . كانت جميع هذه السقوف والاقواس والصلبان تنعكس في سفع الهضبة على مياه النهر النقية ، وكانت الاقصاب وشجرات الصنوبر المغمورة بالمياه ، بأغصانها وأوراقها ، تتأمل هذه الصورة الساحرة . ومع ذلك لم يكن هذا المنظر ، الجليل غاية الجمال ، ليعادل ذلك المشهد الذي يمكن التمتع به من أعلى القصر . ولم يكن من صديق او ضيف يمر دون ان يلحظ هذا المنظر البديع فيحتف منتشياً : « ايها السيد ما هذه العظمة ؟ » ان المساحة لتبدو غير محدودة ، فكنت لا تشاهد خلف المروج الاضواحي من الماء والادغال . وكانت الغابات تمتد منقسمة الى مناطق عدة . وأبعد من ذلك ، هناك ، في الجو الغائم ، كان لون الرمال يضرب الى الصفرة ، ثم غابات زرقاوات اللون كالبحر ، وضباب ينتشر في البعيد ، ثم ، ومن جديد ، رمال اكثر شحوباً ما زالت محتفظة بلونها الاصفر .

واما في الافق فهناك جبال ممتدة بيضاء حتى في ايام العواصف والامطار

منورة بالشمس الخالدة . وبفضل هذا البياض الناصع كنت تلحظ في سفوح تلك الجبال غيوماً تتصاعد نحو العلو بخط لولي . كل هذه المشاهد ما كانت عين الانسان لتستطيع رؤيتها عن بعد . اما شعاع صليب الكنيسة الذهبي فهو الالة الوحيدة على ان هذا المكان آهل بالسكان .

ان هدوءاً عميقاً يجيم على هذه الابعاد ، هدوءاً مطبق لا يعكر صفوه شيء حتى ولا تغاريد الطيور الخافتة . ولم يكن باستطاعة ضيف هذا السيد الذي يتأمل في المنظر ساعات متواصلة الا ان يتفوه بهذه الكلمات : « ايها السيد! ما هذه اللانهاية ؟ ما هذا البهاء ؟ !

ولكن من يكون صاحب هذه القرية التي تشبه قلعة منيعة لا يمكن الدخول اليها الا من الجانب المقابل للنهر ؟ .

ان اشجار الصفصاف المنتشرة هناك تستقبل الزائر بلطف مادة اليه أغصانها القوية كأنما تريد ان تعانقه وتود أن ترافقه الى القصر الذي لم نرمه حتى الآن الا جدران الخلفية . كانت واجهة هذا القصر تبدو تامة ، وقد صفت على احد جانبيها بيوت الفلاحين ، بينما قامت في الجانب الثاني كنيسة تشع بصلبانها الذهبية . ترى من هذا الرجل السعيد الذي يملك هذا الفردوس المنعزل ؟ ان المالك شاب اعزب في الثالثة والثلاثين من عمره وبدعى أندريه ايفانوفتش ننتبة بكوف . ولكن من هو ؟ وما عاداته وصفاته ؟ الاتوجهن أيتها القارئات بهذه الأسئلة الى الجيران !

ان أحد هؤلاء الجيران ، وهو من عائلة ضباط متقاعدين ، يقول : « انه وغد لئيم ! » وهناك جار آخر ، وهو جنرال يسكن على مبعدة عشر (فرسات) منه ، يقول : ان تنيتني بكوف ليس بالشخص النفسي ، ولكن رأسه تسكنه حماقات كثيرة ... اني استطيع ان اكون له ذا نفع ، ذلك انه لي علاقات كثيرة في بطرسبرج ... ثم ... ولا يتابع الجنرال عباراته . ولكن هناك

جار ثالث له يدعي الكابتن اسرافنيك يقول : « غداً سأذهب اليه من اجل بقايا ديوان ! » واما الفلاحون فكانوا لا يتكلمون ، وإذن فالجميع يروث في تفتينيكوف رأياً سيئاً ، وما هو بالانسان السيء ولكنه رجل لا عمل له . وهناك كثيرون لا عمل لهم غير التناؤب ، فلماذا لا يتناهب تفتينيكوف ؟ ومع ذلك فسندكر كيف كان يقضي أيامه ليكون القاريء فكرة عن طبع اندريه ايفانوفتش وكيف كان يستمتع بالجمال الذي يحيط به .

كان يستيقظ صباح كل يوم في ساعة متأخرة جداً ويبقى زمناً طويلاً جداً ايضاً جالساً على سريره يفكر عيبه . وبما ان هاتين العينين كانتا صغيرتين جداً ، لذلك ، فان استعمال الفك لا يقاظهما لا يعطي مفعوله الا بعد مضي ساعة او ساعتين . وكان الخادم ميكيلو يستطيع ان يحمل الى سيده (طشت) الماء والمنشفة ، وينتظر على الباب قليلاً ثم يعود الى المطبخ ويرجع اخيراً ليرى ان سيده قد استيقظ الآن فقط ، فاغتسل وارتنى ثوبه المنزلي . ثم يقوم تشتيكوف ليذهب الى غرفة الطعام ويشرب الشاي والقهوة والحليب المستعلب حديثاً ، ويمأ الزاوية التي يجلس فيها بفتات الخبز ورماد الغليون . وكان هذا الفطور يدوم مايقارب الساعتين عدأ . ولم يكن هذا كل شيء ، فقد كان يتناول ايضاً كوباً من الشاي البارد ويقرب ببطء من النافذة التي تطل على الباحة . والبكم هذا المشهد التالي الذي يتم في كل يوم : انه قبل كل شيء يسمع صوت غريغوري الخادم يزجر في وجه بيير فيلبنا الخادمة ويقول :

— ايها الحيوانة القذرة .. ايها الدودة المنتنة .. اخرسي ايها الساقطة .

كانت بيير فيلبنا امرأة حادة اللسان مرنة بالرغم من انها كانت تأكل بكثرة الكعك والزبيب وجميع انواع الحلوى التي يعهد بها اليها . كانت هذه المرأة اذن تصبح في وجهه وهي تشير الى قبضتها :

— ايه .. انت اذن تريد ان تذوق هذه .

— ايها الوغدة ، لقد علقت بالوكيل وهو مثلك سارق لص يا كلبة الساحرة ..

ان السيد هنا وهو يسمع كل شي .

- السيد ؟ وابن هو ؟

- في نافذته وهو يرانا .

وكان السيد في نافذته بالفعل يرى ويسمع مايقولانه .

ولكي تكمل اللوحة ، كان هناك طفل ضربته امه يصرخ كالشيطان ، وثمة كلب يعوي من الالم ، إذ احرقه الطاهي بالماء المغلي الذيلقى به من نافذة المطبخ . كان كل شيء في الباحة يزأر ويضج ، وكان السيد يسمع ويرى كل شيء . وعندما تكون الضجة لا تطاق فان تثبتنيكوف ينزعج اخيراً ويأمر بالهدوء . وكان قبل موعد الغداء بساعتين يعكتف في غرفته ليؤلف ، يجد ونشاطه ، كتاباً يدرس فيه الروسية من شتى نواحيها السياسية والتدنية والدينية والفلسفية يريد به ان يحل جميع المشاكل التي خلقتها العصور السابقة . وعلى العموم كان يبحث عن حل لجميع القضايا المعقدة التي تهم الانسان الحديث . ويجب أن نقول إن هذا الكتاب ما يزال « ابدأ » في حيز التأملات . إذ أن الريشة كانت تصر قليلاً على الورقة المليئة بالرسوم والخطوط ثم لا يلبث المؤلف المبصري ان يلقي بخطوطه جانباً ويأخذ كتاباً يقرأ فيه . كان تشبنيكوف يقرأ وهو يتناول الحساء والحكم والحلويات حتى ان بعض الصحاف تبرد وبعضها الآخر يحمله الخدم دون ان يمس . ويشرب السيد القهوة بعد ذلك ويدخن غليونه ويلعب بالشطرنج من نفسه . اما ماذا كان يفعل في الفترة الواقعة ما بين الغذاء والعشاء ، فهذا ما يصعب علي معرفته ؟ ولربما ، وهذا أغلب ظني ، كان لا يفعل شيئاً .

هكذا كان يقضي اوقاته ، ذلك الاعزب البالغ الثالثة والثلاثين من عمره ، وسط تلك الوحدة الكبرى . فهو دائماً متراح يلبس ثيابه المنزلية بدون ربطة عتيق . ولا يشعر بأية رغبة في التزهة او مشاهدة المدينة وركوب الجبل ، بل لا يرغب في فتح النافذة لاستنشاق الهواء النقي . واما ذلك المشهد الرائع الذي يسر كل انسان ، فكأنه غير موجود بالنسبة اليه . فالفارسي من هذا إذن ،

يرى ان أندريه ايفانوفتش ننتيتنيكوف من الطبقة « التي تسمى » اوفاليس ، او « ليجو كيس » او « بابيا كيس » (١) ؛ وهي كلمات لا معنى لها اليوم في عصرنا هذا . ولكن من أين جاءت هذه النقائص ؟ أهى وراثية بالولادة أم أنها ظروف الحياة القاسية التي نسم الانسان بالقسوة ؟ لن أجيب على هذا السؤال . ولكني سأفص شيئاً عن تربية ننتيتنيكوف .

كان كل شيء فيه يصلح لنمو أحسن الصفات . كان طفلاً لطيفاً حالمًا ذا بنية مرضية . دخل في سن الثانية عشرة من عمره في مدرسة يديرها رجل ذكي جداً ، يدعى هو الكسندر بتروفتش معبود الشباب . وكان هذا الأخير يفهم النفس الروسية جيداً ويحب الاطفال كثيراً ويعرف كيف يحفز رغباتهم . فما من تلميذ واحد هناك الا ويركض الى مديره بعد ان يعترف خطيئة ما ، يعترف له بها . وكان المذنب يغادر الكسندر بتروفتش غير خافض الحام ، بل بعزم على ان يحسن سلوكه في المستقبل . وكان هذا المدير ايضاً يعرف كيف يشجع الاطفال فيقول لهم امثال هذه الكلمات البسيطة : « الى الامام .. اسرع وانس انك سقطت ! » ولم يكن يذكر السلوك الحسن في احاديثه ؛ ولكنه يقول : « اني اريد الذكاء ، والذي ليس لديه الوقت الكافي للمزاح ، وحماقات الاطفال تزول من تلقاء نفسها » . وبالفعل فان هذه الحماقات سرعان ما كانت تختفي . اما التلميذ الذي لا يسعى الى التفوق فانه سرعان ما يجد نفسه موضع احتقار رفاقه . ف... « حمير » و « اغبياء » الصفوف العليا مرغمون على تقبل هذه الالقاب من اصغر التلاميذ دون ان يجروا واحداً على رفع يده عليهم . وكان يقال للمدير في بعض الاحايين : « انك تبالغ » ، فخفة تلاميذك قد تنقلب يوماً ما الى وقاحة . ولكن المدير يجيب بدوره : « ان هذا لن يحدث مطلقاً ، فأنا لا احتفظ بالمقصرين اكثر من سنة ، واما الباقون فلمهم صفهم الخاص » هو لا يحب ان يكتب الحق والخبة عند الاطفال ، إذ انه يرى فيها دلائل الصفات الطيبة في المستقبل . ولذا فهو يقول : « انها ضرورية

(١) اصحاب كسولون متراخون .

ضرورة البشور التي يستطيع بها الطبيب ان يشخص المرض .

ان جميع تلامذة المدرسة يبعدون ألكسندر بتروفتش . وكأف بعضهم متعلقين به أكتر من تعلقهم بأهلهم . أما عواطفهم فهي دوماً متجهة نحو معلمهم وتقوى في حياها بقية العواطف الأخرى . وقد ظل التلاميذ بعد موته رداً طويلاً من الزمن يشربون الحرة في يوم ميلاده . ان أقل كلمات التشجيع اذا صدرت منه تكفي لجمل هؤلاء الاطفال يرتعشون من الفرح . وأما دروس الصف الأعلى التي لا يقبل فيها غير التلاميذ المتفوقين ، فلا تشبه في أي حال من الأحوال نظام الدروس المطبقة في المؤسسات الحكومية . انه يطلب من تلامذته هؤلاء ، الذكاء العظيم الذي يسمح للانسان ان يمزج دوماً وان يمتثل مزاج الآخرين وسخريتهم ، وان يتساهل مع الحق ، وألا يغضب او ينمي في قلبه اية رغبة في الانتقام ، كما يسمح له هذا الذكاء ان يحتفظ بنفسه صافية في شئ الظروف . إن ألكسندر بتروفتش كان يسهر دوماً على ان ينمي فيهم جميعاً مواهب الانسان الواعي ، ولذلك فهو يخضعهم لعدة امتحانات ، وهو الى جانب ذلك يعرف علم الحياة . وأما عدد المعلمين عنده فهو قليل جداً ، حتى انه كان يعلمهم بمفرده تقريباً ، متجنباً في تعليمه الغرور والمحاضرات البليغة والدروس النظرية . فهو اذن يحسن ترجمة روح العلم ليستطيع الطفل فهمها ، كما انه لا يعلم لا ما يمكن ان يخلق في الانسان صفة المواطن الصالح . وكان القسم الأكبر من الدروس مكرساً لشرح مجال العمل الذي ينتظر الطالب حين يخرج الى الحياة وألكسندر بتروفتش الى جانب ذلك يحسن الكشف عن هذه الامكانيات بقوة عجيبة ، حتى ان الشاب يجد نفسه ، وهو فوق مقعد الدراسة ، قد انجسه بأفكاره نحو هذا المستقبل الذي يفتح أمامه . ولم يخف المعلم الصعوبات والآلام والنضال ، بل كان يرفع النقاب بتفصيل دقيق عن جميع المغريات والهن التي يتعرض لها المرء في حياته . انه يكاد يعرف كل شيء ، كأنما عاش بنفسه جميع

ظروف الحياة التي يصفها بدقة متناهية . وسواء أكان الامر يعود الى الطموح الذي خلقه الكسندر بتروفتش ام الى لهيب نظراته التي تقرأ فيها عبارة « الى امام » تلك الصيحة التي يمجها الروسي كثيراً ، والتي تخلق المعجزات في نفسه الحساسة المرهفة ، اقول سواء أكان هذا أم ذاك ، فان المراهق يغادر المدرسة ساعياً الى العقبات والمصاعب من تلقاء نفسه لينتصر عليها بمضاء عزيمته . كان عدد المقبولين في هذا الصف العالي قليلاً للغاية ، الا ان الذين تخرجوا منه أصبحوا يملكون قوة معنوية فريدة ، ويبدون كأننا ندوروا بالبرونز ، وعلى استعداد تام قام لبذل جميع الجهود . يعرفون كيف يصدون أمام اشق الاعمال ، في حين لا يستطيع غيرهم ، ولو كان أكثر ذكاء ، ان يتحمل أقل محنة فيسقط او يستسلم للأوغاد . وهم الى جانب ذلك يعرفون الحياة والناس ، يفرضون أنفسهم على أشباههم ، ويؤثرون بقوة شخصيتهم تأثيراً بالغاً على الجميع ، وحتى على الفاسدين .

كان قلب تنيتنيكوف يخفق بشدة حين يفكر بأنه سيقبل يوماً ما في الصف العالي ، والواقع ان الكسندر بتروفتش احسن مرب يمكن ان يجده . الا انه في السنة التي وصل فيها اندريه ايفانوفتش الى هذا الصف ، توفي استاذة فجأة ، فكان ذلك له صدمة بالغة وخسارة فادحة مخيفة لاتعوض .

وهكذا تغير في المدرسة كل شيء ، وحل مكان الكسندر بتروفتش شخص آخر يدعى فيودور ايفانوفتش . ولم يهتم المعلم الجديد الا بالمظاهر الخارجية ، فأخذ يطالب الاطفال بسلوك البالغين ، ولا يرى في نومهم الطبيعي غير الفوضى والتخثر . وقد اعلن منذ اليوم الاول لاستلامه مهام التعليم انه لا يحترم غير السلوك النقي . ولكنه لم يستطع ان يجعل من الاطفال اناساً عاقلين ، فبدأت الاخطاء ترتكب في السر ، فأما في النهار فكان كل شيء يسير سيراً حسناً ولكن اذا ما أتى الليل فان التلاميذ لا يجرمون انفسهم من اي شيء .

وعين اساتذة جدد تختلف طرق تدريسهم تمام الاختلاف عن طريقة المدير في فهم العلوم . واخذوا يستعملون في تعابيرهم الكلمات الغامضة المجهولة ،

وتوسعوا كثيراً في منطقتهم الشخصي ، حتى قتلت روح العلم هذه الصفات التافهة .
وهكذا فقد التلاميذ كل احترام للسلطات المدرسية وسفروا من المعلمين
والمدراء ولقبوم « بالحقى » كما تخلل الفساد المؤسسة برمتها ، واختفت في أقل
من سنتين سماتها القديمة .

كان اندريه ايفانوفتش هادى الطباع ، فلم تغره مغامرات رفاقه الليلية
الذين يدعون اليهم النساء ويلتقون بين تحت نافذة المدير . كما انه لم يعر اهتماماً
لجميع المشاهد الدنة ، فظلت روحه صافية نقية واحتفظ بعنصر الطيبة وقاوم
الفساد الا انه كان دوماً كالنائم ، وعندما استيقظ الطموح في نفسه ظل كسولاً
مهملاً . كان يصفي الى محاضرات اساتذته الملتبة ويتذكر الكسندر بتروفتش
بهذوئه ووضوحه في شرح الاشياء وتبسيطها . اخذ تنيتنيكوف يتابع دروس
الطب والفلسفة وتاريخ الانسانية العام . وكان استاذ التاريخ ، بالمناسبة ، قد
بلغ من توسعه حداً ظل معه يحاضر ثلاث سنوات دون ان ينهي المقدمة ، حاصراً
دروسه جميعها في بعض المفاهيم الالمانية . ولكن ماهي الدروس التي لم
يحضرها تنيتنيكوف ؟ ان الله وحده يعلم بذلك ! والمهم ان ذاكرته كثيراً
ما كانت تخونه ، فبدرك بفضل ذكائه الطبيعي عيوب وتقائص هذا التعليم .
ولكنه لم يجد علاجاً لذلك . وكان عندما يتذكر استاذة القديم الكسندر
بتروفتش سرعان ماتعلو سمادير الكآبة وجهه ، وتغلف نفسه .

ان الشباب ليسعدون بالامل في المستقبل ، وعندما اقتربت السنة الاخيرة
من نهايتها قال تنيتنيكوف في نفسه :

« هذه ليست بالحياة .. بل هذا الذي مرت فيه انما هو اعداد لها ... ان
الحياة الفعلية تبدأ بالعمل حيث الجهد والنشاط » ، وهكذا سار دون ان ينطق
بكلمة وداع لقبور أجداده الى بطرسبرج ، مقتدياً بالطموحين من امثاله .
والمعروف ان خيرة الشباب الروسي يغادرون البقاع الروسية النائية ، ليأتوا
الى العمل في عاصمتنا فيبرزوت او يفرقون في حياة الصالونات ، تلك الحياة
السطحية الباردة المناقة .

وقد ساعد تنيتنيكوف عمه اونوفري ايفانوفتش واقنعه بان الحظ الجميل يكفي وحده ليصبح صاحبه وزيراً او رجل دولة في روسيا. ثم ، وبعد جهود كثيرة استطاع ان يعينه في احدى الوزارات في وظيفة لا اعرفها . ودخل تنيتنيكوف للمرة الاولى في هو الوزارة الكبير ، فرأى عدداً كبيراً من الشباب يكتبون محدثين بريشانهم صريراً ضاحكاً ، وحين طلب اليه نسخ ورقة رسمية استولى عليه شعور غامض لم يدرك له كنهها . وبداله زملاؤه وكأنهم أطفال او تلامذة ، وتأكدت لديه هذه الفكرة عنهم ، عندما شاهدهم يهتمون بقراءة قصة نافه يسارعون الى اخفائها مرتعدين ، عند ظهور احد الرؤساء . وتذكر الماضي فتأسف على الكسندر بتروفتش واغرورت عيناه بالدموع لان صورة معلمه كانت تنتصب امامه حية : فاصيب بدوار اخذ يفت في ساقبه ولكنه تحامل على نفسه وفكر : « الى العمل ، مهما يكن شأنه حقيراً ! وهكذا انصرف الى العمل بحماس وحمية .

ابن المكان الذي لا يجد الانسان فيه المسرات ؟

ان الحياة جميلة في بطرسبرج بالرغم من المناخ القاسي والجو المظلم في بعض الاحايين . فالهواء جليدي ، وميزان الحرارة يشير الى ما تحت الصفر بثلاثين درجة ، بينما تهب الرياح الشهابية الباردة فتكنس باعصافها الطرقات ، وتلسع المارة وتعميمهم ، حاملة البياض الى شوارب الرجال ، وباقات معاطف القرو ورؤوس الحيوانات . وفي حين تزجر عوامل الطبيعة وتثور ، كنت ترى نافذة مضبوطة في الطابق الرابع ، حيث توجد غرفة صغيرة تحترق فيها بعض الشموع وبغلي الساور ويجلس بعض الرجال الروس يتحدثون بأحاديث تغذي القلب والروح ، او يقرأون صفحة مشرقة من شاعر روسي ملهم ، تحفّق لها قلوب الشباب وتشتعل بالحماس القوي ، الذي لا تعرفه البلاد الاخرى .

اعتاد تنيتنيكوف بسرعة على عمله ، ولكن هذا العمل بداته لم يعد هدفاً

لوجوده كما ظن ، ثم ان ساعات العمل التي يقضيها في المكتب جعلته يدرك قيمة الوقت الحر وكان عمه في ذلك الحين قد بدأ يتوقع له مستقبلا عظيما ، ولكن سرعان ما ساءت الامور .

هناك من بين اصدقاء أندريه ايفانوفتش شابان من « الساخطين » ، وكنا غربي الاطوار دائمي القلق لا يستطيعون ان يتقبلوا الظلم بهدوء ، او ما يمت الى الظلم بسبب . ثم انهما كانا شريفيين نظريا ، ولكنها لم يطبقا مبادئها في الحياة العملية ! فهما متساهلان بالنسبة لنفسيهما ، ومتزمتان فيما يتعلق بالآخرين . وقد أثرا على ننتينيكوف بخطاباتها الملتبها المليئة بالسخط على المجتمع ، فأيقظا في نفسه الغضب وجذبا انتباهه الى وقائع لم يكن قد لحظها من تلقاء نفسه من قبل .

وهكذا لم يعد فيودور فيودوروفتش لينتسين ، وهو احد رؤساء شعب الوزارة ، ليعجب ننتينيكوف ، اذ وجد به هذا الاخير كثيرا من الميوب التي لا حصر لها . وقد بدا له ان حديث لينتسين العذب مع الرئيس سرعان ما ينقلب الى حدة عندما يستقبل احد مرؤوسيه . يضاف الى ذلك ان لينتسين هذا كان كبقية الاشخاص الفارغين ، يسجل جميع اسماء الذين لا يهنئونهم ايام الاعياد ، وبسيء معاملتهم . وقد كرهه ننتينيكوف كثيرا ، واعلن له كرهه بصراحة . كما انه فتش عن مناسبة للتجريح به فوجدها . ففي ذات يوم يحدث الى فيودور فيودوروفتش بلهجة قاسية مهينة ، حتى ان فيودور طلب اليه الاعتذار او الاستقالة ، فاستقال صاحبنا ، فهرول عمه اليه مذعورا وقال له :

— يا الله ... ارجوك يا اندريه ايفانوفتش ! ماذا فعلت ؟ أنت ترك وظيفة بدأت فيها بداية حسنة لسبب سخيف بسيط هو أنك لم تعجب برئيسك ؟ لو ان جميع الناس يفعلون فعلك هذا لما ظل انسان في عمله قط ! هيا خفف من غلواتك وتعال واعتذر .

فاجاب ننتينيكوف :

- ليس الامر بذلك يا عماء ! انه ليسهل علي ان أعتذر . فانا مذهب في حقه لانه رئيسي ، ومن اللاتق بي ألا أخاطبه بهذه اللهجة . ولكن الامر ليس بذلك ، هناك اعمال كثيرة تشغلني ! فوكيلي رجل احق ، والدولة لا تخسر شيئاً اذا استبدلتي بآخر ينسخ لها اوراقها الرسمية . ولكننا سنخسر بلا ريب اذا لم نقبض الضرائب عن ثلاثة عبيد . أنا ملاك وعلي ان اسهر على ازدهار وتحسين ظروف حياة هؤلاء العبيد الثلاثة ، وهم من رعايا الامبراطورية الروسية . فاذا التفت اليهم يصبحون عمالاً نافعين ؛ وفي هذه الحال ما الذي يجعل رئيس ديوان ما ، وليكن لينتين مثلاً اكثر نفعاً مني ؟

وذهل عم ننتينيكوف وفقر فمه دهشاً وهو يصفي الى هذه المحاضرة التي لم يكن ينتظرها . وبعد ان فكر قليلاً اجاب :

- ولكن ... مع ذلك لن تدفن نفسك في الريف ... ان الفلاحين لا ولفون مجتمعاً صالحاً بالنسبة لهذا المجتمع الذي تعيش فيه . انك هنا تصادف أميراً أو جنرالاً وتقابل هذا وذاك ، وتتعرف على تجار اوروبا .. أما هنا فلن تشاهد الا فلاحاً او فلاحه واذن لماذا نحكم على نفسك بالحياة في الجبل والظلام .

لم تؤثر حجج العم على ننتينيكوف ، فقد كان هذا يمثل قريته حينذاك ملجأ مقدساً ، وحقل عمل نافع ، حيث يستطيع ان يتأمل بحرية ويحلم كما يريد . ولقد بدأ منذ بضعة اسابيع بدراسة كتب في الاقتصاد الفردي . وهكذا ، وبعد مضي اسبوعين من هذا الحديث وجد نفسه في طريقه الى القرية التي قضى فيها طفولته ، بين الجنان التي وصفناها اول هذا الفصل . وعاشت في نفسه أحاسيس قديمة ، فأخذ يتأمل ، بفضول المسافر ، المناظر الرائعة الممتدة في عالم اللانهاية . ثم ضاق الطريق قليلاً ليسر في غابة كثيفة مليئة بأشجار السنديان الهرمة فسأل : « ولن هذه الغابة ؟ » فقبل له : « انها ملك ننتينيكوف » . ثم سارت العربدة بين المروج فسأل مرة اخرى عن ملاكها فقبل له : « انها ملك

تنتينيكوف . وبدأ الطريق بعد ذلك بالصعود ، وكانت تحيط به من جهة حقول الشعير ، ومن الجهة الثانية مناظر الحقول الجميلة التي استمتع بها ، ثم سارت العربة في ظل اشجار ضخمة متناثرة فتدحى القرية ، وظهرت له قبة الكنيسة واكوخ الفلاحين وسقوف القصر الحمراء ، فخلق قلب تنتينيكوف بشدة ... لقد وصل الشاب الى بيته وتجمعت كل احاسيسه في هذه الصبحة : « ألم أكن أحق ؟! لقد جعلني الحظ مالكاً لهذه الفردوس بينما اردت ان أدفن نفسي وأنا اكتب على الاوراق الميتة . لقد تنققت وقرأت الكثير ، وتأملت ودرست وسائل بذر الخير في السكان وتحسين حالة قارة بأسرها . وتعلمت كيف أعرف واجبات الملاك الذي يجب ان يكون قاضياً ومنظماً ، فعهدت بهذه المسؤولية الى وكيل احق ... وفضلت على هذه المسؤوليات العبيقة والادارة الفعلية هذا العمل المضحك ، هذا العمل الذي يجعلني ادير املاكاً لا أعرفها ، متعرضاً لأكبر الحماقات والاضطراب .

كان موقف غير منتظر قد نهياً عند وصوله . فقد علم الفلاحون بمجيئ سيدهم . فاجتمعوا في باحة القصر الواسعة ، وقد ارتدت الفلاحات منهن قبعات مزخرفة على رؤوسهن ، بينما اطلق الفلاحون لحاهم ، وهتف الجميع : « ايها الاب المغذي .. انت لم تنسنا ! » ان الشيوخ والعجائز كانوا متأثرين جداً بذكرى الاب والجد وجد الاب .

ونأثر تنتينيكوف ولم يستطع ان يحبس دموعه فقال في نفسه : « ولم هذا الحب ؟ اني لم ارمه مطلقاً ولم اهتم بهم ، واقسم بينه وبين نفسه على ان يشاركهم عملهم وقد استلم بالفعل مهمة عمله كملاك .

طرد تنتينيكوف وكيله وانقص ساعات العمل الاجباري واشرف على الاعمال بنفسه وظهر في كل مكان : في الحقول وفي الطواحين وحتى في المرفأ ليشرف على شحن المراكب وتفريغها بنفسه ، بينما اخذ الفلاحون الكسولون يحكون ذقونهم ويبدأون العمل . الا ان هذا لم يدم طويلاً ، فالفلاح خبيث ،

وقد فهم بسرعة ان السيد يريد العمل ولكنه لا يعرف كيف يقود هذا العمل الى صالحه . فهو يتكلم ويشرح ولكن تعوزه الدقة والتعابير الواضحة النهائية . ونحن نبالغ اذا قلنا بأن العبيد لم يتفاهموا مع سيدهم ، ولكنهم لم ينسجدا معه فظلت وحدتهم ينقصها تناسب المطلوب .

لاحظ اندريه ايفانوفتش بسرعة ان اراضيه لا تنتج ما فيه الكفاية ، في حين ان اراضي الفلاحين بدأت تعطي محصولاً طيباً . لقد كانوا يبذرون اراضيه قبل اراضيهم ، ولكن القمح كان ينمو متأخراً ، ومع ذلك فقد بدا ان الفلاحين يشتغلون بحماس ، حتى انه يقدم الفودكا لهم كمكافأة على حماسهم هذا . اما الشجير والشرفان فقد كانا ينموان ايضاً في اراضي الفلاحين بينما لا يكاد القمح نفسه يظهر في اراضي السيد . ان الفلاحين يجذعون سيدهم بالرغم من جميع ممانعتهم من امتيازات . ولذا فقد جمعهم مرة وانهم على هذا المحصول فقالوا :
- ولكنك وأيت بنفسك عملنا ، وقدمت لنا الحرة كمكافأة لنا !

ولكن بماذا يستطيع تثبتنيكوف ان يجيب ؟

- واذاً ، فلماذا هذه المحاصيل الضعيفة ؟

- من يدري ؟ ربما كان الدود يخرب الجذور ! والصف رديء للغاية ،

فقد هطل فيه المطر بكثرة .

ومع ذلك فان الديدان لم تضرب بالفلاحين وكذلك الامطار ، فهو قد حسب المحاصيل عندهم بعكس ما جرى في اراضي السيد . وكذلك وجد تثبتنيكوف صعوبة بالغة في التفاهم مع الفلاحات ، فقد كن لا ينين عن طلب الاعفاء من العمل الاجباري ... انه لأمر غريب ... ان اندريه ايفانوفتش قد ألغى الضرائب عن القماش والجوز وانقص نصف الأعمال الاخرى ، مؤملاً ان تفيد النساء من اوقات فراغهن ، للاهتمام بمنزلهن والسهر على غذاء وكساء أزواجهن وأولادهن ، اوليعتنن بحقولهن ، الا ان شيئاً من هذا لم يحدث إذ انهن ينصرفن في اوقات الفراغ الى السكر والعريضة والمحاصيات . واما الأزواج

فقد كانوا يشتكون الى تنينيكوف : « لم تعد هناك وسيلة تمكنني من الحياة مع زوجتي الجهنمية ! »

عند ذلك اراد أن يقسو ... ولكن كيف ؟ كانت الفلاحات يصرخن آخذات بالانين ، فهن مريضات يعانين افطع الآلام ، فهتف تنينيكوف المسكين : « إذهي ... إذهي سريعاً ... ولبحرسك الله » وتذهب المريضة لتختصم مع جارة لها ، وتكسر لها أضلاعها بقبضة يدها ، الامر الذي لا يقوى عليه الرجال .

برد حماس الملاك فأخذ يراقب الاعمال ولكن دون مبالاة . ولم يعد يعر اهتماماً لحركة المنجل الرتيبة وأكداش المحصول والطواحين الكبيرة . كان ينظر الى الاشياء البعيدة ثم الى القرية . ويتأمل في منعطف للنهر ويتابع بأنظاره طيراً صياداً ، التقط سمكة وامسك بها في منقاره . ثم يرفع رأسه الى السماء ويدمدم لحنا موسيقياً ويتمتع بأغاريد الطيور التي كانت تمتزج مع بعضها أحياناً في جوقة كبيرة .

وكان طائر حجل يلعب داخل الشجر ، وطيور اخرى تئن او تغني داخل الاعشاب وتختفي اصواتها في الاعالي « فهتز في الفضاء المديح بألاف الضجعات ... أيها الخالق المعبود ، ما اجل عالمك في القرى بعيداً عن صغائر الطرق الكبرى والمدن

ولكن تنينيكوف مل مرعباً هذا المشهد المتكرر الرتيب ، فانقطع عن الذهاب الى الحقول واعتكف في القصر رافضاً مقابلة وكيله . وكان الجيران يأتون لزيارته ، ومن بينهم ملازم مشاة سابق يدخن باسراف ، حتى ان جده يكاد ينفث التبغ والدخان . كما كان يزوره طالب يحمل افكاراً ثورية منظرقة لم يستطع ان يتابع دراسته ، فعكف على إتمام ثقافته بمطالعة المقالات في النشرات والمجلات وقد مل اندريه ايفانوفتش منها سريعاً وبدت له احاديثها سطحية ، وانطلاقها ذات طابع اوروبي ، وكانت ضرباتها الودية على الركاب تبدو له منطلقة اكثر مما ينبغي . فقرر قطع علاقته بها ونفذ ذلك بحفاة وقسوة . ففي ذات يوم

جاءه الملازم الذي يمثل طبقة من العسكريين لم يعد لها وجود الآن ، مع فارفار نيكولا فتش فيشنبو كروموف صاحب الافكار الجديدة الذي اتى يتحدث عن الفلسفة والسياسة والادب والاخلاق والحالة المالية في انككترا . فأرسل لها تنبئينيكوف من يخبرها انه غير موجود في المنزل ، ولكنه ظهر في نفس الوقت على النافذة ، والتقت نظراته بنظرات العسكري فتتم هذا : « ايها الحيوان القذر ! » بينما هتف الطالب مشمراً : « ايها الخنزير ! » وهكذا انتهت علاقة تنبئينيكوف مع صديقه عقيب هذا الحادث . ولم يعد يأتي احد ليزعج اندريه ايفانوفتش . فسر هذا وقرر ان يؤلف كتابا كبيرا يتحدث فيه عن روسيا . وقد عرف القارىء كيفية تنفيذ هذا القرار . كانت حياته تسير هادئة الا ماندر ، حيث يحدث ان يزعج قليلا عندما تأتيه المجلات او الصحف ، فيقرأ فيها اسم صديق قديم حاز على رتبة كبيرة ، او قدم خدمة جليلة للابحاث العلمية في عصره . عند ذلك كانت كتابة عميقة تعصر قلبه ويستولي عليه خجل ابكم ، وهو يفكر في حياته الكسولة غير المجدية ، فيذكر الماضي ويتذكر الكسندر بتروفتش وينشج باكياً .

ترى ماذا تعني تلك الدموع ؟ أكانت نفس تنبئينيكوف المريضة تكشف له سر مرضه وتقول له لماذا لم يستيقظ قلبه للحياة ؟ أم ان أندريه ايفانوفتش كان يعلم انه لم يتعلم منذ طفولته كيف يعارك الحياة وينتصر ؟ فلم يستطع لذلك ان يتوصل الى المستوى الذي يسمح له بالاستمرار في متابعة الجهد ؟ ثم هل هو يعلم ان معدن احساسه الثمين لم يبق كما يجب ؟ أم انه يفهم ان معلمه توفي مبكرا ولم يعد هناك ثمة انسان يستطيع ان يحفز قواه التي اضعفها التردد الدائم وأن يمنح ارادته الضعيفة شيئاً من القوة بهذه الكلمة الساحرة : « الى الامام » تلك الكلمة التي يجترعها الروسيون منها اختلفت طبقاتهم ومهنهم ؟

ابن هو الانسان الذي يعرف كيف يقول لروحيتنا الروسية الكبيرة تلك الكلمة القوية الحاسمة : « الى الامام ! » وابن هو الانسان الذي يعرف الامكانيات

العبيقة في الطبيعة الروسية فيقودها بهذه الصبغة نحو حياة امثل ؟ وابة دموع
بل اي حب يغنى به الروسي لمكافاته ؟ ولكن ها هي ذي القرون تلي القرون
والكسل الخجل مستمر والشعب الروسي ما يزال طفلا في حين ان الله لا يرسل
الانسان الذي يستطيع ان يتفوه بهذه الكلمة القوية .

وظهرت مناسبة كادت ان توفق تنيتنيكوف وتقلب مزاجه... كان هذا
الظرف شبه حب... دون نتيجة :

هناك على بعد عشرة « فرسات » من القصر ، كان يعيش جنرال ينتقد دوماً
تنيتنيكوف عندما يتكلم عنه . وهذا الجنرال كسائر القواد المتقاعدين يحب
ان يشاطر الناس الحبز والملح ، ولذا فهو يتلقى الكثير من الزيارات دون ان
يزور احداً ، وكانت له ابنة حية كالحياة نفسها ، قل ان تجد من ياتلها .

وهذه الابنة كانت تدعى « اولينيك » ، وقد تلقت تربية غريبة من قبل
مربية انكليزية لا تعرف كلمة روسية واحدة . وعندما ماتت أم اولينيك
كانت هذه لما تزل طفلة ، ولم يكن لدى الجنرال ثمة وقت للاعتناء بها ، ولكنه
مع ذلك يحبها كثيراً ولا يني عن ندايلها . وكانت هذه الفتاة كبقية الاطفال
الذين تلقوا تربية حرة ، كثيرة الاعتداد برأيها وشخصيتها . واذا ما شاهد المرء
وجهها الجميل وقد عرته الكآبة فجأة ، او رآها تنفجر غضباً وتناقش أباهـا
دون أن تضعف ، اذا شاهدها الانسان على هذه الحال ، سيقول بلا ريب ، بأنها
فتاة غريبة ولكنهم لم تكن لتغضب إلا إزاء عمل ظالم . إلا ان اولينيك
لا تناقش عندما يتعلق الامر بها ، كما انها لا تسعى لتبرير أعمالها ، ولا تريد البتة
ان تشقي الانسان المسكين الذي يقوده نكد الطالع لأن يتعرض لغضبها . فاذا
ما طلب اليها احد ان تسن اليه فانها تعطيه جميع ما تحمل من النقود ، وكانت
الى جانب ذلك تظهر في كل شيء حماساً وحمية . وهي عندما تتكلم ، كانت
نفسها تتابع سير افكارها وتبدو واضحة فيها . اما تعبير وجهها ، ونبرة صوتها ،
بل حتى طيات ثوبها ، كانت ترتفع مع صوتها ، فهي لا تعرف المواربة ولا

تخشى إنسانا عندما تعرض افكارها . ولم يكن في مقدور انسان ان يوقفها عن الحديث عندما تريد ان تسكلم . وكانت مشيتها الغريبة الفاتنة فريدة من نوعها ، إذ أنه فيما شيء من الانطلاق والحرارة حتى ان الانسان ليجد نفسه مرغماً على افراح الطريق لها . وكان الرجل اشرب برتبك ويصمت امام أولينكا . اما الرجل الذوب الثرثار الجريء ، فإنه يفتش عن كلمات للحديث ويضل صامتاً مرتبكاً في حين ان الحُجول يجد نفسه يتكلم براحة وانطلاق معها . ذلك ان أولينكا لا تبدو أمامه غريبة ويخيل اليه أنه يعرف قسماتها وانه رآها قبل ذلك ، واعجب بها منذ وقت لا يذكره في طفولته . وهكذا فهو يقضي وقتاً طويلاً بعد مقابلته لأولينكا يبدو له فيه الحديث مع الرجال الناضجين والشيوخ امراً مملاً محزناً . وهذا ما حدث لتنتينيكوف ، فقد اكتسحه شعور لم يعرف له كنهه ملك عليه جميع مشاعره وطفى على شخصيته بجملتها ، فبدت له حياته الشاحبة المتقلبة تضيء فجأة . وقد تلقى الجنرال باديء الامر أندريه ايفانوفتش بود صريح ، ولكن الرجلين لم يستطيعا التفهم إذ كانت أحاديثهما تنتهي دوماً بالحصام . ولم يكن الجنرال يطبق المعارضة بينما كان صاحبنا كثير الظنون . وبالطبع فقد غفر أندريه ايفانوفتش الكثير للجنرال من اجل أولينكا ، واستمرت علاقاتهما حتى مجيء قريبين للجنرال هما : الكونتس بورديفا والاميرة بوزالين ، وكانتا وصيفتين في البلاط السابق ولهما علاقات كثيرة في بطرسبرج ، فاستقباهما الجنرال بحرارة .

ومنذ وصول هاتين السيدتين شعر تنتينيكوف ببرود في موقف الجنرال تجاهه . فقد كان يتجاهله ويناديه بأسلوب مشبع بالازدراء : « ايها العزيز جداً » او « اسمع » او « يا أخي الصغير » ، وبدأ آخر الامر يخاطبه بالضمير المفرد . فانفجر اندريه ايفانوفتش اخيراً وصر باسنانه وهو لا يكاد يتمالك فيه ، واستطاع ان يقول بصوت ماديء مهذب رغم ان وجهه قد اصطبغ بحمره الغضب . « اني لأشكرك ايها الجنرال على طيبتك . ان مخاطبتك لي بالضمير المفرد ، إنما هو بلا

رب دعوة الى صداقة امتن ، ولكن الفرق في السن يمنع رفع الكلفة هكذا ،
فارتبك الجنرال وحاول ان يجمع شتات افكاره وليعبر عنها باحسن ما يستطيع ،
وصرح انه لم يستعمل هذا الضمير المفرد لقصد سيء ، ثم اضاف بان الشيخ
يستطيع ان يخاطب شاباً على هذه الصورة ، وقد حرص الجنرال كثيراً على
عدم ذكر قضية الطبقة .

وهكذا انقطعت زيارة الجارين وتلاشى حب تنيتنيكوف لاولينكا منذ
بدايته وانطفأ النور الذي بدأ يضيء حياة اندريه ايفانوفتش ، فعاد الى الظلمات
التي اخذت تشدد حيلتها عليه . كما عاد الى الكسل والنوم ، وقد عمت القذارة
قصره من جميع الانحاء . فظلت المسكنس اياماً كاملة داخل الغرف مع
القاذورات ، واهملت السراويل فوق مقاعد ردهات الاستقبال ، واما القمصان
الملبسة بالفبار فقد كانت تظل اسابيع طويلة فوق المناضد الفخمة . وهكذا
مضت حياة تنيتنيكوف فارغة دون معنى ، ولم يعد يحترمه الخدم ، وحتى في
من الدجاج نفسه فقد اخذت الدجاجات تفرح حذاءه بتأخيرها . واصبح اندريه
ايفانوفتش يقضي كثيراً من الوقت في رسم منازل صغيرة واسواراً واكواخاً
وعربات . وكان عندما ينسى نفسه في بعض الاحيان ، تغني يده بشكل
لا شعوري في رسم رأس ذي تقاطيع دقيقة رقيقة ، ونظرة نافذة عميقة ، وشعر
جميل رفوف فوق العنق . وبهذا يرى اندريه ايفانوفتش مذهولاً صورة تلك
التي لا يستطيع امهر الرسامين ان يجيد رسمها اكثر منه . عند ذلك تصور
الاحزان السيخ من كل جانب ويأخذ بالافتناع بان السعادة على الارض
ليست إلا وهماً .

هكذا كان يعيش اندريه ايفانوفتش تنيتنيكوف .

وفي ذات يوم وقف امام نافذة كمادته وفي نفس الساعة المعهودة ، فدهش
اذ لم يسمع صوت غريغوري او برفيلينا . كانت ثمة حركة تحميم على الباحة .
بينما كانت الغسالة والطباخ الصغير يرخصان لفتح الباب الكبير . وظهرت خلف

الباب جياذ كالتي ترمم فوق افواس النصر . وعلى كرسي هذه العربية يجلس حوذي وخادم يرتدي معطفاً عريضاً ، وقد ربط وسطه بمندبل كبير . وهناك أخيراً المسافر وكان يرتدي عمة ومعطفاً من القرو ، بينما غطى عنقه بشال من الصوف . وعندما وقعت العربية لاحظ تنتينيكوف انها عادية بسيطة . وقفز منها المسافر برشاقة رجل عسكري ، وكان ذا مظهر قوي انيق .

ودب الخوف في شرايين أندريه ايفانوفتش ، ذلك انه حسب أن القمام موظف حكومي . ويجب ان نقول هنا إنه اشترك أثناء مراهقته في عمل غير شرعي . فقد فكر اثنان من الضباط المشاة والفلاسفة الذين قرأوا بمض النشرات مع فنان مقامر ظهره الافلاس دوماً ، بتأسيس جمعية خيرية برئاسة مقامر آخر ماسوني وغد . وكان هدف هذه الجمعية عظيماً ، وهو إسعاف الانسانية من ضفاف التاميز حتى اقصى « الكامشتكا » . والمبلغ اللازم لهذا الامر كبير جداً ، لذلك ساهم الاعضاء وبعض الكرماء باشتراكات كبيرة . اما كيف انفقت هذه الآلاف من الروبلات ، فأمر لا يعرفه غير الرئيس الماسوني وحده . وانضم تنتينيكوف لهذه الجمعية بواسطة صديقه الطيبين الذين اصبحا ، بعد ان اعتادا على الشرب في صحة العلم ، من السكيرين المدمنين .

وسرعان ما انسحب أندريه ايفانوفتش من هذه الجمعية ، بينما انغمست تلك بعد ذلك في الاعمال المشبوهة ، التي جعلت البوليس يلاحقها . ولم يفكر تنتينيكوف لنفسه هذا الخطأ وخاف كثيراً من عقابيه ، حتى في المستقبل البعيد ، ولهذا السبب شعر بالخوف الذي وصفناه عندما فتح الباب في قصره . ولكن خوفه تلاشى عندما حياه الزائر بأدب جم وانحنى له قليلاً الى جهة اليسار . ثم اوضح الغريب بتعابير مقتضبة دقيقة انه مضى عليه زمن طويل وهو مسافر في أنحاء روسيا لقضاء حاجات شخصية ولتنقيف نفسه . وقد قال ان الامبراطورية الروسية تملك كنوزاً لا تحصى وخاصة في مناطقها الزراعية والصناعية ، وانه حين اقترب من القصر اعجب بحلال مظهره وجمال منطقته ، ولم يكن ليريد ان

يزعج المالك السعيد لولا سوء الطالع الذي شاء ان نصاب عربته بعطل طاريء ، جعل من الواجب اصلاحها . ولذلك لم يشأ ان مجرم نفسه شرف تقديم احترامه لسيد القصر .

وبعد ان انهى الزائر عبارته الطويلة تلك ، ضم قدميه الى بعضها محدثاً صوتاً عالياً بجذائه . ورغم بدانته الظاهرة ، فقد تراجع الى الخلف قافزاً بخفة كخفة كرة المطاط الصغيرة .

اطمن تنتينيكوف قليلاً ، وظن ان ضيفه عالم يسافر في أنحاء الروسيـا لجمع النباتات او المعادن النادرة . فرد عليه بأنه يضع نفسه تحت تصرف زائره ، كما وعد باستقدام عمال وحدادين لاصلاح العربية ، وطلب منه ان يعتبر نفسه في داره ، ورجاه ان يجلس على احد المقاعد الكبيرة من طراز فولتير .

وأعد أندريه ايفانوفتش نفسه لسماع زائره يتحدث عن العلوم الطبيعية . الا ان هذا لم يطوق الا المواضيع الفلسفية . فشه حياته بمركب تتقاذفه الامواج وتدفعه الرياح الطائشة ، كما اوضح انه كان يشغل سابقاً وظيفة عالية ، وانه عانى في سبيل الحقيقة كثيراً ، وعرض حياته للاخطار . وكان هذا الغريب يبدو في جميع احاديثه رجلاً عملياً ، وبعد ما انتهى من الكلام ، تمخط في منديله محدثاً صوتاً لم يسمع بمثله تنتينيكوف ابداً . كان يجيل للانسان انه يسمع صوت بوق يدوي في ارجاء القصر النائم . ثم انتشرت رائحة الكولونيا اللطيفة ، واعيد المنديل المسكين بعد ذلك الى مكانه .

لاريب في ان الفاريء قد عرف في هذا الشخص صديقنا بافل ايفانوفتش تشتشيكوف الذي تركناه منذ امد طويل . وكان قد هزم قليلا من أثر الحياة المضطربة التي عاناها منذ تركناه ، فقد بدا ان معطفه وعربته والحوذي والحادم والحيل ، لقد بدا جميع هؤلاء أنهم عانوا ايضاً وتعبوا كثيراً ، وهكذا الامر بالنسبة لحالة سيدهم المالية ، الا ان تعبير وجهه وأدبه واسلوبه في الحديث لم يتغير منها شيء .

ظهر تششيكوف اكثر لطفا ومهارة في تحريك قدميه عند الجلوس ، وكذلك بدا أكثر تماكلا لزام نفسه . وكانت يافته وأكمامه في مثل بياض الثلج ، ولا تحمل ملابسه أي أثر من آثار من الغبار . وكان خداه نظيفين وذقنه حديثة عهد بالحلاقة ، حتى ان الاعمى وحده فقط بمقدوره أن يتجنب فتنها .

وتغير في الحال كل ما في القصر . ففتحت ابواب نصف الشفق المغلقة للنور والحياة ، وأثنت الغرف ونظفت وانتظمت فيها الاشياء ، فغرفة النوم تحوي على كل ما يلزمها وكذلك غرفة اعمل ففيها ثلاث مناضد الاولى في جانب المقعد الطويل وهي بمثابة مكتب للعمل والثانية للعب وقد وضعت بين نافذتين تحت مرآة كبيرة اما الثالثة فقد وضعت بين بايين يؤدي أولهما الى غرفة للنوم بينما يؤدي الثاني الى غرفة تصالح كسبهو لم تطأ أرضها قدما انسان منذ اكثر من سنة . وقد وضع على الطاولة الاخيرة سروال يتناسب مع معطف القرو وسروال جديد وثالث رمادي وحدرتين من الحبل وأخرينات من الحرير يتوج كل ذلك معطف فضفاض . كانت هذه الملابس تؤلف هرماً صغيراً مغطى بمنديل حريري كبير . اما الاحذية الجديدة والمهترئة فقد وضعت في زاوية بين الباب والنافذة وكانت مغطاة بحرص بمنديل حريري كبير يخفيها عن الانظار وأما الاشياء التالية فقد رصفت بتوئيب على طاولة المكتب : لوازم سفر ، زجاجة من الكولونيا ، مفكرة ، كتابات كل منها هو الجزء الثاني من قصة . وملئت الخزانة بالملابس الداخلية النظيفة وأما الملابس القذرة فقد كانت ملفوفة في رزمة وضعت تحت السرير بجانب الحقيبة الفارغة . وكان السيف الذي لا يفارق تششيكوف والذي يخيف به قطاع الطريق معلقاً بواسطة مسبار فوق السرير . ان النظام والنظافة يسيطران على الغرفة بشكل غير عادي ، فلم يكن هناك ذرة غبار او نقطة ورق أو أثر للاقدار . وبدا كأن جو الغرفة نفسه قد نقي وانتشرت

فيه رائحة طيبة تصدر عن رجل سليم يغير ملابسه على الاغلب ويفتسل ويصّب فوق جسده الكولونيا ايام الاحاد . وكاد بتروشكا ان يحمل الى الغرفة رائحته الكريهة ولكنه وضع في المطبخ كما ينبغي له . وقد خاف اندريه ايفانوفتش في الايام الاولى من ان يزعجه ضيفه ، اذ خشي ان يضطره الغريب على تغيير سير حياته الهادئة .

ولكن خوفه كان في غير محله فقد أظهر صاحبنا بافل ايفانوفتش مرونة مذهشة واستعداداً للتكيف لا مثيل له ، فأثنى على تنبؤنيكوف لبطئه الذي سيسمح له بالعيش مائة عام ، كما امتدح عزلة السبد التي تسمح له بتوسيع افكاره العظيمة . . وعندما شاهد بافل ايفانوفتش الكتب في خزائنها ، صرح بانها تقي الانسان من أخطار البطالة ، وكان تشنيكوف في كل ذلك قليل الكلام الا أن كلماته لا تخطي، الهدف وكان يصل في الموعد الصحيح وينذهب بشكل لا يعكر فيه تأملات تنبؤنيكوف ، ويلعب معه الشطرنج عن طيبة خاطر ويعرف كيف يصمت اثناء اللعب وبينما كان احد الصديقين ينفث الدخان في حلقات حلزونية كان الصديق الآخر الذي لا يدخن يمسك بعلبة سعوطة الفضة ويحركها بسرعة بشكل يشبه دوران الارض حول محورها ، او انه ينقر عليها بأصابعه ويصفّر .

قال تنبؤنيكوف في نفسه : « تلك هي المرة الاولى التي اصادف فيها رجلاً تمكن الحياة معه ... وهذا فن لا يتقنه الروس . ان في الروسيا رجالاً اذكياء مثقفين وطيبين ، الا ان الرجال ذوي المزاج الهادئ الذي تمكن الحياة معهم طيلة قرن كامل دون صخب او ضجيج ؛ فاني لا اعرف منهم واحداً في بلادي . ان ضيفي هذا هو اول شخص اصادفه من هذا النوع ! » .

وكان تشنيكوف من جهته ايضاً مسروراً من العيش مع رجل هادئ بسيط . إذ ان الحياة العجربة قد انتهت ، ولذلك كان مسروراً براحة في هذه القرية الجميلة وسط تلك الحقول في هذه الاسابيع الاولى من الربيع . وكانت

هذه الراحة ضرورية له بسبب الآلام التي كان يعانيها .

وفي الواقع كان يصعب إيجاد مكان أحسن من هذا للاستراحة . فالربيع الذي أعاقه البرد يعود الى النشاط فتتمو الحياة في جميع الانحاء . وكانت تشبكوف يتأمل في الغابات المائلة الى الزرقة والازهار الصفراء قرب الاعشاب الخضرة ، والورود الحمراء المطرقة برأسها اللطيف ، وظهرت جميع انواع الحشرات في المستنقعات وخرجت العناكب تطلب لها صيداً . بينما هربت الطيور في كتائب منتظمة واستيقظت الارض باجمعها ، فقطعب الغابات حبل صمت الشتاء .

اما في القرى فقد كان الناس يرقصون وينظمون الرحلات . وكانت انواع الحاضرة ورطوبة الهواء تدعو الرجال الى رحلات طويلة . فالطبيعة كلها تغني وكأنها في عرس إلهي .

مضى تشبكوف في كل مكان ، صعد المرتفعات ، ونزح في القمم طويلاً وتأمل في السهول التي كانت تمتد في البعيد حيث كونت الامطار والفيضانات بحيرات صغيرة عديدة ، وحيث تكون الغابات جزراً صغيرة . دخل بافل ايفانوفتش في هذه الغابات فشاهد الاشجار مائتة باعشاش العصافير والغرباب تطير في جماعات كبيرة فتحبل لون السماء اسود كالخاء . ومضى تشبكوف نحو المرفأ حيث تذهب المراكب مليئة بالشعير ، وسمع في طريقه هدير المياه وهي تدير الطواحين . وشاهد اعمال الفلاحين الاولى في الربيع ، ولاحظ المناطق السوداء التي ترتسم وسط الاراضي الخضراء ، وامعن النظر في الزارع يرمي الحب من قبعته بحرص لا يسبح لحبة واحدة بالضباع .

ونعرف تشبكوف على كل شيء ، فقد رأى الوكيل وتحدث مع الفلاح وزار الطحان واستعلم عن جميع تفاصيل اعمال لتنتينيكوف . كما عرف ثمن القمح الذي يبيعه وكذلك عرف اسعار الدقيق في الحريف وفي الربيع . واستفهم عن جميع اسماء الفلاحين واسماء افاربهم وسأل من ابن يشتري كل منهم

بقوته وكيف يغذي خنازيره كما أعلموه بنسبة الوفيات بينهم وهي نسبة ضعيفة لسوء الحظ .

وقد فهم تششيكوف أيضاً بسرعة ان هذه الملكية الغنية مهمة تماماً ، اذ ان الفلاح يسرق ويسكر وقليل ما يشتغل .

فكر بافل ايغافوفتش : « بالتششيكوف من أبله غني ، ان له أملاكاً يمثل هذا الغني وحملها .. انه يستطيع ان يحصل على مورد سنوي يجاوز الخمسين ألف روبل ... وكانت تساوره رغبة ملحة اثناء تجواله في ان يصبح ملاكاً بعدما ينهي اعماله بنجاح . وبطبيعة الحال فانه يفكر اذ ذاك بزوجة جميلة حسنة القرية تعرف الموسيقى وبأولاد يخلدون اسمه : غلام نشيط صغير وابنة جميلة ، او غلامان وثلاث بنات !

وهكذا يكون تششيكوف قد عاش واصبح مستشار دولة او ارتفع الى طبقة اعلى من هذه الطبقة . ولكن اي رجل لا يحلم بمثل هذا عندما يعيش طويلاً ؟ ان احزان الحاضر لتتلاشى اذ ذاك وبجمله الحبال بعيداً فيشيره ويهزه وهو سعيد ، حتى ولو شعر بان هذه الاحلام المجنونة لن تتحقق ابداً .

هذا وقد اعجب الريف بطبيعته البسيطة ، حوذي تششيكوف وخادمه ، وسرعان ما اعتادا عليها . وحالاً اتفق بتروشكا مع غريغوري رغم انها كادتا يتقاتلان في بادئ الامر .

انهار بتروشكا على اذن غريغوري باسماء جميع المدن الروسية التي مر بها وشاهدها . ولكن غريغوري اخبره حين حدثه عن بطرسبرج ، فلم يكن بتروشكا يعرف العاصمة . واراد ان يتحدث عن المناطق البعيدة التي لا يصل اليها الانسان الا نادراً ، ولكن غريغوري اسكته من جديد بذكر اسم كان من المستحيل ايجاده على اية خريطة ، وقد حدد للمدينة التي تحمل هذا الاسم موقعاً على مبعدة ثلاثين ألف (فرست) من القرية . فخفف خادم تششيكوف رأسه بذل وظل فاغر الفم بما اضحك جميع خدم تششيكوف . ورغم ذلك

فقد أصبح غريغوري وبتروشكا من اعز الاصدقاء ، ولا يكادان يفترقان تقريباً في حانة العم بيمين ، وهو رجل اصلع بسميه جميع الفلاحين اُ كولاكا . اما سليفان فقد كان مأخوذاً بتسلّيات اخرى ، اذ ان الفلاحين كانوا يغنون عند الغسق في القرية وتتألف منهم حلقات . فكان يراقب طويلاً وقص الفتيات الجميلات ذوات الاجسام المرنّة القوية . وقد عسر عليه كثيراً تحديد اجملهن فقد كن جميعاً بيضاوات الاعناق زرق العيون لمن مشبة وشيقة وشعور متدلّية حتى اواسطهن . وكان سليفان يدخل في الحلقات ويمسك بايدي جاراته البيضاوات ، ويتقدم بينهن ببطء او يتركهن برهة قصيرة ليدخل في حلقة الشباب . وعند ذلك تدبّه العذارى الجميلات نحو الشباب وهن يغنين ضاحكات : « هيا هيا الشبان .. دلونا على الحبيب المنشود » وتغيب الشمس وراء الافق البعيد ، وتتردد اصدااء الغناء في كل مكان ، وسليفان مأخوذاً لا يدري ماذا يدور في نفسه ، فيخيل اليه في الصباح وفي المساء ، انه يمسك الايدي البيض ويرقص داخل الحلقات .

وكذلك الامر بالنسبة لجياد تششيكوف ، فقد كانت مسرورة في اقامتها ذ عندها كل ماتشهي : شوفان ممتاز واصطبلات مريحة تفصل بينها حواجز متشابكة يستطيع بها الجواد ان يرى ما اذا كان جيرانه يصلون ليردد معهم معزوفة الصهيل .

اما بالنسبة للنفوس الميتة التي كانت هدفاً لبافل ايفانوفتش ، فقد أصبح حذراً جداً فيها حتى مع اغبي انسان . كان تششيكوف يهمل املاكه بلاريب ولكنه مغرم بالقراءة الفلسفية ويسعى لاكتشاف علل الاشياء . ولذا فقد قرر تششيكوف ان يطرق الموضوع بشكل غير مباشر .

علم بافل ايفانوفتش من الخدم ان السيد كان يذهب غالباً لزبارة جار له رتبة جنرال ، وان لهذا الجنرال ابنة بينها وبين السيد ... والخلاصة ان الوالد تخاصم مع السيد ولم يعودا يتقابلان .

وفي واقع الامر ان تششيكوف لاحظ اندرية ايفانوفتش يرسم دائماً رؤوساً نسائية جميلة .

وذات مساء ، وبينما كان تششيكوف يدير علبة سموطه بين يديه ، قال لتنتيتنيكوف على حين غرة :

— اندرية ايفانوفتش .. انك تمك كل شيء عدا ... شيء واحد !

فسأله تنتيتنيكوف وهو يتابع الدخان المتصاعد من غليونيه بانظاره :

— وهذا الشيء ؟ ...

— رقيقة للحياة !

فلم يجب بشيء وانتهى الحديث عند هذا الحد .

ولكن تششيكوف ما كان ليأس . ففسي يوم آخر وبينما كانا يتجاذبان

أطراف الحديث قبل العشاء قال له فجأة :

— يجب ان تتزوج يا اندرية ايفانوفتش .

ولكن الصمت كان تاماً حتى انه لم يكن القول بان هذا الموضوع يحزن

تنتيتنيكوف . ولم يرتبك بافل ايفانوفتش فاعادة الكرة للمرة الثالثة

بعد العشاء :

— عندما أفكر في حياتك تزداد ثقفي في ان الزواج أمر ضروري لك ،

والافحذار من السداوية .

كانت لهجة تششيكوف هنا اكثر اقناعاً على ما يظهر ، او ان تنتيتنيكوف

قد سمح له بالتدخل في هذا الموضوع . ذلك انه تنهد وقال بعد ان ارسل سمعابه

دخان من غليونيه :

— بلي يا بافل ايفانوفتش ! يجب ان يكون الانسان سعيداً من

اجل هذه الاشياء .

ثم قص عليه قصة علاقته بالجترال ، وقد اندهل تششيكوف عندما علم ان

المحاطبة بالضير المفرد كانت السبب الوحيد في القطيعة . فأخذ ينظر الى

تنتبنيكوف متسائلاً عما اذا كان مجنوناً او حيواناً . وهتف آخر الأمر وهو
يسك بيدي صديقه :

- . قل لي يا اندريه ايفانوفتش ، ارجوك ، ماذا في الضمير المفرد
من مهانة ؟

- . ليس فيه شيء من المهانة مجد ذاته . ولكن الاهانة ! كانت في اللهجة
المستعملة فكلمة « انت » بالمفرد تعني بل تذكر بانك لست شيئاً وانا استقبلك
فقط لاني لا أعرف آخر غيرك ، وهذه الاميرة يوزالين قد وصلت فاعرف
كيف نلزم حدك .

ان اندريه ايفانوفتش الهادي ، درماً قد عبس بحاجبيه الآن ؛ وومض عيناه
وارتعش صوته أثناء الحديث .

- . وحتى لو كنت مصيباً في زعمك ، فما يضيرك هذا ؟

- . كيف ؟

- . أأذهب اليه بعد اهانة كهذه ؟

- . اهانة ؟ ولكنها ليست بذلك

فهتف تنتبنيكوف :

- كيف .. أوليست إهانة ؟

- انها عادة الجنرالات فهم يخاطبون الجميع بالضمير المفرد ، ثم لماذا لا

نسمح بذلك لرجل محترم خدوم وطنه ؟

- ان هذا امر يختلف عما نحن فيه . انه لو كان شيخاً فقيراً بسيطاً متواضعاً

متواضعاً ، أي لو لم يكن جنرالاً لسمحت له بذلك ولظلت علاقاتنا كما كانت .

وقال تشنشيكوف في نفسه : « يا له من غبي » انه يسمح لشحاذ ان يخاطبه

دون كافة ويمنع جنرالاً عن ذلك . ثم قال بصوت مرتفع .

- حسناً ، لفترض انه اهانتك ولكنك رددت له الاهانة وانتهى الامر .

ما ان تنخاصما ... وان تنقطعا عن الزيارة . . . فهذا لا ! واذا كان للانسان

هدف فيجب ان يتابعه مهما كلفه الامر . اترك كل شيء وتغلى عن هدفك لان رجلاً قد يبق . ان انسانيتنا تبصق دائماً ، ولعلها خلقت لاجل هذا العمل فعسب . ثم انك لن تجد انساناً واحداً في عصرنا هذا لا يبصق . وفكر تنبتنيكوف وقد اخافته هذه المحاكاة : « أي رجل غريب هذا الرجل ؟ » اما بافل ايفانوفتش فقد قال من جهته : « كم هو شاذ هذا المخلوق ! » ، ثم قال :
- اني احاطبك كأخ لك يا اندريه ايفانوفتش وانت غير مجرب . افتريد ان احل لك هذه القضية ؟ سأذهب الى الجنرال واوضح له سوء التفاهم الناتج عن شبابك وجهلك بالناس .

فنهف تنبتنيكوف :

- لا أريد ان اظهر ذليلاً امامه . . ولا اريد ان . . فقاطعه تشتيكوف :
- اني لا أذل نفسي لانسان . اني قد ارتكب بعض الاخطاء ، ولكن ان اكون جباناً . . اغفر لي اني حاولت مساعدتك . فانا لم اكن اعتقد انك ستفسر كلامي على هذا النحو . وكان تشتيكوف يتحدث بكثير من الوفاق . فقال اندريه ايفانوفتش وهو يمسك بيدي صديقه :

- انا الذي اخطأت . . اعذرني فانا لم أرد ان اجرحك . واقسم على ان اهتمك بي قد اثر في كثيراً . . ولكن لنضع هذا الموضوع ولنقطع حديثنا عنه .
- حسناً ولكني سأزور الجنرال زيارة عادية .

فسأله تنبتنيكوف مدهوشاً :

- ولكن لم ؟

- لأقدم له احترامي .

وفكر اندريه ايفانوفتش : « ياله من رجل غريب »

وقال تشتيكوف :

- سأذهب عدا اليه في العاشرة صباحاً . يجب ألا اناخر عن تقديم احترامي

لرجل مثله . ان عربتي لم تصلح بعد ، أفأستطيع ان استغل ضيافتك فأستعير عربتك ؟

- يا لله ! أهذا سؤال ؟ ان كل شيء هنا تحت تصرفك !
وعلى هذا افترق الصديقان ، وراح كل منهما يتأمل في غرابة صاحبه .
ولكن الشيء الغريب حقاً ان تنتينيكوف عرته انفعالات غريبة لم يشعر
بها من قبل . و ذلك عندما صعد تشتشيكوف الى عربته مرتدياً معطفاً من
الفرو الابيض وربطة عنق زرقاء . وبمضي العربة نحو بيت الجنرال استولت على
افكاره الهادئة عصبية غير عادية لم يعهدها من قبل .
كان يجلس على الارىكة او يقترب من النافذة او يأخذ كتاباً او
يحاول التأمل .
ولكن عبثاً كان يفعل إذ أن المواجهات اخذت تتعب دماغه . فقال وهو
يقرب من النافذة ويرقب الطريق الذي مضت فيه عربة تشتشيكوف :
« انها لغريبة هذه الحالة » ولكن لنعدع تنتينيكوف يتابع
بافل ايضاً نوفتش .

الفصل الثاني

في برهة نصف ساعه ، اجتازت الحيوانات القوية « الفرسات » العشرة التي تفصل قصر تنبتيكوف عن مسكن الجنرال . واجتازت العربية مرأ محاطاً بأشجار السديان ، ثم حقول قمح بدأت تخضار في الارض التي لم يمض كبير وقت على حرائثها . واجتازت بعد ذلك منحدرات حيث تبدو بعض المناظر من الافق البعيد . ومر من ثم بأشجار صفاف حتى وصل آخر الامر الى باب حديدي تبدو من خلال قضبانها واجهة قصر الجنرال الفخمة بأعمدتها الكورنتية . كانت جميع الالوان زاهية إذ ان الجنرال لم يسمع لحجر واحد او لمعدن واحد ان يدل على الهرم . واما الباحة فكانت تشبه بنظافتها ارضاً خشبية مملعة بالشع .

اجتاز تششكوف الدرج قفزاً واعلن عن نفسه ، فادخل على الفور الى غرفة عمل رب المنزل . كان الجنرال يهر الانظار بمظهره الرزين وهو يرتدي ثوباً من الحرير الاحمر . وله نظرة صريحة ، وتقاطيع تتم عن رجولة ، وشاربان طويلان ، وسالفان اشتعلا شيباً ، وشعر قصير ، وعنق قوي . والخلاصة انه

كان جنرالاً من طراز قواد عام ١٨١٢ .

والجنرال بتريشتشف كسائر الناس ، وله تفانضه وفضائله . ومتمزج كل من هذه الفضائل والتفانض بالآخرى كما هو الشأن عند جميع الروسيين ، في فوضى غريبة وكان في الساعات الحاصمة يظهر نفساً قوية شجاعة ، وكرماً وذكاء نادراً ، مع اعتداد صبياني بالنفس وغرور و ... وما تبقى من تقاض الروس الكسولين . وكان الى جانب ذلك يحمل على الذين سبقوه في الخدمة ويسخر منهم بشكل جارح ، ويقسوا خاصة على رفيق قديم يعتبره دونه ذكائه ، ولكنه سمائه عليه في المنزلة ، إذ اصبح حاكماً عاماً لمقاطعتين ، تقع املاك الجنرال في احدهما . وهكذا اصبح تابعاً لرفيقه في السلك . ولم ين الجنرال عن استغلال جميع المناسبات ، لينتقد قرارات الحاكم وينعت جميع تصرفاته بالجنون .

وكان الجنرال الى جانب ذلك متحمساً لفكرة تجديد المدينة وهو يحب ان يعرف ما يجمله الناس في حين انه يكره من يعرف ما يجمله هو . والخلاصة انه يصر على ان يشرف بذكائه على كل شيء ، ويريد ان يلعب دور النبيل الروسي مع انه ربي تربية نصف اجنبية . وانت تدرك من هنا ان الجنرال بمحبة مزاجه هذا قد خاف لنفسه عدة خصوم وأرغم على الاستقالة . وبطبيعة الحال لم ينس ان يهتم أشخاصاً بتدبير مؤامرة ضده ، دون ان يجزء على الاعتراف بأخطائه الخاصة . وبعد ذلك ، في تقاعده ، لم يتخل عن سلوكه المتعجرف وسواء أكان مرتدياً ملابسه كاملة أم أنه بشباب المنزل فقد كان دائماً هو نفسه . في حركاته وصوته شيء من السطوة والسيطرة بما يخلق عند الاشخاص الذين ينتمون الى طبقة دون طبقته ، شيئاً من الاحترام او الارتباك .

وقد أحس تشتشيكوف بهذين الشعورين معاً ، فأحس رأسه الى اليسار قليلاً ، ثم رفع يديه كما لو أنه يحمل طبقاً مليئاً بصحاف للغسيل ، ثم انحنى كثيراً وقال :

— لقد وجدت انه من واجبي تقديم نفسي اسمعادتك ، اذ اني ، احتراماً

للإبطال انذين دافعوا عن الوطن في ميدان القتال ، قررت ان آتي بنفسى
لاقدم لك فروض احترامى .

وبدا أن الجنرال قد رضى لهذا الكلام فhez رأسه مرحباً وقال :

— انى سعيد بمعرفتك ... تفضل بالجلوس ... ابن خدمت .

فاجاب تششيكوف وهو يجلس على حافة المقعد :

— انى بدأت العمل فى احد المكاتب المالية يا صاحب السعادة ، ثم تنقلت

فعملت فى المحاكم ولجان أبنية التاج والمجارك ... ان حياتى لنشبه مركباً

تتناقذه الأمواج يا صاحب السعادة . وكنت أصبر دائماً بل يمكن القول بانى

أجسم الاستمرار ... لقد تأمر أعدائى على حياتى ... وان الكلمات والالوان

والانفال لأعجز من ان تروى قصة حياتى . وانا لا أطلب شيئاً أكثر من أن

أقضى اخريات ايامى فى بقعة هادئة ... واما الآن فأنا أقيم عند احد جيران

سعادتك .

— عند من ؟

— عند تشيتنيكوف يا صاحب السعادة .

فقطب الجنرال حاجبيه وزواهما

— انه ليأسف يا صاحب السعادة لما بدر منه من قلة احترام نحو ...

— نحو من ؟

— انه لم يقدر الخدمات التى أدتسوها سعادتك له . وهو لا يجيد الكلمات

التي ... لقد قال :

« لو استطعت فقط ، بابه طريقة ، أن أبين بأنى أعرف قدر الإبطال الذين

أنقذوا هذا الوطن » فهتف الجنرال وهو يعود الى هدوئه :

— ولكن ارجوك ... ماذا عنده ضدى ؟ انى لا أشعر بنفور منه ، بل

انى أحبه كثيراً ، وانا على ثقة بانه سيصبح ، مع الزمن رجلاً

نافعاً جداً .

- ان قولك صحيح يا صاحب السعادة ... ان عند تنينيكوف
موهبة كلامية قلدة ... وهو يكتب بشكل مدهش ... انه عبقرى بكل
معنى الكلمة .

- ولكنه يكتب سخافات ... اشعاراً مخيفة .

- لا يا صاحب السعادة ليس الامر كذلك . انه يكتب تاريخاً
يا صاحب السعادة .

- يكتب تاريخاً ... عن اي شيء .

- تاريخ ...

وفكر تششيكوف ثم اضاف ، اما لأنه كان امام جنة ال او لانه أراد
أن يؤكد أهمية الموضوع :

- تاريخ القواد يا صاحب السعادة !

- ماذا ؟ واي قواد ؟

- القواد عامة يا صاحب السعادة ... انه يكتب عن طبقة القواد وخاصة
قواد الوطن .

وارتبك تششيكوف قليلاً وهو يتساءل بينه وبين نفسه : أناحيوان ؟
وقال بتريششف :

- اعذرني ، اني لم افهم شيئاً ... هل يكتب عن فترة معينة ام انه يكتب

تراجم جميع القواد ، ام انه يخص قواد عام ١٨١٢ بالكتابة فقط ؟

فاجاب تششيكوف :

- تمامً يا صاحب السعادة .. انه يتكلم عن قواد عام ١٨١٢ . ثم قال في

نفسه : « ان الشيطان وحده يعلم اذا كنت افهم شيئاً عن هذا الموضوع ! ،
وسأله الجزال :

- واذن لماذا لا يأتي لزيارتي .. اني استطيع ان اقدم له وثائق هامة ..

- هو خجول يا صاحب السعادة .

- هذا امر تافه .. أمن أجل كلمة لامعنى لها ! ما انا بالرجل الذي يظنه ،
سأذهب اليه بنفسى .

فهتف تشنشيكوف :

- لا لا ! انه لا يقبل بذلك .. سيأتي الى هنا بنفسه ! ثم قال في داخله :
« يالله .. كيف تتدبر الامور .. ان تاريخ القواد هذا قد نجح ،

وفي هذه البرهة حدثت ضجة خفيفة ثم فتح الباب وظهر خلفه وجه امرأة .
ولو ان نوراً فجائياً هبط على الغرفة الفاتمة لما أدهش تشنشيكوف واذله كما
اذله هذه المفاجأة . كانت الفتاة قد جاءت لتحدث الجنرال ولكنها اذ رأت
تشنشيكوف ترددت قليلاً . وكان وجودها بمثابة شعاعة شمس اضاءت حجرة
عمل الجنرال . واخذ بافل ايفانوفتش يلتهم الفتاة بانظاره وقد يهره جماها . وكان
من الصعب عليه ان يحدد نموذجاً لها . اذ ان تعبير وجهها ينم عن نبـل ونقاء
لامثيل ضما . وكانت مستقيمة وخفيفة كالسهم وتبدو كأنها اطول الناس قامه ،
ولكن هذا لبس غير وهم ، اذ ان قامتها معتدلة وان كانت تظهر طويلتها بسبب
تناسب تقاطيع جسدها وانسجامها . اما ثوبها فكان ملائماً لها بشكل ساحر
وكان الجنيات الحياطات قد سهرن على اعداده . ومع ذلك فان الفتاة هي
التي تحبب ثيابها بنفسها ، فتفصله بيدها وتضع له النقاط هنا وهناك حتى يأتي
اثوب ملائماً لها بطياته الرشيقه ، فتبدو بقية النساء امام هذه الالكه مخلوقات تافهه
لاقيسه لها . ولو ان نحائناً صنع نموذجاً لها من المرمر لغتف الجميع : ياله من عمل
عبقري رائع .

قال الجنرال :

- أقدم لك ابنتي المدللة .. ولكنى لا أعرف اسمك . فأجاب تشنشيكوف
بتواضع وهو يحني رأسه قليلا :

- وماذا يهمك من اسم رجل بسيط .

- ومع ذلك فانا اراغب بالتعرف عليه .

فأجاب تششيكوف وهو يقوم بتجبة رشيقة شبه عسكرية ، متراجعاً الى الوراء بخفة كخفة كرة المطاط :

- بافل ايفانوفتش ، يا صاحب السعادة .

فقال الجنرال متوجها بالحديث الى ابنته :

- ان بافل ايفانوفتش باعزيزتي اولينكا قد نقل الي خبراً هاماً .. ان

جارنا تنيتنيكوف ليس بالرجل الابله كما اعتقدنا ، فهو يعمل على تأليف كتاب

مهم عن تاريخ قواد ١٨١٢ .

فأجابت الفتاة بجرارة :

- ولكن من الذي يقول بان تنيتنيكوف احمق ؟ لربما يكون

فيشنبركوفونوف الذي تثق به اكثر مما يجب ، وهو رجل منحط تافه .

- انه ليس بمنحط ولكنه تافه

فألحت اولينكا :

- انه جبان وعديم الاخلاق ، بل هو فوق ذلك تافه . ان رجلاً بين اخوتك

كما فعل ، او يطرد اخيه من بيت ابيه ، انما هو انسان منحط لارادع له .

- ولكن ذلك اشاعة لا اكثر !

- ان قصصاً مثل هذه القصص لا تخرج اختراعاً . واني لا استطيع ان افهم ،

ياوالدي ، انك باستقامتك وقلبك الذهبي ، تستطيع ان تستقبل مخلوقاً يبعد عن

طينتك بعد السماء من الارض ، وتعرف مع ذلك انه مخلوق رديء .

فهتف الجنرال وهو يلتفت نحو تششيكوف :

.. أرايت ؟ اننا هكذا دوماً نختصم .

وتوجه بالحديث الى ابنته قائلاً :

- ولكن ، ياروحي الصغيرة ، لا يمكنني ان اطرده .

وخيل الى تششيكوف ان من واجبه قول شيء :

- جميع الرجال يريدون ان يكونوا محبوبين ياآنستي ؛ فما العمل ؟ بل ان

الوحوش نفسها تنتظر من يداعبها امام قضبان اقفاصها .
فقال الجنرال ضاحكاً :

- هذا صحيح .. اذهب وداعبها .. أه ... أه ... آه ... ان لها لفها مليء
أنياً ينتظر ان يداعب .

كان الجنرال يضحك بقوة بينما يهتز جسده كله وخاجة كثفاه اللذان حملاه قديماً
الشارت . واقتدى بافل ايفانوفتش بالجنرال ولكنه عوضاً عن ان يضحك
كالجنرال على هذه الطريقة : أه أه آه ... اختار لنفسه طريقة أخوي هي :
إيه إيه ... إيه ... وذلك احتراماً لمضيفه . واهتز جسده هو الآخر ولكن
كثفيه بقيا ساكنين ، ولربما كان السبب في ذلك انه لم يسبق له ان حمل عليهما
شارت عسكرية .

وقال الجنرال :

- حتى الذي يسرق الخزينة ويجدع الناس يطلب الملاطفة ايضاً . ان العمل
ليستحيل دون تشجيع . آه . أه . آه ..

وقالت الفتاة وقد ارتسم على وجهها الصبح تعبير كئيب :

- اني لا استطيع ان افهم كيف تضحك ، وهذه الصغائر شدة ما تحزنني .
واني عند ما أرى هذه الاشياء تم في العلانية دون ان يعاقب مرتكبوها
بالازدراء العام ، عندما ارى ذلك لا استطيع أن أدرك مايجول في داخلي ..
فأصبح سينة شريرة أفكر .. أفكر ..

فنهف الجنرال مقاطعاً :

- ارجوك لا تغضبي منا ... ذلك انه لا ذنب لنا .

ثم اضاف متوجهاً الى نشتشيكوف :

- ألبس كذلك ؟

والتفت بعد ذلك الى ابنته وقال :

- قبليني واذهبي ... سأرتدي ملابسى لاجل الفداء ، ثم سأل بافل
ايفانوفتش :

- وأنت ، أنتناول معنا الطعام ؟ آمل ان تقبل دعوتنا .

- اذا كنت تشرفني ب ...

- دون كلفه ... انى استطيع ايضاً دعوة اصدقائى للغداء ، فعمساء الملقوف
عندنا جيد الطبخ .

رفع تششيكوف يديه قليلاً ، ثم انحنى كثيراً ، كثيراً جداً حتى لم ير
من الغرفة غير قدميه ، وبقي لحظات على هذا الوضع ثم انتصب في الوقت
الذي توارت فيه اولينيكى ، ودخل بعد ذلك خادم في طول المارد بشاربين
طويلين وسالفين كشيخين ، يحمل اناه من الفضة ومنشفة .

- اتسمح لي بارتداء ملابسى امامك ؟

- انك تستطيع ، يا صاحب السعادة ، لا أن ترتدي ثيابك فحسب ، بل
ان تفعل ايضاً كل ما يحلو لك .

خلع الجنرال ثوبه المنزلي وحسركمى قميصه عن ساعدين قويين ، ثم اخذ
يغتسل نائراً الماء حوله كبطة تضطرب في الماء ، وكذلك فقاعات الصوبون فقد
اخذت ايضاً طريقها الى كل مكان من الغرفة .

هتف وهو يمسح عنقه :

- أه ... أه ... أه . انهم يحبون التشجيع . أه أه داعبه ، داعبه اذن ،

ما من انسان يشرق او يمدح دون تشجيع .

شعر تششيكوف انه مرتاح تمام الارتياح ، وعند ذلك هبط عليه الوحي
فجأة فقال في نفسه : « ان الجنرال انسان طيب مرح فلماذا لا اجرب معه ؟ » .
وما ان انصرف الخادم حتى التفت الى بتريشتشف قائلاً :

- يا صاحب السعادة ، انك لتظهر الطيبة والكرم لجميع الناس ، ولذا فانه لي
عندك رجاء .

ونظر تششيكوف حوله .

— ان لي عمأ عجوزآ يملك ثلاثائة عبد ، واني وريثه الوحيد .
وهذا العم قد بلغ من العمر عتياً فلم يعد بمقدوره ان يدير املاكه منفرداً
ولكنه في نفس الوقت لا يريد ان يعهد الي هذه المهمة ، وحجته في ذلك غريبة
قال لي ذات يوم : « انا لا أعرف ابن اخي جيداً ، اذ ربما يكون متلافأ مبذراً
فاذا أراد ان يثبت أهليته للثقة فيجب عليه ان يصبح مالكا لثلاثائة عبد . وعند
ذلك أستطيع ان أعهد اليه بعبيدي ! »
فهتف الجبزال :

— ولكن عمك هذا رجل احمق .
— ربما كان ذلك ، وعلى اية حال فهذا أمر يتعلق به وحده ، والمهم ان
لديه الآن مدبرة منزل ولها اولاد ، وقد يؤول كل شيء اليهم .
فقال الجبزال وقد ازداد تعجباً :

— ان العجوز قد فقد عقله بلا ريب . ولكن كيف أستطيع مساعدتك ؟
فاجاب بافل ايفانوفتش :
— كنت افكر يا صاحب السعادة انك لو بعثني ما عندك من النفوس
الميتة في هذه القرية ، على اعتبار أن أصحابها احياء ، مع تنظيم عقد شرعي بالمبيع
اذن ، فاني ابرز هذا العقد لعمي فتمنقل الي ثروته !
وضع الجبزال بالضحك واستلقى على معقده ملقياً برأسه الى الخلف . ومن
المؤكد انه ما من انسان في العالم اجمع يضحك مثل ضحكة الجبزال هذه . فقد
هز المنزل بأركانها ، فركض الخدم وهرعت اولينكا مذعورة تصيح :
— ماذا اصابك يا أبني

بقي الجبزال مستغرقاً في ضحكه وقتاً طويلاً ، وعندما رجع الى
صوابه قال :

- لا شيء ... لا شيء يا صديقتي ... عودي الى غرفتك وسنتناول الطعام
بعد قليل . لا تقلقي . أه أه آه

وعاد الجنرال من جديد الى الضحك ، واخذ الصدى يتردد في ارجاء المنزل
من اول المشي الى اقصى الغرف . وكان تشنيكوف يرقب كل ذلك
بشيء من القلق .

- آه ... هذا العم البائس ... سيروى اسماء الموتى ... وسيخضع ...
أه أه آه ... !

وقال تشنيكوف في نفسه : « انت الجنرال كثير الحساسية ، فأمل
ألا تسوء الأمور ! »

وتابع بتربشتشيف :

- ياله من حمار . أه أه . هو يطلب ان تصبح مالكا لثلاثائة نفس كي
يعطيك فلاحيه .. ولكنه حمار
- اجل ! حمار يا صاحب السعادة .

- ولكن اية فكاكة هذه ، أن تقدم له اسواناً ... اني ادفع ما يعلمه الله
كي اكون حاضراً عندما تقدم له عقد المبيع ... كيف هو ، كم
يبلغ من العمر .

- انه في الثمانين فقط من عمره

- وما يزال يتحرك ... انه انسان صلب ... وبمقدوره ان يقوى على الحب
طالما ان له مدبرة بيت .

- هو عاجز يا صاحب السعادة ... انه كبس ذقني بدأ يفرغ .

- انه غبي تماماً ... اليس كذلك ؟ انه غبي !

- غبي يا صاحب السعادة !

- أخرج من البيت وينحرك ؟

- انه يمشي ولكن بصعوبة .
- ياله من أحق ! ... هل له اسنان ؟
- اثنان فقط يا صاحب السعادة!
- ياله من حمار ... لا تغضب انه حمار بالرغم من كونه عمك .
- كان تشيكوف يكذب بلا شك ، ولكنه لم يكن يشعر بالحجل لان العم الذي تحدث عنه لاجود له .
- اذن ، هل اتفقنا يا صاحب السعادة ... وهل ستيبني امواتك ؟
- اعطيك نفوسي الميتة ... لا ، بل سأعطيك من اجل هذه النكتة جميع الاموات مع الارض والاكواخ ، بل خذ ايضاً المدفن ... أه أه آه ...
- يا للعجوز المحبوس ... أه أه ، كم يضحك ... أه أه آه ...
- ومن جديد دوت ضحكة الجنرال في انحاء القصر .

(١) الفصل الثالث

تمنم تششيكوف : « لئن كان الكولونيل كوشكاريف مجنوناً حقاً ، إذن ياله من موقف مضحك » . وكان في تلك الآونة قد تغلغل في الحقول ذات الآفاق الواسعة اللاحدودة ، فلم ير غير السماء وبعض سحابات بعيدة . وقال لحوذيته :
- هل استفهمت عن الطريق يا سليفان . . أننا ذاهبون الى الكولونيل كوشكاريف .

- لم يسمح لي الوقت بالسؤال يا بافل ايافتش ، ذلك اني استغرقت في تنظيف العربة وقتاً طويلاً ، الا ان بتروشكا قد استفهم عن ذلك .
- لقد قلت لك اكثر من مرة ألا تثق ببتروشكا فهو كالحطبة ، بل هو أحمق ، وأنا على ثقة بانه غل تماماً الآن .
فهتف ببتروشكا وهو يلتفت :

- ليس الامر صعباً ، علينا ان نقطع منحدرآ ونجتاز حقلاً فينتهي الامر .
- انت انسان جيد ، وخاصة عندما تشرب الخمر . وعلى أية حال لن يقول

(١) هناك عدة صفحات ناقصة في مسودة الكتاب .

عنك أحد : إنه أذهل أوروبا بجماله .

نلفظ تششيكوف بهذه الكلمات ثم داعب ذقنه وفكر : « انه لفرق أي فرق ، بين مواطن مثقف وخدام حيوان ! » وكانت العربية في ذلك الحين تقطع منعجراً لهضة فانكشفت أمامهم مراعي جديدة وآفاق جميلة ، بينما احبط الطريق بالاشجار .

وصلت العربية السفح قاطعة المراعي ومرت قرب الطواحين مجتازة بصخب كثيراً من الجسور ، ثم سلكت آخر الامر طريقاً مليئة بالاشجار ، فلم يحصل عقب ذلك أي اهتزاز او رجرجة ، إذ أن العربية كانت تهدد تششيكوف كما لم تفعل ذلك من قبل . اخذت الكروم واشجار الصفاف بورقها الفضي تلسع بأغصانها وجمي سليفان وبتروشكا اثناء السير . وقد فقد بتروشكا عدة مرات عمرته فكان يقفز على الارض ليلتقطها لاغناً الشجرة وسيده الذي امره بالجلوس الى جانب سليفان . ولكنه بالرغم من ذلك فقد صمم على ألا يحمل العمرة بيده أو يثبتها بقوة على رأسه لأنه في كل مرة تسقط عمرته على الارض ، كان ينزع نفسه بانها المرة الاخيرة . وصلوا بعد ذلك الى طريق محدود باشجار الصوبر والبلوط ، فدخلت العربية غاباً صغيراً ، وبدأت بعد قليل شعاعات الشمس تمر بين الاغصان فاستضاءت بها الاشجار . وشاهد تششيكوف بحيرة طولها اربعة (فرسات) تقريباً ، وساهد على الضفة المقابلة ايضاً اكواخ القرية الرماذية . كانت الصبغات تتعالى من كل مكان . فهناك حوالي عشرون رجلاً تغمرهم المياه حتى الاعناق يسكون بشبكة كبيرة . وهذا ما حصل :

أمسكت الشبكة بسكة كبيرة والثقت في نفس الوقت رجل عظيم الجرم ضخماً كأنه البرميل ، فأخذ يصبح بأعلى صوته : « دنيس اعط كوزما . . . كوزما خذ طرف الشبكة من دنيس . . . لا تشد هكذا بقوة . . . توماس الكبير ، ساعد توماس الصغير . . أيها النعاص ستمزقون الشبكة ! » . ولم يكن النعاص ليخشى على نفسه اذ يستحيل عليه ان يفرق في الماء لبدانته .

ثم ان المياه تعيده دوماً الى سطحها . بل لا يمكن ان يفرق حتى ولو حمل على كاهله رجلين ، لان المياه سترده ايضاً الى السطح . الا انه هنا كان خائفاً على السمكة ، ولذلك أخذوا يشدونه هو الآخر بجبال وماها اليهم رجال وقفوا على الضفة . قال سليمان :

- انه سيدهم بلا ريب ، انه الكولونيل كوشكاريف

- ولماذا تعتقد ذلك ؟

- لأنه ... انظر اليه . انت جلده اكثر بياضاً من الآخرين وثباته

ثبات سيد .

وفي هذه الاثناء كان السيد قد وصل مع الشاب الى الضفة . فوضع قدمه على الارض وشاهد في نفس اللحظة عربة تششيكوف . فاقرب من بافل ايفانوفتش حاملاً الشبكة على كتفيه فارشاً يده فوق عينيه ليحميها من حدة الشمس بينما ترك يده الاخرى مسبلة كصورة فينوس مدسيس وهي تخرج من الحمام . ثم صاح به :

- هل تناولت طعام الغداء .

فرد تششيكوف وهو يحبه بعمرته :

- لا

- شكر الله اذن

فسأله بافل ايفانوفتش وهو ما يزال ممسكاً بعمرته :

- ولماذا

انظر الى ذلك بنفسك . . . ياتوماس الصفير ، أوه السمكة ، وانت

يا كوزما ساعده .

ورفع الصيادان السمكة فهتف السيد :

- هية ... يا لها من سمكة ملكية . تعالوا الى المنزل .

وانت يا حوذي اسلك طريق الحقول ، واما انت يا توماس الكبير فلتسرع
لفتح السياج ، انه سبصحبكم بنفسه اما انا فسالحي بكم .

اجتاز توماس الكبير القرية وهو حافي القدمين راكضاً امام العربى . كانت
اشتات مختلفة من انواع الاسماك تشاهد معلقة على الأكواخ ذلك ان جميع
الفلاحين يصيدون . وصل توماس الى الحاجز فرفع ألواح الحشيشة فمرت العربى
بين حقول جميلة ثم وصلت الى ساحة قرب كنيسة خشبية وبدت من بعيد
اسطحة بيت السيد . فكر تششيكوف : « ي شخص غريب هذا الكوشكاريف »
وهتف صوت من الحلف :

— ها أنذا .

وعندما التفت تششيكوف شاهد السيد راكباً على عربى بالقرب منهم
يرتدي معطفاً من قماش نانكين وسروالاً اصفر اللون ؛ ولكنه لا يلبس ياقة او
ربطة عنق . وكان يملأ العربى وحده .

وعندما اراد بافل ايفانوفتش ان يرد عليه كلمته اختفى داخل العربى التي
اصبحت بعيدة عنه هناك حيث كان الصيادون يستخرجون الاسماك . ومن
جديد تعالت الاصوات وسمع منها توماس الكبير والصفير
وكوزماودنيس .

وكم كانت دهشة تششيكوف عظيمة عندما وصل الى القصر وشاهد السيد
هناك . وقد استقبله هذا بقبلات متلاحقة وهو ما يزال على الدرج . ترى كيف
استطاع ان يقطع كل هذه المسافة بتلك السرعة ؟ ان هذا لسر غامض ، تبادل
رب البيت مع تششيكوف ، بعد ذلك ، قبلة ثلاثية على الطريقة الروسية
القديمة رسماً بها شارة الصليب . ذلك ان السيد كان من نبلاء الجبل القديم .

قال بافل ايفانوفتش :

— اني أنقل اليك تحيات سعادته

- سعادة من ؟

سعادة قريبك الجنرال الكسندر ديمتريفش

- الكسندر ديمتريفش .. ومن يكون ؟

فاجاب تششيكوف وقد أدهشه هذا السؤال :

- هو الجنرال بتريشتشف

- لأعرف هذا المخلوق .

فذهل بأفل إيفانوفتش

- وكيف هذا ؟ اني لأمل ان اكون قد حصلت على شرف التحدث مع

الكولونيل كوشكاريف

- لتفقد هذا الامل اذن . انك لست في بيته بل في بيتي انا !... اني

بيوتر بتروفتش بيتوخ .. بيتوخ ، بيوتر بتروفتش .

وظل تششيكوف مذهولاً ثم هتف بمخوذه وخادمه ، سليفان وبتروشكا .

- ماذا فعلنا .

ولكنهما كانا ايضاً فاغري الفم ، وقد جلس احدهما على المقعد بينما وقف

الآخر قريباً من الباب . وتابع تششيكوف :

- ايها الغبيان ، لقد قلت لهما ان تذهبا الى منزل الكولونيل كوشكاريف

فجئتا بي الى منزل بيوتر بتروفتش بيتوخ .

فقال بيتوخ :

- لقد فعل الصغيران جيداً .. اذهبا الى المطبخ كي تقدم لهما الفودكا ثم

حلا الجياد واذها لتعرف على رجالي .

فقال تششيكوف :

- انك ترى بلا ريب خجلي منك .. انه لخطأ فظيع .

- لا ، ليس من خطأ هناك .. يجب ان تذوق طعامي قبل كل شيء ثم

تقول لي بعد ذلك اذا كان هناك من خطأ ام لا .. ارجوك تعال معي .
و خذ بيتوخ ذراع تششيكوف وقاده الى المنزل . وخرج طفلان بلابلها
من احدى الغرف هناك ، وكانا نحيلين طويلين ، يفوقان والدهما طولاً .
وقال بيتوخ :

- هذان ولداي الطالبان في الصفوف الثانوية وقد جاءا هنا لقضاء العطلة ..
ابق يا نيقولاشا مع صديقنا وأما انت يا الكباشا فاتبعني .
ظل تششيكوف مع نيقولاشا الذي سرعان ما بدا له عديم القيمة لانه
صرح ان مدرسة المقاطعة لاتساوي شيئاً ، بما جعله يقرر مع اخيه ان يذهب
الى بطرسبرج ، لانها لا يريدان ان يعيشا في بقعة نائية منعزلة . فقال تششيكوف
في نفسه : « وسينتهيان بلاريب في الحانات . » ثم سأله :
- كيف هي حالة املاك ابيك ؟

فرد بيتوخ الذي دخل الغرفة في تلك الآونة :
- مرهونة .. انها مرهونة !

ففكر بافل ايفانوفتش : « بالهامن صفقة خاسرة . اني أضيع وقتي سدى ،
ثم قال بصوت مرتفع :
= هذا أمر مؤسف ... لعلك تسرعت برهنها .

= ابدأ ... وأنا قبل لي ان ذلك يشكل صفقة رابحة ، لان كل الناس
يرهنون املاكهم فلماذا لا اجاريهم في ذلك ؟ لقد عشت حياتي ههنا واريد
الذهاب الآن الى موسكو ، وكذلك ولداي فانها يرغبان ايضاً في ذلك
ولا يحملان الا بمتابعة دراستهما في العاصمة :

وفكر بافل ايفانوفتش : « ياله من حيوان غبي .. انه سيضيع ثروته وحياة
ولديه ... وعنده هنا الاملاك الضخمة والعبيد ويعيش حياة الاسياد كما انه على
وفاق مع عبيده ككل ملاكي المقاطعات في الريف ... وأما هناك ... فانهم
سينحدثون في المطاعم والمسارح ويذهب كل شيء الى الشيطان ... بينا نستطيع
النفوس الميتة - م ٢٠

هنا ان يعيش هادئاً مطمئناً ... وقال بيتوخ :

— اني اعرف بماذا تفكر!

فارتبك تششيكوف وقال :

— وبماذا أفكر ؟

— انت تقول إن بيتوخ هذا رجل احمق ... دعاني الى الغذاء ولم يعــد

الطعام بعد . ولكن لا سيقدم الطعام بعد دقائق معدودات باعززي . سوف يقدم كل شي ، قبل ان تنتهي الفتاة التي رأيتها من جدل ضفائرها .

وقل أليكشا الذي كان ينظر من النافذة :

— « إذا بلاتون ميخائيلوفتش قادمًا اليــنا يا ابني ! وأضف نيكولاشا :

— وعز علي جواد رمادي اللون .

فسأل بيتوخ وهو يقترب من النافذة :

— ابن هو ... ابن هو !

فسأله تششيكوف :

— ومن يكون بلاتون ميخائيلوفتش ؟

— انه جار لنا يدعي بلاتون ميخائيلوفتش بلاتونوف ، وهو رجل شجاع ممتاز .

ودخل بلاتونوف بعد قليل الغرفة . كان رجلاً بهي الطلعة طويل القامة أشقر

الشعر جمعه . وقد امسك بسلسلة جميلة من النحاس مربوطة بكاب يدعوه سيده

« يارب » . وهو حيوان قوي ذو فك مخيف . وسأله بيتوخ :

— أتناولت طعام الغذاء ؟

— اجل !

— أنهزأ مني ؟ وكيف تأتي الي بعد الغذاء ؟

فابتسم الصديق وقال :

— سأعزبك قليلاً ، اني لم آكل شيئاً ولكني فاقد الشهية .

- ما اعظم صيدنا اليوم .. آه لو شاهدت ماذا اصطدنا من الاسماك !
- اني اکتفي بسماكك نتحدث عن الاسماك ؛ ان مثل هذا الحديث فيه الكثير من الایحاء ، اجبني بحق الشيطان ماذا تفعل حتى تكون دوماً هكذا مرحاً ؟

- ولم الحزن ؟ ولماذا احزن ؟

- لماذا ؟ ... لان الحياة حزينة !

- انك لا تأكل كفايتك ! ... وهذا كل شيء ! كل جيداً وسترى عما اذا كانت هذه الکآبة التي اخترعناها نحن الروسيين لا تتبدد .

- أوه لا تتظاهر هكذا بالشجاعة ! انت تعرف اللئل كما اعرفه انا .

- لا تعتقد ذلك ، لانه ليس لدي وقت للئل . ذلك اني أستيقظ صباحاً فأقابل الطهي واحده له اصناف الغداء ثم يقدم لي الشاي ، ويأتي بعد ذلك الوكيل ... ثم هناك الصيد ويأتي بعده وقت الغداء . وما إن انام قليلاً يعقب الغداء حتى تكون علي مهمة الحديث عن طعام العشاء . وهكذا غير التمارفكيف تريدني أن أمل .

وفما كان الصديقان يتجاذبان اطراف الاحاديث اخذ تششيكوف ينظر الى الضيف الذي سحره بجماله وقامته المفتولة وشبابه المتدفق ونقاء تقاطيعه . لم يكن يبدو على هذا الرجل أي ألم أو انفعال او عاطفة ، بل ظلت تقاطيع وجهه جامدة بالرغم من الابتسامة الساحرة التي اعطته بوهة شيئاً من الحياة .

وقال تششيكوف لبلاتونوف :

- لا أستطيع ان اتصور انسان له مثل وجهك يشعر بالئل ... اسمح لي ان اقول انه لربما كان الامر عائداً الى نقص في مواردك او الى وجود اعداء يتآمرون على سلامتك ...

فقاطعه بلاتونوف :

.. صدقني أني كثيراً ما ارغب بالشعور بالقلق يتأكلني ، بل ارغب اكثر

من ذلك برؤية احد بشر غصي ، ولكن اللسف الشديد لا يحصل شيء من ذلك لي ، ولذلك تراني اشعر بالمل والضيق وهذا كل شيء .

.. أما لديك قدر كاف من الاراضي ؟ ثم ألا تنك عددآ وافيآ من الفلاحين ؟

- اني املك مع اخي كثيراً من الاراضي الواسعة واكثر من ألف فلاح .

- هذا امر غريب ... اذن ألا يمكن ان يعود سبب ضجرك الى موسم ردي ؟

أو وباء رفع بين فلاحك نسبة الوفيات ؟

- على العكس تماماً ... ان كل شيء يسير عندي على مايرام . ذلك ان

اخي اداري بارع .

- أراني لا أقدر على فهمك ... أذيل الانسان عندما ينك جميع ما يلزمه ؟

ورفع تششيكوف كتفه عجبآ فقال رب البيت :

- انتظر قليلا ... ستطرد هذا الملل حالآ البكاء اركض الى المطبخ

وقل لطاهي ان يقدم لنا لحوماً مبردة على الفور . ثم ابن امليان الغبي وانطوشكا

اللس ... لماذا لم يقدمنا ما يشير الشهية من المقبلات ؟

وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخل امليان الغبي وانطوشكو اللس ووضعوا

فوق الطاولة ست زجاجات من المشروبات المختلفة . ثم أتيا بصحن فيها مختلف

أنواع المقبلات . وكان ثمة خدم آخرون يروحون ويفدون بيسنا كان امليان

الغبي وانطوشكا اللس يدوران كل شيء بهارة وذكاء . ان هذين التعنين اطلقها

بيتوخ عليها كي يحشما على العمل . ذلك ان السيد لا يجب ان يتعب رجلاه فهو

طيب نحوم ، الا ان الروس يحتاجون دوماً الى استعمال نعت يحفز عقولهم كما

تحفز الفرد كما أعدتهم .

ولا يمكن صنع شيء معهم فهم معتادون على ذلك ولا يستطيعون الحياة

دون دافع يشيهم .

وتنالت الاطباق من شتى الالوان وانحه رب البيت ضيفه بكمية الطعام

إذ ما يكاد احدهما يصب لنفسه شيئاً حتى يضيف بيتوخ الى الصحن قطعة كبيرة

من اللحم وهو جف : « لا الانسان ولا الطير يستطيعان العيش ان لم يكونا زوجين ! » .

اما اذا اخذ أحدهما قطعتين معاً فان بيتوخ يسرع الى وضع قطعة ثالثة ويوضح عمله بقوله :

« ان الله يحب التثليث فالاثنتان لا يؤلفان العدالة ، وما ان ينهي صديقه أكل القطعة الثالثة حتى يقول : « لا توجد عربة بثلاث عجلات كما لا يرتفع كوخ بثلاث زوايا ! » كان لكل عدد عنده مثل ومنطق : وهكذا أكل تششيكوف اثني عشر صحناً من الوان مختلفة واخذ يفكر : « انه الآن سيدعني بسلام ! » ولكن بيتوخ عاجله بصحن آخر دون ان يتفوه بحرف واحد ، ووضع في هذا الصحن قطعة كبيرة من لحم العجل وقال :

- اني غذيت هذا العجل بالحليب مدة سنتين فقط واعنيت به اعتنائي بأولادي .

فاجاب تششيكوف :

- لا أقوى على المزيد من الطعام .

- ولكن جرب وستقول لي بعد ذلك : لا استطيع .

- لبس في بطني متسع لاي لعة .

وفي الكنيسة ايضاً لا توجد اماكن شاغرة ، ولكن مختار المدينة عندما يدخلها يستطيع ان يجد لنفسه مكاناً ، في حين ان الناس يزحم بعضهم البعض الآخر بشكن اذا سقطت معه تقاحة عليهم لا تقع على الارض . جرب اذن فهذه قطعة المختار .

وجرب تششيكوف ، والتهم القطعة وهو يفكر : « كيف سيذهب هذا الرجل الى بطرسبرج او الى موسكو . انه سيتلف كل شي خلال ثلاث سنوات ! » ولكنه نسي في الواقع ان الروسي مع « الحبز والمنج » او دونه يستطيع ان

يتلف كل شيء لا في ثلاث سنوات فحسب بل في ثلاثة اشهر فقط .
كانوا يشربون ويشربون .. الزجاجة تلو الثانية والكناس في اعقاب الآخر ،
وكل شيء يفرغ . وقد عمل اليكاش ونيكولاشا كالكبار ولم يكن من الصعب
ان يعرف الانسان الى اي فرع من اعارف الانسانيه سينتهجان عند وصولها
الى العاصمه .

نهض الضيفان من على المائدة بصعوبة ظاهرة وانجها ببطء الى الشرفة حيث
اخذا مكانهما يجهد فوق المقاعد . وما ان جلس رب البيت على اريكة تسع
اربعة اشخاص حتى داعبه النعاس فتأم . وكانت تخرج من فم المفتوح موسيقى
يعجز عن الاتيان بثلاثها اعظم المؤلفين الموسيقيين ، ذلك انه يمكن ان نسمع من
العجيب صوت الطبل والبوق كما يمكنك التمييز بينهما بسهولة ، إن فم هذا يخرج
مفونية كاملة تشبه نباح الكلاب .

وهنف بلاتونوف :

— ماهذه الموسيقى

فانفجر تشتشيكوف ضاحكا وتابع بلاتونوف :

— وكيف يتسرب المثل الى الانسان بعد مثل هذه الوقعة ... ذلك انه
لا يستطيع بعدها الا النوم .

— اجل ولكن لتسمح لي ... اني لا استطيع ان افهم ملك . فلانسان
ملك عدة وسائل لمحاربة المثل .

— وما هي ؟

— يستطيع المرء اذا كان شابا ان يرقص .. وان يعزف .. وان يتزوج اخيرا !

— ويتزوج من ؟

— هناك كثير من الفتيات الغنيات الجيلات في هذه البلاد

— انت واهم !

— اذن يمكن التفتيش عنهن في مكان آخر ... بقدر ان الانسان ان يسافر

وهذه فكرة حسنة اسمعني !

- قل !

- ولكن ... السفر

.. والى اين ؟

- اذا كنت حراً فاتبعني !

وفكر تشيكوف « سأحصل منه على فائدة ، اذ سيدفع نصف النفقات

مع تكاليف اصلاح عربتي »

وسأله بلاتوغوف .

- الى اين سندهب ؟

- اني الآن مسافر في مهمة . ذلك أن الجنرال بتريشتف ، وهو من اصدق

اصدقائي ، قد رجاني أن أزور اقرباءه (١) وأناجد مسرور لاني سأعرف

على اقارب بتريشتف ، ولكني أسافر لاني احب السفر ، احب ان ارى العالم

فالناس كتاب مفتوح ... علم كامل الاطار .

وقال في نفسه : « انها فكرة جيدة ، سأحمله جميع النفقات كما سأخذ منه

جياده وعربته بينما تظل جيايدي مريحة »

وكان بلاتونوف في نفس الوقت يفكر : « ليس لدي ما يستبقيني في منزلي

فلماذا لا اقوم بهذه الجولة ؟ ... »

ان اخي يدبر كل شيء فلن يزعجه سفري ، واذن لماذا لا أتجول متنزهاً ؟

ثم سأل بافل ايفانوفتش :

- أتقبل أن تقضي يومين عند اخي ، فانه لن يسبح لي بالذهاب أنت

لم تفعل ذلك !

(١) - ان تشيكوف قد نجح دون شك بمعالجة تشيكوف مع بتريشتف وتم الاتفاق

على زواج الاول من اولينكا ، وقد كلف تشيكوف باذاعة النبأ على اصدقاء الجنرال

= بكل سرور . حافضي يومين بل ثلاثة اذا شئت . فتهف بلاتونوف :
= اذن اتفقنا .

وتصافح الصديقان بينما استيقظ بينوخ وفتح عينه ثم قال :

= والى اين تذهبان ؟ الى اين ؟ . لاياسيدي الصغيرون . ان العربتين ستكونان
بلاعجلات . واما حصانك يابلاتونوف مبخايوفتش فهو على مبعده خمسة عشر
(فرستا) من هنا ! ستقضيان اذن ليلتكما هنا وتذهبان غداً بعد الغداء
حسبما يحولكما !

ولم يكن بالامكان مجادلة بيتوخ فالبقاء واجب لاجبده . وهكذا كوفي*
الصديقان بسهرة وبعبية جميلة ونزهة على البحيرة قام بتنظيمها مضيفها . كانت
المراكب تنزلق على صفحة المياه يقودها اثنا عشر مجذفا يغنون . ووصل الجمع
الى نهر ينتهي عند كل خفة من ضفتيه بمنحدر هادئ . كان المجذفون يصطدمون
فيه بشباك الصيد . وكان الماء يتحرك ببطء بينما تنكشف الغابات بصمت مهيب .
وفي لحظة مارفع المجذفون مجاذيفهم بحركة واحدة فانساب المركب الكبير
وحيداً كطائر خفيف . عند ذلك بدأ شاب بالغناء . وكان ذا كنفين عربضين
وصوت رفان ، واخذت المقاطع الاولى من أغنيته تنساب فيه بينما أخذ خمسة من
الصيادين يرددون لازمتها ، ثم اعاد ستة آخرون بترداد المقطع الاول . وهكذا
ارتفعت الاغنية عالية ، عظيمة لامتناهية كالروسيا نفسها . واهتز بيتوخ فوق
مقعده واخذ يغني بدوره بينما ظل تششيكوف صامتاً ولكنه شعر بكل ما في
اعماقه من روسي يلهل ويهتز . اما بلاتونوف فانه الوحيد الذي كان يقول في
نفسه : « وأين الجمال في هذه الأغنية الشاكية الباكية ؟ ان القلق يداخل النفس
حين سماعها ! »

وكان الليل قد ضرب بقرنيه عرض الوجود عندما عاد الاصدقاء . واما
المياه فلم تعد تعكس لون السماء ، فصعد الاصدقاء وسط الظلمة الى الضفة حيث
اوقدت النار ، ذلك ان الصيادين كانوا يحضرون مساء لهم من القصر . واما

الحوانات والطيور فقد اعيدت الى أبقاصها بينما وقف الرعاة قرب الباب الكبير ينتظرون حصتهم . بن الحليب آملين ان يدعوم الصيادون لمشاركتهم في تناول الحساء . وكنت تسمع في الليل احاديث الفلاحين الهادئة التي تخفق احبائنا بعواء الكلاب الآتي من البعيد . وارتفع القمر في كبد السماء فأضاء بنوره الفضي البراري الكبيرة . فكان المنظر ساحراً أخذاً وإن لم ياتفت اليه أحد . اما البكاشا ونيكولاشا فقد أخذوا يتحدثان عن الحلويات والمسارح عوضاً عن ان يتزها فوق ظهور الجباد ، بينما كان والدهما لا يفكر الا في طعام الغد ، واما بلاتونوف فإنه كان يتشأب ؛ ولعل تشتشيكوف هو الوحيد الذي كان ملبئاً بالحياة والنشاط فهتف : « لاشك في انه سيكون لي ذات يوم قربة » وهكذا ففز تفكيره حالاً نحو الزوجة والاطفال .

كان العشاء فخماً بالاجمال ، وعندما وجد باغل ايفانوفتش نفسه وحيداً في غرفة نومه ربت على بطنه وقال في نفسه : « انه طبل حقيقي ... ولبس من مكان شاغر حتى لختار المدينة أيها العزيز » . كانت غرفته تقع قريبة من غرفة بيتوخ ، والحاجز بينهما رقيقاً ، فكل ما يقوله السيد يمكن سماعه . وقد أمر هذا السيد طاهبه بتهيئة أصناف الطعام لاجل الفطور وهي أصناف تصلح للغداء ، وكانت لهجته وهويوصي بانواع الأطعمة تبعث الشبهة حتى في الاموات .

— يجب ان تقدم اللحوم المبردة على اربع زوايا الاولى للسماك والثانية للحم والثالثة للبصل والرابعة للنخاع ... ثم ... أنت تعرف جيداً اني أريد كل شيء كما يرام ... فاعتن اذن بكل شيء ... خذ النعم قليلاً واجعله طرياً ولكن لاتجعله يذوب داخل الفم كما تذوب الثلوج ! وكان بيتوخ يتمطى بشفتيه وهو يقول هذا القول فيسمع تشتشيكوف الصوت في حجرة واخجأ . فقال في نفسه وهو يدخل رأسه في الغطاء .

— ليهذب به الشيطان .. ليس من وسيلة للنوم هنا بالقرب منه . وتابع بيتوخ .

- وارىد حول السمك شيئاً من الشوندر مقطّعاً على اشكال نجوم صغيرة ،
وبعض الجزر والحمص ... و ... انت تعرف جيداً . ضع مانستطيع من
السمك . وأوصى بيتوخ على اصناف اخرى :

- هنا يجب ان تكون النار خفيفة ... لالتحرق شيئاً وثام تششيكوف
خيراً على ديك رومي محشو بالم يسمع .

اكل ضيفا بيتوخ كثيراً بشكل عجز . هه بلاتونوف عن اعتلاء ظهر فرسه
في اليوم الثاني . فأرسل الجواد مع حوذي بيتوخ وصعد بلاتونوف مع
تششيكوف الى العربية . وكان الكلب يارب يتبع القافلة متشاقلاً لأنه لم يأكل
طيلة حياته ينثل هذه الكثرة .

وعندما غادرت العربية ساحة التقصر قال تششيكوف :

- انه في الحقيقة يبالغ كثيراً

فأجاب صديقه :

- ان بيتوخ لا يمل ... وهذا هو الشيء الذي يقتلني .

وفكر تششيكوف : « لو كان لي مثلك سبعون الف روبل سنوياً

وجدت وقتاً للملل .

وقال بلاتونوف :

- أسمح بالذهاب معي الى اختي وصهري ، سأخبرهما بسفري

- بكل مرور

- ان صهري اذكى ملاك في المنطقة ، ولديه الآن مورد سنوي قدره مائتا

الف روبل ومنذ ثمانية اعوام فقط لم تكن ارضه تغل له العشرين ألفاً .

- أحقاً . اني لأرغب في التعرف به .. يجب ان يكون انسانا يستوعي

الاهتمام .. ما اسمه ؟

- كونساتانجوغلو

- وما اسمه الصغير ؟

- قسطنطين فيودوروفتش

- قسطنطين فيودوروفتش كونستانجوغلو.. من المهم التعرف على رجل مثله .
ودل بلاتونوف سليفان على الطريق . وكان هذا امر ضروري اذ ان
الحوذي يكاد في كل لحظة يفقد توازنه . اما بتروشكا فقد سقط عدة مرات على
المقعد بما استلزم ربطه بالحبال . وردد بافل ايفانوفتش : « بالبخزير ! » بينها
هتف بلاتونوف :

- انظر .. هنا تبدأ اراضي صهري .. ان لها مظهراً خاصين الاراضي المجاورة .
وبالفعل فان الناظر كان يشاهد اشجار غابة صغيرة مستقيمة كهاهم .. ثم
غابة اخرى اعلى منها فثلاثة اكثر ارتفاعاً ، ثم حقول تأتي بعد الغابات ككرة ثانية .
- لقد نبت كل هذا خلال ثمانية اعوام . وغيره لا يحصل على ذلك في ظرف
عشرين عاما .

- ولكن كيف استطاع هو ذلك ؟

- اسأله .. انه يعرف الارض كما لم يعرفها انسان . ثم انه يستفيد من كل
شيء . فهو يعرف الشجرة ونوع الفصح الذي يجود محصوله في كل ارض ويستخدم
كل شيء لغايتين او ثلاث غايات . فالغاية الاولى مثلا ان تعطي الارض الرطوبة
فتكس على الارض كمية كبيرة من الاوراق المبنة حيث تدعو الحاجة . ان
جيران صهري يشكون من الجفاف اما فهو فلا يعاني منه . وان البلاد كلها
تشكو سوء الموسم بينما هو ينعم بمحصول وفير .. وأنا لكم يؤسفني جهلي فيما
يتعلق بالارض . اما هو فانه يعرف كل شيء عنها بشكل مدروس .. ان جميع
الناس ينعونونه بالسحر والشعوذة .. ومع ذلك فان كل هذا لا يستطيع ان
يمنع الآمة عني .

وقال تشتشيكوف في نفسه : « في الواقع ان صهره رجل ممتاز . ومؤسف
حقاً ألا يعرف هذا الشاب السطحي شيئاً يقصه علي ! »
واخيراً ظهرت القرية ، وكانت تشبه مدينة صغيرة ، فأكواخ كلها تنقسم

من حيث الارتفاع الى ثلاثة اقسام تتوج كل قسم منها كنيسة . وفي كل مكان كانت تنتشر اكداس الجبوب وكميات وفيرة من العلف . وفكر نشتشيكوف :
« ان الانسان يستطيع ان يرى بان لهذه القرية رئيساً حقيقياً » .

وكانت الاكواخ متينة والطرق نظيفة والعربات جديدة . وكانت ملامع الفلاحين تدل على الذكاء بينما كانت الحيوانات جميعها قوية جميلة ، حتى الخنازير نفسها كانت تبدو وكأنها من عرق نبيل . ومن الممكن القول هنا مع الاغنية الشائعة ان الفلاحين يجمعون المال برفوشهم وليس هناك اية حديقة على الطراز الانكليزي ، ذلك ان جميع هذه الحداثى منسقة على الطراز الروسي القديم . وهنالك الى جانب ذلك بيوت للعمال تأخذ بالعلو والامتداد شيئاً فشيئاً حتى تصل الى قصر السيد . وكان الاخير يستطيع ان يشاهد من منزله كل ما يجري في القرية . وكان على سطح القصر برج يستخدم لا لتأمل المناظر الجميلة بل لمراقبة الفلاحين الذين يعملون في أنأى الحقول .

واستقبل الصديقين على الباب خدم نشيطون ماهرون لا يشبهون بتروشكا السكير في شيء بالرغم من انهم لا يرتدون الفرو ، بل يلبسون الثياب الزرقاء البسيطة .

وظهرت ربة المنزل وكانت غضة زاهية كالزهرة ، وجميلة كاجل ايام الربيع وهي تشبه بلاتونوف كما تشابه قطرنا الماء ، الا انها كانت منطلقة فرحة بعكس اخيها .

- يومك سعيد يا اخي ، اني جد مسرورة برؤيتك . . ليس قسطنطين هنا ، ولكنه سيأتي بعد حين .

- وابن هو ؟

- في القرية مع النجار .

وتبع الصديقان الشاب الى البيت . وكان نشتشيكوف يلقي نظرات متفحصة على منزل الرجل الغريب الذي يملك مورداً سنوياً قدوه مائتا ألف روبل .

وكان يأمل ان يحكم على اخلاقه من خلال نظام العقود . ولكن عبثاً حاول
تششيكوف ان يصل الى نتيجة . كانت الغرف نظيفة بسيطة ليس فيها رسوم
او ازهار او قاذيل من البرونز او مكتبة او حتى كتاب . كان يظهر كل شيء
يظهر وكأن رب المنزل لا يعيش محبوساً بين جدران الاربعة ، بل يقضي جميع
ايامه في الحقول . ولم تكن افكاره تلد في ظل الموقف على مقعد وثير ، بل
بعيداً ... في الحقول ، في غمرة العمل . فما ان نأني الى فكرة نظرية حتى يباشر
الى تطبيقها فوراً . وشهد الى جانب ذلك مناخ نظيفة عالياً آنية فيها
زهور ذابلة . فسأل بلاتونوف :

- ما هذه الاقذاو يا اختاه ؟

فتفت ربة المنزل :

- اقذار ؟ ولكن هذه النجم دواء للحمى . لقد شغبنا العام الفائت هنا
جميع فلاحينا المرضى . واما هذه الزهور فتمها تصنع الحلوى . انك تضحك الان
ولكنك ستسرع عندها تتذوق طعمها .

واقترب بلاتونوف من البيانو واخذ يتأمل في قطعة موسيقية :

- هذا قديم جداً يا اختاه ! الا نخبطين ؟

- ليس لدي الوقت الكافي ايا العزيز للاهتمام بالموسيقى . فعندي ابنة في
الثامنة من عمرها ويجب ان اعنى بتدريسها ، ولا اريد ابدأ تسليتها الى مربية ؛
ان هذا لن افعله قط .

فقال بلاتونوف :

- انك ستصبحين ممة يا اختاه ، هوذا قسطنطين قد جاء .

واقترب تششيكوف من النافذة التي شاهد بلاتونوف منها قسطنطين .
كان رجل في نحو الاربعين من عمره يتقدم بنشاط وقوة ، يرتدي معطفاً من
الجلد ، وقد بدا انه لا يتم بهندامه ابدأ . وكان عبدان يتبعانه ويجذانه ومن
الظاهر انها يلحان على شيء . وتوقف الثلاثة قرب الدرج فسمع حديثهم الجميع .
كان قسطنطين يقول :

- ان احسن ما نستطيع فعله هو ان نشترى حريتك من سيدك ، وان اعوزك المال فاني اقرضك مبلغاً ترده لي بالعمل .

- لا يا قسطنطين فيودوروفتش ، لماذا اشترى حريتي ؟ خذني انا والآخريين ، اننا سنتعلم كيف نحيا معك براحة ، اننا لا نعرف رجلاً له قيسنك في أي مكان آخر . والمؤسف كثيراً انه من الصعب اجتناب الاشياء السيئة اليوم . فأصحاب الحانات اخترعوا الكحول ، حتى ان برميلاً واحداً من الماء لا يستطيع اطفاء الحريق الذي يحدثه كأس واحد في جوفك ! ولا يكاد الانسان يلتفت حتى تنزلق من بين اصابعه الكوبييكات ! ان المغريات كثيرة والشيطان يود على الارض وهو يريد إفناء الفلاحين . ثم هناك التبغ واشياء اخرى فما العمل يا قسطنطين فيودوروفتش ؟ نحن بشر ومن الصعب ان يقي الانسان نفسه من الخطأ .

اسمع يا صديقي لن تكونوا هنا احراراً ... انه بكل تأكيد سيكون في حوزة كل منكم بقرة وجواد . واني هنا اطلب من فلاحى عملاً مخالفاً لما يتوهمون به في الاماكن الاخرى . فالكل هنا ، وحتى أنا ، يشتغل في الأرض ، وانا شخصياً أشتغل وكأنه قد حكم علي بالأشغال الشاقة . . ان الذي لا يعمل يحشو رأسه بالفكار الفارغة . . فكروا في هذا اذنت واتخذوا قراركم دون تسرع .

- اننا فكرنا في الامر ملياً يا قسطنطين فيودوروفتش . وقد قال لنا كبارنا ان فلاحيك جميعهم أغنياء بجهـ دم وعلمهم ، وان كهنتك رجال طيبون بالفعل . اما عندنا فقد ساءت الامور الى حد لم يعد هنالك من يصلي على الاموات .

- ايكن ... ومع ذلك اذهبوا وتشاوروا !

- حسناً اتفقنا .

- وعند ذلك قال الآخر :

- وأخيراً ألا تريد ان قسطنطين فيودوروفتش ان تنقص

السعر قليلاً ؟

- لقد سبق ان قلت اني أشتر من المساومة . اني لا أشبه ذلك الملاك الذي تذهب لمساومته عشية استحقاق الدفع . اننا نعرفكم كلكم وأعرف أن لديكم قوائم فيها اسماء جميع النبلاء المديونين ، فعندما نأخذ مساومتهم يكونون مغتبطين جداً بالبيع حتى بنصف الثمن الحقيقي ، وأما أنا فلا حاجة لي بنقودك وكل ما عندي أستطيع أن أدعه مكانه ثلاث سنوات على أقل تقدير .

- أنا لا أخالفك يا قسطنطين فيودوروفتش وانني لا أعاملك لأجل فائدة مؤقتة بل لأتعامل معك في المستقبل . خذ هذه الثلاثة آلاف روبل .

وتناول كونستانجوغلو النقود ببرود ووضعها دون أن يعددها في جيب معطفه . وفكر تشتشيكوف : « انه يضن النقود منديلاً للجبب ! »

ودخل كونستانجوغلو ردهة الاستقبال فاعجب تشتشيكوف بكثافة شعره الاسود وشعة النشاط المتقدة في عينيه وانطلاقه الذي يعود الى أصله الجنوبي . ذلك ان كونستانجوغلو ليس من أصل روسي صاف . وهو نفسه يجهل ماذا كان عليه أجداده ، ولم تكن الانساب تهمة في قليل أو كثير ، فهو يشكلم الروسية ولا يحسن غيرها ولذلك فهو روسي .

وعرف بلاتونوف تشتشيكوف عليه فتعانق الرجلان :

- يا عزيزي قسطنطين سأسافر بعض الوقت لأشفي نفسي من السآمة والملل . ولقد عرض علي بأقل ايجانوفتش ان أسافر معه من مقاطعة الى أخرى .

فالتفت قسطنطين نحو تشتشيكوف وسأله بأدب :

- حسناً والى أين أننا ذاهبان ؟

فأجاب بأفـل ايـفـانوفتش وهــ و يحـني رأسه الى اليسار قليلاً ويداعب ذراع المنـقعد بيده :

- أعترف ذلك باني لا أسافر من أجل أعمالـي الخاصة بل من أجل الجنرال بـريـتشـف ، فقد رجاني ان أزور أصدقاءه فاستفدت من الفرصة للسفر لان هذا يسرني . ذلك ان الانسان يرى العالم ويدرس البشر والحياة ككتاب مفتوح او علم آخر .

- اجل أنه من الجيد ان نتعرف على بلاد جديدة .

- هذا صحيح جداً ان الانسان يرى في البلاد الاخرى أشياء جديدة لم يرها من قبل ، ويصادف أنا لم يحدث له ان صادفهم قبل ذلك والحديث مع مثل هؤلاء الناس يساوي ذهباً ؛ انت محترم جداً يا قسطنطين فيودوروفتش واني أتوجه اليـك . . . علمني علمني . . . إرو ظمئي الى معرفة الحقيقة النقية الصافية .

فسأل كونستانجوغلو :

- كيف ؟ ولماذا ؟ واعلمك ماذا ؟ لقد تلقيت تربية سيئة للغاية .

فهتف تشنـشـيكوف :

- حدثني عن الحكمة . . . الحكمة في حسن ادارة الاملاك الزراعية . حدثني عن كيفية الحصول على موارد ثابتة جيدة دون حلم او نوم متما بذلك واجبك كمواطن صالح ومستحقاً احترام الجميع !
فاجاب كونستانجوغلو :

- اسمع اذن . . . ابقى هنا يوماً فأريك اراضي واوضح لك كل شيء . وعند ذلك ترى انه ليس هناك من حكمة .

وقالت ربة المنزل :

- ابقينا هنا إذن !

ثم توجهت الى اخيها قائلة :

- ابقى هنا يا اخي ، لم العجلة ؟

- لبس من مانع لدي شريطة ان يوافق بافل ايفانوفتش .
فقال تشتشيكوف :

- كنت ابقى لولا اني اريد ان ارى اقارب الجنرال بتريشتف كالكولونيل
كوشكاريف مثلاً .

- كوشكاريف ؟ ولكنه مجنون !

- اعرف ذلك وما كنت اذهب اليه لو لم يكن الجنرال صديقاً عزيزاً علي .
فقال كونستانجورغلو :

- إذن اذهب اليه دون ان تضيع الوقت ، فينته يقع على مبعدة عشرة
(فرسات) من هنا ؛ ولدي عربية مجهزة تستطيع ان تذهب فيها الآن وتعود
قبل وقت الشاي .

فهتف تشتشيكوف وهو يتناول عمرته : « انما لفكرة حسنة ! »

ومضت العربية . وبعد نصف ساعة وصل بافل ايفانوفتش الى قرية كوشكاريف
وكانت الفوضى تخيم على هذه القرية . ففي كل مكان تقوم اعمال البناء بين
القاذورات والآجر ، بينما الاعمدة تملأ الطرقات . وكان للبيوت مظهر المؤسسات
الحكومية وقد كتب هنا وهناك بأحرف مذهبة : « مستودع أدوات الري »
و « الادارة المركزية للمحاسبة » و « لجان الشؤون القروية » و « مدرسة تعليم
الفلاحين » وأشياء اخرى يعلم بها الشيطان .

وجد تشتشيكوف الكولونيل في مكتبه وقد وضع في فمه ريشة . واستقبله
الاخير بجملة وكان يبدو عليه انه رجل طيب عذب . وصرعان ماقص على
تشتشيكوف كم لاقى من العناء ليسبق على القرية الازدهار الذي تستع به
حالياً . وكان يشكو من صعوبة إفهام الفلاح مقاصد العلم والفن والحير الذي
يجلبه . كما انه لم يستطع إقناع الفلاحات بلبس المشدات في الوقت الذي رأى فيه

النفوس الميتة - م ٢١

- ٢٢١ -

في ألمانيا مع فرقته عام ١٨١٤ ابنة طحان بسيط تجيد العزف على البيانو. والخلاصة انه استطاع رغم عمق الجهل البشري ان يقنع فلاحيه بتعلم القراءة. من نصوص فرجيل وكتب الكيمياء .

وفكر تشتشيكوف : « هذا حسن وأنا لم أجد دقيقة واحدة لأتهي فيها دوقه دولافالير »

وتكلم كوشكاريف بعد ذلك طويلاً عن السعادة البشرية ووسائل تنظيمها وكان يلح كثيراً على أهمية اللباس واقسم انه لو لبس الفلاحون الروس الزي الألماني لازدهرت العلوم والفنون والتجارة في أنحاء روسيا ولعاشت البلاد في عصر ذهبي عظيم . واصفى اليه تشتشيكوف طويلاً وقال في نفسه : « لا داعي للشروح الطويلة والمقدمات مع مثل هذا الانسان ! ، وهكذا حدثه مباشرة عن حاجته الى النفوس الميتة والى عقد بيع شرعي فأجاب الكولونيل .

— حسبما فهمت من كلامك ، انك ستطلب مني شيئاً .

— تماماً !

— اذن قدم طلباً مكتوباً بما تريد وضعه في مكتب التقارير والعرائض فيعلق على طلبك ويأتي الى ، وانا أحوله الى لجنة الشؤون القروية ، ومن هناك يحول الى الوكيل وهو بالاتفاق مع سكرتير ... فهتف تشتشيكوف :

— بالله هذا يدوم قرناً طويلاً . ثم كيف يمكن الحديث عن اشياء كهذه كتابة .. فالتفوس الى حدما ... ميتة .

— حسنا اذن انها الى حدما ميتة ؟

— انها ميتة ... ولكن لا يمكن كتابة ذلك لأنها في نظر القانون حية .

— هذا عظيم .. فلتكتب اذن انه يجب ان تعتبر هذه النفوس ميتة .. ان لاشياء المكتوبة وحدها ذات قيمة عظيمة . مثال ذلك : انك انكارتوا بله نابوليون !

تنظر قليلا سادعو الساعي لمرافقتك .

وقرع الكولونيل جرساً دخل لدى سماعه وجل فقال له :

- ادع الساعي ايها السكرتير !

وجاء الساعي ولم يكن يشبه الموظفين او الفلاحين .

- اذهب معه فيرافقتك .

ورأى تششيكوف ألا فائدة من الاعتراض ، فقرر ان يرافق الساعي ويستفيد من الفرصة لارضاء نضوله برؤية المكاتب . ولم يكن لمكتب التقارير وجود إلا على الالفة . وكان رئيسه كروليف يدير لجنة الابنية القروية الجديدة فحل محله الخادم بيروزفسكي ، ولكنه كان هو الآخر في لجنة الابنية . وذهب تششيكوف الى مكتب اللجنة ولكن كانت التصليحات قائمة فيه على ساق وقدم ، فأرغم على ايقاظ سكير لم يستطع ان يقدم له أية معلومات . وقال الخادم مخاطباً تششيكوف :

- أرايت ، ان الفوضى مخبئة هنا .. واكل يعمل بالسيد كما يريد . والذي يحكم هنا هو لجنة تصليح الابنية ، فهي تأخذ الموظفين من المكاتب الاخرى وترسلهم الى اي مكان .

كان واضحاً ان الرجل يحقد على لجنة تصليح الابنية . ورفض تششيكوف ان يقوم بخطوة اخرى ، وعندما رأى الكولونيل قال له ان لم يستطع ان يفعل شيئاً بسبب الفوضى المنتشرة . فاستشاط الكولونيل غضباً وشد على يد تششيكوف علامة الامتنان ، ثم امسك بربشته واخذ ورقة وكتب عليها ثمانية اسئلة : بأي حق يتصرف مكتب تصليح الابنية بالموظفين الذين لا يتبعونه ! كيف سمح المدير للرئيس بالنغييب دون التأكد من وجود من يقوم مقامه ؟ كيف سمح لجنة الشؤون القروية بعدم وجود مكتب التقارير ؟

وفكر تششيكوف : « ان العاصفة مشهور » وهنف الكولونيل :

- لن ادعك تنصرف . ان كرامتي قد مست . وسأثبت قوة الادارة المنظمة ، كما سأعهد بطلبك الى رجل يساوي وحده الآخرين مجتمعين ، أنهى

دراسته الجامعية ... هؤلاء هم العبيد الذين املكهم ... ولن اضيع وقتك
الثنين . ارجوك اتبعني الى مكتبتني فستجد فيها كتباً واوراقاً وريشاً واقلاماً ،
وكل شيء فيها تمت تصرفك ذلك ان الثقافة ملك للجميع .

وكان كوشكاريف وهو يتحدث هكذا يدخل تششيكوف الى المكتبة .
كانت غرفة كبيرة مملوءة بالكتب والحيوانات المحنطة . وكان هناك كتب
للتاريخ والزراعة والكيمياء كما توجد مجالات من مختلف انواع المعرفة الانسانية
ارسلت كلها بناء على طالب رسمي بالاشتراك . ومع ذلك فانه لم يقرأها احد .
وكل هذه الكتب لم تكن بقادرة على ان تجعل الانسان يقضي ساعة انتظار
مسروراً . ونظر تششيكوف الى رف آخر فشاهد عليه كتباً فلسفية . وكان
هناك ست كتب تحمل العنوان التالي : « المدخل الى علم التفكير الانساني .
« نظرية الجوهر » وفتح تششيكوف الكتب مقلباً فلم يشاهد فيها الا كلمات
من امثال : تجريد ، جيل ، تطور ، تركيز . فقال في نفسه : « هذا كثير علي »
وانتقل الى رف ثالث فوجد كتباً فنية فأخذ واحداً حشي بصور الاساطير .
وكانت هذه الصور ترضي العازبين والكهول الذين يحبون مشاهدة صور البالبه
والمشاهد المثيرة الداعرة . وكان بافل ايفانوفتش قد قلب كتاباً آخر فيه كثير
من الصور عندما دخل كوشكاريف وهنف :

- لقد انتهى كل شيء بشكل مدهش . ان الرجل الذي حدثتك عنه
عبقري بالفعل ... ساعينه رئيساً على جميع مكاتبه . وهو فريد في ذكائه .
فقد حل لي جميع مشاكلي بدقة واحدة .

وفكر تششيكوف : « الحسن الحظ » ثم استمع الى ما قرأه عليه كوشكاريف :
بناء على امر سعادتك لي الشرف ان اعرض مايلي :

١ - ان في الطالب الذي قدمه الفارس بافل ايفانوفتش مستشار الدائرة
الانتخابية ما يدعو الى سوء التفهم . فالتفوس المطلوبة سماها ميتة ولا شك انه
اراد ان يقول « المعرضة للموت » . وفي هذه الحالة يكون قد دل على معرفة

عميقة بالعلوم التي تدوس في المدارس الابتدائية القائلة بأن النفس خالدة .
وهتف كوشكاريف :

- ياله من خبيث ، لقد سخر منك عندما ذكر كلمة المدارس الابتدائية .
ولكني اعترف بأن أسلوبه فخم . ثم تابع القراءة :

٢ - اننا لانملك في الوقت الحاضر نفساً واحدة معرضة للموت فضلاً عن ان
جميع النفوس التي لدينا مرهونة عدا نفوس قرية غور ميلوفا الصغيرة التي تتنازع
ملكيتها مع جارك بريد يتشف . ولذا فلا مجال للتصرف فيها كما جاء في العدد
٤٢ من جريدة « اخبار موسكو » .

وهتف تشتشيكوف دون ان يخفي غضبه :

- ولماذا لم تقل هذا من قبل ؟ ولماذا تركتني انتظر كل هذا الوقت لأسمع
هذه السخافات .

- كنت اريد ان أعلمك بهذا بالطريقة القانونية التي هي الكتابة . ان اي غبي
يمكنه ان يصرف الامور هكذا ولكن يجب ان يعلم ...

الا ان تشتشيكوف قام فجأة واخذ عمرته وفر راحضاً ناسياً جميع قواعد
الادب ، اذ انه كاد يخنق من الغضب وكان الحوذي هو الآخر ينتظر . وقد
علم انه لافائدة من حل الجدل لعلها ، اذ عليه ان يقدم طلباً خطياً وينتظر
الجواب الى اليوم الثاني تترك الجياد في هذه الاثناء دون إطعامها . وركض
الكولونيل خلف بافل اقامتوفتش وامسك بيده وضغطها على قلبه وشكره
لأنه سمح لنفسه بمشاهدة كيفية تنظيم اعماله .

وقد خطرت فكرة جديدة على باله وهي إنشاء لجنة جديدة لمراقبة لجنة
تصليح الابنية . وعند ذلك لن يجزؤ احد على السرقة والاسراف .

وعاد تشتشيكوف الى قرية كونساتانجوغلو ينتفض من الغضب ، وكان
الوقت متأخراً فسأله كونساتانجوغلو

- ولماذا تأخرت ؟

وقال بلاتونوف :

— اذن فقد تناقشت معه ؟

فصاح بافل ايفانوفتش :

— لم أر في حياتي مثل هذا المجنون !

وقال كونستانجوغلو :

— ليس هذا بشيء . ان كوشكارييف انسان ضروري كصورة صحيحة صادقة عن جميع مثقفينا الذين لم يتعلموا شيئاً ، ولكنهم قلدوا استغافات الآخرين . ان لجميع ملاكينا مكاتب ومصانع ومدارس ولجاناً .

آه من هؤلاء الناس ! لقد املنا منهم ان يعقلوا بعد حرب ١٨١٢ . ولكن تبين انهم غير قابلين للشفاء ، فقد فعلوا أسوأ مما فعله الفرنسيون كيبوتري ايفانوفتش بيتوخ مثلاً ، ذلك الانسان الذي تعرفه .

— انه لمسكين ... لقد رهن جميع عبيده !

فقال كونستانجوغلو متماهاً :

— بل سيرهن جميع ما يملك . ذلك انه استقدم عمالاً من لندن ليقوموا له مصنعاً للقناديل ... تصور أن ملاكاً يصنع القناديل . وهناك ايضاً شيء آخر . لقد استقدم آلات للنسيج ليصنع ثياباً لعداوى المدن الجيلات .

فقال بلاتونوف :

— وانت ايضاً ، يوجد عندك مصانع .

— اجل ، ولكن من الذي انشاها ؟ لقد وجد عندي صوف اكثر مما يجب فبدأت بصنع الجوخ بسعر بخس للفلاحين المحتاجين اليه . وتجمعت لدي كذلك اصداف اسماك على الشاطئ ، فصنعت منها عقوداً ورجحت اربعين ألف روبل ، هذه هي اعمالى .

ففكر تشيكوف : « هذا الحيوان الختال ، انه ماهر جداً ! » وتابع كونستانجوغلو :

- اذا كنت قد انشأت هذه الصناعات فذلك لان عدداً كبيراً من العمال كان من الممكن ان يموتوا جوعاً في سنة حدثت فيها المجاعة بسبب السادة الملاكين الذين نسوا موسم البذار . اني استطع ان ابني كل سنة معملأ من المواد التي تبقى عندي ، بل اني استطع ان اكون ثروة من الاشياء التي ترمى في القاذورات . فأنا لا ابني القصور من الاعمدة بل اشتغل واكد .

- هذا عظيم وخاجة الاغناء من الاقدار .
- اجل شريطة ان تنجز اعمالك بسرعة وبساطة ، ان كل انسان يمكنه ان يصل الى غايته بالجد المستمر . ولكن بيتوخ يذهب من اجل ذلك الى انكثرا وسيعود منها بلاريب أشد غباء مما كان .

وبصق كونستانجوغلو على الارض احتقاراً وتابع :

- وكيف لا اغضب ؟ لو كان الامر متعلقاً بغريب لهان كل شيء . ولكن الامر مهمنا إذ أنه من المؤلم ان يفكر الانسان في ان الطبيعة الروسية تسيرونحو الفساد . ان شيئاً من الاخلاق الدونكيشوتية بداخل اخلاقنا وهذا شيء مستجد فما إن يتعلم الروسي قليلاً حتى يلد فيه دون كيشوت جديد فيبني مدارس لا يبنها أي غبي . واما الذين يتخرجون من هذه المدارس فلا يصلحون لشيء ابدأ ، لا للمدينة ولا للقرية . بل يصبحون سكيرين بمنهي الكرامة . ان بلادنا لتشف بالفسلفة وقد بدأت تصبح دون كيشوت في حبها للانسانية ، وتنفق الملايين على مستشفيات الحمى ، ونشيد القصور الفخمة وفي اقل من اسبوع تلقي بموظفيها قارعة الطريق دون ان يكون في جيبيهم كوبيك واحد .

لم يكن تششيكوف يهتم بهذا المظهر من الثقافة الروسية ، فقد كان يريد ان يسأل كونستانجوغلو عن الوسيلة التي يكون بها ثروة من القاذورات . ولكن الاخير لم يدع له فرصة للحديث لانه تابع دون ان يتوقف :

- وهم يعتقدون انهم يعلمون الفلاح ... ليجعلوا منه غنياً ومزارعاً ممتازاً والباقي يتم من تلقاء نفسه . أحقاً انك لا تعرف شيئاً عن هذا ؟ ان الانسان

ليعتقد ان جميع الناس قد اصابوا بمس جنون ... وهؤلاء الكتاب ، انهم يكتبون في كل موضوع ، وما إن يصدر كتاب حتى يتهافت الجميع عليه ، وماذا يقولون ؟ انهم يقولون : « ان الفلاح يعيش حياة بسيطة جداً ، فيجب ان نعرفه على الحياة الرخبة لنوحي اليه بالمطالبة بحياة أفضل ، وماذا أصبح هؤلاء السادة الذين يبشرون بالرضا ... لقد أصبحوا أرقاماً جامدة لارجالاً ! فهم يعانون جميع الامراض ، وهم مصابون بالصلع ويريدون إفساد الفلاحين وتأليبهم علينا . ولنحمد الله على ان هذه الطبقة غير قابلة للفساد . فالفلاح مازال يستحق التقدير ... فلا تبدلوه بل يجب تصحيحوا كلكم مثله .

فسأل تششيكوف :

— واذن فانت تعتقد ان الزراعة هي الوسيلة الوحيدة للثراء .

فأجاب نونستانجوغلو :

— ليست تقدم اعظم الموارد فحسب ، بل أنظفها ايضاً وأعد لها وقد قيل : « ازرع الارض بعرق جبينك » ومن أجل هذا لاجابة بنا للحكمة . وقد اثبتت القرون ان المزارع أشد الناس تمسكاً بالاخلاق وأشر فهم وأجملهم . وانا لا اقول انه يجب الاتهم بغير الزراعة وإنما اريد ان تكون الزراعة أساس كل شيء . فعند ذلك تقوم المصانع من تلقاء ذاتها . وانا هنا اتكلم عن المصانع الطبيعية التي تلد من حاجات الشعب وليست تلك التي تنشأ عن مطالب الترف الذي يشوه الانسانية . فهذه المصانع تزدهر بوسائل مفسدة للشعب وانا لن أسمح مطلقاً بأن تقام هنا معامل للتبغ والكحول والسكر ، حتى ولو كنت أربح منها الملايين . فاني لا اريد ان أساهم في إضعاف الشعب وإفساده لاني أرغب بالعودة الى الله نقياً . وانا احب منذ عشرين عاماً مع الفلاحين واعرف جميع ما يحتاجون اليه . فقاطعه تششيكوف مرة أخرى قائلاً :

— ان الذي يدهشني هو انك أراك تكون ثروة كبيرة من الفضلات

والقاذورات المختلفة ..

ولكن كونستانجوغلو تابع دون ان يصغي الى تشتشيكوف .

— آه من الاقتصاديين ... انهم أشبه شيء بجمار يجلس على كرسي ويضع على عينيه نظارتين ... آه من الحاقة الانسانية .

ومن جديد بصق كونستانجوغلو على الارض غاضباً فقالت زوجته :

— كل هذا صحيح ولكن ارجوات تتعلم عند الحديث عن مثل هذه الاشياء ألا تفضب .

وقال تشتشيكوف :

— عندما يسمعك المرء وانت تتكلم باقطنطين فيودوروفتش يفهم معنى الحياة الحقة ويدخل في صميم المشكلة . ولكن دعنا من المسائل العامة ولندخل في بحث المسائل الشخصية الخاصة ... سأفترض بأنني أصبحت ملاكاً ، فكيف أصنع لأقوم بواجباتي كموطن وأغتني ؟

فهتف كونستانجوغلو :

— كيف تعمل لتغتني ؟ اسمع سأقول لك كيف يكون ذلك !

فقاطعت زوجته :

— لننتعش الآن !

وقامت من مكانها وتذثرت بشالها كما لو أنها تشعر ببرد شديد .

ففقر تشتشيكوف من مقعده برشاقة عسكرية وقدم لها ذراعه وقادها

باجترام جم الى غرفة الطعام . كان الحساء قد وضع على المائدة وكانت روائح الحظار الذكية منتشرة في جو الغرفة . جلس الجميع على مقاعدهم وقدم الخدم جميع الاضافات ثم اختفوا . وكان كونستانجوغلو يردد دوماً بان الخدم يجب ألا يسمعوا مايقوله المائدة ، ثم انه لا يجب بالاضافة الى ذلك ان يشعر بأنظارهم تلتهمه وهو يأكل .

وبعد ان انتهوا من الحساء شربوا كأساً من الخمر قال تشتشيكوف :

— اسمع لي باقطنطين فيودوروفتش ان اعود الى حديثنا . لقد كنت

اسألك كيف يمكن ان اغتني بسهولة (١) ؟

وقال كونستانجوغلو :

- وقد كنت اشترى تلك الاراضي التي طلب ثمنها اربعين الف روبل .

فقال نشتشيكوف :

- واذن لماذا لم تشتريها ؟

- يجب على الانسان ان يعرف كيف يقف عند حده . ان عندي

مايكفيني من الاراضي وعلاوة على ذلك فان نبلاءنا قانون علي وهم يهتموني

باستغلال فقرهم فاشترى الاراضي المجيدة بالاثان البخسة . وهذا مايتعني .

فهمف نشتشيكوف :

- اني اود لو استطع ان اكون خنزيراً مثلك .

- انها حماقات ... وماهي مجبوحة العيش التي ينعمون بها ! ان عندهم كتباً

لا يقرأونها وينهون كل شيء بلعب الورق . انهم ينقمون علي لاني لا ادعوم

للغداء ولا اقرضهم المال . اني لا ادعوم الى الغذاء لان المآدب تتعني ولاني لست

معتاداً عليها . وهم اذا كانوا يحبون مشاركتنا طعامنا فما عليهم إلا أن يأثوا .

واما اذا حثاج احدهم للمال وجاء إلي وبين لي كيف سيتصرف به ، فاني بلا

ريب ساقرضه الكثير ، و دون فائدة ، اذا رأيت انه سيستفيد من اموالي

ويزيد من موارده .

وقال نشتشيكوف في نفسه : « اني ارى هذا » . وتبع كونستانجوغلو :

- أنا لا ارفض طلباً كهذا ، واما ان اقي بالمال من النافذة فلا ...

ليذهب بهم الشيطان ، فاذا كان المال سيذهب الى العشيقات والاثاث والترف

والحفلات ... فلن اعطيهم شيئاً ، مطلقاً !

وبصق كونستانجوغلو وكاد ان يفلت بحضور زوجته بعض التبعوت القبيحة .

وخسبت سحابة من الكآبة على وجهه ، وتعضت جبهته علامة الانفعال الشديد

(١) وهنا ايضاً عدة صفحات مفقودة من المسودة الاصلية .

الذي يمازيه . وقال تششيكوف وهو يجرع كأساً من الحر اللذيذ :
- اسمع لي ان اعود بك الى حديثنا . كم من الزمن يعوزني كي اترى اذا
اشتريت الاملاك التي نكلمت عنها ؟

فاجاب نونستانجوغلو باهجة جافة قاسية :
- اذا اردت ان تغني بسرعة فلن تغني مطلقاً . ولكن اذا شئت الاثراء
دون ان تعين زمناً بالذات فانك ستغني بسرعة .

فقال تششيكوف :

- ماذا ؟ ماذا ؟

فهتف كونستانجوغلو بضيق وكأنه يحمل على بافل ايفانوفتش :
- بالطبع يجب ان يجب الانسان الارض التي يملكها . واؤكد لك ان
الامل غير محل ، وما الذين يقولون انهم بسامون في الريف الا بلهاء . وانا اموت
ملاً لو قضيت اربعاً وعشرين ساعة في المدينة مع هؤلاء السادة في نواديهم
وحاناتهم ومسارحهم . ان الجبل الحاضر انما هو عبارة عن مجموعة من الحمير
والاغبياء . وأن الملاك لا وقت عنده للسل إذ ليس في حياته مجال فارغ . فليدبه
أنواع من المشاغل مختلفة تسبو بالنفس فعلاً . يعمل الانسان في الطبيعة منع
الفصول وهو يشرك في جميع اعمال الخليفة . انظر الى عملنا السنوي : فقبل
الربيع يعد كلاشي . بانتظار الفصل الجديد ، كالبذار وتنظيم الحبوب وتقسيم
الاراضي على المبيد لبذرهما ، كل ذلك يعد ويحسب له حساب مسبق . وعندما
تذوب الثلجات وتنفج الاراضي ، تعود الحياة الى الحقول فتبذر وتزرع... أنك
تفهمني أليس كذلك ؟ اتنا نزرع إذ ذاك مسرات الحياة وغذاء الملايين من بني
الانسان . وما ان يأتي الصيف حتى نبدأ بحصاد الشعير والشوفان ويسودجو
من النشاط والعمل ولا يكون لدى الانسان دقيقة يضعبها ، ولو كان له عشرون
عيناً لما كفاء ذلك . ويأتي من ثم وضع الحبوب داخل الخزن . وتأتي بعد
ذلك حرارة الحريف ويقبل فصل البرد فتصلح الخازن والاسطبلات وغير ذلك ؛

ويبدأ عمل النساء ، وكل هذا انما هو كمية هائلة من الطاقة الانسانية . اما في الشتاء فانتا نذهب الى المطاحن والمصانع واقوم أنا بزيارة الفلاحين ، فاذا رأيت فلاحاً يحرك قلمه بهارة فاني اقف لاشاهده مدة ساعتين دون ان امل لان ذلك يدخل السرور الى قلبي ! وعندما افكر في الغاية من هذه الجهود وكيف ان الاشياء تتضاعف ثم تتضاعف لتكون مواد مختلفة واموالاً ، فانك لا تستطيع تصور الفرح الذي يفرني . وليس هذا الشعور ناشئ من اجل المال فحسب بل هو شعور خاص ينتابني فأحس بأنني انا الذي عملت هذه الاشياء كأني ملاك يخلق السعادة والازدهار .

وتابع كونستانجوغلو وقد زالت الغضون من جبهته :
 - اني لا اعرف فرحاً مضاهياً لهذا الفرح .. ان الانسان هنا يقوم بعمل الخالق ، انه يقلد الله . وقد اعتبر الله العمل الخلاق بمثابة السعادة المطلقة . ولذا فهو يطلب من الانسان ان يعمل هو الآخر لسعادة محبته . ومع ذلك فانت واجد من يتجرأ فيقول انه يسأم هذا العمل .
 وبدا تششيكوف وكأنه يصغي الى اغاريد طائر سماوي ، فقد كانت عيناه وشفاه وكل ما فيه يعبر عن النشوة العميقة والراحة والاطمئنان .

وقالت زوجة كونستانجوغلو وهي تقف :
 - قسطنطين ! لقد حان الوقت .
 فوقف الجميع اقتداء بها ، ومن جديد قدم تششيكوف لها ذراعه ، ولكنه كان اقل خفة ورشاقة من السابق إذ اخذت افكاره انجهاً واقعباً مادياً .
 ونتم بلانوفوف :
 - انت تستطيع ان تقول ما تشاء . ولكن الحياة نفسها تحمل في ذاتها الملامة .

وفكر قسطنطين : « ان ضيقنا لا يبدو عليه الحق ، فهو يصغي كثيراً ويتكلم قليلاً » . وكان كونستانجوغلو سعيداً إذ وجد في النهاية رجلاً يعرف كيف يستمع الى نصائح .

اخذ الجميع امكنتهم في ردهة الاستقبال الصغيرة قرب الشرفة واخذوا يتأملون النجوم المشعة في السماء . وكان تششيكوف فرحاً جداً اذ خبل اليه انه بدأ يستريح اخيراً في بيته بعد تشرده الطويل ، فأماله قد بدأت تتحقق بعد حديث كونسنانجوغلو الذي خلق في نفسه هذا الشعور .

إن من الاحاديث ما يثير النفس ويخلق فيها الحماسة اكثر من اي حديث آخر . ولو ان المسافر الضائع في الصحراء صادف انساناً ما فان الكلمات الدافئة تنسبه الطرقات السيئة وفقدان الملبأ . ذلك ان الامسية التي يقضيها معه تنقش في ذاكرته فلا ينسى شيئاً من حركات الرجل ، بل هو يذكر اصغر الدقائق وأبسط التفاصيل .

في تلك الليلة لم يفت تششيكوف ان يلاحظ كل شيء في الغرفة ذات الاثاث البسيط الانيق ، كما لم ينس الاذونات التي زينت بها الجدران او الغليون الذي دخن فيه بلاتونوف ، ولا ابتسامه ربة البيت لمحبة وهي تقول لأخيها عند ما ينفث الدخان في خياشيم الكلب يارب : « كفى لاتعذب هذا الحيوان المسكين ! » وكذلك لم ينس الشموع اللاهبة ولا النوافذ الجميلة ولا المائدة الربيعية المنورة بالنجوم والحافلة بغناء العصافير .

وقال تششيكوف :

— ايها المحترم جداً ! يا قسطنطين فيودوروفتش ، ان لكلماتك وقعاً عذباً عندي . وأستطيع القول بأني لم أصادف في روسيا رجلاً له مثل ذكائك ! .
وابتسم كونسنانجوغلو ، لقد كان يشعر ان هناك بعض الحقيقة في هذه الكلمات :

— لا ... اذا أردت ان ترى رجلاً ذكياً فعلاً ، فاني اعرف شخصاً هو بكل تأكيد أحد مني ذكاً .
فأله تششيكوف مندهشاً :

— ومن هو ؟

– المزارع موزارف

فهنف بافل ايغا نوفتش:

– تلك هي المرة الثالثة التي اسمع فيها بذكرك.

– انه رجل قادر ليس على ادارة أملاكه فعمسب ، بل على إدارة مقاطعة او

عولة . ولو كنت ملكاً إذن لعينته فوراً وزيراً للمال .

فقال تششيكوف :

– انه انسان مشهور بالفعل ، ويقال إنه جمع ثروة تقدر بعشرة ملايين .

– عشرة ملايين ...! ان ثروته تقدر بأكثر من اربعين مليوناً . ولن

يضي وقت طويل قبل ان يصبح مالكا لنصف روسيا .

فهنف تششيكوف وكان يصفي اليه فاغر الفم مشدوهاً :

– ماذا تقول ؟

– اني مقتنع بما أقول ، وهذا أمر واضح . فمن يملك مئات الألوف يفتني

ببطء ، أما من يملك الملايين فان مجال العمل والنشاط فسيح أمامه . وكل ما

يصنعه يتضاعف او يعطي ثلاثة أمثاله ؛ ولن يكون له منافس لان مناضلته

مستحيلة ، وهو يشتري بالسعر الذي يريده .

وكاد تششيكوف ان يخنق بسعاله حين يتم :

– بالله ! ولكن هذا غير معقول ... لقد أذهلني ... يستطيع الانسان ان

يتأمل عظمة الخالق ، ولكن الاعجب والاعظم من هذا ان يشاهد انساناً

يملك هذه الثروة الهائلة . اسمح لي ان أسألك ... ان مثل هذا المال لا يمكن

ان يتجمع دون خطيئة .

= على العكس ، كانت وسائله شريفة ، لقد جمع ثروته بطريق مشروع .

= لا أستطيع تصديق ذلك ... ان الألوف معقولة نوعاً ما ، ولكن ...

ولكن الملايين !/ ...

= بالعكس ، ان الألوف تأتي بالسرقة اما الملايين فتتجمع بسهولة . ان

المليونير لا يحتاج الى اللجوء الى طرق غير مشروعة . . . انه يمشي مستقيماً الى الامام ، ويأخذ كل ما يراه ، ولا يكون لدى غيره القوة والمقدرة على منافسته . ما اصحاب الألوف فعدد المتنافسين بينهم يرتفع الى عشرة او عشرين بل الى مائة .

— انه لمن المستغرب أن تبدأ هذه الثروة ببضعة كوبيكات فاجاب كونستانجو غلو :

— ولكن الامر لا يمكن ان يكون غير ذلك حسب منطق الاشياء . فمن بلد ومعه آلاف الروبلات ، فإنه يتلقى علومها ولا يحصل على شيء اطلاقاً . وعلى الرجل ان يبدأ من بدء الاشياء لا من أواسطها . يجب ان يبدأ بالكوبيك لا بالروبل ، عند ذلك يمكن ان يعرف الناس والحياة معرفة جيدة ، فيصبح رجلاً قوياً بمقدوره ان يذلل العقبات . واذا لاحظ الانسان أن كل كوبيك لا يأتيه الا بمشقة فاني اقسم لك انه يرتكب خطيئات اقل . — صدقني ان الانسان يجب عليه ان يبدأ من البداية لا من الوسط . وانا لا اتق مطلقاً بمن يقول لي :

« اعطني مائة الف روبل لاصبح ثرياً على الفور » ان مثل هذا الرجل لن يمشي مشية الواثق المدرك ، بل هو سيتصرف بطيش . . . يجب على الانسان ان يبدأ بالكوبيك .

فهمت تششيكوف وهو يفكر رغماً عنه بالنفوس الميتة :

— اذن سأصبح غنياً لاني ابدأ الصفر فعلاً ؟

والت زوجة كونستانجو غلو :

— قسطنطين ، لقد حل وعد النوم . . . انك تثرثر كثيراً . وقال

كونستانجو غلو دون ان يرد على زوجته :

— بالنأ كبد تصبح غنياً . . . سنيل انهار الذهب بقربك ولن

تعرف ماتنصع بها .

وكان بافل ايفانوفتش مغموراً بالنشوة مأخوذاً بهذه الاحلام الذهبية ،
فطارت افكاره الى انهار الذهب وترددت اصدااء عبارة كونستانجوغلو في
أذنيه عذبة طرية : « ان انهار .. الذهب .. ستسيل ... »

- أوكد لك يا قسطنطين انه آن لبافل ايفانوفتش ان ينام !

- وماذا مايمك ... اذهبي انت للنوم اذا كنت ... وسكت ... لقد

رأى بلاتونوف يعط في نومه فوق مقعده ، وكان شخير الكلب يارب أقوى من
شخيره ... عند ذلك تحقق كونستانجوغلو ان الوقت متأخر بالفعل ، فبرز
بلاتونوف وقال له :

- هيه ! كفاك شخيراً !

ثم التفت الى تششيكوف وتنى له ليلة سعيدة وانصرف .

انقضى وقت طويل على تششيكوف وهو لا يستطيع النوم . ذاك ان
احلامه أرقته كثيراً ، كان يفكر في الوسيلة التي يستطيع بها ان يحصل على
املاك حقيقية لاجبالية . لقد اتضح كل شيء بعد حديثه مع كونستانجوغلو
فطرق الاعتناء واضحة الآن ، وادارة الاملاك مهما بدت صعبة يمكن تسهيلها
... انه سيحصل على المال اللازم مقابل نفوسه الميتة . وخيل اليه انه يرى نفسه
على رأس ملكية يديرها حسب نوائج كونستانجوغلو بذكاء وحرص مكثفياً
بتجارب الماضي متفحصاً كل شيء بنفسه ومتعرفاً على جميع فلاحيه ، تاركاً الترف
والبذخ ومنصرفاً الى الجد والعمل . وبدأ تششيكوف يتمتع بالسرور الذي
يشعر به عندما يسود النظام وتدور جميع الآلات ، وتثلت أمام ناظره صورة
الملك الكامل . كان كونستانجوغلو أول رجل في الروسيا شعر تجاهه بالاحترام
العيني . فهو حتى الآن لم يحترم احداً ، لا من أجل طبقته وثروته ، ولا من
اجل ذكائه قبل كونستانجوغلو ، واخذ مشروع آخر يداعب خياله
تششيكوف . انه يريد شراء اراضي خلوبرينيف فليديه عشرة آلاف روبل

وسيتدين من كونستانتينوجلو خمسة عشر ألفاً . أولم يقل قسطنطين فيودوروفتش
انه يساعد كل انسان يريد لنفسه الثراء ؟ اما ما يحتاجه بعد ذلك فانه سيعمل على
تسديده بعقد قروض اخرى ، ويستطيع الدائنون بعد ذلك ان يلاحقوه
وباستطاعة المحاكم كذلك أن تلاحقه اذا كان لديها وقت قضيه .
وامتد التفكير بتششيكوف طويلاً ، ولكن النوم ضم أهل البيت جميعاً
بن ذراعه كما يقول التعبير الروسي ، فجذب اليه تششيكوف الذي راح في
نوم عميق .

الفصل الرابع

وسارت الامور في اليوم التالي سيراً حسناً ، فقد اعطى كونسنانجوغلو عن طبيب خاطر عشرة آلاف روبل لتشتشيكوف دون فائدة ودون تعهد ، بل اكتفى بايصال بسيط . وزيادة على ذلك فقد تطوع هو نفسه بمرافقة بافل ايفانوفتش الى خلوبونيف في سبيل زيارة منطقة هذا الملاك . وكان تشتشيكوف بذلك سعيداً . وبعد فطور لذيذ استقل كونسنانجوغلو وبلاتونوف عربة تشتشيكوف الفخمة وذهبوا . وكان الكلب يارب يركض امام العربة ويطارد طيور الطريق . وكان كونسنانجوغلو قد امر بان تلحق به عربته الخفيفة .

سار الجميع هكذا خمسة عشر فرساً دون ان يخرجوا عن غابات وحقول كونسنانجوغلو . وما ان تركوا املاكه حتى تغيرت المشاهد : حنطة نادرة ، وجذوع اشجار شقية . وكانت القرية التي يلاحظونها عن بعد واقعة بمنطقة جميلة ولكن يظهر انها مهجورة ويرى فيها بناية من الحجارة لم تتم بقيت خالية من السكان ، وخلفها دار اخرى من الحجارة ايضاً الا انها اصغر منها وآهلة بالسكان ، وكان صاحبها الذي يظهر انه من ابناء الاربعين نائماً قاماً الى ان

استقبل الاصدقاء الثلاثة وربطة عنقه ليست في موضعها على ما يرام ومعه
مرفوع وحذاء مهترى ، وقد فرح لقدوم هؤلاء الضيوف . وكان كمن يستقبل
إخوة له بعد غياب سنوات طويلة .

— قسطنطين فيودوروفتش ! بلاتون ميخائيلوفتش أي فكرة حسنة ان
يصل الانسان هكذا ! دعوني استيقظ نائماً ! لم يأت احد قط لزيارتي ! انهم
يفرون مني كما يفرون من الطاعون ... ! انهم يخافون بدون شك ان اطلب
الدرام ! آه ان الحياة لقاسية يا قسطنطين فيودوروفتش ... واني ... انني
المذنب الوحيد ... ما العمل ؟ لقد عشت عيشة خنزير ... ! ارجو المائدة
ايها السادة ! انني استقبلكم بهيمة زرية ، ان حذائي مبتوب ! ماذا ساقدم لكم ؟
فقال كونسيتانجوغلو :

— لاتنعب نفسك فنحن قادمون لبعض الأعمال . هذا مشتر ، إنه بافل
ايفانوفتش تشيشيكوف .

— انني سعيد جداً لمعرفتك . اسمح لي بمصافحتك .
وهنا مد تشيشيكوف ذراعيه :

— انني اريد أن أطلعك على أملاكي يباقل ييفانوفتش إنها تستحق
اهتمامك ... ولكن هل تعشتم ايها السادة ؟ فاجاب كونسيتانجوغلو وهو
يستحس رغبة في إنهاء الصفاة :

— نعم نعم علينا الا نضيع الوقت سدى ولنبدا الزيارة . فقال خلوبونيف :
— فليكن ... هيا بنا ... هل سنهم بثمار سلوكي المتناقض المضطرب ؟
ووضع الجميع قبعاتهم على رؤوسهم واجتازوا القرية التي كانت تتألف من
بيوت خشبية صغيرة ثبتت فيها نوافذ خيقة واطمة تغطي بحرق من الشمس .
تبع خلوبونيف كلامه قائلاً :

— إن نتيجة اضطرابي وتناقضي ... لقد صنعتم حسناً لألكم قس الجبي ،
هل تصدق يا قسطنطين فيودوروفتش أنه ليس لدي دجاجة ... هذه هي حالي .

ثم زفر زفرة طويلة ، ونا عرف انه لن يستطيع أن يجعل قلب كوندستانجو غلو يرقبه
أمسك ببلاتونوف من ذراعه ومشياً أمام الجميع ، وتبعهما كوندستانجو غلو
وتشيتشيكوف . يضع كل منهما ذراعه في ذراع الآخر .

قال خلو بونيف موجهاً كلامه الى بلاتونوف :

- إن الحياة لقاسية بل جد قاسية ببلاتون ميخايلوفيتش إنك لانتطيع ان
تتصور كيف أن كل شيء صعب . لا مال ولا فمح ولا حذاء ... ! إنني أنكلم
معك بلغة غير مفهومة دون شك ... سخافات حين كنت لا أزال شاباً ووحيداً
... أما حين تنزل جميع هذه المصائب بك مع الشيخوخة ... حين يكون
عند الانسان امرأة وخمسة أولاد ... حينئذ يخاف نعم إنه يخاف على
الرغم منه ...

فقال بلاتونوف :

- حين تبسع ضيعتك فان مركزك سيتحسن .

- فصرخ خلو بونيف رافعاً ذراعه :

- يتحسن ؟ يجب دفع الديون ... لن يبقى عندي ألف روبل .

- ماذا ستفعل ؟

لست أدري !

- وأنت لا تتاجر أبداً لكي تغلب على هذا المثل .

- ومع مركزي كسكرتير المقاطعة ... ان الوظيفة المناسبة لهذا المركز

لا قبة لها ... خمسمائة روبل كعاش شهري عندما يكون للانسان امرأة
وخمسة أولاد .

- هل تعمل كوكيل

- من يقدم لي ملكاً وأنا لا أعرف التصرف بملكه .

- واذا تبعك الجوع والموت ... يجب تعلم الدفاع عن النفس ساطب إلى

صهري فيما إذا كان يستطيع أن يجد لك عملاً في المدينة . فقال بلاتون مبخائيلوفتش زافراً وضاعطاً على يد بلاتونوف :

- لا بلاتون مبخائيلوفتش ... ذنبي لا أصلح لأي شيء ... لقد مت قبل أجلي .. إن كلبتي مريضتان نتيجة لأفراطي في شباني والروماتزم في الكتفين ... أين تريد مني أن أذهب ؟ أتريد أن أسرق خزانة الدولة ؟ يوجد عدد كبير من الموظفين الذين يعيشون على حساب كل الناس ... فليحفظني الآله من زيادة الضرائب على الفقراء في سبيل مركز يقدم الي .

وفكر بلاتونوف : « هذه هي نتائج حياة الجنون التي غرقت بها . وذلك أسوأ من المثل ومن الناس ! »

بينما كان خلوبونيف وبلاتونوف يتحدثان على هذه الصورة كان كونستانجوغلو يفرق شيئاً فشيئاً في الحديث مع تشيتشيكوف وصاح قائلاً فجأة :

- انظر إذن كيف أنقي بالفلاحين في هذه الحالة الغريبة من الشتاء ... لا توجد عربة ولا يوجد حصان ... يجب أن نعرف حين يجب كيف نبيع كل الأشياء شريطة ... ألا يفقد الفلاح دوابه وبشغله ... ويلزمنا عدة سنوات الآن لكي نرفع كل هذا ... ! ان فلاح هذه المناطق أصبح كسولاً وسكيراً ! اتركه سنة بدون عمل فهو لا يساوي شيئاً مدة عصور طويلة ... ! الاعتياد على التذكرة والحالة ... ! انظر ... انظر هذه الارض - وكان كونستانجوغلو يتكلم وهو يشير الى الحقول التي تمتد خلف البيوت الخشبية - انها ليست الا مستنقعات ... هناك ساحاصل على البكتات ... الذي يقدر ثمنه بخمسة آلاف روبل على اقل تقدير ... وهنا الفنت ... اللفت بأربعة آلاف روبل ايضاً ... ! وكان يوجد فيما مضى القنب على الشاطئ ، اما اليوم فلا يوجد منه شيء قط .. انه لا يزرع .. وهناك ، على بعد ، هذه الشعاب لا شيء .. ! انني سأستطيع الحصول على غابات .. على اشجار باسقة لا تتمكن الغربان من الوصول الى اعاليها ... ولقد تجرؤوا على اهمال ارض خصبة كهذه .. وعندما

يوجد ما تزرع .. فأننا نقب الارض بالمر .. إن عندنا مزرعة .. اقلب ارضها بالمر انت واطلب الى زوجك واصفالك ان يقلبوها كذلك بالمر .. مت وانت تعمل .. فانك ستوت على الاقل بعد ان تكون قد قمت بواجبك .. لا كمن يموت على طاولته بعد وقعة شهية ..!

صعد الصحاب هضبة .. وكذا نهر يتلوى عن بعد .. وكان يشاهد وراءه بيت الجنرال بترتشتشيف .. ثم في الافق كانت سلسلة من افضاب الشجرة تحفي ، كما كان يفكرتشتشيكوف ، اراضي تنبتتنيكوف .

صاح تشتشيكوف :

- ولكن يمكن تغطية هذه الاراضي بالغابات .. أي مشهد عجيب سيكون حينئذ هذا المشهد ..!

فقال كونستانجوغلو :

- انك تحب اذن المناظر الطبيعية ! احتس فيما اذا كنت لا تفكر الا بالمنظر .. فانك ستصبح سريعاً دون خبز وبدون .. منظر طبيعي ! انظر الى الفائدة لا الى الجمال فان الجمال يأتي من نفسه . خذ مثلاً على ذلك المدن ما هي اجمل المدن ؟ انها تلك المدن التي بنيت من قبل سكان حريصين ، قبل كل شيء ، على حاجاتهم .. ثم .. على اذواقهم .. وليذهب الجمال الى الشيطان ولنحيا الفائدة ! - أنني آسف للاضطراب على الانتظار مدة طويلة .. فأتا اود ان يسود هنا النظام والراحة .

- هل انت اذن شاب من ابناء الخامسة والعشرين ، او موظف في بترسبرج وماذا تصنع اذن بالعبيد؟ تعلم قبل كل شيء ان تعمل خلال ست سنوات ... ازرع واطلب الارض .. لا نسترح دقيقة واحدة .. فان ذلك قاس .. قاس . ولكن بعد ذلك ، حين تصبح الارض مزرعة جيداً ومحفورة فانها ستكون اول من سيساعدك . ولن يكون عندك فقط سبعون ذراعاً ، بل سيكون

عندك سبعمائة ذراع غير مرتبة ، وكل شيء يضرب بعشرة! خذ عندي مثلاً فاني لا أكاد احرك اصبعاً حتى ترى كل شيء يصنع من تلقاء نفسه . ان الطبيعة تحب الصبر ؛ ذلك هو القانون الذي قدمه الله مكافئاً دوماً اولئك الذين يعرفون كيف يكونون صابرين !

.. انك تعرف جيداً كيف تبعث انقوة في نفوس من ينصتون اليك !

وهنا صاح كونستانجوغلو بألم وهو يشير الى منحدر هضبة .

— هذا ما يسمى حرارة ! اني لا استطيع البقاء هنا .! ان رؤية هذا

الاهمال وهذه القوضى ما هي الا موت بالنسبة الي .. تستطيع ان تعقد الصفة معه دون ان اكون موجوداً .. خذ منه بسرعة كل هذه الكنوز .. انه يشوه صنع الله !

واسودت الدنيا في عيني كونستانجوغلو واضطرب وضغط على يد

تشنشيكوف ثم طلق بخلوبونيف وتبعت ذلك فترة صمت .

ثم قال :

— يا قسطنطين فيودوروفتش ! كيف يكون ذلك .. انك لم تقم بشيء

سوى المجيء والعودة بهذه السرعة ؟

فاجاب كونستانجوغلو :

— اني لا استطيع البقاء ، فعلي ان اعود ، ان لدي بعض الاعمال الضرورية

في البيت ..

ثم قفز الى عربته وذهب .

وفهم خلوبونيف سبب هذه العودة السريعة فقال :

— ان قسطنطين فيودوروفتش لم يستطع تحمل رؤية هذا الشقاء .. صدقني

يا بافل ايفانوفتش انني لم ازرع شيئاً هذا العام .. وانني اقسم لك انه لم يكن

لدي البذار .. وليست لدي آلات للحرارة .. !

وتابع حديثه متوجهاً الى بلاتونوف :

— ان صهرك على ما يقال ملاك ممتاز . ماذا نقول عن قسطنطين فيودوروفتش
اذن ان لم يكن نابليون قومه ؟ وقد تساءلت كثيراً : لماذا وجد كل هذا
الذكاء في رأس واحد كهذا الرأس ؟ لو انه يستطيع ان يهرق منه نقطة في
رأسي .. ! انتبهوا ايها الاصدقاء ! اننا نغامر على هذا الجسر الصغير فاحذروا
السقوط في الغدير ! لقد اعطيت عدة مرات اوامري بترتيب هذه اللوحات الخشبية
انني لأشكو من هؤلاء الفلاحين الفقراء .. يجب ان يريم الانسان عمل كل شيء ..
ولكن اي مثل يمكن ان اريهم ؟ ماذا يستطيع ان افعل ؟ خذهم يا بافل
ابقانوفتش .. كان بودي ان احرمهم منذ وقت طويل إلا ان ذلك لا يعمل
على تقدمهم .. يجب قبل كل شيء ان يتعلموا كيف يعيشون .. انهم يحتاجون
الى رئيس قاس وعادل يكون لهم قدوة في النشاط والثبات .. ان الرجل
الروسي ، كما اراه في نفسي ، بحاجة الى .. مؤثر دائم ، والا فانه ينام ويحلم .
فتساءل بلاتونوف قائلاً :

— كيف يكون ذلك ؟ كيف يستطيع الروسي النوم والحلم بينما رجل
الشعب يصبح سكيراً ومجرماً إذا لم يراقب ؟

— ان الله وحده يعلم السبب ! نحن رجال مثقفون .. ولقد أنهم نادراً استننا
الجامعة .. فلأي شيء نصلح ؟ ماذا تعلمت ؟ انني أجهل علم الحياة ... انني لا اعرف^٥
فن اتفاق المال لكي أعيش في الأناقة والوجاهة ولكي لا أستخدم إلا الأشياء
التيينة ... ولم أعمل أقل من بقية الطلاب ... اننا نرى أننا ذوو قيمة كبيرة
... ! وان اثنين أو ثلاثة من رفاقي كانوا يستفيدون حقاً من الدروس في
الجامعة ... ربما لأنهم كانوا موهوبين ... أما الآخرون فانهم تعلموا ما يضر
الصحة فقط وما يسمح لهم بربح الكثير من المال ! وانه لبلوحي حقاً في هذه
اللحظة أن الروسي رجل ضائع ... فهو يريد كثيراً ولكنه لا يستطيع شيئاً
... وهو يفكر دوماً بأنه سيبدأ حياته غداً ... وأنه سيتغير غداً ... وأنه

سيطبق نظام الحماية ... ولكنه لا يعمل شيئاً ... ففي مساء اليوم التالي يأكل كثيراً بصورة يلقي فيها بنفسه على مقعده دون أن يقوى على القيام عنه ... وكل شيء عنده يسير على هذا المنوال .
فقال تشيتشيكوف مبتسماً .
= نعم ... يحدث هذا غالباً !
فتابع بلاتونوف :

- نحن لم نولد كما يتطلب العقل ... انني لأصدق أن الروسي عاقل ... وإذا ما رأيت روسيا يحاكم بصورة عقلية ويعمل ويجمع المال ... فأنني لن أثق به ... إذ أنه سيخسر كل شيء في يوم ما يومضة من ومضات جنونه ... وكل الروس على هذا الطراز ... مثقفون أو غير مثقفين .. ان شيئاً ينقص الروسي ... !
ما هو ... ؟ لا أدري .

وحين عاد الجماعة الى القرية كانت تلك الانطباعات الداعية للإشترار لا تزال مرسومة على وجوههم . وكانت المستنقعات الموحلة تملأ الأرزقة .. وكانت فلاحه ترتدي خرقاً بالية سمكة قد قتلت منذ وقت قصير طفلة صغيرة وهي تشتم مستعينة بجميع الشياطين وشاهدان خجران يتأملان هذا المشهد : كان أولهما يحفر في عمود بالقرب منه بينما يتشاب الثاني كما كانت جميع بيوت القرية الخشبية تتشاب كذلك .. فالسطوح الصغيرة تتشاب ، وحتى بلاتونوف أخذ يتشاب حين نظر إليها . ولا يرى في كل جانب وعلى كل شيء سوى قطع وأجزاء مراكبة أو مبدلة بغيرها . فقد وضعت ابواب كبيرة فوق البيوت الخشبية لتسد مسد السطوح ونوافذ محطمة كانت مستندة بجوارف مسروقة من مخازن السيد وكان الفلاحون يطبقون منظومة تريشكا: وذلك بأن يقصوا أطراف الشيا وأجزاءها ليرقعوا أكامها .

قال تشيتشيكوف حين وصلوا الى القرية :

- ان أراضيك في حال يرئى لها .

وقد جوبه هو وبلاتونوف في بيت السيد بمزيج من البؤس والأناقة التي كانت تخيم عليه . كانت زوجة خلو بونيف ترندي ثيابها بدوق عصري وقد حدثتهم عن المدينة والمسرح . وكان يظهر على الأولاد الفرح اذ أنهم ، ذكوراً وإناثاً ، كانوا يلبسون ألبسة عصرية . وكان يفضل أن يروا بلباس أبسط من تلك . هل كانوا يشبهون في شيء أبناء الفلاحين ؟ ووصلت في تلك الأثناء سيدة ثائرة وحقاء فانسحب النسوة والأولاد . . . وبقي الرجال وحدهم .
قال تشيتشيكوف :

- نعم . . . ما هو الثمن الذي تريد ؟ انني أطلب اليك . . . متوسلاً أنت تحدد لي السعر النهائي . . . وأنا لم اكن أتوقع أن أجده هذه المنطقة في مثل هذه الحال السيئة . . . !

فأجاب خلو بونيف :

- نعم هذا حق . . فهي في أحوأ حال بمكنة . . و . . ليس هذا كل شيء . . فانا لن أخفي عليك شيئاً . . فمن مئة نفس سجلت في الاحصاء الاخير لم يبق لي سوى خمسين . . اذ أن البقية ماتوا بالهيفة لقد فروا دون جواز . . وحتى هؤلاء الآخرون يمكن اعتبارهم كالموتى . . واذا كانت العدالة تطلب مني الاهتمام . . فكل ما بقي لدي . . سيذهب الى ذلك الطريق . . وعلى هذا فاني أطلب خمسة وثلاثين ألف روبل . .

وساوم تشيتشيكوف بطبيعة الحال فقال :

- ماذا ؟ خمسة وثلاثون ألفاً ؟ ! اننى أدفع خمسة وعشرين ألفاً . .

لكن بلاتونوف خجل من تلك المساومة فقال : اشتر يا بافل ايفانوفش فان لم تدفع الخمسة والثلاثين ألفاً المطلوبة فاني سأشارك مع أخي بشرائنا ، فخاف تشيتشيكوف وصاح قائلاً :

- فليكن . . انني أقبل . . الا انني أدفع المبلغ على قسطين . . وسأعطي

القط الثاني بعد عام .

= ان هذا المستحيل يا بافل اي فانوفتش .. اعطني النصف في هذا اليوم ..
وأدفع الباقي في مجرى هذا الشهر .. انك تعرف أنني استطيع ان استدين هذا
المبلغ .. لو كان عندي أي شيء لكي أعطي الموظفين .
فقال تشينشيكوف :

= حقاً : لم أكن أعلم .. ليس لدي سوى عشرة آلاف روبل ، لقد
كان يكذب في ذلك إذ أنت عنده عشرين ألفاً مع المبلغ الذي استدانته من
كونستانجوغلو الا أنه كان يستصعب دفع مبلغ كبير كهذا المبلغ مرة واحدة .
= انني أكرر يا بافل اي فانوفتش أنني بحاجة ماسة الآن الى مبلغ خمسة
عشر ألف روبل

فأسرع بلانوفوف متوجهاً بكرمه الى تشينشيكوف :

= انني أقرضك خمسة آلاف روبل .

فقال بافل اي فانوفتش :

— اذن فلا يمكن .. أي حظ هذا في أن يقرضني بلاتون ميخائيلوفيتش هذه

الحصة آلاف روبل

وذهب ليأتي بصره الدراهم من العربية ، وأعطى فوراً خلوبونيف عشرة
آلاف روبل ووعد أن يأتي بالحصة آلاف الأخرى في اليوم التالي . الا أنه
في الحقيقة لم يكن يفكر الا بدفع ثلاثة آلاف فقط ... ثم يعطيه بعد ذلك
ألفين بعد يومين أو ثلاثة أيام .. وبالاختصار فهو ليس على عجلة من أمره .

وكان بافل اي فانوفتش لا يجب أن يدع الأموال التي في حوزة نفونه .. وفي
حال الضرورة القصوى كان يعد بدفع ديونه في اليوم التالي .. وليس في اليوم
الذي هو فيه أبداً .. كان اذن يتصرف كما تتصرف نحن جميعاً .. إذ أننا نحب
كلنا أن نجعل الدائن ينتظر في غرفة داخلية ... وينسى بفرك مسند الكرسي
فماذا همنا مادام لا يستطيع الانتظار ؟

— عد غداً أيها الصديق فليس لدي فراغ في هذا اليوم وسأل بلاتونوف
خلوبونيف قائلاً :

— أين ستذهب الآن لتعيش ؟ أليس لديك قرية أخرى ؟
فاجابه :

لا ... سأرحل الى المدينة اذ أنني أملك فيها داراً صغيرة ... كانت
يجب علي أن أرحل منذ زمن طويل على كل حال : .. ان لم يكن من أجلي ..
فمن أجل الاولاد على الاقل ... فهم سيكونون بحاجة الى أستاذة دين وموسيقى
ورقص ... ومن المستحيل وجود هذه الاشياء في القرية .
فقال تشيتشيكوف في نفسه :

— « ليس لديه كسرة خبز ويريد أن يعلم أولاده الرقص »
وفكر بلاتونوف قائلاً : « غريب »
قال خلوبونيف :

— والآن لنشرب نخب هذه الصفقة المنتهية ... ايه ... اجلب لنا يا كيوريوسكا
... ايها الاخ فنيقة من انشامبانيا !
فقال تشيتشيكوف مرة ثانية في نفسه :

— ليس لديه كسرة خبز ويشرب الشامبانيا .

اما بلاتونوف فلم يعرف بماذا يفكر . وكان خلوبونيف قد أمر بحلب
الشامبانيا من المدينة سابقاً لضرورتها ، ذلك أنه في القرية لا يحب الناس
صنع مشروب (الكفاس) بالنقيط . ومع ذلك فيجب الشرب . ولحسن
الحظ فان فرنسياً قادمًا حديثاً من بطرسبرج قد قبل على العكس ان يبيع الشامبانيا
بالدين اتي اذن بقنينة الشامبانيا وشرب كل واحد ثلاثة اقصادح منها . وعم
السرور . واصبح خلوبونيف محبباً ، لطيفاً واخذ يقص بعض الطرف المسلية .
وكانت كلماته تنبئ انه يعرف الرجال والحياة معرفة تامة . وكانت آرائه سليمة
وكان يتقن تصوير صفات الملاكين الاقطاعيين جيرانه بقليل من الكلمات ،

ويظهر عيوبهم واخطاءهم كما كان يعرف سير جميع اعمالهم وخرايمهم يصف
تمام الوصف بدكاء خارق وذهن حاد عاداتهم بما جعل تششيكوف وبلاتونوف
المعجبين به بعد انه اذكى الناس .

وقد اعترف بافل ايفانوفيتش قائلاً :

- يدعيني ان لا يستطيع رجلاً له مثل ذكائك الخروج من المأزق الحرج

الذي توجد فيه .

فأجاب خلوبونيف :

- نعم . . ان عندي موارد كثيرة .

ثم أخذ يسرد على مسامعهم مشاريعه . وقد كانت جميعها اكثر
حماسة وغرابة من بعضها . ولم يكن أحد يستطيع إلا ان يمز
كنتفيه ويقول :

- « يا آلمي ... أي هوة سيقع بين معرفته للعالم والوسيلة العملية لاستخدام

هذه المعرفة ! »

كان كل مشروع من مشاريعه يستند على تملك لائحة ألف أو لائتي ألف
روبل ... ثم ينتظم كل شيء ... فتدار شؤون المنطقة بصورة عجيبة ...
وتسد جميع الثغرات ... ويضاعف المحصول الى اربعة امثاله ... وتدفع
حينئذ جميع الديون ...

وأنتهى خلوبونيف كلامه قائلاً :

- ما العمل ؟ فأنا لا أعرف فاعل خير يقبل أن يعطيني مائتي ألف أو حتى

مائة ألف روبل فقط .

فقال تششيكوف لنفسه : « لن ينقذه سوى هذا ! مائة ألف روبل ...

لهذا الأحق ! »

قال خلوبونيف أيضاً :

« لي عمة تملك ثلاثة ملايين . لكنها تقية جداً فهي تعطي كثيراً للكنيسة والأديرة ... ولا تحب أن تساعد واحداً من أقاربها أبداً ... إنها من طبقة النبلاء القدماء ... بالفرازة هذه المرأة ... فهي تملك أربعائة كنار ... وكلاباً ... ووصفات وخداماً ... بصورة لا يمكن تصديقها ... وإن أصغر خدمها يبلغ من العمر ستين عاماً وهي تناديه بقولها :

« باصغيري » . وعندما تعد حفلة عشاء مشالا ، وحين يرتكب مضيفها بعض الهفوات فإنها تأمر الخادم بجرمانه من نوع من أنواع الأكل ... وهكذا ! ..

وابتسم بلاتونوف ، وقال تششيكوف :

« ما اسم عمك هذه ؟ وابن تسكن ؟

فأجاب خلو بونيف :

« انها تسكن في عاصمة الدولة وتسمى الكسندرا إيفانوفنا خونا ساروفا .

فقال بلاتونوف بجرارة :

« ولكن اذهب إليها وقابلها ... عسى ان تفهم مأزق عائلتك الخرج فتساعدك .

« لافائدة من ذلك ... فان لها طبعاً قاسياً كالحديد ... وإن كثيرين غيرنا يعملون الآن على الكسب منها ... واني اعرف شخصاً يطمح بوظيفة الحاكم وقد نجح في ان يدخل في العائلة ويكون واحداً منها ... ثم توجه بالكلام نحو بلاتونوف :

« على فكرة ... اني ادعوك الى حفلة العشاء العظيمة التي ساقبها في الاسبوع القادم في المدينة ...

فتفتح بلاتونوف عينيه دهشة ... كان مجهل انه في عاصمة بلادنا روسيا المقدسة

ومدنها يعيش اناس عيشة هي عبارة عن احجية غير مفهومة... فهم مفلسون ومكبون بالديون ولا يملكون كويكاً واحداً .

ومع ذلك فهم يقيمون حفلات عشاء ! ويؤمن المدعوون كل مرة ان هذه هي الأخيرة ... وسيكون مضيفهم في اليوم التالي في السجن ... ولكن نضي عشر سنوات ويبقى الرجل في اعياد دوماً ... تتضاعف الديون ... وتتضاعف دعواته ، ويكرر المدعوون دون انقطاع أن هذا آخر عشاء ، وان رب البيت سيكون في اليوم التالي في الزنزانة !

كان بيت خلوبونيف لا يشبه في شيء غيره من البيوت وقد قام في احد الايام راهب بلباسه الديني بحفلة تعيد فيه . وفي اليوم التالي مثلت فيه فرقة فرنسية قطعة غنائية .. وفي اليوم الثالث لم تكن توجد في البيت كسرة خبز . وبعد اربع وعشرين ساعة اقيم حفل كبير حضره كثير من المشايخ والفنانين . ومرة اسابيع بعد ذلك مؤلة لو مرت على غير خلوبونيف لشتت نفسه او اهرق دماغه .. ولكن شيئاً من التدين انقذه ورده الى نفسه والى سلوكه الذي كان منعلاً .. فكان يقرأ في الساعات الفضة من حياته ، قارىخ العباقرة وشهداء الانسانية الافذاذ الذين تعلموا ان يسوا بانفسهم عن الارض وشقاءها .. وكان قلب خلوبونيف يرق وفي الوقت نفسه ينتقل فكره الى الاجواء العليا وتفيض الدموع في عينيه . وكان يصلي وتأتيه - وذلك امر غريب - نجدة لم يكن يتوقعها .. فيتذكر صديق قديم ويرسل له الدوايم ، او ان محاولة تمر في المدينة وتسمع بحاله التعسة وتناثر في صميم قلبها كأمراة كريمة ، وتقدم اليه هدية ثمينة .. واخيراً كان يربح من اعمال غريبة لم يكن يتكلم عنها قطعاً .. وكان خلوبونيف يعترف بتدخل العناية الالهية وقيم حفلة دينية في بيته ويعود بعدها الى سابق عهده بالتبذير الجنوني

ولما ذهب بلاتونوف وتششيكوف قال الاول للثاني :

- لقد أثر في نفسي .. نعم لقد أثر في نفسي حقاً .

فاجاب بافل ايغانوفتش ؟

- إنه طفل مبذور . ليس لديه ما يحسد عليه .

وانقطعا بعد قليل عن التفكير بخلوبونيف . كان بلاتونوف لا يهتم بالناس او الاشياء الا بتكامل وفي نصف رقطة ، نعم ان قلبه ليعتصروا انه ليتالم امام بؤس الآخرين الا ان انطباعه لا ندخل الى اعماق نفسه . انقطع عن التفكير بخلوبونيف لانه لا يتقن التفكير بنفسه .

اما تششيكوف فقد نسي خلوبونيف اسبب آخر وهو وهو ان الحفنة التي قام بها منذ فترة اخذت تشغله بصورة جذبة . لم يكن الملاك الحيالي لارض خيالية بل انه اصبح ملاكاً حقيقياً لمنطقة حقيقية . وقد انضحت افكاره ومشاريعه . وكان يقول لنفسه : « صبراً ، والى العمل ، وليس ذلك بعسير » لقد اعتدت ذلك . كون عندي تلك الميزات منذ ان كنت صغيراً في المهد . ولكن هل سيكون لدي الصبر الكافي الآن ، وفي هذه السن ؟

وكلما زاد تفكيره في الحفنة كلما زاد سروره . كان بإمكانه ان يرهن هذه المنطقة بعد ان باع احسن الاراضي . كان يستطيع ان يدير شؤون املاكه بنفسه على مثال ما صنع كونستانجوغلو مستفيداً من نصائحه كجار وكفعل خير واخيراً انه يستطيع ان يبيع كل المنطقة لشخص معتبر ، محتفظاً تاماً بالنفوس المينة والنفوس الهاربة .. وكان الغلبة لهذا المشروع الاخير .. انه يستطيع اذن ان يتروك هذه الاراضي بسرعة دون ان يعيد الى كونستانجوغلو ما له عليه .. فكرة غريبة .. ! لا يمكن ان يقال ان تششيكوف هو الذي اوحى اليه بها ، لأنها جاءت اليه عفواً خاطراً ، وداعبته ، واستهزأت به . انها سبئة ، وكريمة .. ومن هو خالق هذا الافكار النجائية والطارئة ؟

كان تششيكوف يسبح في أجواء من الفرح ! إذ أنه أصبح ملاكاً ، ملاكاً حقيقياً ، وافعباً ، ملاكاً ينك اراضي واقناناً .. اقناناً احباء وجعل يقفز على مقعده الخشي ، ويفرك كفيه ، ويغمز بعينه .. ثم وضع كفه امام

فمه واخذ يصفر نشيداً عسكرياً ، ويتلفظ بصوت منخفض بكلمات عذبة وخفيفة يخاطب بها نفسه : « يا صاحب الوجه الصبوح ، يا أيها الديك الضخم الصغير ، تابع سيرك » ولكنه تذكر فجأة انه لم يكن وحيداً فسكت وحاول ان يكظم السعادة التي كانت تستولي عليه . إلا ان بلاتونوف ظن ان تلك المهمات كانت موجهة اليه فقال :

- ماذا تقول ؟

فأجاب تشتشيكوف :

- لا شيء .

نظر بافل ايفانوفتش حوله ولاحظ انه كان يجتاز منذ مدة طويلة حرجاً صغيراً جميلاً واشجار (السنديان) الكبيرة على جانبي الطريق . ويلمح عن بعد بين اشجار (الصفصاف والسنديان) كنيسة برزرجل في الطريق واتجه نحوها . كان يضع على رأسه قبعة صغيرة ويمسك بيديه عصا معقدة ، وكلب انكليزي ذو قوائم دقيقة يركض امامه .. انه آزور .

فصاح بلاتونوف :

- قف ايها الحوذي : هذا هو اخي .

ثم نزل من العربة ، وتبعه تشتشيكوف . اخذ الكلبان يارب وآزور يلحس كل منها (بوز) الآخر ثم انقضا على تشتشيكوف وبلاتونوف ، حتى ان آزور اتجه رأساً الى اذن بافل ايفانوفتش واخذ يلحس طرفها . وتعانق الاخوات . وقال فاسيلي اخو بلاتونوف :

- إذن .. فأنت تتركني هكذا يا بلاتونوف ؟

فأجاب بلاتونوف بلهجة رخوة :

- ماذا جرى ؟

- كيف ماذا جرى ، ومنذ ثلاثة ايام لا نعرف شيئاً عنك ؟ وان حوذي

يبتوخ أتي الينا بمحسانك وانبأنا أنك ذهبت مع سيد .. كان يجب ان

النفوس الميتة - م ٢٣

- ٣٥٣ -

نخبرنا عن مدة غيابك ، وعن وجهتك ، لا يتصرف العقلاء هذا التصرف يا أخي .
لقد قلقت عليك جداً في هذه الأيام الثلاثة !
فقال بلاتونوف :

— ما العمل ؟ لقد نسيت ! لقد ذهبنا الى قسطنطين فيودوروفتش وهو
يهديك تحياته ، كما يهدي تحياته الى اختنا .. بافل ايغانوفتش انني اقدم اليك
أخي فاسيلي .. هذا هو بافل ايغانوفتش تشتشيكوف .
تصافح الرجلان ونزعا قبعتهما ثم قبلتا بعضهما .
تسأل فاسيلي « من تشتشيكوف هذا ... إن أخي لا يستطيع كسب
أصدقاء جدد بسهولة .

ثم صوب نظرة فاحصة الى تشتشيكوف في حدود الأدب فظهر له
الرجل مقبولاً . كما ان تشتشيكوف صوب ايضاً نظرة فاحصة الى فاسيلي
كانت في حدود الادب . كان اصغر من بلاتونوف ، واكثر سمرة منه ، واقل
جمالاً ولكنه تقاطيع وجهه تنبئ عن حيوية وقوة وطيب . ويظهر انه كان
ينام اقل من أخيه .

— فاسيا ... لقد قررت ان اقوم بنزهة بسيطة في روسيا المقدسة مع بافل
ايغانوفتش ... عسي ان ينقش علي ... !
فأجاب فاسيلي مندهشاً لهذا النبأ غير المتوقع :
— اني اراك قد قررت بسرعة ..
وكان كأنه يريد ان يضيف :

— وتريد ان تذهب برفقة رجل لم تراه الا مرة واحدة .. وقد يكون سيء
الاخلاق ... ولا يعرف ذلك إلا الشيطان نفسه .
وأعاد النظر الى تشتشيكوف زيادة في الحيلة .. فقدم بيئة محترمة جداً .
ذهب الاصدقاء الثلاثة نحو اليبين واجتازوا بوابة شبكية . ووجدوا أنفسهم
في حديقة قديمة أمام قصر عتيق لنوافذه وابوابه مايقبها المطر والشمس . وكانت

شجرة ورد قد نبتت في وسط الحديقة وسترت بظلها نصفها تقريباً . وكانت تحيط
 بهما مقاعد خشبية عديدة . وأشجار أخرى من كرز ولبك كانت تغطي كل
 القصر تقريباً . وبين اوراق الاشجار لم يكن بالإمكان - رؤية شيء منه ماعدا
 الابواب والنوافذ . وخلف سوق الاشجار المستقيمة كالسهم ترى جدران المطبخ
 البيضاء ، والحنائل ، والاقبية . وكانت العنادل تفي . حتى ان عاطفة الحشوع
 والفرح كانت تستعوز على نفس الانسان ... فيستعبد على الرغم منه ذكرى
 الايام السعيدة حيث كان جميع الناس يرتعون بالسعادة ، وكل شيء كان سهلاً طبيعياً .
 دعا فاسيلي تشيتشيكوف الى ان يأخذ مكانه . ثم جنس الثلاثة تحت
 شجرة الورد .

وأنى فتى في السابعة عشرة من عمره تقريباً يلبس سترة وردية اللون بأوان
 مليئة بمشروب (الكفاس) مع الثمار المختلفة وكان بعضها كثيفاً غليظاً كالزيت
 وبعضها يشبه عصير الليمون الفوار . وبعد ان قدم الخادم الشراب أخذ بجرة
 وعاد من حيث أتى . وكان آل بلاتونوف ، كصهرهم كونستانجوغلو ، ليس
 لديهم خدم بل كان البستانيون يتطوعون لخدمتهم بالتناوب . وكان فاسيلي يزعم
 ان الخدم لا يشكلون طبقة في المجتمع ، وأي شخص كان يمكن ان يقوم بالخدمة
 وليس من الضروري اتخاذ أشخاص خصوصيين هذه المهمة ، والروسي عامل
 صالح ماهر عندما يرتدي بزة العمل ، ولكن عندما تلبسه ثياب خادم الماني
 فانه يصبح ثقيلاً كسولاً ، ولن يقوم بتغيير ثيابه او يذهب الى الحمام وينام
 باللبسة ... اجعل من الروسي المائياً .. حينئذ ترى القمل قد انتشر في جسمه
 جميعاً . وكان الفلاحون عند آل بلاتونوف لا يلبسون كما يلبس الروس . وكانت
 كل زخاوف ثياب الفلاحين من الذهب وأكمام فصانهم الواسعة كانت تشبه
 الشال التركي .

قال فاسيلي :

- هذا الخمر من انتاجنا .. وله صيت ذائع في المنطقة جميعها .. ملا تشيتشيكوف

منها قدحاً وذاقها.. ذكره هذا الشراب بـ شراب آخر كان قد ذاقه في بولونيا.
وكان يفور كالشامانيا ويحز برائحته الانيق وخزاً لذينة .
- انه شراب لا نظيره ..

ثم أخذ كنساً آخر كآب ألد من الاولى..
- ملك جميع المشرؤبوت .. واني امنطيع ان اقول انني شربت عند
صهر ك قسطنطين فيودوروفتش احسن (راتافيا) وهأنذا أشرب الآن عندك
نحسن (كفاس)

فقال فاسيلي :

- الراتافيا لا تتغير لان اخني هي التي تصنعها لكن قل لي الى اي منطقة ستذهب؟
فأجاب تشتشكيوف وهو يتأرجع على مقعده ويداعب ركبتيه .
- انني لا أذهب من أجل عملي بقدر ما أذهب من أجل حاجات الجنرال
بيتريتشف فقد توسل الي أن أزور أصدقاءه ... وان أصدقاءه هم اصدقائي ...
واني أسافر أيضاً بدافع لذتي والسفر حسن من وجهة النظر الصحية عندما
يكون الانسان مصاباً (بتصلب الشرايين) ومن ناحية المعرفة ... معرفة الرجال
والعالم ... فان السفر كتاب حي او علم ثان .

أصبح فاسيلي حائناً : « عندما يتكلم ... فانه ينصت الى كلامه ... ولكن
في كلامه شيئاً من الحقيقة » وظل مدة قصيرة ساكناً ثم توجه بالكلام الى
بلاتون وقال :

- « انني أظن أن هذه الرحلة يمكن ان تفيدك ... فان ضحكك له اصل
اخلاقي ... فأنت تنام لا لأنك تعب أو منهك ولكن لأنه تنقصك ...
الاحساسات ... الانطباعات . اما انا فعلى العكس ، اريد ان اكون غير مبال
بالاشياء ، ولا أريد ان نهم بكل ما يجري .

فأجاب بلاتونوف :

— ان الانسان حر في ان يهتم بالاشياء او ان لا يهتم بها . (١)
انك تفتش عن المواضيع المزعجة وتخلق لنفسك المتاعب .
فصاح فاسيلي :

— اني لست بحاجة لان اخلقها ... فهي تأتي من نفسها ... هل سمعت عن
الدور القذر الذي لعبه معنا لستقم ؟ لقد استولى على قطعة الارض التي اعتاد
ان يلعب بها الفلاحون ... صحيح ان الارض لا قيمة لها ... ولكن ان انخلي
عنها باي ثمن ففي كل فصول الربيع يقيم بها الفلاحون اعيادهم ، وان الذكريات
القديمة جداً للقرية مرتبطة بهذه الحقول ولي انا ... وان العادات اشياء مقدسة
وانا على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيلها .

— انه يحزن هذه الاعياد ... لذا استولى على الارض ... فقد قدم حديثاً
من بطرسبرج ... لذا يجب توضيح القضية له .

— انه يعرف ... وهو على اطلاع ... ولقد ارسلت اليه رجالي
فرد عليهم بخشونة ..

— كان يجب ان تذهب اليه بنفسك .

— لا ... فهو يمثل دور سيد كبير لن اذهب اليه قط ... اذهب اليه انت
اذا اردت .

— نعم ساذهب ... ولكن ... انا لا افهم في الاعمال ، وقد اخذ ع
و اغش .

فقال تشنشيكوف :

— هل تريد ان اذهب اليه انا ؟ اطلعني على القضية . نظر اليه فاسيلي وقال
لنفسه : « انه يريد ازعاج نفسه ! » وتابع بطننا تشنشيكوف :

— اشرح لي قضية الرجل فقط وما هي القضية ؟

— انني لأخجل ان اكلفك بمثل هذه المهمة ... فهو رجل حقير ... نبيل
صغير من منطقتنا ... خدم في بطرسبرج ... وتزوج فيها فتاة غنية وجعل

(١) وجدت قبل هذه العبارة صفحات مفقودة من المصودة .

من نفسه سيداً كبيراً ... وجاء هنا ليكون حاضراً على القانون ...
ولكننا لنا بالحقي ... فالزي ليس مرسومياً قيصرياً وبطرسبرج
ليست كنيسة لنا .

فقال نشتشيكوف :

- انت محق ولكن على اي شيء ، انما مختلفان ؟

- انه بحاجة الى الارض ... ولو انه تصرف على غير الطريقة التي تصرف بها

لاتفقت معه ... اما الآن

- انني ارى انه يجب الاتفاق ... ولقد كلفت مرة بجمعة من هذا النوع ...

ولم بأسف احد على ذلك حتى الجنرال بيتريتشيف .

- ولكنني خجل من ان اطلب اليك ذلك فعلاً .

الفصل ؟؟؟^(١)

لكل شيء على ظهر البسيطة قانونه الخاص . والاصل في كل شيء كما يقول

المثل ، الاتجاه والانسجام !

ومن حقيقة الى اخرى ، ومن صندوق الى صندوق ، وبأعجوبة خارقة ، لم يجدت اشياء كثيرة في محفظة تشبشيكوف ، ولكنها لا تخصه . ان تشبشيكوف لم يسرق شيئاً قط . . ولكنه عرف كيف يستفيد من الظروف . ومن منا لا يأخذ من غابات التاج ، ومن اقتصاديات البلاد ، ومن ثروة ابنائها ، ما ينفعه على بمثلة ؟ ومن منا لا يأخذ اموال الفلاحين لبشيري بها عربة فاخرة ورياشاً فخماً ؟ ان الحياة مليئة بالمغريات المتنوعة ، من مطاعم غالية الى حفلات راقصة ، الى نزاهات ورقصات عجيبة . وكل مقاومة تكاد تكون مستحيلة عندما يقوم الجميع بنفس العمل او عندما يتطلب لون العصر ذلك !

كان على تشبشيكوف ان يذهب منذ زمن طويل ، ولكن الطرقات كانت سيئة فلم تسعفه . وقام ، في تلك الاثناء ، معرض جديد في المدينة ، وكان هذه المرة سوقاً شريفة . ولقمد كان المعرض في السابق يقوم على الحيوانات والمواد

(١) وهنا ايضاً فقد قسم كبير من المودة الاصلية ، ولذلك اصبح رقم الفصل

غير معروف.

الحام وجميع الحاجيات التي يشتريها الفلاحون والمختركون . اما الآن فان الباعة المتجولين والتجار سيبيعون منتجات مستوردة من معرض نيجني نوفغورود الكبير . وقد جاء بهذه المناسبة ، الى المدينة ، فرنسيون متوردو الحدود وفرنسيات يلبسن قبعات على أحدث طراز من نوع الجرازة المصرية كما كان كونستانجوغلو يدعوها . وبقي الملاكون في ريفهم بسبب رداءة المواسم فامتلاء المعرض بالموظفين وزوجاتهم وكانوا كلهم متلفين لاستشعار أحاسيس جديدة مجهولة . وافتتح فرنسي مطعما في المحطة يمكن تناول الطعام فيه بأسعار رخيصة وكان أكثر زبائنه يتناولون وجباتهم بالدين ، أصبح هذا المطعم تسلية جديد للناس ، فالجميع يريدون التنافس بخيولهم الاصلية المطهية وعرباتهم الفاخرة وسائقينها .
(ثم من رداءة الجو وكثرة الوحول ، فقد اخذت العربات الجميلة تقطع شوارع المدينة ذهابا وايابا . ولم يكن بمقدور أحد ان يعرف من اين جاءت كل هذه العربات التي تنافس في فخامتها عربات بطرسبرج . وكان التجار يحبون المسافرين ويستوقفونهم . ولم يظهر أحد من الروسيين اصحاب اللعى الطويلة وقبعات الفرو الا النذر اليسير . لقد اتبع الجميع الازياء الاوروبية ، فأتت لا ترى الا الذقون الخليفة والاسنان الملمعة . واما الغلمان فقد كانوا يضحكون :
- هيا ايها السادة ، تفضلوا بالدخول !

وسأل تششيكوف :

- ماذا عندكم من الاقمشة ؟ اريد قماشاً احمر اللون .

- اني اؤكد لك بان الاقمشة التي عندنا لا يوجد مثيل لها الا في

ارقى العواصم .

- اريد .. اريد قماشاً زيتياً او اخضر صافياً .

- هيه .. ايها الصغير .. اعطه رقم ٣٤ .. هيا ناوانبه .. انظر ياسيدي الى

هذا القماش العظيم .

ووضع التاجر قطعة القماش تحت انف تششيكوف . فقال هذا الاخير :

- حسناً .. ولكني لا ارجب بهذا النوع . لقد كنت سابقاً موظفاً في الجمارك .. اريد احسن ما عندك من الاصناف ، لا اريد اخضر بل خمرياً !
- فهمت ، انت تريد لوناً حديثاً .. عندي قطعة لانلام غيرك اطلاقاً ! وانما اندوك منذ الآن بأنها مرتفعة الثمن ولكن صنفها من اجود الاصناف الممتازة !
وفردت القطعة ، ثم عرضت على الخو ، وخرج التاجر من خلف طاولته ،
واخذ بحس القطعة وهو يغمض عيناً ويفتح اخرى ، ثم هتف : « ان لوننا فريد في بابه حقاً ! »

وأعجب تششيكوف بالقماش وبلونه ، فأخذ يساوم البائع بالرغم من ان أسعار السلع ثابتة محدودة ، ثم ، وبسرعة ، وضعت رزمة داخل العربة .
- اريد جوخاً اسود اللون غامقاً !

وسمع تششيكوف صوتاً فقال في نفسه : « ليذهب به الشيطان ! لقد عرف في هذا الصوت صوت خلوبونيف ، فأدار وجهه لانه لا يرغب ان يتعرف عليه صاحب الصوت ، والا لا خطر على ان يقدم له ابياحات عن ارث عمته المليونييرة . (١)
ولكن خاب أمه ، ذلك ان خلوبونيف رآه فهتف به :

- اوه أهذا انت يا بافل ايفانوفتش .. لماذا تدير ظهرك هكذا كأنك تتحاشاني عمداً ؟ لقد فتشت عنك في كل مكان فم استطع الى ايجادك سبيلا ، وانت تعرف شدة احتياجي الى مقابلتك لان اعمالنا خطيرة تقتضي ان نتحدث عنها !

فاجاب تششيكوف وهو يضغط على يدي خلوبونيف :
- يا صديقي العزيز .. يا صديقي العزيز .. لقد كنت اود ان اراك منذ زمن بعيد !

ثم فكر : « لنذهب به الابالسة ! » وفي نفس اللحظة شاهد موزاروف فصاح به :
- آه ! يا لله ! أهذا انت يا أفنامي فاسيليفتش .. كيف انت ؟

(١) يظهر ان الامر يتعلق بمعاينة مشوهة قام بها تششيكوف .

فأجاب موزاروف :

- بخير .. وانت ؟

ثم رفع قبعة بالتعبه فرد عليها التاجر وخلوبونيف .

- اني أعاني ألماً فظيماً في كليتي وقد فقدت النوم ! ويظهر ان آلام بافل

إيفانوفتش لاهم موزاروف الذي التفت الى خلوبونيف قائلاً :

- سيمون سيمونوفتش .. لقد شاهدتك تدخل المتجر فتبعتك .. عندي

أشياء أريد ان أحديثك عنها .. أنتستطيع الانبان معي ؟

- بكل تأكيد .. بكل تأكيد !

وخرج خلوبونيف برفقة موزاروف .. وتساءل بافل إيفانوفتش في نفسه :

- ترى ، عن أي شيء سبتكلمان ؟

أدخل موزاروف صديقه خلوبونيف الى غرفته الخاصة وسأله :

- قل لي كيف أعمالك .. وهل تحسنت ؟ .. لقد ورثت شيئاً عن عمك !

- كيف أحديثك ياعزيزي أفناسي فاسبليفتش .. لست ادري عما اذا كانت

أحوالي المالية قد تحسنت بالفعل ، فاني لم ارث اكثر من خمسين عبداً وثلاثين

الف روبل . وكان علي ان أسدد ديوني ، فلم يبق لي شيء ، ومن جهة أخرى

يجب ان اعترف لك بأني واثق .. او بالأحرى ، بأني اشته بقصة الوصية كثيراً

لقد حدث تلاعب .. سأحدثك وسندعش .. ان تششيكوف هذا ..

- دعنا من تششيكوف باسيمون سيمونوفتش ، ولنتحدث عنك .. قل

لي ماهو المبلغ الذي تحتاج اليه لتهني ارتباكك المالي نهائياً ؟

فأجاب خلوبونيف :

- لقد أصبحت حياتي قاسية جداً وكى اتخلص من ديوني كلها وأعيش حياة

متواضعة ، احتاج الى مائة ألف روبل . او اكثر .. وهذا مستحيل !

- افترض انك حصلت على المبلغ فماذا تفعل به ؟

- سأستأجر شقة صغيرة واهتم بتربية ابنائي .. ولافائدة من التفكير بأمرى

لقد انتهت حياتي ، إني أنسان ضائع !
- ستبقى حياتك مليئة بالكسل .. والكسل اصل جميع المعوقات التي لا يعرفها الرجل العامل .

- مستحيل .. لم اعد اسوي شيئاً .. وحياتي كلها ألم .
- ولكن كيف يمكن ألا نشغل؟ .. كيف تطيق ان تحيا بلامهنة ولا عمل؟
دونك مخلوقات الله .. انظر اليها ! انه لكل شيء عمله وفائدته ، والحجارة نفسها ذات فائدة فكيف يمكن للانسان ان يعيش دون هدف او غاية وهو اذكي المخلوقات ؟

- واكني لن اكون عاطلاً عن العمل تماماً فتربة ابنائي ..
- كلا ياسيمون سيمونوفتش ، ان هذه المهمة اشق مهمة في العالم ! وليستطيع الرجل تربية أطفاله يجب عليه ان يكون قد تربى هو نفسه ، ان التربية مستحيلة الا بالمثل الصالح ، وحياتك ليست مثلاً للصالح ! اجل ! ستعلم ابناءك اللعب بالورق في اوقات فراغهم . ياسيمون سيمونوفتش لتهد الي بأبنائك ، فأنت بلا ريب مفسد هم اذا تكفلت بتربيتهم ! فكر في امرك جيداً ، لقد هدم الكسل حياتك كلها وعليك ان تتخلص منه . على الرجل الذي يحيا على الارض ان تكون له مهمة معينة وواجب واضح يقوم بتأديته ! .. ان العامل البسيط الذي يشتغل بالمياومة ذو فائدة عظيمة رغم ضآلته ، انه يأكل بكوبيك واحد، ولكن هذا الكوبيك يربحه من عمله وجهده فيشعر بأهمية العمل والمثابرة .

- اقم لك يا افناسي فاسيليقتش اني حاولت السيطرة على هذا الكسل ، ولكن ما العمل ؟ لقد اصبحت عجوزاً مقعداً ... فكيف احصل ، مثلاً ، على وظيفة ؟ اني في الخامسة والاربعين من عمري ، افتريد ان يكون زملائي من الشبان الصغار ؟ وعدا ذلك فانا لا استطيع ان اقبل من احد رشوة او (إكرامية) ، وهكذا أؤذي نفسي واثقل على زملائي .. لا يا افناسي فاسيليقتش لقد فكرت وحاولت وان استطيع البقاء في اي المكان الا في المستشفى .

— وفي المستشفى لا يتقبلون غير المال ، واما غيرهم فيقولون لهم كما قالت الزمّة
للصرار : « اذهب وغن الآن ! » ان العمل صعب في المشافي ، فهناك لا يلعبون
الريست وانت انما تخذع نفسك وتخدعني .

وحقق موزاروف في خلوبونيف طويلاً ، ولكن هذا لم يجبهه ، فاشفق
موزاروف عليه من جديد وقال له :

— اصغ الي يا سيمون سيونوفتش .. انك تصلي وتذهب الى الكنيسة دون
انقطاع ، بالرغم من ان الاستيقاظ باكراً يزعجك . اني أعلم هذا ، ولكنك مع
ذلك تذهب الى الكنيسة ولو لم تجد فيها احداً من الناس .

— هذا أمر آخر يا افناسي فاسيليفتش .. وانا افعل ذلك ليس من اجل
الانسان ، بل من اجل خالقنا . وانا على اعتقاد بانه رؤوف بي مهما كنت
منحطاً ومضيقاً ، ويستطيع العفو عني واستقبالي بترحاب في حين يطأني جميع
الناس بنعاهم .. وفي حين يخدعني اخلاص الاصدقاء ويخونونني ويبيعونني بالخس
الايمان ملتصين أشرف الاعذار !

وارتسم في وجه خلوبونيف ظل المرارة ، فقال موزاروف :

— إذن فاعمل لأرحم الراحين ، ان العمل من اجله لا يقل عن الصلاة قيمة .
ابحث عن اي عمل وتم به في سبيله لا في سبيل الناس .. ضع قليلاً من الاسمنت
فوق حجر واصنع به ما تشاء ، فان عملك إذ ذاك يكون مفيداً لانه يدع لك
الوقت السكافي لتلعب بالورق وتقيم المآدب والحفلات .. انعرف ايغان بوتابتش؟
— اني اعرفه جيداً وأقدره وأجله .

— هو تاجر ممتاز ، وقد جمع ثروة قدرها ربع مليون روبل . ولكنه ما
لأن رأى هذه الثروة بين يديه حتى بدأ يعمل كل شيء ، فعهّد بانه الى مرب فرنسي
وزوج ابنته من جنرال ، ولم يعد يفكر إلا في قضاء وقته داخل الحانات مع
الاصدقاء . وماذا كانت النتيجة ؟ الحراب بالطبع ! وها هو اليوم موظف
عندي ، لقد بدأ حياته من جديد ، وها ذي اعماله تسير سيراً حسناً . وهو

بإستطاعته ان يربح نصف مليون روبل مرة اخرى ولكنه يقول : « لا .. لا
انا موظف وسأبقى كذلك الى أن اموت . ان صحتي جيدة الآن بينما كنت
اعاني سابقاً الكثير من الآلام والامراض ! » وهو ايضاً يصلي كأصدق المصلين
ويحسن الى جميع الفقراء .

ظهرت على خلوبونيف امارات التفكير العميق ، فأخذ موزاروف
يدبه وقال :

— لو تعلم ياسيمون سيمونوفتش كم أرثي لك ! اسمع الي .. أنا أعرف
راهباً في الدير يستطيع ان يدلي اليك بنصائح ثينة .. لقد حدثته عن صديق لي
يعاني الكثير من المتاعب ، فأصفى الي طويلًا ثم قال : « الله اولاً ثم الانسان ..
نريد بناء كنيسة ولكن المال ينقصنا ، وإذن علينا ان نجعل المال للكنيسة ! »
ثم اغلق في وجهي الباب وتركني اتساءل عن معنى ما قال .. ومن الواضح ان
الراهب لا يريد ان يعرضني النصيح بشأنك فذهبت الى الارشندويت وما إن
بدأت الحديث معه حتى سألتني عن شخص يجمع التبرعات للكنيسة سواء كان
ببلاً ام تجراً ، فان هذا العمل يكن ان يعتبر سيلاً لحلاص النفس . فقلت في
فكري : « يا الهي هذا شي مدهش لسيمون سيمونوفتش ، فسيذهب الى الملايين
ومعه دفتر التبرعات ويطوف بالفلاحين واهل المدن ، فيعرف حياة الناس
وحاجاتهم ، كما انه يجول في بعض المقاطعات ويتعرف جيداً على البلاد .. نحن
بحاجة الى اشخاص يعرفون حياة الناس الداخلية الصببية . وقد قال لي نائب
الحاكم بانه في أمس الحاجة الى موظف تعلم مهنته من الحياة نفسها لا من خلال
الاوراق .. ان الاوراق تهدم الانسان !

فهتف خلوبونيف مذهولاً :

— انت واهم يا افناسي فاسيليفتش .. لا استطيع ان أصدق انك تقول مثل
هذا الكلام .. ان هذه المهمة تقتضي رجلاً نشيطاً يستطيع ان يقوم بها .. ثم
كيف أترك زوجتي واولادي وليس لديهم ما ينبغيون به ؟

- لا تهم هذا الامر .. إني أتعهدهم بنفسي وسأكون للأولاد اساندة يعلمونهم .. وعرضاً عن ان تستجدي خبزك .. فم بالاحتجاء من اجل الكنيسة! سأعطيك عربة بسيطة ، ولا تخش الا كواخ فهي صعبة للغاية ، كما سأعطيك مالا لتساعد من هم في حاجة الى المساعدة ، فتقوم بذلك بعمل الحسنى .. تعلم على ألا تخطئ ، وان تعطي من يستأهل المساعدة فعلاً .. وهكذا ستعرف الناس جيداً وسيعيدونك بحرية وصراحة اذا علموا انك تقوم بجمع التبرعات لأجل بناء الكنيسة .

- أخشى أن تكون هذه المهمة فوق ما تستطيع !

- فهتف موزاروف :

- وما العمل الذي يناسب القوى البشرية ... ان كل شيء فوق الطاقة الانسانية ، ولا يستطيع المرء شيئاً دون مساعدة السماء الا ان الصلاة تمنح القوة اللازمة . ان البحار الذي هتف : « يا آلهي كن معي ! » فانه يصل شاطئه الامن حتماً ... ليس عليك ان تفكر طويلاً في هذا الموضوع فهو امر قدره الله سبحانه ، وهذا كل شيء ! .

- ان العربة معدة ، ويجب ان تمر في طريقك على الارشندريت ليعطبك دفتر التبرعات ويباركك قبل السفر .

فقال خلوبونيف :

- اني اطيعك واقبل ما تأمر به كما لو كان ارادة آلهية !

ثم اضاف :

- « رب ... باركني ... » وتسربت الشجاعة والقوة الى قلبه ، وشعته نفسه بأمل الخلاص من الحالة المؤسبة التي يعانيها .

ولكن لتترك الآن خلوبونيف ولتعد الى تششيكوف !

في هذه الاثناء كانت محاكم المظالم تتلقى الاحتجاج تلو الاحتجاج على

على وصية عمه خلوبونيف . لقد تركت هذه العمه اقارب لم يعرفهم احد ،
 وكانت غاض الطيور المفترسة على الفريسة البائسة ، انقض عدد كبير جداً على
 ذلك الارث وادعى كل الحق بنصيب من تركة العجوز المليونيرة . وكان
 الجميع يتهمون تششيكوف بتزوير الوصية وسرقة كثير من الخواصج وتهريب
 مبالغ كبيرة من ثروة المتوفاة . وظهرت من جديد قصة النفوس الميتة كإبروز
 ماضيه ، عند ما كان في خدمة الجمارك ، حياً ، ولكن كيف يمكن اكتشاف
 وقائع نسيم الجميع منذ زمن ليس بالتصير ، ثم كيف تعرف وقائع جرت
 ولكن لا يعلم بها احد ؟ .

لذلك كان بافل ايفانوفتش مقتنعاً بعدم معرفة احد لأعماله . ولم يكن يدري
 شيئاً عن الاتهامات التي أحاطها القضاء بستان من الكتمان . ولكن جاءته كلمة
 صغيرة من أحد المحامين نهته الى ان الانقباز بوشك ان يقع قريباً . لقد كذب
 اليه ذلك المحامي يقول :

« اني أسرع باعلامك انه ستحصل فضيحة . . . وأطلب اليك ألا تقلق ،
 فالهم هو ان تحافظ على رباطة جأشك ونحن ندبر لك كل شيء ! » وأفرغ روع
 تششيكوف بعد هذه الرسالة وقال :

« ان هذا الانسان ملاكي الحارس ! » ووصل في تلك اللحظة بالذات
 الحياط . وكان بافل ايفانوفتش يريد ان يتنصير بزيته الجديدة . لبس اول شيء
 السروال وقد ناسبه كثيراً فما ان شدت العقدة الخلفية وبرز بطن تششيكوف
 كالطبل حتى هتف : « انك لجبل ! » وكان المعطف أحسن حالاً من السروال
 الا ان بافل ايفانوفتش لاحظ انه ضيق قليلاً تحت الابطال الأيمن ، ولكن
 الحياط ابتم وقال :

« لقد قدرت لكل شيء حسب الدقيق ، اطمن ! فالعمل ممتاز وأستطيع
 التأكد لك بأن خياطتي بطرسبرج وحدهم فقط يستطيعون ان يصنعوا
 مثل هذا ! » وكان هذا الحياط نفسه قد جاء من العاصمة وافتتح دكاناً كذب

على بابها : « خياط من لندن وباريس » .

ودفع تششيكوف حسابه كله ، وما ان بقي وحده حتى وقف امام المرأة فبداه خداه اللذان كثيراً ما فتناه اشد جمالاً من ذي قبل ، وكذلك بدت له ذقنه اكثر اغراء ، وكانت ياقة قميصه الابيض وربطة العنق الزرقاء وطبقات قميصه تشكل مجموعة منسجمة يتوجهها المعطف ، واستدار تششيكوف نحو اليمين .. جميل .. ثم استدار نحو اليسار .. عظيم .. ان له لقامة رجل بلاط يتصرف في كل شيء على الطريقة الفرنسية وحتى حين يحك جلده ؛ بل هو حين يغضب لا يستعمل الالفاظ الروسية الغليظة بل يغضب باللغة الفرنسية ! واحنى تششيكوف رأسه الى اليسار قليلاً متخذاً وضع رجل يتوجه الى سيدة من الطبقة الممتازة ، فرأى نفسه جميلاً يستحق التصوير .. وكان مهوراً من نفسه الى حد جعله يصطدم بالمنضدة التي اهتزت بعنف فسقطت زجاجة من الكولونيا على الارض . ولكن بافل ايضاً نوفتش لم يرتبك بل اكفى بأن نعت الزجاجة بالحق ثم سأل : ترى ابن اذهب ه وفجأة فتح الباب ..

- عليك ان توجه الى الحاكم العام على الفور

ولبت تششيكوف مذهولاً مصعوقاً ؛ كان ينتصب امامه مارد بشارين طويلين يلبس عمرة ويتدلى من جنبه سيف طويل . وخبل الى تششيكوف انه يرى بندقية واسياء اخرى لا يعرفها غير الشيطان وحده .. واخذ الدركي الذي امامه يتعمد ويتضاعف في نظره حتى اصبح فرقة كاملة .. حاول الاحتجاج والتسنع ولكن الرجل هتف به .

- ان الامر يقضي ان تذهب معنا على الفور !

وشاهد بافل ايضاً نوفتش دركياً آخر في المشى ونظر من النافذة فرأى عربية .. لافائدة له من المقاومة ، فمشى كما هو بيزته الحديثة يتبعه الدركي ... وما ان وصل الى القصر حتى قال له الموظف المناوب دون ان يدع له فرصة للراحة :

- اذهب الى الامير انه ينتظرك !

ولاحظ صديقنا رواقاً مليئاً بالساعة ثم قاعة واسعة اجتازها وهو يقول في نفسه : « الآن سيلقى بي في السجن .. ثم انفى الى سيبريا دون محاكمة ! » واتخذ قلبه يدق بشدة دقائق اعنف من دقائق العاشق الغيور . واخيراً فتح الباب . وشاهد بافل ايفانوفتش حقائب وخزائن وكتباً كما شاهد الامير وراء كل ذلك وكان يبدو تجسداً للغضب والحق . وفكر في نفسه : « سيقتلني الذئب ويأكلني وكأنني حمل ! »

صاح الامير :

— لقد اشقت عليك وسمحت لك بالبقاء هنا في حين يجب ان تكون في السجن منذ زمن طويل . ولكنك تجردت من الشرف مجدداً بعملية احتيال ذنينة لم يقم بها انسان قط .

كانت شفتا الحاكم العام ترنعثان . فقال تششيكوف وركبته لانتكادان تقربان على حمله :

— ولكن اي احتيال باصاحب السعادة ؟

فهتف الامير وهو يقترب من تششيكوف ويحدق فيه :

— المرأة .. المرأة التي كتبت وصيتها ووقعتها تحت سمعك وبصرك .. لقد اوقفت واعترفت بكل شيء وسواجهك بها .

واختلط كل شيء في عيني تششيكوف فقال :

— باصاحب السعادة .. سأقول لك كل شيء .. اني مجرم .. مجرم جداً ..

ولكنني لست على القدر من الاجرام الذي يتهمني به اعدائي .

— كذب وتفاق ... لا يستطيع احد ان يلفق حولك شيئاً لان في

نفسك من الحقايرة والدناءة ما لا يوجد الا عند أخطا المجرمين ... ان كل كوريك

تملكه مسروق ... هناك سرقات وجرائم يعاقب القانون عليها بالسجن والنفي

الى سيبريا ... كفى ... ستلقى الآن في السجن ، وهناك تنتظر مصيرك

النفوس الميتة — م ٢٤

— ٣٦٩ —

مع اللصوص والمجرمين ، وهذا اقل مما تستحق لانك احط منهم جميعا انهم يريدون
ملابس الشعب ... اما انت ...

فصاح تششيكوف :

- الرحمة يا صاحب السعادة ... انك رب عائلة ، اسبق على
أمسي العجوز .

فصاح الامير :

- انك كاذب . لقد حدثني طويلا عن زوجتك وأولادك الذين لا وجود لهم
الا في رأسك ، وما انت الآن تحدثني عن امك .

- بلى يا صاحب السعادة ... اني وغد مجرم ... لقد كذبت فلا اولاد لي
ولا امرة . ولكن يشهد الله اني طالما كنت اريد ان اتزوج ، وافوم بواجبي
كرجل وكمواطن لا كسب احترام الناس واحترام السلطات ، ولكن الظروف
عاكستني يا صاحب السعادة وكان علي ان اربح خبزي بدمي ، وكانت تحبط بي
المغريات في كل خطوة ، وكذلك الاعداء في كل سبيل ... ان حياتي اشبه
بزوجة او زورق تتقاذفه الامواج وتبعث به الرياح ... اني رجل
يا صاحب السعادة !

وانفجر تششيكوف باكياً ، وجثا على قدميه أمام الحاكم العام ناسياً بزيته
الجديدة الفاخرة وصدارته الحمالية وربطة عنقه الزرقاء وشعره المعطر بالكلونيا
ولامس الارض بحبيبه ، فصاح الحاكم :

- الى الخلف ... نادوا الجنود وقودوه الى السجن .

- يا صاحب السعادة .

وأمسك تششيكوف بجذء الحاكم العام فارتعش هذا غضبا وصاح :

- قلت لك الى الخلف ! ...

وحاول ان يخلص رجله من يدي بافل ايفانوفتش .

وصاح نشتشيكوف وهم يجرونه على الارض ، وقد تعفرت
جزته بالاقدار :

- لن اذهب يا صاحب المعادة قبل حصولي على العفو !

- قلت لك اخرج !

كان الامير يشعر بالاشمئزاز الذي يشعر به الانسان أمام حشرة يأنف
من سحقها . فسحب ماقه من يدي نشتشيكوف بعنف ، فاصيب وجهه الاخير
بركعة محترمة ، ولكن بافل ايفانوفتش لم يرد الاستسلام ، فجاء دركيان قويان
وجراه بالقوة خلال غرف القصر . وكان نشتشيكوف شاحب اللون لا يشعر
بشيء فبدا كأنه رجل يرى الموت الاسود الذي يهز فينا امماقتنا ..

وعند الباب المؤدي الى الدرج شاهد نشتشيكوف موزاروف فثبث في عينه
بارق أمل .. عند ذلك افلت من بين يدي الدركيين وارتنى على اقدام
العجوز المذهول :

- ماذا اصابك يا بتيوشكا بافل ايفانوفتش ؟

- انقذني .. انهم يقدرونني الى السجن .. الى الموت .

ولكن الدركيين جراه بقوة دون ان يسمحا له بتابعة الحديث . ووضع
بطلنا في زنزانة قدوة رطبة ملئت باحذية الفلاحين البالية ، وكان فيها اطلال
طاولة مخلفة وخيال كرسيتين ونافذة صغيرة ومدخة تملأ الزنزانة بالدخان . ولم
يستطع نشتشيكوف في عجلته ان يجلب معه الاشياء الضرورية التي تلزمه ولا
الصندوق الذي يحتوي على نقوده . وليس من رغب في ان اوراقه وعقود بيع
النفوس الميتة قد وقعت في ايدي الحكومة . وارتنى بافل ايفانوفتش على الارض
وقد اعتراه قنوط هائل ، وكان واضحاً ان الموت سيدهمه اذا استمر على هذا
الوضع يومين متواليين . ولكن هناك روحاً حارسة تسهر عليه ، فلم تنقض
ساعة حتى فتح باب الزنزانة ودخل موزاروف .

ولو ان حاجاً احرقه الظمأ وفقد القوى ، ثم شعر بالماء البارد العذب يسيل في

فمه ، لما شعر بالفرح أو القبضة التي شعر بها تششيكوف المسكين .
فصاح وهو يفتقر :

— يا خلصي ليباركك الله على زيارتك لشقي بئس .

ثم أمسك بيد العجوز وقبلها وضغط بها على صدره .. وانفجر باكياً . انظر
اليه موزاروف متألماً وقال :

— آه يا بافل ايغانوفتش .. يا بافل ايغانوفتش ... ماذا فعلت ؟

— لم استطع المقاومة ، ولم أعرف كيف أقف عند حد .. لقد أغراني
الشیطان الملعون وافقدني عقلي .. لقد أخطأت ولكن كيف يستطيعون ان
يتصرفوا هكذا ؟ كيف يوففون نبیلاً دون تحقيق أو محاكمة ويلقون به في
السجن ؟ بلى نبیل یا افناسي سيليفتش .. كيف لا يعطوني المجال للعودة الى منزلي
وجاب لوازمي .. لقد تركت كل شيء مفتوحاً بما فيه صندوقي الذي يحوي جميع
ثروتي التي جمعتها خلال سنوات قاسية حرمت نفسي فيها من كل شيء . صندوقي
یا افناسي فاسيليفتش ، انهم سبسرقوني .. آه يا رب .

ولم يعد ان يسيطر على اعصابه ، فانفجر باكياً من جديد .. ولكن بصوت
عال جداً ، وانزع ربطة عنقه وأمسك بطرف معطفه الفخم ومزق قطعة من
القماش الأبيض .

— كيف اعمتك الثروة يا بافل ايغانوفتش ومنعتك من فهم الحالة الرهيبة
التي انت فيها ؟

فصاح بافل ايغانوفتش في يأس :

— انقذني يا خلصي .. ان الامير يحبك ولا يرفض لك طلباً !

— لا يا بافل ايغانوفتش .. لا استطيع انقاذك ، حتى ولو اردت ذلك !

فأنت لست في قبضة رجل فرد بل تحت قبضة القانون !

— ان الشيطان اللعين قد افقدني عقلي !

وضرب تششيكوف رأسه بالجدار ثم ضرب الطاولة بقبضة يده فأدماها ،

ولكن يبدو انه لم يشعر باي ألم .

— هدى . روعك يا بافل ايضاً فاقش ، وفكر ان تتصالح مع ربك لا مع الناس .. فكر في روحك النعمة !

— ما هذا الحظ يا افناسي فاسيليفتش .. لم يصادف انسان قط حظاً سيئاً كالخط الذي لازمني .. تصور الصبر والجهد الذي ابديته حتى جمعت الكوييك فوق الكوييك بعوق الجبين ، فاني لم اسرق خزينة الدولة كما فعل الآخرون . ولماذا كنت ارجب بالمال ؟ لأحبا بطمأنينة بقية ايام الحياة ! لأتركه لزوجتي واولادي .. ولهذا السبب وحده ضلت سواء السبيل . بلى اني اعترف بذلك ولكنني ما فعلت ذلك الا عندما ايقنت ان الطريق السواء لا يوصلني الى هدي ، فانحرفت ، ولكنني لم آخذ إلا من الاغنياء .. وماذا نقول عن هؤلاء الاثقياء الذين يسرقون في المحاكم ألوف الروبلات من الخزينة ويأخذون آخر كوييك من الذين لا يملكون شيئاً ؟ .. ما هذا الحظ السيء ؟ في كل مرة أكاد احصد فيها ثمرة جهودي تهب في وجهي العاصفة فأفقد كل شيء . لقد كنت أملك ثلاثمائة ألف روبل وبيتاً بثلاثة طوابق وقربة اشتريتها مرتين .. آه يا افناسي فاسيليفتش لماذا كل هذا الحظ السيء ؟ اني اجهد نفسي دوماً في مهب انعواصف .. فأين ، أين العدالة الالهية ؟ أليس ثمة مكافأة للصبر والعمل المستمر . لقد كتب علي أن أعاد البناء ثلاث مرات بعد كل مرة أخسر فيها كل شيء . لقد بدأت بالكوييك وفي الوقت الذي بصبح فيه غري سكيراً خاملاً كنت أناضل وأنالم وأربح كل كوييك بالجهد والعمل .. لقد جمع الآخرون ثرواتهم بسهولة .. اني وجدت ، كما يقول المثل ، كل كوييك مسمراً على الارض بمسار ثمة ثلاثة كوييكات وكان علي أن أظهر إرادة حديدية كي أنتزع المسار وأحصل على ذلك الكوييك ! ومن جديد أخذ تشتبكوف يجيش بالبكاء ، ثم نهالك على كرسي ومزق في حالة يأسه وألمه معطفه الفخم وقذفه على الارض ثم أخذ ينتزع شعره ناسياً الجهود التي كان يبذلها للتنمية وتصنيفه متمتعاً بألمه مؤملاً ان يدفن بذلك آلامه

النفسية . أخذ موزاروف يتأمل فيه طويلاً ! لقد كانت المرة الاولى التي يرى فيها رجلاً صحقته مثل هذه الظروف المؤسفة ، وفقد سيطرته على نفسه... ولقد كان تششيكوف . ذلك الرجل الاجتماعي البشوش ، يزحف أمامه على الارض بمزق الثياب قدراً دامياً القبضة لاعتنا القوى المعادية للانسان !

— آه يا بافل اي فانوفتش .. يا بافل اي فانوفتش اي رجل كان يقودوك ان تصبغه لوسخرت كل هذا الصبر والقوة والدأب من اجل الخير .. ومن اجل الهدف الشريف ! يا آلمي كم كنت تستطيع ان تفعل من المبرات .. لو كانت للذين يقومون بالاعمال الخيرة نفس الارادة التي تسخرها لكسب الكوييكات ، ولو كان هؤلاء يعرفون كيف يضعون بكرامتهم وكبرياتهم ، ويقسرون على أنفسهم كما فسوت على نفسك لكسب الكوييكات .. لو حصل ذلك بالفعل ، اذن لتغيرت الارض بمن عليها .. آه يا بافل اي فانوفتش ، لست متألماً لانك مجرم بحق الناس بقدر ماانا متألماً لاجرامك في حق نفسك .. وفي حق المواهب التي تملكها .. ان لديك من هذه المواهب ماهو كفيلاً يجعلك رجلاً عظيماً ... ولكنك خسرت نفسك وان للنفس أمرارها الغامضة . قابل رجلاً انحرف عن جادة الطريق واقترب اقسى الجرام وفقد وجدانه الاخلاقي ، قابل مثل هذا الرجل المنحط وجرب ان تلومه على ذنوبه ، واتهمه بأنه قضى على مواهبه وصفاته الطيبة .. افعل هذا ! اذن لو وجدت شيئاً ما في اعماق نفس هذا المسكين الشقي قد تحرك واختلج :

وقال تششيكوف المسكين وهو يمسك بيدي موزاروف :

— آه يا أفنامي فاسيليقتش ، لو استطعت ان اعود حراً ، ولو ترده ثروتي الى .. واذن فأنا اقسم لك بأني سأعيش على صورة اخرى .. انتقذي ايها المحسن .. وحماك انتقذي !

— وماذا يقودوري ان افعل ؟ هل أناضل ضد القانون . وحتى ، لو أخذت ذلك على عاتقي ، فان القضية بيد رجل عادل لن يتراجع عن حكمه مطلقاً !

— ايها المحسن ! انك تستطيع ان تفعل كل شيء .. ان القانون لا يجبرني فاني
أجد وسائل أذاع بها عن نفسي أمام القانون ، ولكني ألقيت في السجن ظلماً
وسأموت كالكلب الحفيظ ... و ثروتي .. واوراقي ... وصندوقتي ... انقذني
ايها المحلل !

و ضم تششبكوف ركبتي العجوز وبللها بالدموع .
فقال موزاروف وهو يمز رأسه أسفاً :

— آه بابافل اي فانوفتش .. يا بافل اي فانوفتش .. لقد أعماك المال و خنق
صوت ضميرك ..

— سأفكر في ضميري فيما بعد .. ولكن انقذني الآن !

— ليس في مقدوري بابافل اي فانوفتش ان أنقذك وسأعمل كل ما أستطيع
ليخففوا من عقابك وليطلقوا سراحك ، ولكن هل أنجح ؟ في الحق لا أدري ،
الا اني سأسعى واذا أنجحت فاني أطلب اليك ان تكافئني بالتخلي عن هذه
المناورات من أجل المال .. واني اقول لك اني لو فقدت ثروتي ، وهي اضعاف
ثروتك ، فلن ابكي عليها .. وما اهمية الثروة التي يمكن ان تنقذ في كل لحظة
وتبذر ؟ .. هناك ثروة لا يستطيع احد حرمانك منها ! لقد رأيت مايكفيك لتفهم
الحياة ، وقد شئت نفسك ، من تلقاء نفسك ، بمركب تنقذه الامواج وتنتعنه
اللبحج ، ولديك من المال مايكفيك لقضاء بقية أيام حياتك . فاذهب الى بقعة
هادئة نائية قرب كنيسة وعش مع أناس بسطاء أنقياء القلوب ، واذا أردت ان
يكون لك اولاد فتزوج من فتاة طيبة ليس لديها ثروة ، ومعنادة على الحياة
البسيطة المتواضعة . انس العالم ومغرباته فانه بدوره ينساك ، والعالم لا يقدر على
منعك السلام إذ ان كل شيء فيه فاسد وقبيح و ...

— أجل .. اني أقسم لك ، .. لقد كنت أريد .. كنت ارجو ان
أبدل حباتي وأن أصبح ملاكاً صغيراً .. بسيطاً متواضعاً ، ولكن الشيطان
أضلني ، لقد اغراني اللعين !

كانت مشاعر غامضة محاولة تستيقظ في اعماق تششيكوف .. عميقة بعيدة
الغور ، خنقتها منذ طفولتها التربية القاسية الفاسدة والافتقار الى الحب والعطف
الذين يحتاج اليها الاطفال ، وحجبها الفقر المدقع والانطباعات الشقية الناعسة
الاولى ، والقدر القاسي الذي نفذ اليها وغشاها بظلمه .

وتنهذ تششيكوف ، ويتم وهو يغطي وجهه بيديه : « انها الحقيقة ، انها
الحقيقة » ...

وقابع موزاروف :

.. هكذا فان معرفتك بالناس وتجاربك العديدة لم تساعدك على الخروج
عن الطريق السيء .. آه يا بافل ايغانوفتش .. لماذا أضعت حياتك ؟ استيقظ ..
لم يفت الأوان بعد ، امامك الزمن ..

فستم بطلنا بلهجة مزقت قلب موزاروف :

.. لا .. لقد فات الأوان .. فات الأوان .. لقد بدأت أفهم ! أشعر الآن
الآن باني لست على الطريق المستقيم .. لقد ضللت وأصبحت بعيداً جداً ، ولن
استطيع النكول .. لقد ربيت تربية فاسدة جداً ، كان أبي يلقني دروساً في
الاخلاق ويضربني ويرغمني على نسخ الامثال والحكم وفي نفس الوقت كان
يسرق أخشاب جيرانه ويجعلني شريكاً له في سرقة .. لقد فسق بيتيما كان هو
نفسه وصياً عليا .. ان المثل السيء او الصالح أقوى من الكلام المنق .. أجل
يا افناسي فاسيليفتش ، ارى الآن وأحس بأني لا أحيا حياة مستقيمة ، ولكني
لا أشمئز من الخطيئة ، فطبيعتي فاسدة ، وانا لا اعرف حب الخير ولا اشعر
برغبة في الحياة الصالحة ، بل اركض وراء الثروة لا وراء الخير .. اني أقول
الحق .. فما العمل ؟

فتنهذ المعجوز بعنف وقال :

.. لديك يا بافل ايغانوفتش قدرة كبيرة على المثابرة .. ولديك إرادة من
فولاذ .. ان الادوية مرة المذاق ولكن المريض يتناولها لان الشفاء يستحيل

بدونها .. انت لا تشعر بحب الخير .. أعماله دون حب ، وارغم نفسك على عمله
إرغاماً ، واذا فعلت تكون اكثر فضلاً ، وستكون لديك الشجاعة التي تفوق
شجاعة الرجل الفاضل بالطبع اخضاعاً مضاعفة !- افعل ذلك مرات عديدة يدخل
الحب قلبك .. صدفي انه لا شيء يدرك دون جهد . ويقول المثل : « يجب
غزو التاج ولكن الجهد ضروري للوصول اليه .. » يجب إذن ان تناضل
وتهاجم وتنافح .. ولديك قوتك الصلبة يا بافل ايقانوفتش ، تلك القوة التي
لا يملكها الآخرون .. لديك الارادة والعزم ، فلماذا لا تربح هذه الجولة في
صراعك مع نفسك ؟ ان لديك نفسية البطل ، ورجال اليوم ضعاف فاترو العزم .
اثرت هذه الكلمات في نفس تششيكوف تأثيراً عميقاً ، وكانت نظراته تعكس

تصميماً او شيئاً يشبه التصميم . وقال بصوت ثابت :

« إذا استطعت ان تنفذني يا افناسي فاسبيلفتش ، واذا استطعت ان اغادر
هذا البلد بثروة صغيرة فانا اعاهدك على اني سأبدأ حياة جديدة .. فأستري قرية
صغيرة واصبح ملاكاً متواضعاً ، واقتصد في مصروفي لا لأثري ولكن لأساعد
أشباهي ، وسأعمل الخير بكل ما أملك من قوى ناسياً اني نبي ، هاجراً مباحج
المدينة وحفلاتها ، واعيش بكل بساطة ونقى !

فهتف العجوز وقد تهلل وجهه بالسعادة :

« فليمدك الله بالقوة لتنفيذ ما صممت عليه .. سأسعى لدى الامير كي يطلق
سراحك ، والله وحده يعلم عما اذا كنت سأنجح في مساعي ام لا ، وعلى اي
حال سيجسئون في معاملتك .. عانقني إذن ودعني اقبلك فكلما نك سرتني ..
وليكن الله معنا ، سأذهب الى الامير لتوي .

وظل تششيكوف وحده مع نفسه .

ان البلاطين ، وهو اصلب المعادن ، يابن آخر امره تحت تأثير النار القوية
فبياض ثم يصبح سائلاً . وهكذا فان اكثر الناس تعالماً يلين ويميع امام هب
الهن القوية التي تحرق طبيعته المتعجرة .

وقال تششيكوف في نفسه : « اني انسان عاجز . . . عديم الحس . . .
ولكني سأستعمل كامل قواي كي أدل الآخرين على الخير . . . اني ميء وشقي
ولكني سأستخدم كل جهودي لأجنب امثالي الشر . . . ما أنا بالمسيحي الصالح
ولكني سأساعد قريبي كي لا يسقط في التجربة . . . سأستغل بعرق جيني في
قريتي وسأكون شريفاً في معاملاتي ، لاجدث التأثير الحسن على من حولي . . .
ولماذا لا أكون عضواً نافعاً ؟ لدي كثير من المعلومات في أمور الزراعة ،
وانا نشيط وحريص ، عاقل ومثابر ولكن يجب أن أتسلح
بالادارة والحزم ! »

هكذا كان يفكر تششيكوف . . . وأضاء وجهه نور عذب ، وبدأ أن
روحه قد بدأت تدرك ان هناك واجباً على الانسان أن يقوم به . . . وانه
بالامكان تأديته في جميع وحتى في العزلة . . . ومهما كانت الشروط والعقبات
والفوضى والاختلال في مجتمعه الذي يعيش فيه . . .

وحلم بأفل ايفانوفتش بحياة العمل بعيداً عن ضجيج المدن الكبرى وعن
مغرياتنا الحقاء التي خلقها الانسان بإبتعاده عن قانون الواجب . . . وارتسمت
هذه الحياة في مخيلته بقوة حتى لقد نسي تششيكوف هول الحالة التي يعانيها
وكان مستعداً لأن يشكر العناية الالهية على هذه المحنة القاسية شرط ان يستعيد
حريته ويحصل على قسم من ثروته .

وفتح باب الزرانة ودخل موظف يدعى ساموسفستوف وهو رجل ابيقوري
عريض الكتفين قوي طيب المعشر و « حيوان لطيف مأكراً » كما يسميه
أصدقاؤه .

ورجل من نوعه يمكن أن يقوم ايام الحروب بالمعجزات فهو يستطيع ان
يدخل اي مكان مهما كان خطراً او منيعاً ، بل ان يسرق مدفعاً تحت سمع
العدو وبصره .

ولكن عدم وجود ساحة قتال يمكنه العيش كجندي شريف جعل منه

وغداً في الحياة المدنية . والغريب انه ذو مبادي، اذ هو طيب مع اصدقائه ...
لا يجنون احداً منهم ويفي بجميع وعوده ولكنه كان يعتبر رؤسائه كمعسكر معاد
تجب مهاجمته وتشويه سمعته والاستفادة من أبسط أخطائه . وما إن أغلق الباب حتى
قال لتشنشيكوف :

— نحن نعلم الحال الذي انت عليه ... وهذا لا يعد شيئاً ... لا تفقد
شجاعتك فستدبر كل شيء ، سنعمل من اجلك ومن أجل خدمك ولن نطلب
منك أكثر من ثلاثين ألف روبل فقط دون زيادة كوبيك واحد .
فهنف تشنشيكوف :

— أحقاً ... وهل أخرج بريئاً ؟

— تماماً وستدفع لك تعويضات !

— والتمن ؟

— ثلاثون ألف روبل عن كل شيء ... ويدخل فيهم مساعدو
الحاكم والسكرتير .

— ولكن اسمع لي ... كيف أستطيع ؟ ان حوائجي ... وصندوقي كلها
مصادرة ومخومة ...

— ستحصل عليها كلها بعد ساعة واحدة ... هل اتفقنا ؟

وصافح تشنشيكوف ساموسيفستوف وكان قلبه يخفق بشدة إذ لم يستطع أن
يصدق أن كل هذا ممكن .

— الى اللقاء اذن ... ان صديقنا الذي يشترك معنا في هذا العمل بوصي بالصمت
النام وحضور البديعة .

فقال تشنشيكوف :

— نا ... لقد فهمت ... انه الحامي

واخفى ساموسيفستوف وعندما أصبح تشنشيكوف وجيداً خيل اليه انه
يحمل ، ولكن لم تمر ساعة حتي حملت اليه حوائجه بما فيها الصندوق والاوراق ولم

ينقص منها اي شيء

لقد حرص سامو سيفيستوف على الذهاب بنفسه الى منزل تشنشيكوف وأخذ الصندوق واستولى على الاوراق التي يمكن ان يدان بها بافل ابغا نوفيتش ، وولفها في حزمة ثم طلب من جندي ان يحملها اليه قائلاً له :
« انها حاجات ضرورية للسجين في الليل » .

وهكذا حصل تشنشيكوف على حوائجه كلها وأصبح لديه لباس دافئ يقبه برد السجن ... وشعر بالفرح بغمره ، وعادت تهاجمه الاحلام من جديد ، وبهتت في مخيلته صورة القرى والهدوء والانفزال لتحل محلها صورة المسارح والاعياد والحفلات وضجيج المدن .

وفي تلك الاثناء كانت قضية تشنشيكوف تأخذ دوراً كبيراً في المحاكم وجميع المكاتب الادارية . اذ اخذت الاقلام تحدث صريراً عن احتكاكها بالورق في حين ينفق التبغ بكميات وافرة بينارؤوس الموظفين المساكن تنعب وتشتغل . وكانت الفصول الطويلة تنضم الى بعضها في مسودة الورق وتنفصل . . . وكان المحامي كسحابة غير منظورة يهين على جميع هذه التدابير ويخلط بين جميع الخيوط فيزيد بذلك الارتباك والغموض .

واما سامو سيفيستوف فقد كان جريئاً وقحاً . لقد علم ابن وضعت المرأة شريكة تشنشيكوف فذهب بجراة اليها وعرف كيف يتحدث الى الحارس كسيد آمر مما جعل يبدي له جميع ضروب الاحترام .

— هل انت هنا منذ زمن طويل ؟

— منذ هذا الصباح يا صاحب السعادة

— انا في حاجة اليك وسأطلب الى الضابط ان يستبدل بك آخر سواك .

— كما تشاء يا صاحب السعادة

وعاد سامو سيفيستوف الى بيته وبما انه لم يكن يريد ان يشرك احداً في

هذه العملية فقد تكرر بشكل دوري ووضع شاربين طويلين وسالفين مستورلين .. فلم يعد الشيطان نفسه بقادر على تمييزه .. وعاد بعد ذلك الى السجن وحل مكان حارس شريكة تثشيكوف مدعياً انه بديله . ثم اعتقل اول امرأة شاهدها في الطريق . وبعد لحظات معدودة هربت الشريكة ولم يعلم انسان قط اين اختفت ، بينما كانت الفلاحة المسكينة تأخذ مكانها في الزنزانة دون ان تفهم شيئاً من القصة .

وفي الوقت الذي كان سامويف يستوف يمثل فيه دور الدركي ، كان المحامي يحقق معجزات اخرى ، فقد ذهب الى الحاكم العام وقال له ان المدعي العام قد أرسل تقريراً ضده الى بطرسبرج ، ثم سارع الى قائد الدرك وقال له ان موظفاً مجهولاً يتهمه في كتاب سري بأخطاء جسيمة . وقد قام المحامي بهارة حتى جن الجميع خوفاً وأخذوا يطلبون معونته ونصحه . عند ذلك بلغت الفوضى ذروتها وانهارت الوشايات واكتشفت فضائح لا يستطيع عقل بشري ان يتصورها كما اخترعت الى جانبها فضائح أخرى .. ففلان ولدغبر شرعي والآخر له عشيقة .. وهذه المرأة تخدع زوجها ، وامتزجت الفضائح والقبايح مع قضية تثشيكوف والنفوس الميتة الى حد انه لم يعد في مقدور انسان ان يعرف او يحكم على أهمية كل من هذه القصص .. واخيراً وعندما وصلت جميع الوثائق الى الحاكم العام ، اصبح الامير المسكين غير قادر على فهم شيء واحد . وكاد أذكرى موظف عنده ، كلف بتلخيص الوثائق ، ان يفقد عقله ، اذ كانت من المستحيل اكتشاف خبط واحد من النور .

وكان الحاكم العام علاوة على ذلك يروح تحت ثقل هموم اخرى فقد كانت المجاعة منتشرة في قسم من حكومته ، وكان الموظفون الذين ارسلهم لتوزيع القمح قد ارتكبوا اخطاء جسيمة .. وفي بعض المقاطعات كان بعض الانفصاليين ثائرين اذ انتشرت بينهم شائعة مفادها ان عدو المسيح قد ولد على الارض وانه يزعج الموتى بشرائه النفوس الميتة وبيعها . واخيراً فقد قام قسم آخر من

الفلاحين في مقاطعة اخرى بشـورة وعلى أسبـادهم وعلى البـوليس ، اذ ان بعض المـشردين استطاعوا اقـتـصاعهم بأن لهم الحق في ان يـصـبحوا ملاكـين يلبسون القـرو ويجعلون السادة يـزـرعون الارض بدورهم . وكذلك رفضت منطقة اخرى ان تدفع الضرائب وهددت باستعمال السلاح فكان يجب اللجوء الى الجيش . . وهكذا كان الامير بائداً .

وفي ذلك الصباح أعلن له عن مجيء موزاروف فأمر بادخاله . وما إن دخل العـبـوز حتى هـنـف الحاكـم :

— انه جميل . . صاحبك تشنـشـيكوف . . ونجـرؤ ايضاً على الدفاع عنه . . هو لص لا مثيل له .

— اسمـح يا صاحب السعادة ، اني لا أفهم القضية جيداً .

— هو متهم بتزوير وصية .

— لست أدافع عن بافل ايـفـانوفتش يا صاحب السعادة ، ولكن التحقيق لم يستكمل شروطه بعد .

— عندنا الادلة اللازمة . . انتظر قليلاً سأدعو المرأة التي شاركت في جريـمته وسأستجوبها امامك !

وقرع الاخير الجرس وامر باستدعاء المرأة فصمت موزاروف . وهنـف الامير :

— هذا فظيع . . وأشد من ذلك فـظـاءة أن جميع الموظفين الكبار بما فيهم الحاكم المدني نفسه ، لهم علاقة بالقضية . . هل لاحظت . . ان الحاكم المدني نفسه شريك اللصوص والمزيفين ؟

— ان للحاكم حقاً في الارث . . أما بالنسبة للآخرين فهذا طبيعي . هناك امرأة غنية تـموت دون ان تترك وصية معقولة . . لقد طالب الكثيرون بحقوق في الارث ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للنفس الانسانية . فصاح الامير مغتاضاً :

– ولكن لماذا يرتكبون هذه الدفءات؟ .. ان جميع موظفي لصوص .
 – أتعرف يا صاحب السعادة رجلاً واحداً خالياً من الخطيئة ؟ ان لموظفي
 مدينتنا مزايام ، فهم يقومون بواجبهم ، ولكننا جميعاً غير معصومين عن الخطأ !
 – اسمع لي يا افناسي فاسيليفتش .. انك الشريف الوحيد هنا ، ولكن قل
 لي لماذا تصر دوماً على الدفاع عن المجرمين ؟
 فأجاب موزاروف :

– مهما يكن الانسان الذي تدعوه مجرمًا ، يا صاحب السعادة ، فانه مع
 ذلك انسان . وكيف لا ندافع عن الانسان عندما نعلم ان نصف الذنوب
 والاعطاء التي يرتكبها تعود الى جهله .. نحن نرتكب اخطاء في كل خطوة من
 خطواتنا ، ونكون في كل لحظة سبباً في شقاء احد اشبأهنا ، وحتى عندما
 تكون نيتنا سليمة .. وانب نفسك يا صاحب السعادة لقد كنت ظالماً في
 يوم من الايام :

فهتف الامير مذهبولاً :

– وكيف ذلك ؟

وقال موزاروف بعد لحظة تفكير :

– تذكر قضية در بنيكوف ..

– ان الخروج عن القوانين الاساسية للامبراطورية معناه الحياة .

– أنا لا ألتمس له الاعتذار ، ولكن أمن العدل ان نحكم على شاب جر الى

الجريمة جرأ ، بنفس القسوة التي نحكم فيها على المجرم نفسه ؟ .. ان الحكم على
 دربنيكوف كان يجب ان يكون غير الحكم على فوردون ، إذ ان الذنب
 ليس واحداً .

فهتف الامير وقد ظهر عليه التأثر :

– يا الله ! ولكن أتعرف شيئاً عن هذه القضية : .. لقد كتبت الى بطرسبرج

طالباً تخفيف العقوبة :

- لا يا صاحب السعادة ، فانا لا أعلم شيئاً نجعله ، ولكن هناك ظرفاً كان يمكن ان يكون من صالح درنيكوف لم تقنني ملاحظته .. ولكن هذا الأخير كان سبب رفض استعمال هذا الظرف خوفاً من ان يسبب الحكم على شخص آخر .. واني أسمع لنفسي بان اقول لك انك تسرعت اكثر مما ينبغي .. اعذرني يا صاحب السعادة ، فانا احكم على الامور ببساطة من خلال ذكائي .. وانت نفسك كثيراً ما رجوتني ان اتحدث اليك بصراحة .. اني رئيس ، ولدي كثير من العمال وفيهم الطيب والشرير ، فعلينا دوماً ان نتفحص ماخي الانسان ... لأنه اذا أهمل بحث الامور يهدوء أو إذا غضب فانه يخيف المتهم فلا يحصل منه على اعتراف صحيح . ولكن اذا توجهنا اليه بلطف وأخوة فانه سيأمر الى الموثوق بنا ولن يطلب منا اذ ذاك اي تخفيف لعقوبته ، لانه يعلم ان القانون هو الذي يعاقبه لا قريبه .

وفكر الامير قليلاً ثم قال :

- قل لي بنفسك يا افاناسي فاسيليفتش . ايجب ان أطمس القضية ، وهل من العدل العفو عن هؤلاء المجرمين جميعاً .

- العفو ... ولكن هناك بين الموظفين ، يا صاحب السعادة ، من هم أهل للاحترام والتقدير ... ان ظروف الحياة كثيراً ما تقسو على الانسان يا صاحب السعادة ، .. وهناك حالات يبدو فيها الانسان مجرماً ولكن اذا درسنا القضية بعين نرى انه لاجرمية هناك .

- ولكن ماذا يصنعون اذا تركتهم وشأنهم ؟ سيصبح بعضهم اكثر غوراً ، وسيقولون بأني خفت منهم ولن يحترموا بعد ذلك شيئاً !

- اسمح لي يا صاحب السعادة ان أدلي اليك برأيي : اجمعهم كلهم هنا وافهمهم بأنك تعرف جميع اخطائهم وجرائمهم ، وصف لهم الحالة التي تجر نفسك فيها ، واطلب منهم ان يقولوا لك ماذا سيفعلون لو كانوا في مثل موقفك !

- ولكن أعتقد أنهم قادرون على فهم مثل هذا الشعور ، وهم الذين اعتادوا

على الكذب والتآمر ... انهم سيسخرون مني .

- لا اعتقد ذلك يا صاحب السعادة ، ان الانسان مهما كان منحطاً ، فانه يحتفظ بشيء من العدالة ... وربما شذ عن ذلك اليهودي المتصلب ، ولكن الروسي لا يفعل ذلك ... لا يا صاحب السعادة ، لا فائدة من اخفاء شيء عنهم ... بل هم يعتبرونك اذ ذاك كرجل متكبر طموح واثق من نفسه يحتقر من هم دونه .
فأجاب الأمير حالماً :

- سأفكر يا افنامي فاسيليفتش واني شاكر لك نصحك !

- وتشتشيكوف يا صاحب السعادة ... اطلق سراحه ؟

- قل لتشتشيكوف هذا أن يغادر المدينة دون تأخير الى ابعد مكان ممكن . وغادر موزاروف الامير وذهب توجاً الى تشتشيكوف فوجد بافل اي فانوفتش في حالة جيدة وقد انتهى من تناول وقعة طعام فاخرة أرسل من يشتريها له من المطعم المجاور . ومنذ الكلمات الاولى فهم موزاروف ان بافل اي فانوفتش استقبل موظفاً صديقاً وان المحامي الذي تعرفه المدينة بأسرها بهم بأمره فقال له :

- اصغ الي يا بافل اي فانوفتش ... لقد جئت لأعلمك بانه قد أطلق سراحك شريطة ان تغادر المدينة فوراً ، فاحزم حقائبك بأسرع ما يمكن ولا تضع دقيقة واحدة لثلا يفسد الامر ... لقد استقبلت رجلاً أحدث في نفسك تأثيراً . انا عالم بذلك ولكنني اندرك بأن قضية رهينة متهاً وان يستطيع شيء ان ينقذ هذا الرجل ... انه شقي يسر بتضليل أشباهه وهو يلهو ، ولكنه سيدفع بلا ريب ثمن خطيئته ... لقد تركتك منذ ساعات في حالة نفسية غير تلك التي اجدك الآن عليها ... اني امر لك نصيحتي الاخيرة فاستمع لها ، لست مزحاً ، يجب ان تنسى الثروات العديدة الجدوى التي يختصم عليها الناس ويقتتلون معتقدين انهم يستطيعون تكوين سعادتهم في هذه الدنيا دون الاستعداد للحياة الابدية ... ومهما كنت تعتقد فان الجسد متعلق بالروح دوماً .. انس يا بافل

ايفانوفتش نفوسك الميتة ولو مرة واحدة ، ولكن اعمل . من اجل نفسك الحية
وليساعدك الله على اتباع النهج الويم وانا اذكرك الآن بائي ذاهب وانت هنا
بدو في ستهلك لاحالة .

وخرج العجوز بعد هذه الكلمات وبقي تشتشيكوف يفكر ... واخذ من
جديد يتأمل في المعنى العميق للحياة وقال : « ان موزاروف على حق ، وقد
آن لي ان اغير مجرى حياتي ! »

وبعد لحظات غادر بافل ايفانوفتش السجن يتبعه جندي يحمل له صندوقه
وحاجاته ، وكما كان فرح سليفان وبتروشكا عظيما باطلاق سراح سيدهم
الذي قال لها :

- هيا يا صديقي الصغيرين ... أعد كل شيء وبسرعة كي ترحل من هنا .
فهتف سليفان :

- ستكون رحلتنا جيدة ، فالطريق جميل ولاسبا بعد ان غطته الثلوج ...
لقد آن لنا ان نهرب من هذه المدينة اللعينة ، وانا شخصياً لم أعد استطيع حتى
مجرد النظر اليها ، أجل لقد سئمتها كثيراً .

وقرر تشتشيكوف ان يرحل دون ان يودع احداً ، ذلك انه لم يعد يستطيع
ان يشاهد أبا كان بعد الشائعات التي دارت حوله . فاجتنب كل لقاء ممكن ،
وذهب بسرعة الى التاجر الذي اشترى قماش يزنه الفاخزة التي مزقها في السجن .
واشترى منه قماشاً مماثلًا ثم هرع الى الحياط وناوله الاجر مضاعفاً كي يسرع له
في العمل . فاشتغل عماله طيلة الليل على ضوء الشموع وانتهوا من عملهم في الصباح
الباكر ، وكانت العربية معدة وكل شيء ينتظر .

واراد تشتشيكوف مع ذلك ان يجرب البزة ؛ كان المعطف جيداً كما عطف
السابق ، ولكن لموه الحظ لاحظ تشتشيكوف وهو يتأمل نفسه في المرآة
ان رأسه قد صلع قليلاً . . . ففكر : « لماذا يشتت البارحة ... ولماذا
اقتلعت شعري .

وأخيراً رحل !

ولكن تشتشيكوف الذي كنا نعرفه قد زال من الوجود ، وبافل ايفانوفتش الذي نعرفه الآن ليس الا خرائب واطلال كالمنازل المتداعي ، ولكن المواد الاولية ما زالت موجودة لاعادة بنائه ، الا ان المهندس غير موجود ولذلك فان العمال ينتظرون قبل مباشرة العمل .

وكان موزاروف قد غادر المدينة قبل تشتشيكوف بساعة واحدة ، وبعد ان رحل بافل ايفانوفتش بساعة واحدة ايضاً استدعى الامير جميع موظفي المدينة الى اجتماع فوق المعادة لانه يريد ان يراهم قبل ان يذهب الى بطرسبورج .

* * *

اجتمع الموظفون في قاعة قصر الامير الكبرى من الحاكم العام الى الحاكم المدني الى اصغر موظف في السلك . وكان الى جانب هؤلاء رؤساء المصالح والدوائر والمستشارون وكسيلاودوف وساموسفيستون وكراستونوف . . . وكان ايضاً جميع الذين يقبلون الرشاوي ويرفضونها ويطلبونها والذين يعلمون دوماً ضد ضميرهم دون أي تردد ..

وكان الجميع قلقين ينتظرون الحاكم العام ... ووصل أخيراً الامير وكان يبدو عليه البرود ، وكانت نظرقه ثابتة كمثبته ، فجاء جميع الموظفين وانحنى بعضهم كثيراً جداً ، فأجاب عليهم بحركة خفيفة من رأسه ثم بدأ كلامه فقال :

- اني ذاهب الى بطرسبورج ... وقد رأيت من واجبي ان ادعوك جميعاً قبل ارتحالي ... وسبب هذا الاجتماع لا يخفى عليكم دون ريب ... لقد حصلت قضية ماثنة وأدعي التحقيق فيها الى اكتشاف فضائح أخرى لا تقل عنها ندالة ، يدان فيها اشخاص كنت اعتقد انهم شرفاء . وقد علمت بالاهداف السرية التي يهمل لها بعضكم ، اذ يخلطون الامور ويتآمرون كي يجعلوا حكم السلطة في

هذه القضايا مستحيلا ... وأنا اعرف المسؤول الرئيسي عن هذه الاعمال بالرغم من انه بذل أقصى الجهود لاختفاء تصرفاته ... واخيراً وكى لأضيع الوقت سدى ، سأوقف التحقيق وسأحيل هذه القضايا الى المجالس العرفية حلها بعد ان اعلن حالة الحصار التي أرجو ان يوافقني القيصر عليها . فعندما تعجز العدالة المدنية وعندما تتراكم الأكاذيب وتحترق الملفات العامة بالوثائق ... وعندما يحاول الجميع ان يوقعوا الارتباك في قضايا غامضة بحذاتها ... عند ذلك كله لا اجد طريق للسلام الا المحكمة العسكرية . وقد جئت لأخذ رأيكم .

وسكت الامير كما لو كان ينتظر جو بينما احتفظ ابا الموظفين بالصمت خاشعي الابصار شاحبي الوجوه ... وتابع الامير :

- ومع ذلك فقد نجحت في اكتشاف مؤامرة من نوع خاص بالرغم من ان مرتكبها لايزالون يعتقدون حتى اليوم بأن احداً لايعرفها . ولن يتم التحقيق في المكاتب بعد الآن لاني سأقوم بهذا التحقيق بنفسى وسأقدم الادلة بنفسى ايضاً لأدانة الاشخاص

ارتعش موظف اثناء الاجتماع واضطرب عدة موظفين .

فتابع الامير :

- من الطبيعي ان يفقد المجرمون مكانتهم الاجتماعية واملاكهم ووظائفهم وسيضرب امره الحظ بعض الابرياء ولكن ما العمل ؟ .

لقد استشرى الشر ويجب ان تأخذ العدالة مجراها ... انا اعلم ان مقطوكم من يفيد كأمثلة لمن سيأتون بعدكم ... فأشرف الموظفين يصبحون أذنياء ، وسيخدعني الذي أثق بهم ومع ذلك يجب ان أنصرف بقوة لاث العدالة يجب ان تسير في مجراها ، ولذا سأجعل من نفسي آله صماء تطيح بالرؤوس تحت راية العدالة .

وارتجف جميع الموظفين .

اما الامير فقد كان هادئاً ولم يعبر وجهه لاعن الغضب ولا عن الحنق ، ثم تابع :

- والآن لتعلموا هذا ... ان الذي في يده جميع مصائركم في هذه المقاطعة، وان الذي لا يلبث امام توصلاتكم... انه بنفسه يتوصل اليكم ان تتحدثوا اليه ... ان كل شيء سينسى وسأدافع عنكم اذا وافقتم على اجابتي الى ما أريد ... اما هذا الرجاء فهو :

اني اعلم انه لا يوجد قصاص او تهديد قادر على نحو الظلم في الارض. ان جذوره عميقة جداً وجميع الموظفين يقبلون الرشوة .. لقد اصبحت الرشوة عادة حتى بالنسبة للذين ولدوا شرفاء .. ومن المحال ان يقاوم الانسان تيارها .. ولكن بما ان المواطن مطالب في الساعات الحرجة الفاصلة ان يتخذ وطنه ولو رأى نفسه مرغماً على التضحية بكل شيء . بما ان الامر كذلك فأنا أتوجه الى الذين في صدورهم قلب روسي صحيح ، والى الذين يفهمون معنى الشرف . ماذا يفيدنا ان نتسائل من الاكثر جرماً بيننا؟ وانار بما ارتكبت من الاخطاء اكثر بما ارتكبتموه ، وربما استقبلتكم بالرهبة والبرود في اول عهدكم بالعمل ، وربما جعل موقفى هذا ، بعض الذين يريدون خدمتى ان يتراجعوا .. ومع ذلك فلو أنهم ارادوا بالفعل ان يخدموا العدالة ويعملوا لسعادة وطنهم ... لو انهم ارادوا ذلك لحنقوا كرامتهم الفردية . وعند ذلك لابد ان يؤثر في عنادهم فاستمع في يوم ما الى نصائحهم المخلصة العاقلة . اني اعتقد بان الرؤوس هو الذي يجب ان يكبح جماح شعوره . وليس الرئيس مرغماً على الخضوع لحالات مرؤوسيه النسبية، وهذا شيء مشروع لان الرئيس واحد فرد بينما مرؤوسيه عديديون .

ولكن لندع التساؤل عن اكثرنا ذنباً ، فان الامر يتعلق بانقاذ وطننا ... ان هذا الوطن لا يتلقى الضربات من عشرين شعب عدو ولكنه يموت تحت وطأة ضربات ابنائه ... ان رجل الدولة مهما كان عاقلاً ماهراً فإنه لا يستطيع ان يستأصل الشر حتى ولو راقب ابسط الموظفين . لقد اصبح هؤلاء قوة يؤبه لها

... لقد أصبحوا دولة ضمن دولة ، وحكومة داخل حكومة الامبراطورية ..
وسيبقى كل مجهود باطلا اذا لم يفكر كل منا كما فكر ايام الغزوات الكبرى ،
فأن عليه المناضلة ضد الفساد .

اني اتوجه اليكم كما يتوجه الروسي الصمبي الى الروس . اتوجه الى جميع
الذين يعرفون معنى نبيل القلب والفكرة . وادعوكم جميعاً الى تذكر الواجب
المقدس الذي يقع على عاتق كل انسان فوق ظهر البسيطة .



دار الينظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ببيروت

اصدرت من

سلسلة عميون الادب العالمي

- ١ - الأم ، لمكسيم جوركي
- ٢ - المؤلفات الكاملة ، لأنطون تشيخوف
- ٣ - تولستوي ، لستفان زفايج
- ٤ - روائع من الادب الألماني
- ٥ - نيتوتشكا ، لفيدور دوستويفسكي
- ٦ - قوري كالموت ، جلي ده موباسان
- ٧ - الأخوة كرامازوف ، لفيدور دوستويفسكي
- ٨ - الساقطون ، لمكسيم جوركي
- ٩ - عقل وعاطفة ، جلين أشتن
- ١٠ - بين جوركي وتشيخوف
- ١١ - إبنة الضابط ، لألكسندر بوشكين
- ١٢ - حياة صاحبة ، جلي ده موباسان
- ١٣ - حب وحرب ، لرومان رولان
- ١٤ - الجريمة والعقاب ، لفيدور دوستويفسكي
- ١٥ - بين الناس ، لمكسيم جوركي
- ١٦ - الساعة الخامسة والعشرون ، لكونستانثان جيبورجيو
- ١٧ - النفوس الميتة ، لنيقولا جوجول
- ١٨ - مرتفعات ويذرينج ، لاميلي برونتي